عمر الخيام

عصرا وبيئة ونتاجا

تأليف

الدكتور/ أحمد كمال الدين حلمي

الأستاذ بجامعة الكويت

الناشر

مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع

الكويت



عُمَرُ الخَيَّام

عصراً وبيئةً ونتاجاً

صف وطبع هذا الكتاب بمكتبة ومطبعة الخانجي
ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ = ١٩٩٤ م

رقم الإيداع ٩٤/٦٤٠
الترقيم الدولي
I.S.B.N
977-505-095-3

عمر الخيام

عصراً وبيئة ونتاجاً

تأليف

الدكتور/ أحمد كمال الدين حلمي

الأستاذ بجامعة الكويت

الناشر

مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع

هاتف ٢٦٦٤٦٢٢٦ - ص.ب ٢٦٢٢٣، الصفاة 13123، الكويت

إهداء

إلى حفيدي الثاني .. سيف الدين

أنبته الله نباتاً حسناً ونفع به عباده ..

أ . د . أحمد كمال الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزى القارئ

ها هو كتاب آخر أضعه بين يديك راجيا أن أكون قد أضفت به لبنة إلى صرح الدراسات الشرقية الذى أرجو أن يزداد شموخا .

لقد سبقنى العديدون إلى الكتابة حول الخيام ورباعياته ..

فأفدت منهم ، وأضفت ما هدانى إليه فكرى ، نتيجة ترجمتى المنظومة لثلاث وخمسين رباعية للخيام .. ترجمتها عن أصلها الفارسى ، وقراءتى المتأنية لمعظم رباعياته وأعماله ، واطّلاعى على ما كُتِب عنه قديما وحديثا .. مما توفر لى باللغات التى يمكنني الترجمة عنها .

وقد استعرضت الترجمات فى أكثر من لغة ، وأبديت رأيى فيها ووازنت بينها ، بعد أن كتبت حول عصر الخيام من شتى نواحيه .. على نحو لم أُسبق إليه .

وكنت فى كل ما كتبت : أكاديميا أُثبِت المراجع والمصادر .

وقد اقتربت بعملى من الكتاب المدرسى إلى جانب كونه مرجعا يتناول الخيّام : عصراً وحياةً ونتاجاً .

ختاما .. أرجو من الله التوفيق .. وإلى لقاء .

د . أحمد كمال الدين

أستاذ الفارسية وآدابها

جامعة الكويت

١٨ / ٧ / ١٩٩٣

البابُ الأوّلُ

عصر الخيام

الفصل الأول

النَاحِيَة السِيَاسِيَّة

عاش الخيّام فى عصر السلاجقة ، وغَشِيَ مجالس سلاطينهم ، وخالط عظماءهم وخاصّتهم وعامّتهم ، وجالس علماءهم ، وناقش مفكّريهم ، وتعرض لمدح معاصريه وقدحهم ، وانفعل بما شهد من أحداثٍ فجادت قريحته برباعيّات معبرة .. عكست أحاسيسه ومشاهداته .

والسلاجقة طائفة من الأتراك الغزّ مسلمة سُنيَة ، نزحت من صحارى تركستان ، وألقت عصا التسيار فيما بين بلاد ما وراء النهر وديار (الخزلخ) الترك المسلمين ، فجاورت بذلك الدول الإسلامية التى استقلّت فى إيران : السامانيّة والغزنويَة والخانيَة . وحين سمح السامانيون للسلاجقة بعبور بلادهم .. استقر بهم زعيمهم « سلجوق بن تقاق » قرب نهر سيحون ، فاتّخذوا من (جَند) قاعدة لهم ، وكوّنوا جيشا كبيرا .

وحين مات الزعيم تاركاً وراءه أربعة أولاد : اسرائيل وموسى بيغو ويونس وميكائيل ، تزعّمهم « اسرائيل » . وأحسّ « محمود » – سلطان الغزنويين – بخطر السلاجقة .. فسجن اسرائيل وكبار أتباعه ظناً منه أن ذلك يفلّ شوكتهم . ومات اسرائيل فى الأسر ، فواصل السلاجقة مسيرتهم بقيادة « ميكائيل » . وسمح لهم محمود – دون تبصرة بالعواقب – بالمرور من دياره والاستقرار فى خراسان .

وتوفى محمود عام ٤٢١ هـ = ١٠٢٩ م ، فتولّى ابنه « مسعود » الحكم وبدأت المناوشات بين السلاجقة والغزنويين ، وانتهت بسيطرة السلاجقة على خراسان . واختاروا « طغرل بك » زعيماً لهم ، فتمكّن من الجلوس على عرش مسعود سلطاناً فى نيسابور عام ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م ، فكان بذلك المؤسس

الحقيقى للدولة السلجوقية . واعترف به الخليفة « القائم بأمر الله » سلطاناً عام ٤٣٢ هـ = ١٠٤٠ م [١] .

وفى عام ٤٣٣ هـ = ١٠٤١ م أسقط طغرل بك الدولة الزيارية . ثم ضمّ خوارزم إلى ممتلكاته وأخضع الرى واتخذها عاصمة ، واستولى على قزوين وأبهر وزنجان ، وأخضع أمراء الديلم ، وسيطر على إيران كلّها تقريباً . وفى عام ٤٤٢ هـ = ١٠٥٠ م قضى على الديالمة قضاء مبرماً [٢] ، وفى عام ٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م قضى على الدولة البويهية [٣] فى بغداد .

وكان المملوك « « أبو الحارس البساسيرى » – قائد الجيش التركى فى بغداد – يسيّر دفة الأمور دون « القائم بأمر الله » ، ويتّصل بمعسكر الفاطميين فى مصر ، ويهمّه إحلال الخليفة الشيعى مكان السنى ، فسهّل الخليفة للسلطان طغرل بك دخول بغداد . فلما قرأ الخليفة الخطبة باسم طغرل ورأى البساسيرى أن خطته قد فشلت .. هاجم الموصل بمساعدة « المنتصر بالله الفاطمى » وهى آنذاك تابعة لطغرل ، فبدأ الصراع بين حماة السنة وحماة الشيعة . وهاجمه طغرل ففرّ ، ثم عاد فاحتل بغداد واضطر الخليفة العباسى للفرار ، وقرئت الخطبة باسم المستنصر عام ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م ، فهاجم طغرل بغداد وقتل البساسيرى عام ٤٥١ هـ = ١٠٦٢ م ، وأعاد الخليفة العباسى وخطبته ، وتزوج ابنته عام ٤٥٤ هـ = ١٠٦٢ م . ومات فى العام التالى عن عمر يبلغ السبعين ، بعد حُكمٍ دام ٢٦ سنة ، فتنازع العديد من الراغبين فى الحكم [٤] .

---

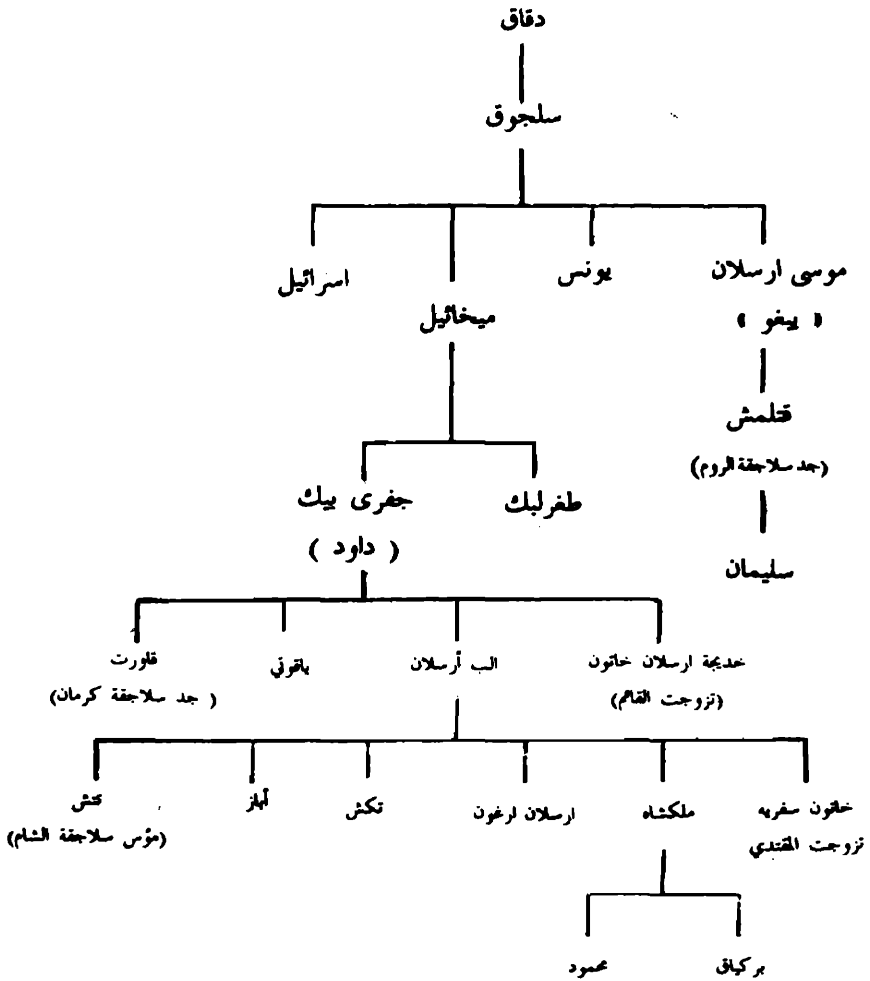
(١) تاريخ البيهقى (تاريخ مسعودى) ، جـ ٢ ، ص ٦٧٣ ؛ راحة الصدور وآية السرور ، ص ١٠٠ – ١٠١ ، لب التواريخ ، ص ١٠٥ .

(٢) السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٢٨ .

(٣) مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٠ .

(٤) هناك خلاف حول تاريخ الوفاة ، لكن عام ٤٥٥ هـ هو أرجح التواريخ فى رأيى .. أنظر : لب التواريخ ، ص ١٠٥ ؛ طبقات ناصرى ، ص ٢٥٢ ؛ السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٣١ .

شجرة بأهم سلاطين السلاجقة



واستقرّ الأمر « لألب أرسلان » دون أخيه الصغير « سليمان » ، واتخذ الرى عاصمة . وضمن استقرار بلاد ما وراء النهر وخراسان ، فبدأ فى فتح البلاد المسيحيّة وغير الإسلاميّة على وجه العموم . وأخضع بلاد الروم (آسيا الصغرى) فدخلتها الحضارة الإسلامية والحضارة الفارسيّة . وانتصر على الخانيين قبل أن يقتله قائد إحدى القلاع المفتوحة عام ٤٦٥ هـ = ١٠٧٢ م [١] .

وجلس ابنه « ملكشاه » على العرش فى نيسابور ثم الرى ، وقضى على منافسيه [٢] ، وحافظ على ميراث أجداده ، وبسط نفوذ السلاجقة فى مختلف أجزاء العالم الإسلامى ، وسيطر على الأقطار غير الإسلامية .. التى كان للرومان فيها اليد العليا ، وفى عهده وصل نفوذ السلاجقة حدود الصين والهند ، وامتد من كشغر فى الشرق إلى سواحل البحر الأبيض (أنطاكية) وشمل إيران بأسرها وما وراء النهر وآسيا الصغرى والعراق والشام ، وباتت هذه الدولة الإسلامية مصدر رعب يهدد العالم المسيحى .

ونتيجة لازدياد خطر « الاسماعيلية » [٣] فى عهد ملكشاه ، واغتيال أفرادِها العظماءَ من السنّة ممن يقفون فى طريقها .. لقى وزيره « نظام الملك » مصرعه فى العاشر من رمضان عام ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م ، كما لقى السلطان مصرعه بعده بشهر تقريبا [٤] ، ففصل مصرعاهما بين عهدين ؛ عهدِ تماسك

---

(١) تاريخ كَزيده ، ص ٤٣٣ .

(٢) لمعرفة التفاصيل ، أنظر :
تاريخ سلجوقيان كرمان ، ص ١٣ ، راحة الصدور ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٣) لمعرفة الكثير عن هذه الطائفة .. ارجع إلى :
السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، الفصل التاسع ، ص ١٦٧ - ١٨٧ .

(٤) هناك من يقول إنه مات مسموما ، ومن يقول إنه مات ميتة طبيعية :
(الكامل ، حوادث ٤٨٥ ؛ تاريخ آل سلجوق ، ص ٥٨) ، وإنى أرجّح وفاته مقتولا استناداً إلى بيت نظمه الشاعر أوحد الدين الأنورى - كبير شعراء بلاط السلطان سنجر - وقال فيه صراحة .. أثناء مدحه ملكشاه بن سنجر بن ملكشاه :
- إذا كان مأتم سنجر قد جدّد ذكر قتل ملكشاه .. وأحياه ، فإنك عِيدُ ذلك المأتم وفرحه .. أيّها المعظّم ملكشاه

السلاجقة واتّحادهم وعهدِ فرقتهم وتفككهم [١] .

وتنازع ولدا ملكشاه : « بَركِيارُق » و« محمود » ؛ فجلس أولهما على العرش فى أصفهان والثانى على العرش فى بغداد بموافقة الخليفة « المقتدى بالله » . وانتهى الأمر بسلطنة بركيارق [٢] . ومات الخليفة بعد اعترافه بسلطنته بيوم واحد ، فاعترف به الخليفة الجديد .

وتنازع أبناء نظام الملك على الوزارة ، فتسبّب النزاع على العرش والوزارة فى انصراف السلاجقة عن الفتوحات .

وعاد النزاع على العرش حين نادى « محمد بن ملكشاه » – الأخ غير الشقيق لبركيارق – بأحقيّته بالعرش ، وتحارب الأخوان خمس مرات [٣] قبل أن يتصالحا عام ٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م بصورة نهائية ، ويقسّما المملكة بينهما . وفى العام التالى مات بركيارق ، فسمل محمد عينى « ملكشاه الثانى » بن بركيارق ، وأقصاه عن طريقه [٤] ، وجلس على العرش دون منازع .

وتجزّأت الدولة ، فأصبحت أجزاؤها الشرقية « لسنجر » – الأخ الشقيق لمحمد – والشمالية لمحمد ، والشام لأبناء « تتش » ، وآسيا الصغرى لأبناء « سليمان

= النص الفارسى :

ماتم سنجر اكر قتل ملكشاه تازه كرد أى ملكشاه معظم سور ماتم تويى

وقد أثبتُّ فى رسالتى للدكتوراة وعنوانها :

« الأنورى عصره وبيئته وشعره » أن الأنورى وُلِد عقب مصرع ملكشاه بسنوات قليلة ، ولابد أنه سمع ما كان يتردّد حول ذلك الأمر .

(١) يمكن الوقوف على مظاهر هذا التفكّك بالرجوع إلى :
مختصر تاريخ الدول ، ص ٢٤٣ .

(٢) لم يكن عمره حين توليته الحكم يزيد على ١٣ عاما ، مما جعل القوم يعلّقون التاج على العرش فوق رأسه لثقله إشفاقاً عليه .

(٣) دارت المعارك فى السنوات ٤٩٣ هـ = ١١٠٠ م ، ٤٩٤ هـ = ١١٠١ م ، ٤٩٥ هـ = ١١٠٢ م ، ٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م ، وقد تصالح الأخوان بعد المعركة الثالثة ، لكنهّما استأنفا الحرب فى العام نفسه .

(٤) تاريخ الأدب فى إيران من الفردوس إلى السعدى (الترجمة العربيّة) ، ص ٣٧٧ .

ابن قتلمش » ، وكرمان وتوابعها لسلاجقة كرمان من نسل « قاورد » .. وكان لكلّ حاكمٍ السيطرة المطلقة على إقليمه .

وحارب محمد الاسماعيلية بعنف ، وقتل « عطّاش » قائد قلعتهم (شاهدُز) الواقعة قرب أصفهان ، عام ٥٠١ هـ = ١١٠٧ م بعد حصار طويل ، كما قتل وزيره « سعد الدولة » لاتّصاله بهم [١] .

وفى عام ٥١١ هـ = ١١١٧ م مات السلطان محمد ، فجلس ابنه « محمود » على العرش – وعمره أربع سنوات – واعترف به الخليفة . لكن سنجر – وكان وقتها يحكم خراسان وما وراء النهر من قبل أخيه الشقيق محمد – اعترض على ذلك ، ونصب نفسه سلطانا باعتباره الوريث الشرعى الوحيد لأخيه ، فوُجِد سلطانان فى وقت واحد ، وانقسم السلاجقة إلى قسمين متمايزين :

أ – سلاجقة الشرق أو سلاجقة خراسان ، وسلطانهم سنجر بن ملكشاه .

ب – سلاجقة الغرب أو سلاجقة العراق ، وسلطانهم محمود بن محمد بن ملكشاه .

وتحارب المعسكران عام ٥١٣ هـ = ١١١٩ م ، ودخل سنجر (همدان) ففرّ محمود ، واعترف الخليفة بسنجر سلطانا . وعطف سنجر على ابن أخيه فأنابه عنه فى العراق [٢] ، فحكمها ١٤ سنة بلقب سلطان . وقد سُمى سلاجقة خراسان بالسلاجقة العظام لأن سلاجقة العراق – رغم استقلالهم – كانوا يعترفون لسنجر بالزعامة ، كما كان الخليفة بدوره يعترف له بها .

وقد أعاد سنجر للدولة هيبتها فأعاد عهد السلاجقة العظام أمثال طغرل وألب أرسلان وملكشاه ، بل إن نفوذه قد شمل كثيرا من البقاع بصورة لم تتيسر

---

(١) للوقوف على تفاصيل فى هذا الشأن ، ارجع إلى :
فارسنامه (أثناء الحديث عن ارجال وجيلويه) ؛ السلاجقة فى التاريخ والحضارة ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) تحدّث دولتشاه عن هذه الحوادث بالتفصيل ، وعمد إلى المبالغة وأخطأ فى تحديد تاريخ المعركة التى دارت بين سنجر ومحمود .
تذكرة الشعراء ، ص ١٣٠ .

هؤلاء الحكّام ، ولذا استحق لقب (آخر السلاجقة العظام) . وقد أصبحت خراسان فى عهده كعبة القصّاد ومركز العلم والأدب . وكان هو شخصيا يحترم علماء الدين كثيرا ويتقرّب إليهم ، ويميل إلى الزهّاد والأبدال ويختلى بهم ، ويجمع حوله الشعراء ويغدق عليهم .

وانتصر سنجر فى معارك عديدة [١] قبل أن يُهزم على يدا (الخطا) الكفّار ساكنى ما وراء النهر عام ٥٣٦ هـ = ١١٤١ م ، وقد أُسِرت زوجته وقُتِل الآلاف من أتباعه ، وفَقَد فى معركة واحدة اثنى عشر ألفاً من ذوى العمامات ، واستولى « كورخان » – زعيم الخطا – على مرو وَسَرَخس ونيسابور وبَيْهق .

وأخيرا كُتب له الانتصار على الخطا [٢] ، وتوالت انتصاراته قبل أن يتعرّض لأقسى هزيمة على يد طائفة من التركمان تُدعى (الغُز) ؛ فقد وقع هو وزوجته والعديد من أمرائه فى أسرهم ، وتعرّضت بلاده لتدميراتهم ، وشعبه لتعذيبهم . وقد عمد الغز إلى قتل الكثير من العلماء والأئمة والقضاة والأعيان ، واستولوا على كل ما وقعت عليه أيديهم [٣] .

وفى فترة الأسر التى دامت ثلاث سنوات ، تولّى الحكم « سليمان شاه » (ابن أخى سنجر) .. لكن الغور أوقعوا به الهزيمة وانتهى الأمر بسجنه . وتولى الحكم « محمود بن محمد » (ابن أخت سنجر) ..لكنّه لم يحرز انتصاراً على الغز .

---

(١) يرد فى كتب التاريخ أن سنجر خاض – منذ تولى ملك خراسان من قِبَل أخيه بركيارق وحتى انقضاء أربعين سنة من حكمه – ١٩ معركة ، لم يهزم إلاّ فى اثنتين منها ، وقد كانت هزيمته الأولى على يد الخطا والثانية على يد الغز .

(٢) لمعرفة تطوّرات الصراع بين سنجر والخطا ، ارجع إلى :
الأنورى : عصره وبيئته وشعره ، ص ١٢ – ١٦ ؛ ديوان أنورى ص ٦٤ ، ٦٥ ؛ السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٥٦ – ٦٠ ، سلاجقة إيران والعراق ، ص ١١٨ ؛ إيران ماضيها وحاضرها (الترجمة العربية) ص ٦١ ، تاريخ آل سلجوق ص ٢٥٣ ؛ راحة الصدرو ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ ؛ حبيب السِيَر ، جـ ٢ ، ص ٥٠٩ ، تاريخ گزيده ص ٤٩٩ ، لب التواريخ ، ص ١٠٩ ، الكامل جـ ١١ ص ٣١ ، ٣٣ ، (حوادث ٦٠٤) ؛ تاريخ أدبيات در إيران ، جـ ٢ ، ص ٩٠ ، ٩١ .

(٣) لمعرفة الكثير عن نشأة الغز ومناوءتهم للسلاجقة وأثرهم فى مسيرة الدولة السلجوقية ... ارجع إلى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، الباب الثانى ، الفصل السادس ، ص ١٣٥ – ١٤٦ .

وانتزع « آى آبه » – مملوك سنجر – بعض ما بيد الغور ، وقتل العديد منهم . كما استولى المملوك « ايتاخ » على الرى وما جاورها ، وهزم الاسماعيلية عام ٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م ، وأهلك أعيانهم وسادتهم ، وأسر عددا كبيرا منهم ، وأخلى قلاعهم ممن يحميها . ولولا انشغال الجند بالغز لكانت نهاية الاسماعيلية على يديه ، ولسقطت قلاعهم فى يد خصومهم دون تعب .

ورحل الغزّ عن خراسان فاستقرت الأمور نسبيا ، لكن الصراعات المذهبيّة وما نجم عنها من حرائق وخسائر تسبّبت فى القحط والوباء وهلاك الناس جوعا .

وفرّ سنجر من أسر الغز [1] ، واستقرّ فى عاصمته مرو ، وحاول الأخذ بيد البلاد فلم يستطع ، وسقط فريسة مرض عضال أودى بحياته فى عام ٥٥٢ هـ = ١١٥٧ م ، فتعاقب على منصب الحكم « محمود بن محمد » و« المؤيدآى آبه » و« سليمان شاه بن محمد » . ثم استطاع « علاء الدين تكش خان » – والى خوارزم – أن يوسّع رقعة الدولة الخوارزمشاهية على حساب سلاجقة إيران والعراق . وبمصرع « طغرل » السلجوقى عام ٥٩٠ هـ = ١١٩٤ م على يد تكش ، وسيطرته على مملكة العراق ، وإقرار الخليفة العباسى (الناصر لدين الله) له على هذا الموضع .. ابتلعت الدولة الخوارزمشاهية دولة السلاجقة فى كل من إيران والعراق .

والمتعمّق فى مسيرة السلاجقة التاريخيّة والمتتبع لها يأسف لقلّة المراجع التى تتناول أصلهم ومنشأهم بالبحث والاستقصاء ، ويلفت نظره كون هذه المراجع ضحلة يكتنفها الغموض ؛ ولعل هذا ما حدا بألب أرسلان إلى إصدار أمره إلى أحد الكتّاب بالبحث عن أصل قومه ، وتأليف كتاب فى ذلك الصدد . وقد تصدّى الكاتب لهذا الشأن فألّف كتابا أسماه « ملك نامه : كتاب الملك » ،

---

(١) اهتم الجوينى وذبيح الله صفا بشرح تفاصيل خطّة الفرار :
جهانكشا ، حـ ٢ ، ص ١٢ ، ١٣ ، تاريخ أدبيات در إيران ، جـ ٢ ، ص ١٥

غير أنه ضاع ولم يبق منه سوى ما أثبته بعض المؤرخين فى أعمالهم [١] .

ونفيد مما ورد فى الكتاب أن يهوديا من أمراء الخزر قد تعهد « دقاق » بالرعاية ، وقلّبه فى المناصب إلى أن جعل منه قائدا لجنده ، فلما مات دقاق حوّل الأمير اهتمامه إلى ولده « سلجوق » ، وأخذ يرعاه إلى أن كبر ، فأسند إليه قيادة قسم من جنده . وأحس سلجوق بأن زوجة الأمير تكيد له وتحرّض زوجها على طرده [٢] ، فقرر الابتعاد عن بلاد الترك . وخاطب فى ذلك أتباعه فأقرّوه على رأيه ، فاتجه بهم إلى (جند) على شواطىء نهر سيجون ، حيث كانوا يتخذون من (نوربخارا) منزلاً لهم فى الشتاء ، ومن (سغد سمرقند) منزلاً لهم فى الصيف [٣] .

غير أن هذا لا يعنى قلّة المصادر التى تحدثت عن السلاجقة بصفة عامة وقامت بالتأريخ لهم . ومن أهم الكتب فى هذا الصدد :

١ – راحة الصدور وآية السرور (أعلام الملوك) للراوندى ، المؤلف عام ٥٩٩ هـ = ١٢٠٢ م

٢ – عتبة الكتبة لمُنْتَجَب الدين بديع اتابك البويهى رئيس ديوان الإنشاء فى عهد السلطان سنجر .

٣ – مجمل التواريخ والقصص الذى ألفه أحد أهالى أسدآباد عام ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م .

---

(١) Claude Cahen : Pre - Ottoman Turkey , P.20 , London , 1955 .

(٢) Tamara Tablet Rice : The Seljuks , P.28 , London , 1961 .

(٣) كتبت بعض الكتب فيما بعد حول انفصال سلجوق عن أمير الخزر ، واختلف كتابها حول تاريخ هجرته عن مملكة الخزر .

انظر فى ذلك : تاريخ العراق فى العصر السلجوقى لياقوت بن عبد الله الرومى طبع بغداد ، عام ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م .

وللوقوف على معلومات جغرافية حول جند ونور بخارا وسغد وسمرقند يُرجع إلى : تقويم البلدان لعماد الدين اسماعيل ، طبع بغداد .

٤ – تاريخ سيستان وهو مجهول المؤلف . بدأه مؤلفه فى عام ٤٤٤ هـ أو ٤٤٥ هـ (١٠٥٢ م أو ١٠٥٣ م) .

٥ – تاريخ بيهقى لعلى بن زيد البيهقى المعروف بابن فندق . ألفه عام ٥٢٠ هـ = ١١٢٥ م .

وإلى جانب هذه المصادر التى ألفها أناس كانوا يعيشون فى كنف السلاجقة .. يوجد عدد كبير آخر من المصادر العربية والفارسية التى لا ينتمى أصحابها لهذا العصر . كما أن هناك بعض المصادر الافرنجية [١] .

ومما يلفت نظر الدارس أيضا أن احتكاك السلاجقة المتواصل بشعوب هذه المناطق الإسلامية قد هداهم إلى الإسلام . وقد حَسُن إسلامهم بعد أن كانوا يُعرفون أيام الفتوح العربية – فى القرن الثامن الميلادى – بالأتراك الكفار . واختار لهم زعيمهم « سلجوق » المذهب الحنفى ، فصاروا من أشد المتعصّبين للسنّة ، والمناصرين لخليفة بغداد . وجاء القرن العاشر ليتحدّث فيه المؤرخون عن هؤلاء البدو الرحّل بوصفهم من أكبر قبائل الترك حيويّة [٢] .

ومما يلفت نظر الباحث أنه برغم قوة السلاجقة – التى كانت تفوق قوة الخليفة العباسى – إلاّ أنهم كانوا يهتمون كثيرا بإكساب حكمهم صبغة شرعية عن طريق الحصول منه على اعتراف بسلطنتهم . ويكفى تدليلا على ضعف الخلفاء – إذا ما قورنوا بالسلاجقة – أنهم كانوا يلجأون إليهم يطلبون مناصرتهم والوقوف فى وجوه أعدائهم .

ومن أبرز ما قام به السلاجقة فى ذلك الشأن قضاؤهم على « أبى الحارث أرسلان البساسيرى » – مقدّم الأتراك فى عهد الخليفة القائم بأمر الله –

---

(١) لمعرفة الكثير عن هذه المصادر ومؤلفيها وتواريخ تأليفها .... انظر كتابنا : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ط ٢ ، ص ١٤ – ١٨ ، ٤٠٧ – ٤٢٢ ، الكويت ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م .

(٢) The Seljuks : 22 .

Carl Brockelman : History of Islamic Peoples , P.172 , London , 1956 .

الذى كان يناوىء هذا الخليفة ، ويتصل بالمستنصر الفاطمى ويتلقّى منه المدد فى محاولة لإنهاء الخلافة العباسية . لقد بلغت قوة البساسيرى حدّ أن قتل رئيس الرؤساء فى بغداد ، واضطر الخليفة إلى ترك البلاد ، وفَتَن العامة فكسب رضاهم وتأييدهم ، وامتدحه بعضهم علانية ، فقال « ابن بحر البغدادى » على سبيل المثال :

أجل لعمرى صدق القائل ... إنك حق وهُم الباطل
قد جاءت الرايات مبيضّة ... يقدمهن الأسد الباسل
أنظر إلى الباغى على جذعه ... والدم من أوداجه سائل [1]

ويلفت النظر أن السلاجقة الأتراك كانوا يعتمدون على وزراء من الفرس ، من أبرزهم :

(١) منصور بن محمد (عميد الملك الكندرى) المولود فى عام ٤١٥ هـ = ١٠٢٤ م فى قرية كندر من ضواحى نيشابور ، وقد مات هذا الوزير على يد نظام الملك مقتولا عام ٤٥٦ هـ .

(٢) خواجه نظام الملك قوام الدين أبو على الحسن بن على بن إسحق الطوسى ، المولود عام ٤٠٨ هـ = ١٠١٨ م فى قرية رادكان بطوس . وقد وزر للسلطانين : ألب أرسلان وملكشاه ، وكان العامل الأساسى فى نجاح سياستهما ، وتحقيق انتصاراتهما وفتوحاتهما [2] .

ولهذا يجب أن يعزى شموخ صرح الدولة السلجوقية إلى يقظتها وتوفيق بعض أبنائها فى اختيار وزرائهم . إذ لم يكن السلاجقة – وهم التراكمة الذين

---

(١) الموسوعة الإسلامية الفرنسية (مادة سلجوق) ؛
دمية القصر وعصرة أهل العصر لعلى الباخرزى ، جـ ١ ص ٣٧١ ؛ تاريخ الدولة السلجوقية لعماد الدين الأصفهانى .

(٢) انظر : الوزارة فى عهد السلاجقة ، تأليف عباس إقبال ، تعريب وتعليق د . أحمد كمال الدين ؛ كليات تاريخ إيران لشيرين بيانى ؛ تاريخ ابن عساكر لابن عساكر .

لا خبرة لهم ولا حضارة – ذوى كفاية أو دراية فى مجال السياسة . بل إن سنجر – أحد أعظم سلاطينهم – لم يتمكن من تعلّم القراءة والكتابة رغم حياته الطويلة فى إيران وديار الإسلام [١] .

كما يجب أن يكون واضحا فى الأذهان أن الصراع – الذى كان أحد العوامل الاساسية فى هدم هذا الصرح – لم يكن يدور بين أفراد البيت الحاكم وحدهم ، بل وبين الوزراء أيضا . لقد كان أبناء البيت التركى السلجوقى يتصارعون من أجل السلطنة ، وكان الوزراء الإيرانيون يتصارعون من أجل الوزارة .

ويلفت النظر كذلك بروز دور النساء فى هذا العهد ، وتحكّمهن فى العظماء ، وتدخّلهن فى شؤون السياسية على نحو مؤثّر . فنظام الملك الوزير الخطير والسياسى المحنّك – على سبيل المثال – يبعد عن الوزارة لرفضه رغبة « تركان خاتون » – ابنة طمغاج خان بن بغراخان – بتعيين ابنها الصغير « محمود » وليا لعهد زوجها « ملكشاه » ، وسعيه فى تعيين الابن الأكبر « بركيارق » ابن السلطان من زوجة أخرى . وتاج الملك « أبو الغنائم القمّى » يحلّ محلّ نظام الملك ، لأنه مقرب أثير لدى تركان خاتون .

وحين تُقرر تركان خاتون تعيين تاج الملك – بعد سفر ملكشاه إلى بغداد ووفاته المفاجئة – تتّضح آثار تلك السياسة .. إذ يتدخل غلمان نظام الملك ، ويقتلون تاج الملك ، ويقطعونه إربا إربا [٢] .

* * *

---

(١) أنظر : الوزارة فى عهد السلاجقة ، ص ٣٤٨ ، وزارت در عهد سلاطين بزرك سلجوق ، ص ٣٠١ ؛ سندباد نامه ، ص ٢٠ ، طبع استانبول باهتمام أحمد آتش ، ١٩٤٨ م ؛ تاريخ أدبيات در إيران ، جـ ٢ ص ٩٩٩ ، ١٠٠٠ .

(٢) وزارات در عهد سلاطين بزرك سلجوق ، ص ٥١ .

الفصل الثانى

الناحِيَة الإدارِيَّة

أحسّ السلاجقة برفعة شأنهم وعظيم قدرهم حين باتت دولتهم تنعم بتأييد الخلافة العباسية ، وصاروا قوة إسلامية لها وزنها فى العالم الإسلامى ، ومصدر رعب يهدد أعداء الإسلام .

وقد دفعهم هذا الإحساس إلى البحث عن الوسيلة المُثلى للمحافظة على مكاسبهم وأمجادهم . وهداهم تفكيرهم إلى إقرار نظم إدارية ، وتعيين موظفين ينجزون حوائجهم ، وعمال يسددون متطلباتهم ويساعدونهم فى الاحتفاظ بممالكهم الفسيحة .

ولما كان السلاجقة يفتقرون إلى الخبرة والثقافة ومعرفة القراءة والكتابة .. فقد استقطبوا الجزء الأعظم من موظفيهم فى الهيئات الإدارية من الإيرانيين الذين مارسوا العمل فى إدارات الدولة السامانية والدولة الغزنوية ، وعملوا فى خدمة الديالمة والخلفاء العباسيين ، فصارت لهم خبرتهم الكبيرة فى ميدانى الإدارة والسياسة . وهكذا استطاعوا بذكائهم أن يوفروا احتياجاتهم ، ويستروا جهلهم بالشئون السياسية والأعمال الإدارية ، ويشكّلوا إدارات تخدم كل مرافق الدولة .

وتؤكد كتب التاريخ أن السلاجقة كانوا لا يقبلون فى مجال الإدارة إلا من يقتنعون بكفاءته وعظيم خبرته ، وأنهم كانوا يبحثون بأنفسهم عن النابهين فى هذا الشأن . فقد وردِ أن « طغرليك » قد مرّ فى نيشابور بشيخ عالم يدعى الإمام « الموفّق هبة الله » ، وطلب منه شخصا فصيح اللسان بالعربية والفارسية ، فاختار له من بين تلاميذه فتى نابها لامعا قدّمه إليه ، تتوفّر فيه الميزة المطلوبة .

ولما كان الفتى الذى وقع عليه الاختيار – واسمه منصور بن محمد الكندرى – مازال صغيرا فقد أسند إليه وظيفة فى ديوان الإشراف ، ثم أسند إليه – فيما بعد – ولاية خوارزم . وقد ساهم الكندرى بنصيب كبير فى دفع عجلة الإدارة فى الدولة السلجوقية .

كما كان السلاجقة – إيمانا منهم بأهميّة الدور الذى تلعبه الإدارة – يشجعون على التأليف فى هذا المجال . فها هو محمد بن على بن محمد ابن الحسن الظهيرى الكاتب الإيرانى السمرقندى – أحد مشاهير المترسّلين فى العصر السلجوقى – يؤلّف بالفارسية كتاباً باسم « أغراض السياسة فى أعراض الرياسة » ، يجمع فيه لطائف كلام الملوك فى مجالى السياسة والإدارة – اللازمة لخدمة السياسة – ويقدّمه إلى « قلج طمخاج خان إبراهيم » . ومن المعروف أن هذا الكاتب قد ارتقى فى المناصب حتى شغل منصب صاحب ديوان الإنشاء لطمغاج خان .

وها هو السلطان ملكشاه يطلب من وزيره نظام الملك أن يضع له كتابا حول السياسة والإدارة ، فيضع أفضل كتاب فى الإدارة أيام السلاجقة ، ونعنى به « سياستنامه » [١] .

لقد كان نظام الملك يعمل فى الجهار الإدارى الغزنوى قبل أن يغشى الجهاز الإدارى السلجوقى ، ويصل إلى منصب كبير الوزراء . لهذا سهل عليه أن يكشف فى كتابه – الذى وضعه بالفارسية – عن مساوئ هذه الإدارة ، وأن يصوّر حالة الموظفين وتصرّفاتهم اليوميّة . ونتيجة لخبرته الكبيرة .. أكثر من إيراد الإرشادات الفنيّة فى هذا المجال ، وذكر اختصاصات السلاطين والقضاة والخطباء والمحتسبين فى المجال الإدارى وغير الإدارى .

ويفهم من الأخبار الواردة فى المصادر المتعلّقة بهذه الدولة أن نظام الملك كان له أثره الكبير فى التنظيم الإدارى للبلاد . وأنه كان يعتمد على عدد ممن عملوا فى الدواوين الغزنوية ، وعلى مجموعة من الموظفين درّبها وقرّبها لتكون تابعة له ، وعلى أبنائه وذويه وأصهاره . وكان مما ساعده على النجاح – إلى جانب خبرته الكبيرة – إشرافه بنفسه على كل ما يتعلّق بالإدارة .

ويلاحظ الدارس لهذه الفترة أن المركزية فى بغداد قد انهارت تماما ، وغدت

---

(١) لمعرفة الكثير عن « سياستنامه » ومحتوياته ومؤلّفه ... إرجع إلى كتابنا « النار تتكلم » ، الملحق .

تابعة فى إدارتها إلى رؤساء الدول الأخرى ، وأن الوزير السلجوقى نظام الملك – على سبيل المثال – كان يتدخّل فى تعيين وزير الخليفة وخلعه .

كما يلاحظ أن رئيس الدولة فى النظام الإدارى الجديد كان يحمل لقب (سلطان) ، ويكتسب صفته الشرعية من اعتراف الخليفة العباسى به ، وله عاصمة يتخذها داراً لمُلكه . وأنه كان المسئول عن السياسة العامة ، وإعلان الحرب ، وقيادة الجيوش ، وتعيين الحكام والقواد ، وإقطاع الأرض ، وفرض الضرائب ورفعها .

وكان من حق السلطان أن يعين عمالاً له فى أنحاء ملكه ، يلقّبون بالملوك ، وينعمون بالاستقلال الذاتى داخل ولاياتهم ، ويتوسعون لو أرادوا ، ويمتلكون ما يفتحونه من بلاد .. على أن يمدوا السلطان – وقت الحاجة – بجنودهم ، ويقروا بالولاء له والخضوع لسلطانه . كما كان يعين رؤساء الدواوين الإدارية وفق مراسيم يصدرها بنفسه .

وكان السلطان – شأنه شأن الخليفة – يرى أنه ظل الله فى الأرض ، وأن على الناس طاعته واحترامه .. فهو يصدر الأحكام بلا معقّب ، ويأتنس برأى وزرائه ومشورتهم دون التزام .

ولم تكن ولاية العرش وراثية ، بل كانت فرصة الجلوس على العرش متروكة لأقوى السلاجقة وأقدرهم على الدفاع عن عرشه .

وكانت إدارة البلاد فى يد خمسة أشخاص هم :

(ا) وزير البلاد القائم بشؤون الوزارة أو الصدارة ، ويعرف بـ(الوزير) أو (الصدر) أو (السيد الأكبر) أو (الدستور) . ويلى منصبه منصب السلطان ، كما أنه أقرب الخمسة إلى السلطان ، وأكثرهم معرفة بآداب الخدمة الملكية .

وكان من اختصاصاته الإشراف على كل مرافق الدولة ، وتقديم الرأى والمشورة للسلطان ، ومصاحبته بصفة دائمة . ولما كان السلطان يقربه ويتعامل

معه مباشرة دون سائر رؤساء الدواوين تقريباً .. فإن كرسّيه – لأهميته وخطورته – كان محل نزاع وتناحر وتنافس [1] .

(ب) رئيس ديوان الاستيفاء والقائم بشئونه ، ويعرف بـ(المستوفى) . وتلى منزلته منزلة الوزير فى السلّم الإدارى . ويرتبط عمله بالشئون المالية وبالحسابات ، فهو يقوم – بمعرفة نائبه وكتّابه – بضبط أموال الجيش والدولة .

(جـ) رئيس ديوان الطغراء ، ويعرف بـ(الطغرائى) . وكان يتعامل مع السلطان فى حدود توصيل الرسائل إليه ، ويتعامل مع الوزير لنفس الغرض . كما كان يتسلم مهامّه ويسد مسده إذا ما خرج برفقة السلطان لحرب أو صيد . وعن الطغرائى كانت تصدر الأوامر الموقّعة بخاتم السلطان والممهورة بخاتمه والمذيلة بشعاره . ويتبع ديوانه ديوانا آخر يسمّى (ديوان الرسائل والإنشاء) ، يشرف على جميع المكاتبات الرسمية ، وينظم علاقة الدولة فى الداخل والخارج ، ويديره شخص يلقب بـ(الوزير) أو (صاحب الرسائل) . ويعمل فى هذا الديوان جماعة تفترض فيهم السرية والكفاءة ، يطلق عليهم (المنشئون) أو (كتّاب الرسائل) ويتولّى هؤلاء تحرير المكاتبات الرسمية والفرامين والرسائل .

(د) رئيس ديوان الإشراف ، ويعرف بـ(المشرف) . ويختص ديوانه بضبط الحسابات والإشراف عليها ، والموازنة بين الصادر والوارد . وهو بوضعه هذا يعتبر متمما لديوان الاستيفاء . وإلى جانب الكتبة والمحاسبين الذين يعملون بهذا الديوان .. كان هناك نوّاب عديدون للمشرف ينتشرون فى كل ولاية لتجميع المعلومات وتسجيل البيانات .

(هـ) رئيس ديوان عرض الجيوش ، ويعرف بـ(العارض) . ويشرف هو ومعاونوه على تنظيم سجلّات الجنود وصرف مرتباتهم ، وعلى تسليح الجيش وتجهيزه وتموينه .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى للدكتور حسن ابراهيم حسن جـ ٣ ، ص ٢٢٥ ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٥٥ م .

ويلاحظ أن رؤساء هذه الدواوين كانوا يتخذون لهم نوابا . وأن جميع العاملين فى الدواوين كانوا يشتركون فى صفات هى التديّن وحسن السيرة ، والخبرة الواسعة ، والسريّة والكفاءة والنزاهة ، وسعة الثقافة ، وجمال الخط .

كما يلاحظ أن الوزير كان أكبر الإداريين نفوذا وأعظمهم شأنا ، بينما كان رئيس ديوان عرض الجيوش أقلهم نفوذا ، إذ أدى ازدياد أهمية قواد الجيش إلى ضياع نفوذه تقريبا (١) .

وإلى جانب المناصب التى كان يشغلها الرؤساء الخمسة الذين مرّ ذكرهم ، كانت هناك عدة مناصب إدارية لها قيمتها ، يعيِّن السلطان بنفسه أصحابها . وتعتمد أهمية المنصب على قرب صاحبه من السلطان وشدّة التصاقه به ، أو على تعامله المباشر مع العسكر أو الشعب .

والمناصب المعنيّة هى :

(أ) منصب الأمير الحاجب الكبير ، وهو نفسه منصب (حاجب سالار) الذى عرفه الغزنويون . ويشرف صاحب هذا المنصب على سير الأمور فى بلاط السلطان ، ويشكّل حلقة الاتصال بينه وبين الرعية ، ويقود جيوشه ضد المارقين والخارجين عليه ، ويتخذ له نائبا يعاونه ويساعده . وكان من سلطة الأمير الحاجب الكبير سماع أوامر السلطان مشافهة وإبلاغها إلى الوزير . وكان هذا المنصب وسيلة سريعة للثراء والشهرة والسطوة والنفوذ ، ولذا كان محط الأنظار ، وكان صاحبه قِبلة أصحاب الدواوين .. يستشيرونه فى شؤون – دواوينهم .. ولو عرّضهم ذلك لغضب الوزير . وقد بلغ الأمر ببعض شاغلى هذا المنصب حد التدخّل فى شئون الدولة وفى تعيين حكام الأقاليم ، ومناهضة السلاطين والتآمر ضدهم بغية القضاء عليهم (٢) .

---

(١) وزارت در عهد سلاطين بزرك سلجوق ، ص ١٨ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، بيروت ١٨٨٦ م ؛ راحة الصدور ، ص ٣٣٧ ، ليدن .

(ب) منصب وكيلدر السلطان ، وهو منصب خطير يقتضى من صاحبه ملازمة السلطان للوقوف على حالته المزاجية ، والالتصاق به لمعرفة عاداته وطباعه ... وبذا يُحسِن اختيار الوقت المناسب للحديث معه ، ويُقِدم على ما يرضيه ، ويبتعد عما يغضبه .

ويشترط فى صاحبه معرفة آداب الخدمة ، وقوة الحجة ، وطلاقة اللسان وبُعد النظر ، فقد يضطر لإقناع السلطان بأمر من الأمور .. فتكون هذه أدواته للإقناع .

(جـ) منصب الشحنة . وكان لصاحبه وضع المحافظ أو المتصرّف فى زماننا . كما كانت له مهمة رئاسة البوليس وإدارة المدينة والحفاظ على الأمن فيها .. ويرى البعض أنه منصب استحدثه السلاجقة ، غير أن هناك من يعتقد أن التسمية فقط هى المستحدثة ؛ إذ يرد فى كتب التاريخ أن كل أمير سلجوق كان له حرس وأتباع يرأسهم شخص يدعى (أمير الحرس) . وأن حاكم المدينة الرئيسية فى الدولة ورئيس قوة الأمن والنظام بها .. كان يُدعى (صاحب الشرطة) [١] .

(د) منصب العميد . يعاون صاحبُه الشحنةَ فى إدارة الولاية ، وفى توجيه القوات فى حالة الشغب .

(هـ) منصب الاسفهسالار . كان صاحبه يتقدّم الجيش السلجوق أثناء النزال . ولأهمية منصبه .. كان السلطان يعيّنه من بين من اشتهروا بالصراحة والقوّة والكفاءة ، متوخّيا فى الاختيار أن يكون الاسفهسالار على علم بطباع رجال جيشه وأخلاقهم ؛ إذ كان الجيش السلجوق خليطا من أجناس عدة ، يشكّل العنصر الهام فيها التركمان يليهم الأكراد فالمماليك . وكان على القائد أن يجيد التعامل مع كل جنس على حدة .

---

(١) د . عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ، مصر ، ١٩٥٩ م .

(و) منصب الأتابك : تسبب النظام الإقطاعى – الذى يعدّ أساس الملكية فى عهد السلاجقة – فى وجود هذا المنصب ، وفى ظهور نظام الأتابكيات . والاتابكية إمارة يقطعها السلطان لخواصّه ، خاصة المماليك السلاجقة الذين جىء بهم من القفجاق لتربيتهم فى القصور . وكان السلاجقة يقلّدونهم المناصب ويلحقونهم بالجيش ويمنحونهم أرفع الرتب ، ويسندون إليهم رياسة البلاطات ، ويطلقون أيديهم فيما يمنحونه لهم من إمارات . إلى أن جاء وقت قوى فيه نفوذهم ، فابتعدوا عن الإدارة السلجوقية المركزية ، وتوسّعوا على حساب الإمارات المجاورة لهم ، وتدخّلوا فى النزاعات التى تنشب بين الملوك والسلاطين ، وصاروا بمثابة أوصياء على العرش ، واتخذوا لأنفسهم ألقابا خاصّة [١] .

* * *

---

(١) يمكن الوقوف على الكثير من أخبار الأتابكة وإدراك أهمية هذا المنصب ، ومعرفة أشهر الأتابكيات وأخطرها فى العصر السلجوقى .. بالرجوع إلى :

السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، الباب الثانى ، الفصل السابع ، ص ١٤٧ – ١٥٧ ؛ ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ، ص ٢٨٤ ؛ كتاب النقض ، ص ٢٣ ؛ تاريخ ابن الوردى ، ص ٨١ .

الفصل الثالث

النَاحِيَة الاجْتِماعِيَّة

يتّسم عصر الخيام بصفة اجتماعية بارزة هي عدم الاستقرار . لقد كانت المرحلة السابقة لحكم السلاجقة أقلّ اضطرابا ، ولم يكن الوضع فى بداية تكوين إمبراطوريتهم على نفس الدرجة من السوء التى آل إليها فى عهود كل من قاورد وملكشاه وسليمان وتتش . وإذا كان الهدوء قد ساد بعدهم فترة فقد كان ذلك بمثابة تمهيد لاضطراب كبير تسبّب فيه بركيارق ومحمد بنزاعهما على العرش . وأعقب الاستقرار النسبى فى عهد سنجر خراب ودمار تعرّضت له خراسان أكثر من غيرها ، وقد انتهى بابتلاع الدولة الخوارزمشاهية للدولة السلجوقية . وخلال فترة الانتقال لم يكن لبعض المتآمرين من غلمان سنجر من هم غير إراقة الدماء والإغراق فى المظالم . ووجد بعض النساء الجرأة على التدخّل فى شئون الحكم ، وحاولن إدارة دفة الدولة ، وعمدن إلى القسوة والعنف [١] .

ونجم عن عدم الاستقرار سيطرة اليأس والتشاؤم على نفوس الناس عامة والشعراء خاصة ، فتناول شعرهم الزمان وتقلّباته ، وسيطرة الغلمان وسيادة القبائل الوحشيّة الصفراء ، وبزوغ نجم العوام وأدعياء الزهد والتديّن ، ورواج الفساد والكذب والتزوير وتفشّى القتل والسلب ، وتجويز الظلم والعدوان .. حتى ليقول أحدهم مظهراً فرط يأسه وعظيم تشاؤمه :

– إن الحقير والعظيم والشريف والوضيع كلهم حيارى متألمون ..

---

(١) تُروى عشرات القصص حول هذه المظالم وحول تدخّلات النساء ، وترد فى كتب الأدب أبيات يشكو أصحابها مرّ الشكوى من فساد الأوضاع ، ويعزونها إلى غضب الله على عباده لعدم تمسّكهم بالدين وتعاليمه .

أنظر على سبيل المثال : تاريخ أدبيات در إيران جـ ٢ ، ص ١١٤ ، ١١٥ ؛ جهانكشا جـ ٢ ، ص ٨ .

– إذا لم يلتق الأصدقاء بأصدقائهم فى زماننا فهم معذورون [١] .

ونتيجة لذلك لجأ الكثيرون إلى العزلة بصورة لم يكن لها نظير فى العهود السابقة ، ووجد التصوُّف مرتعا خصبا بين الساخطين على دنياهم .

ونتيجة لاختلاف الجنس التركى الحاكم عن الجنس الإيرانى المحكوم .. برزت العصبيّة العنصريّة ، وأخذت شكل التحقير وعدم الثقة من جانب الترك ، والنفور والاشمئزاز والخوف والرهبة من جانب الإيرانيين .

ومن الظواهر الخطرة آنذاك تفشّى المجون والاستهتار بالخلقيّات .. ويتمثّل ذلك فى شرب الخمر جهاراً ، وفى عشق الغلمان . وفيما يتعلق بالأمر الأخير .. كان لكل سلطان وأمير ووزير فى حكومة السلاجقة غلمانٌ وعبيدٌ مليحو الوجوه ، يحلّون محلّ النساء فى حياتهم الخاصة . وكان عدد غلمان بعض السلاطين يصل إلى عدّة آلاف . وقد نتج عن ذلك وجود طبقة من طبقات الشعب هى طبقة الرقيق . وكان بعضهم يتخلّص من غلمانه بأبشع الوسائل ، بينما يقلّدهم آخرون أعلى المناصب . وقد أفتى بعض الفقهاء بجواز عشق الغلمان إرضاء للحكّام وخوفا من بطشهم [٢] . وهكذا برز الفساد والجهر بالفسق كظاهرة اجتماعية طوال العصر السلجوقى .

ولم يكتف العبيد بالتصارع فيما بينهم ، بل كانوا يتفنّنون فى إذلال كثير من العلماء . ورغم مظالم الترك ومفاسدهم .. فإنهم كانوا يعدّون أنفسهم مكلّفين

---

(١) النص الفارسى :

كهتر ومهتر ووضيع وشريف همه سركَشته اند ورنجورند
دوستان كَر بدوستان نرسند اندرين روزكَار معذورند

(٢) من الكتب التى تعرّضت للحديث حول موضوع عشق الغلمان ، وكشفت عن فساد العديد من حكّام هذا العصر ومسلكهم الوحشى فى بعض الأحيان ، ونوّهت بموقف بعض الفقهاء : راحة الصدور ، ص ١٤٠ ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٧٦ ، حبيب السير ، جـ ٤ ، ص ١٢٦ ؛ تاريخ طبرستان ، ج ٢ ، ص ١١٠ ، ١١١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ؛ طبقات الشافعية جـ ٣ ، ص ١٨

من قِبَل الحق سبحانه بنصرة الدين ، ويرون أنهم لم يبلغوا سرير السلطنة إلاّ ليقوموا بصدّ الخارجين على أحكام الدين ، وردع أصحاب البدع .

ونتيجة لاحتياج السلاجقة إلى موظفين ، وتشجيعهم الصنّاع ، واقتنائهم العبيد ، وسماحهم لعدد من القبائل السلجوقيّة بالوفود إلى إيران ، وتوقيرهم الصوفيّة .. حَفِلَت كل مدينة بعدد من الطبقات من بينها طبقة الصوفيّة . وكما كانت بعض فرق الصوفيّة بمثابة واحدة أمان ، كان بعضها مصدر إزعاج . بل استعملت إحداها (فرقة الأخية الفتيان) السلاحَ لنيل حقوقها ، ولجأت إلى قتل الظالمين ، وإلى الثورة لإصلاح المجتمع .

ولبروز أهميّة بعض المدن ، ووجود أكثر من طائفة بها ... زادت العصبيّات المحليّة حدّة ، وعمّت الخلافات والمناقشات ، وشاع السلب والنهب والحرق والقتل . ولجأ بعض الشعراء إلى هجاء المدن وأهلها وبادلهم شعراؤها الهجاء (١) .

وكان للفُرقة والبعد المعنوى بين بلاد المسلمين أثرهما فى ازدياد شدّة القلق والاضطراب ، وهجوم بعض الأمراء على المدن التى لا يسكنونها ، والقيام بنهبها .

ولانغماس السلاطين والأمراء والعظماء فى الترف .. كانت قصورهم تمتاز بالفخامة والاتساع ، وبوقوعها وسط الخمائل . وكانوا يعقدون فيها مجالس الترف والغناء والشراب ، ويسرفون فى تقديم العديد من ألوان الطعام ، ويكثرون من الورود والرياحين لإضفاء البهجة على المكان . ونجم عن ذلك أن صارت المنادمة مهنة ، وازدهرت بعض الصناعات لتوفير ما يرغب العظماء فى اقتنائه .

أما حياة الجد فكانت تمارَس خارج المنازل كالرماية والسيف والترس وسباق الخيل والصيد .

---

(١) وصل الهجاء حدّ استخدام كلمات نابية كانت من الفحش بحيث رفض بعض الأدباء تسجيلها . أنظر : تذكرة الشعراء ، ص ٧١ ، ٧٢ .

ورغم القلاقل .. كانت هناك فترات هدوء نسبى أحيانا تنعم بها أجزاء من إيران كفارس وشمالى آذربيجان وأرّان ومازندران .. فكان هذا عاملا من عوامل تجمّع أرباب الفنون والآداب فى تلك النواحى ، وسببا فى نشاط الحركات الفنيّة والأدبيّة التى شهدها العصر .

وكان وجود عدد كبير من رجال السياسة المحنّكين والوزراء المشهورين الذين ينحدرون من أسر عريقة ، ووجود أسر رياسيّة (مثل آل خجند وآل مازه وغيرهما) فى كثير من البلاد .. عاملاً ملطفاً مهدئاً للأوضاع ، مشجّعاً على الرواج الفنى والأدبى . وقد استطاعت مثل هذه الأسر أن تحافظ – نسبياً – على بقايا النظام الاجتماعى فى أواخر القرنين السادس والسابع الهجريين .

ومن خلال ما توفّره المصادر من معلومات يُفهم أن هذا العصر كان مقسّما بين مجتمعات ثلاثة يختلف كل منهما عن غيره اختلافا بيّنا فى أصله ونسبه ولغته ولونه . وهذه المجتمعات هى :

(أ) المجتمع العربى : وهو العنصر الذى كان يسود شمال إفريقيا والشام والعراق والجزيرة ، ويفرز الخلفاء العباسيين والفاطميين .

(ب) المجتمع الفارسى : وهو العنصر الذى كان متمركزاً فى إيران وأفغانستان ، وإليه تنتسب بعض الدويلات التى كانت تَحكُم تحت لواء العباسيين العرب . وإليه أيضا ينتسب الوزراء الذين ساهموا فى تألق نجم الدولة السلجوقية .

(جـ) المجتمع التركى : وهو العنصر الوافد الدخيل الذى استطاع أن يلعب دوراً بارزاً فى تاريخ المجتمعَيْن سالفى الذكر ، وأن يسيطر على بلاد لا تربطه بها صلة ، وأن يساهم فى نشر الإسلام والعربيّة والفارسيّة .

ويمكن للدارس أن يستخلص مما حوته المصادر أن الشعبين العربى والفارسى كانا – فى تلك الحقبة – يعرفان الطبقيّة . كما يمكنه أن يحدّد الطبقات لدى كل شعب بأربع :

الطبقة الأولى : هى الطبقة النبيلة ، تلك الى ينتمى إليها الخليفة أو الأمير ، وينطوى تحت لوائها العلماء والأعيان . وكان أفراد هذه الطبقة يحيون فى ترف واستقلالية .

الطبقة الثانية : هى الطبقة التى ينتمى إليها القادة والجند المتجبّرون .

الطبقة الثالثة : هى طبقة الوزير وموظّفيه .

الطبقة الرابعة : هى طبقة الشعب من زرّاع وأصحاب حرف . وهى طبقة كادحة تعمل لخدمة بقية الطبقات ، وتبتعد عنها الطبقات التى تحيا فى القصور ، والتى تتمّتع بالأسواق والمتنزّهات الخاصة . وهى لا تقترب منها إلا لكى تتخذ من بين أفرادها خدما وحشما ، أو لتسومها سوء العذاب إن شاءت .

وقد يرتفع قدر بعض أفراد طبقة الشعب هذه إذا أتيحت لهم فرص العمل فى الإدارات ، أو كانوا أصحاب أرض ، أو قادة دينيين أو معلمين . وكان كبار الصوفية وشيوخ الفرق ينعمون بولاء شعبى مرموق ، ويتحمس لهم العديد من صغار التجار وكبار الصناع . لكن هذا لا يعنى أن الشيوخ أنفسهم ومريديهم كانوا من طبقات أخرى غير طبقات الشعب ، فأخبار الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير – مثلاً – تشى بأنه كان عطاراً بسيطا وعضواً مرموقا فى مجتمعه [١] . والإمام الموفّق هبة الله كان يعلّم أفراداً غدوا – فيما بعد – من كبار الأعيان وأبرز الوزراء .

وعلى أى حال ، فإن العلماء – تبعاً لمركزهم الاجتماعى – كانوا متّصلين بشكل وثيق بالطبقة الحاكمة .... طبقة الأعيان التى تشغل المناصب فى العواصم والمدن الكبيرة [٢] .

---

(١) The Gaznavids , P.171 .

(٢) د . محمد التونجى : حول الأدب فى العصر السلجوق ، ص ٦٥ – ٦٧ ، ط ١ ، بنغازى ١٩٧٤ م

والأخبار قليلة حول الطبقة الدنيا التى ينتمى إليها الصنّاع والزرّاع والعبيد ، ويطيب لبعض الكتّاب أن يصفوها بأنها طبقة الشعب التى لا تهدأ ولا تستقر .

وفى هذا العصر تمازجت الأسر العربية والفارسية إلى حد كبير ، وسمحت لبعض الأسر التركية ذات الشأن والمكانة بممازجتها ، فقد تزوج طغرلبك – على سبيل المثال – بابنة الخليفة العباسى القائم بأمر الله . وتوالت هجرات الأسر الفارسيّة إلى البلاد العربيّة ، فهجر والد المهلّب بن أبى صفرة بلاده إلى عمان .. حيث أسلم وتسمّى بأبى صفرة (١) . وهجرت أسر عربية عريقة ديارها إلى بلاد فارس ، وحطّ بعضها رحاله فى خراسان ، وقصد بعضها الهند ... وحافظت على تقاليدها وأنسابها حيث حلّت . كما عاشت أسر تركية – تمثّل الحكام وحاشياتهم – فى بلاد الشام والعراق ومصر . ونتيجة لتلك الهجرات وأمثالها تمّ الاختلاط والتمازج والتطبّع ، وحدث تغيّر فى صفاء الأسر الأصيلة .. عربيّة وفارسيّة (٢) .

ونتيجة لتغلغل العنصر التركى السلجوقى كثر عدد الغلمان الأتراك – كما أسلفنا القول – وأبدوا الكثير من المساوئ والعيوب ، وعمدوا إلى الفساد وشرب الخمور وسفك الدماء ، والاعتداء على الأسر العربية والفارسية التى كانت تنعم بالأمان ، وأثاروا العصبيات الدينية والمذهبية ، وكانوا أحد عوامل فصل أجزاء الأمبراطورية العربية عن مركز الخلافة كمصر وسورية وبعض أجزاء المشرق .

ولعل السلاجقة كانوا يحسّون بضِعَة نسبهم ، إذ نجدهم يحاولون رفع قدرهم اجتماعيا .. ولو كان ذلك عن طريق تلفيق أحاديث ينسبونها إلى الرسول الكريم . فقد نسبوا إلى ابن عباس رواية هذا الحديث : « ليكونن المُلك فى ولدى حتى يغلب على عزّهم الحُمر الوجوه الذين كأنّ وجوههم المجانّ المطرقة » . وينسبون

---

(١) د . محمد التونجى : المجموعة الفارسية .

(٢) نظام الملك : سياستنامه ، ص ١٣٠ .

إلى أبى هريرة رواية هذا الحديث : « لا تقوم الساعة حتى يجيىء قوم عراض الوجوه صغار الأعين فطس الأنوف ، ويربطون خيولهم بشاطىء دجلة » (١) .

أما عن عاداتهم التى جلبوها معهم ، فقد كان لها تأثيرها البالغ فى تغيير مظاهر الحياة فى المنازل والقصور ، وهو تأثير سيىء فى مجملة (٢) .

وقد شارك التركُ (حكاماً وأتباعاً) العربَ عيديهما – الفطر والأضحى – باعتبارهم مسلمين . وشاركوا الفرس احتفالاتهم فى عيد النوروز وعيد المهرجان وعيد السده . كما شارك الفرسُ العربَ عيديهما ، وشارك العربُ الفرسَ أعيادهم الآنفة الذكر (٣) .

---

(١) ورد فى كتاب تاريخ أدبيات در إيران كثير من هذه الأحاديث .
أنظر : جـ ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٢) مجمل القصص والتواريخ (مجهول المؤلف) ، ص ٣٩١ ، طهران ١٣١٨ هـ . ش .

(٣) النوروز أكثر أعياد الفرس شهرة وأقواها تأثيراً فى الشعوب الإسلامية . وقد ترك أثرا بارزا فى أدبنا العربى الإنسانى حتى حق لنا أن نعتبره عاملا فعّالا من عوامل التقاء العرب بالفرس . وقد عظّمه العرب أسوة بالعجم وأخذوا بسنّتهم فيه .
(وأصل الكلمة فى البهلوية (نوك روز) Noc - Roz أو (نوك روز) Noghroz . وقد استعملها أبو نواس فقال :
بحق المهرجان ونوكروز وفرخروز ابسال الكبيس
(كريستنسن : إيران فى عهد الساسانيين – ترجمة د . الخشاب ، ص ١٦٢ ؛
برهان قاطع – تعليقات محمد معين – جـ ٤ ، ص ٢١٨٧ ؛
مقالة مجتبى مينوى ، مجلة الدراسات الأدبية – السنة الثانية العدد الأول ، ص ٥٥ ، بيروت ١٩٦٠) .
وقد عُرِّبت الكلمة الى نيروز واشتق منها فقيل نَورَز ، يُنَوْرِز . وكان العرب الخاضعون للفرس يؤدون لهم جزية تسمى (جزية النيروز) . (القاموس المحيط جـ ٤ ص ١٩٤ ، ادى شير ؛ الألفاظ الفارسية المعرّبة ص ١٥١ ، بيروت ١٩٠٨ م ؛ ديوان جرير ص ٥٣ ، أساس البلاغة للزمخشرى ، جـ ٢ ص ٢٤٤ ؛ خطط المقريزى ، جـ ٣ ، ص ٣٥٦ ، طبع بيروت) .
يقال إن بداية الاحتفال به كان فى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد ، فى عهد الملك جمشيد البيشدادى الأسطورى ، الذى يراه البعض سليمان بن داود . وأنه أطلق هذا الاسم على يوم آهورامزدا من شهر فروردين ، وهو أول يوم من أيام فصل الربيع ، حين طار به الشياطين ما بين السماء والأرض ، وطاف بعجلته فى الهواء من دماوند إلى بابل فى يومٍ واحد . =

وإذا كانت المصادر لا تسعفنا بالمعلومات حول الحالة الاقتصادية ، ولا تكشف لنا عن مستوى الطبقات المعيشى .. فإنها تؤكد لنا رواج التجارة ، وسهولة انتقال القوافل بين الشرق والغرب ، ووفرة المنتجات وعمار الأسواق .. بما يوحى بتمهيد الطرق وتوفّر الأمان .

لقد أشرنا إلى ماساد هذا المجتمع القلق من ألوان اجتماعية متباينة .. اعتقادا منّا بأن الأدب لا تفهم مقاصده ولا تتضح معالمه ما لم يفهم وضع المجتمع ، وسوف نعمق هذه الإشارات فى مواضع أخرى . لكنا هنا نكتفى بالقول بأن التهتك والمجون والخلاعة وعشق الغلمان والندامة والدسائس وسفك الدماء والزهد والتديّن والتصوّف .. كلها أمور كان لها تأثيرها فى الناحية الأدبية سلباً وإيجاباً .

= (المسعودى : مروج الذهب ح ١ ط ٣ ، ص ٣٢٣ ، القاهرة ١٩٥٨ ؛ الثعالبى غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ، ص ١٣ ، طهران ١٩٦٣ م) ،

Browne : A literary History of Persia , Vol , 1 , PP.114 , 259 -

ويقال إن جمشيد جدّد الدين فجعل يوم ملكه عيدا . وقيل إن الناس بهرتهم أشعة الشمس تسقط على سريره المصنوع من الذهب فعيّدوا يوم حدث ذلك . وقيل إن سليمان وجد خاتمه المفقود فعاد إليه عزّه ، فقالت الفرس : نوروز آمد = جاء اليوم الجديد .

وقد تحدّث عنه عمر الخيّام فى كتاب خاص أسماه (نوروز نامه) ، وذكر سبب التسمية .

(الآثار الباقية للبيرونى ، ص ٢١٦ ؛ نوروز نامه لعمر الخيّام ، ص ٨ ، ٩) .

ولم تتحدث عنه الأفستا ، ووردت عنه إشارات فى الدينكرد ، وجاء فى الأدب الفارسى بتسميات مختلفة . ويعتبره الإيرانيون عيدا قوميا ، وكذلك أكراد العراق الذين ما زالوا يحتفلون به . ويفضّله الناس على عيد المهرجان مع أن كليهما نقطة اعتدال ؛ فهو مستهلّ السنة ، وفيه افتتاح جباية الخراج . وهو موعد تولية العمال واستبدالهم ، وزمن ضرب الدراهم والدنانير ، وتذكية بيوت النيران . فيه يرش الناس بعضهم بعضا ، ويقرّبون القرابين ، ويشيّدون المبانى . قسم الله فيه السعادات لأهل الأرض . من ذاق صبيحته السكّر قبل الكلام وتَدَهَّن بالزيت رفع عنه البلاء فى عامه وسنته .

(نشرية وزارت أمور خارجه ، دورة دوم ، شمارة پنج ، ص ٢ ، فرودين ١٣٣٦ هـ . ش ؛

مجلة هنر ومردم ، دورة جديد ، شمارة نودم ، ص ٣٢ ؛

مجلة آموزش وپرورش ، سال سى ام ، شمارة هشتم ، ص ٣ ؛

ديوان استاد ابو الفرج رونى ، ص ٢٥ ضميمة سال ششم ، مجلة ارمغان ، تهران ١٣٠٤ هـ . ش ؛

صحيفة البلد العراقية ، العدد ٢٦٠ ، ص ٧ ، ٢١ آذار ١٩٦٥ م ؛ =

= الجاحظ : التاج فى أخلاق الملوك – تحقيق أحمد زكى – ص ١٤٦ ؛ عجائب المخلوقات ص ٢٧) .

وحول ما يدور فى هذا اليوم وما يفعله المَلِك والخاصة والعامة ، وحول هدايا النساء وهدايا الرجال للمَلِك ، وهدايا الشعب له وهداياه لهم ، وما يقال وما يدور ، وسبب رش الماء وايقاد النيران .... يتحدّث الخيّام وغيره . ويمكن الرجوع فى ذلك إلى :

نوادر المخطوطات – المجموعة الخامسة ، تحقيق عبد السلام هارون ص ٧ حاشية ٢ ؛

الآثار الباقية ص ٢١٨ ، عجائب المخلوقات ص ٧٧ ؛ النوروز وأثره فى الأدب العربى ، ص ٢٧ وما بعدها ؛

نوروز نامه للخيّام ، ص ١٨ ، ١٩ ؛ نهاية الأرب للنويرى ، جـ ١ ، ص ١٨٦ ؛ التاج ، ص ١٤٦ – ١٤٨ ؛

صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص ٤١٨ ، بلوغ الأرب فى أحوال العرب للألوسى ، ص ٣٧٦ ، بغداد ١٣١٤ هـ .

ويفصّل البعض الحديث حول سبب إهداء السكر وأكل الحلوى ، وزرع النباتات فى صحون ، واللهو والغناء ، وعدد أيام الاحتفال ، وسبب تسمية اليوم السادس بالنوروز الكبير (نوروز بزرك) ، وسبب الاستحمام فيه . ويفصّلون القول فى عيدَى العامة وعيد الخاصة ، ويبيّنون كيف كان الأكاسرة فى الفترة ما بين العيدين يقضون حاجات الناس ، ويعفون عن المجرمين ، ويطلقون سراح المساجين ، ويُشغَلون بالمتعة والسرور .

انظر فى ذلك :

فرهنك آنندراج لمحمد پادشاه ، جلد هفتم (ن – ى) ، زير نظر دبير سياقى ، ص ٤٤٥١ ؛

المحاسن والأضداد للجاحظ ، ص ٢٧٤ – ٢٧٦ ؛ مهدى بيانى : نمونة سخن فارس ، ص ١٧١ ؛

المجموعة الفارسية للدكتور التونجى ، طـ ٣ ، دار الفكر ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

وقد حظيت بدع النيروز باهتمام العلماء ورجال الدين من المسلمين ؛ فتحدّث الغزالى عما كان يباع فى زمنه للصبيان فى عيد النيروز من أشكال الحيوانات والآلات الموسيقية والسيوف والتروس الخشبية ، وقال إنها ليست حراما فى ذاتها ، ولكن الحرام يكون فى إظهار شعار المجوس .

(غزالى طوس : كيمياى سعادت – نيمة أول ، ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، طهران ١٣١٩ هـ . ش ؛ احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٢٣٢ ، القاهرة ١٣٢٦ هـ) .

وقد تعرّض البحترى والمتنبى وابن الرومى لذكر النيروز فى أشعارهم ، لكنهم لم يصفوا التقاليد المرعيّة فيه . أما ابن التعاويذى فقد ذكر التقليد الخاص بالسماط الذى يُعد صباح العيد مشتملا على سبعة ألوان من الطعام يبدأ كل منها بحرف (سين) ، غير أن مجلس الأنس اضطره إلى استعمال الشين مكان السين فقال : =

= إذا اجتمعت فى مجلس الشرب سبعة   فما الرأى فى تأخيرهن صواب
شواءٌ وهمامٌ وشهــدٌ وشاهــدٌ   وهمعٌ وشادٍ مطــربٌ وشراب

انظر : ديوان ابن الرومى جـ ٣ ، ص ٣٦ - ٣٨ ؛ ديوان البحترى ، جـ ٢ ، ص ٧٢٤ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ ؛

ديوان ابن التعاويذى ، ص ٤٩ .

ولم يكن حكّام العرب فى صدر الإسلام يلائمهم المشاركة فى الاحتفال بالنيروز حتى لا يفتحوا بابا لتقاليد المجوس القديمة . كما جاء فى رواية أن النيروز والمهرجان منهىٌّ عنهما . غير أنه وُجِدَت فيما بعد أسباب لبقاء النوروز فى الدولة العربية . وجاء وقت كان فيه الخلفاء يحتفلون بالنيروز احتفالا رسميا ، ويتبسّطون مع رعاياهم ويرفعون الكلفة إلى حد أن يجالسوا المُجّان وأصحاب الخلاعة ، وكان هذا يؤذى المتزمّتين الذين يخافون ضياع هيبة الخليفة . وقد أصبحت الهدايا تقدّم بطرق مبتكرة لفتت نظر الشعراء ، فوجدنا من يقول :

لو كان يُهدى للجليل بقــدره   لقصّر عنه البحر يوما وساحله
ولكننا نهدى إلى مــن نجلّــه   وإن لم يكن فى وسعنا ما يشاكله

ووجدنا من يقول :

ليت شعرى أمالَنا فيك حــظ   ياهدايــا الوزيــر فى النــوروز
ما على خالد بن برمك فى الجو   دِ نــوال ينيلــه بعزيــــز
ليت لى جامَ فضةٍ من هدايا   ه سوى ما به الأمير مجيــزى

(حسين مجيب المصرى : صلات بين العرب والفرس والترك ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ؛ ايران فى عهد العباسيين (ترجمة عربية) ، ص ١١٣ ؛ تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

الصولى : أدب الكاتب ، ص ٢١٩ ؛ الجهشيارى : الوزراء والكتّاب ، ص ٢٤ ،

محمد محمدى : فرهنك ايران وتأثير آن در تمدن اسلام وعرب ، ص ٩٦ ، تهران ١٣٢٣ هـ . ش ؛

متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جـ ٢ ، ط ٣ - الترجمة العربية ، ص ٢٧٦ ؛

صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص ٤٢٠ ؛ ابن طباطبا ؛ الفخرى فى الآداب السلطانية ، ط ٢ ، ص ١٣٥ ، القاهرة ١٩٣٨ م ،

الشابستى : الديارات - نشر كوركيس عواد ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، بغداد ١٩٥١ م) .

ومن يحتفلون بهذا اليوم أو يقرأون عنه يعرفون المقصود من قولهم : (سيزده به در) ، ولماذا يخرج الجميع من منازلهم ويبتعدون عنها فى اليوم الثالث عشر من شهر فروردين ، وهو آخر أيام النيروز ، ولماذا تجمع البناتُ أعوادَ العشب الأخضر ، وينشدن قائلات :

سيزده بــدر ، سالــه دكَــر   خانه شوهر ، بچه ببغل

اليوم الثالث عشر من السنة التالية .. فى منزل الزوج ، وطفل تحت الإبط . =

= ولماذا يطلقون على آخر أربعاء فى شهر اسفند اسم (جهار شنبهٔ سورى) ، ولماذا يوقدون النار فيه ، ولا تغسل النساء الفراش ولا يخبزن ولا يخطن القمصان أو الملابس الجديدة ، ولا يسافر الكثيرون ولا ينتقلون من مسكن إلى آخر جديد . (سورى = سرخى : حُمرة ، ومن معانيها أيضا العيد والحفل)
لمعرفة الكثير حول هذه الموضوعات ، أنظر :
أحمد لواسانى : مدخل إلى اللغة الفارسية ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ ، ٢٣٥ - بيروت ١٩٧٢ ؛
Massè : Croyances et Coutumes Persans , tome 1 . P.150 .

هذا وقد أُلّفت عشرات الكتب حول عيد النيروز ، من بينها :
النوروز والمهرجان لأبى الحسن على بن هارون ؛ الأعياد والنواريز لموسى بن عيسى الكسروى ؛ رسالة فى النيروز لحمزه بن الحسن الأصفهانى ؛ الأشعار السائرة فى النيروز والمهرجان لحمزة الأصفهانى ؛ النيروز لأبى الحسين أحمد بن فارس ؛ الأعياد وفضائل النيروز للصاحب اسماعيل بن عبّاد ؛ الرسالة النوروزية للشيخ أبى على الحسين عبد الله بن سينا ؛ نوروزنامه لعمر الخيّام .

أما عيد المهرجان (مهركان) فهو عيد كبير ، كان الساسانيون يحتفلون به فى أوائل الخريف ، ويبدأ فى ٢٣ أيلول (سبتمبر) . وكلمة (مهركان) نسبة إلى (مهر) أحد الملائكة فى الديانة الزردشتية ، ويطلق اسمه على أحد شهور السنة الإيرانية وعلى بعض الأعلام القديمة أمثال (بزركَمهر) . وكانت الاحتفالات كبيرة إلى حد أن صارت كلمة (مهرجان) مضرب المثل لكل احتفال كبير . لكن هذا العيد - بعكس النيروز - قد زال فى العهد الإسلامى ولم يعد الناس يحتفلون به ، ومع ذلك فقد جاء وصفه فى أشعار ابن الرومى وابن المعتز .

ويفهم من أشعار ناصر خسرو أن النيروز يفضل المهرجان لأن الأول - يؤذِن بدخول الحر والمهرجان يؤذِن بدخول البرد .

وقد حاول الإيرانيون فى العصر الحديث إحياءه ، فجعلوا موعده فى بداية شهر (مهر) الذى يبدأ به فصل الخريف ، وأسموه عيد العلم ... وفيه تحتفل الدولة والمؤسسات الثقافية احتفالا كبيرا ، وبه يفتتح الموسم الدراسى .

وقد تحدّث الشعراء عن العيد الثالث : عيد (السذق) المسمى فى الفارسية (سَدَه) ، ووصفوا النار التى يوقدونها فيه . وعيد السذق هو العيد المتوى ، ويأتى بعد مرور مئة يوم على عيد المهرجان .
وقد أجاد أبو الفتح الهروى فى وصفه حين قال :

رُبَّ ليلٍ كشَعر ليلى سوادا ... شق جلبابه على الأرض نار
وترى الأرض كالسماء فكلٌّ ... قد تجلى خلالها انوار
بشرارٍ كأنهن نجومٌ ... ونجومٌ كأنهن شرار

انظر : مجلة هنرومردم ، دورة جديد ، شمارة نودم ، ص ٣٢ ؛
مدخل إلى اللغة الفارسية ، ٢١٧ ، ٢١٨ ؛
دمية القصر ، جـ ٢ ، ص ٨٥٢ .

الفصل الرابع

الناحية الدينيّة والمذهبيّة

إلى جوار الاضطراب السياسى وسوء الحالة الاجتماعيّة ... ساد الاضطراب الدينى والمذهبى وكثر المتعصّبون ، بحيث يرى المؤرخون أن هذه الفترة هى فترة وضع أساس انحطاط المدنيّة الإسلاميّة ، وأن التعصّب والتشدّد قد حلاّ فيها مكان الحريّة الفكريّة . والحقُ أنّ النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (وقد استمرُ ذلك حتى بداية القرن السابع الهجرى) قد شهد أشدّ ألوان الخلافات الدينيّة والعقديّة ، وشهد رواج العلوم الدينيّة ، وتدخّل العلماء من أصحاب المذاهب والفقهاء فى شؤون الحكم والسياسة ، وتحريمهم الفلسفة والعلوم العقليّة .. مما أدّى إلى ضيق النظر نتيجة انحراف العلم عن محوره الحقيقى .. وهو البحث عن حقائق الأشياء ، وجعل الفلسفة والحكمة تابعَين لمجادلات أصحاب المذاهب ومناظراتهم ، وجعل المباحثات العلميّة محدودة داخل نطاق الإحساسات المذهبيّة [١] .

وكان السلاجقة يتعصّبون للمذهب السنى ، ويرون – شأنهم شأن العامة – أن خليفة بغداد هو الخليفة الحقيقى لرسول الله ، وهو المصدر الروحى الذى يمنح الحكومات صفتها الشرعية ، ومن ثم كان يحظى بتأييدهم وتبجيلهم رغم ضعفه فى معظم الأحيان [٢] . فى حين أن الشيعة كانوا على العكس منهم ؛ يرونه غاصبا متقاعسا لا يهتم بأمر الإسلام ، ويمتنع عن الدفاع عن حدود الممالك الإسلامية وثغورها ، ثم إنه ليس إمام المسلمين .

---

(١) يمكن القراءة حول هذا الموضوع بالتفصيل بالرجوع إلى :
السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، القسم الثانى ، الفصل الثالث ، ص ٣٨ – ٤٠ ؛ تاريخ بخارى (الترجمة العربية) حاشية ، ص ١٣٥ .

(٢) أخبار الدولة السلجوقية ص ١٨ وما بعدها ؛ تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧ ، ٨ ، ١٣ ، ١٤

وكان عدد الفرق الشيعية الأصلية فى القرن السادس وأوائل السابع أربع فرق ، وهى : النصيرية ، والزيدية ، الاسماعيلية ، والإماميّة الإثنى عشرية ، ورغم العداء الشديد بين السلاجقة والشيعة لم يتوقّف التشيّع عن الانتشار ، فكان للشيعة مدارس ومساجد يروّجون فيها لمذهبهم علناً ، كما كانت لهم مكتبات ومجالس للفقه الجعفرى والشريعة ، وكانوا يديرون بأنفسهم هذه المجالس . وقد وصل عدد كبير من علمائهم إلى الوزارة فى حكومات الخلفاء والسلاجقة والأمراء ، وتجاسروا على الدعاية لأنفسهم وشجّعوا الشعراء على مدح أئمّتهم ، وكان ذلك يقابل من المتعصبين بالقسوة التى تصل أحياناً إلى حدّ قطع لسان المادح (١) .

وإلى جانب الصراع الدائم بين السنّة والشيعة ، كان هناك صراع بين المذاهب السنيّة . وقد راجت المذاهب الأربعة فى كل الممالك الإسلاميّة ، غير أن المذهبين الحنفى والشافعى كانا أكثر رواجا من غيرهما فى إيران عامة وفى أقاليمها الشرقيّة خاصّة ، وكان الحكّام حنفيين بينما وزراؤهم ينقسمون إلى حنفيّة وشافعيّة . وكان الصوفيّة يفضّلون المذهب الشافعى على غيره .

وفى الولايات ، كان لكل طائفة خطبتها وسكّتها الخاصة بها ، وكانت كل منها تصوغ أحكامها وتصدر فتاواها طبقا لمذهبها ، وقد انقسم أهل السنّة والجماعة إلى سبع فرق متجادلة (٢) . وكانت المسائل المذهبيّة يبحثها العلماء وأئمة الفرق ومشاهير الرجال فى مجالس يشرف عليها السلاطين والأمراء والوزراء . وكثيراً ما أدّت ، المباحثات بين الفرق إلى مشاحناتٍ وإثارةٍ للعامة وإبرازٍ لتعصّبهم ، وشجّعت على المجادلة وتخريب المكتبات وإحراقها ، وعلى إراقة الدماء أيضا .

---

(١) كتاب النقض ، ص ٧٧ .

(٢) اقرأ حول هذا الفرق المتجادلة وموضوعات الجدال فى :

المنتظم جـ ٨ ، ص ٦٣ ، ٣٠٥ ، جـ ٩ ، ص ٤٠٣ ؛ البداية والنهاية جـ ٢ ، ص ١١٥ ، الكامل ، حوادث ٤٤٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧٥ ، تبصرة العوام فى معرفة مقالات الأنام ، ص ٩١ ، ٩٦ - ٩٧ .

وكانت كل فرقة تعتبر عملها ضد غيرها قربى إلى الله تنال عليه ثوابه ، لكنّ كلاً منها على حدة كانت تحارب الشيعة عامة والاسماعيلية خاصة ، مما دعا هذه الفرقة إلى استخدام العنف والانتقام .

وفى ذلك العصر راجت سوق الاتهامات والافتراءات . وحفلت الكتب المذهبية بالإهانات لكبار رجال الدين . وشجّعت السلطاتُ الرسمية الفقهاءَ فكثر عددهم وتغلغل الدين بين الناس ، وضعفت العلوم العقلية أو هُجرت ، ووُجِدت المدارس المذهبية ، وخُصصت الأوقاف للإنفاق على طلبة العلوم الدينية وأساتذتها ، وتعرّض الفقهاء - فى أحيان كثيرة - للنفى والحبس والتعذيب ، وأُجبروا على ترك عقائدهم .

ومن الشعراء من شارك فى المعارك المذهبيّة بالردّ على الخصوم ، أو بتسخير شعره لبيان العقائد المذهبيّة ، ومنهم من أحجم خوفا ومداراة . وقد تسبب الوضع الدينى فى ضيق أفق الشعراء ، وفى توجيه حديثهم نحو انعدام الفضائل وذمّ الاختلاط وتحبيذ العزلة والاعتكاف . كما تسبب فى تزلزل الروح المعنويّة لدى كثير من الناس ، وإشاعة الخرافات بينهم ، وجعلهم يتوقّعون الموت والكوارث (١) .

ومن الفِرَق التى بقيت بعيدة عن دائرة التعصب إلى حد ما ، وأنِس الناس إليها فقوى نفوذها .. فرقة الصوفيّة . إذ كان أصحابها - باستثناء كراهيتهم للفلاسفة ومهاجمتهم لهم - أكثر تسامحا من غيرهم وأرجح (٢) عقلاً . وقد تغلغلت أفكار الصوفيّة فى أدب السلاجقة وملأته بالمعانى المجازيّة والاستعارات والكنايات الاشراقيّة الصوفيّة ، وصارت نغمة جزء كبير من الشعر مستمدة

---

(١) تاريخ الإسلام ، جـ ٣ ، ص ٢٧٨ .

(٢) لا يَصْدق البعد عن التعصّب والميل للتسامح ورجاجة العقل على كل الفرق بالطبع ، فقد عمد بعضها إلى العنف والانتقام ، أما كراهية الفرق الصوفيّة للفلاسفة فأمر ثابت تحفل به كثير من الكتب . انظر : تهافت الفلاسفة ، ص ٣ ، ٤ .

من التصوّف . وقد حظيت الفرق الصوفيّة المسالمة والمتمسّكة بالشرع باحترام السلاطين والأمراء وبتقدير خاصة الناس وعامتهم . أما الفِرق ذات السلوك المعوجّ فقد هوجمت وتعرّض أفرادها للإيذاء .. كالواصلية الذين أسقطوا التكاليف عمن وصل إلى الحق وحصل على المعرفة ؛ أو الفرقة التى اشتهر أتباعها بحب الطعام ، والطواف حول العالم طلبا للقمة العيش ، وعدم الكفّ عن الرقص ؛ أو التى عاش أفرادها فى رباطات أنشئت من مالٍ حرام ، وهم يقسمون وقتهم بين الشراب والنوم والصلاة والرقص ، ويعتمدون فى معيشتهم على هبات الظالمين ؛ أو تلك التى يقضى أتباعها وقتهم فى الجدل ومقابلة الناس ، ويمنعون القوم من قراءة القرآن والحديث فى الربط ، ويبذّرون لينفقوا ما كسبوه دون جهد ؛ أو الذين يرتدون الأردية الناعمة تحت الصوف ، ويلهون مع الأغنياء وحدهم ، ويتدرّبون على ترك الطعام أياما فيصابون بالجنون وسوء الخلق ، أو يملؤون معدتهم بالطعام دون إذن مضيفهم ، أو يهجرون العلم إلى النوم ، ويُحلّون لأنفسهم السماع ويحرّمون عليها الزواج والبكاء على الموتى ، ويتركون الجمعة والجماعة بحجّة المحافظة على العزلة والانزواء [1] .

لقد كان للصوفيّة من يحميهم ومن يعاديهم ، ومن يجاريهم ومن ينسب إليهم الإلحاد والزندقة .. وكان هذا الأمر مسوّغا لقتلهم ، فقد كان القتل بناء على تهمة الإلحاد والزندقة أمراً معمولا به فى القرن السادس الهجرى ؛ فبناء على أمر « قوام الدين الدركَزينى » – وزير السلطان سنجر – قُتِل « عبد الله بن محمد الميانجَى الهمدانى » وسُلِخ جلده ، وعُلّق جسده مدّة قبل أن يُلَفّ بحصير ويُحرق . والميانجى واحد من كبار مشايخ القرن السادس الهجرى ، وأحد مريدى أحمد الغزّالى ، وكانت العامة قد ثارت عليه لاهتمامه بمسلك « الحلّاج » ، وادّعائه الألوهيّة .

---

(١) تلبيس إبليس ، ص ١٦٠ – ٣٨٧

والدارس للوضع الدينى والمذهبى – فى هذه الفترة – يمكنه أن يقرّر أن الخلافات السياسية سببها دينى مذهبى ؛ فالخلاف بين العباسيين والفاطميين سياسياً .. سببه دينى مذهبى ، والسلاجقة يقضون على البويهيين مناصَرَةً للسنّة على الشيعة ، وثورة البساسيرى السياسيّة تغلّفها دعوة دينيّة مذهبيّة ، وحركة الحشاشين الدينيّة تدخلها أطماع سياسيّة ، وكذلك الحال بالنسبة للحركة القرمطيّة .

كما يمكن للدارس أن يقرر أن مبدأ التصارع كان المبدأ السائد المتحكّم ؛ فالشافعيّة والحنبليّة والحنفيّة تتصارع ، والإثنا عشرية تتصارع ، والاسماعيلية والغالبيّة والقرمطيّة تتصارع . وكذلك يفعل أصحاب الحديث والمعتزلة والكراميّة والصوفيّة والجهميّة [١] ، وتفعل المدن الإسلامية . ولو ذهبنا إلى بلاطات الأمراء والوزراء لوجدنا أصحاب الآراء المذهبيّة يتجادلون ويتصارعون . ولو تجوّلنا فى الأسواق لرأينا أصحابها يتصارعون ، ولعرفنا أن تخريب المحال وإحراق الكتب وعدم توقّف الفتن الداخلية ناجم عن الصراعات الدينيّة والسياسيّة .

وإحساساً من الكُتّاب والمؤرخين بما كان للمذهب – فى تلك الفترة – من تأثير .. قسّم بعضهم البلاد تقسيماً مذهبياً ، على النحو التالى :

(١) أهالى خراسان وما وراء النهر وجزء من العراق أحنافٌ ومعتزلةٌ .
(٢) أهالى اذربيجان وهمدان وأصفهان وساوه وقزوين شافعيةٌ .
(٣) أهالى لورستان وخوزستان والكرج وكلبايكَان وبروجرد ونهاوند مشبهةٌ أو مجسّمةٌ .
(٤) أهالى مازندران وقم سنّةٌ وشيعةٌ [٢] .
(٥) معظم أهالى فارس سَنّةٌ ، ومركز ثِقَلِهم أصفهان .

---

(١) أنظر : أحسن التقاسيم ، ص ٣٢٣

(٢) جاء هذا فى « تاريخ ادبيات در إيران » ، جـ ٢ ، ص ١٤٧ ، نقلاً عن كتاب النقد لنصير الدين أبو رشيد القزوينى ، المؤلف فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى .

ويمكن للدارس أيضا أن يقرّر أن باب الاجتهاد كان مفتوحا ، وأن دوام طرقه وولوجه قد تسبب فى كثرة الانقسامات ، وظهور العديد من الفرق أو رواج سوق عقائدها . ويتضح ذلك مما يلى :

● **المذهب السنّى** : أكثرَ اتباعُه من الاجتهاد فانقسموا إلى سبع فرق ، هى :

(أ) **الداوديّة** : وهى فرقة اندثرت ولم يعد لها وجود .

(ب) **الحنفيّة** : وتنقسم إلى معتزلة ونجاريّة وكرامية [1] ومرجئة وجبريّة .

(جـ) **المالكيّة** : وتنقسم إلى خوارج ومعتزلة ومشبّهة وأشعرية وسليميّة (مالكيّة البصرة) .

(د) **الشافعيّة** : وتنقسم إلى مشبّهة وسلفيّة وخوارج ومعتزلة وأشعريّة ويزيديّة [2] .

(هـ) **الحنبليّة** .

(و) **الثوريّة** .

(ز) **الرحويّة**: نسبة إلى « إسحق الرحوى » .

ومع كثرة الفرق وشدَّة حماس أصحابها .. ثارت الفتن وعمَّت التجاوزات ، ففى عام ٣٢٧ هـ = ٩٣٤ م طارد الحنابلة مرتكبى المنكرات وهاجموا بيوت القوّاد والعامة فى بغداد ، وأراقوا دنان الخمور ، وضربوا المغنيات ، وحطموا آلات الطرب ، وتعرضوا للباعة والمشترين والمارّة .

---

(١) طائفة دينية ازدهرت فى خراسان (وفى نيشابور بصفة خاصة) ، ويتميّز أتباعها بالحماس ، ومعظمهم حرفيون أو فقراء . رئيس هذه الطائفة هو أبو عبد الله محمد بن كرام النيشابورى العربى الأصل . ولد فى سجستان عام ٢٥٥ هـ = ٨٦٩ م . ويفهم مما جاء فى كتاب الدمية أنه كان زاهدا يؤمن بالتجسيد ويرفض السنّة والشيعة ، وأن له كتاباً أسماه : « آداب الغير » .

أنظر : الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ٩٩ - ١٠٤ .

(٢) اليزيدية : ينتشر أصحابها ما بين زوروسورية ، ويميلون للمشبهة والخوارج ، ويعتبرون أبا بكر وعثمان ومعاوية ويزيد خلفاء . لايستعملون التقية ، ويدخلون علياً فى قائمة الخلفاء المسترشدين بالله .

أنظر : Cambridge : 284 .

وفى عام ٤٤٧ هـ دبتّ الفتن بين فقهاء الشافعيّة والحنابلة فى بغداد ؛ فقد أنكر الحنابلة على الشافعية الجر بـ(باسم الله) ، وغير ذلك . وأغارت الطوائف ليلاً - فى نيشابور - على بعضها البعض ، وحدث نفس الشىء فى شيراز بين الشافعيّة والحنفيّة [١] .

● **المذهب الشيعى :**

تعتبر الفرقة الإمامية - نظرا لوقوعها بين الدول السنيّة - أكثر الفرق الشيعية اعتدالاً فى المذهب ، واقلّها فى المغالاة والتدخّلات السياسيّة ؛ ومع ذلك نجدها تصطدم بالسنّة أكثر من مرة فى العام ، ويصل النزاع إلى الأدب فيشارك فيه الشعراء والكتّاب . ولهذا ظهرت كتب تهاجم الشيعة وأخرى تساندها وتردّ على أعدائها . ومن بين هذه وتلك كتاب « بعض فضائح الروافض » ، وكتاب « بعض مثالب النواصب فى نقض بعض فضائح الروافض » .

وقد انقسم المذهب الشيعى فى هذا العصر فروعاً ، أهمها :

(أ) الزيديّة .
(ب) الإماميّة ، وتسمى الجعفريّة أو الإثنا عشرية .
(جـ) الناصريّة : وهى فرقة متطرّفة تنسب إلى « على » - رضى الله عنه - قوى إلهية أو شبه إلهية . وقد سميت بالناصرية فى القرن السادس الهجرى .
(د) الإسماعيلية : اسم أطلق على الفاطميين والقرمطيين والحشاشين بصفة عامة .

وقد انفصلت هذه الفرقة عن الشيعة ، وأحدثت تأثيرا فى الحالتين السياسيّة والأدبيّة . وكان انفصالها بسبب الخلاف على الإمامة بين اسماعيل بن جعفر الصادق وأخيه موسى . وقد عُرف أتباع إسماعيل - الراغبون فى بقاء الإمامة فى آله - بهذا الاسم ، كما أطلق عليهم « الباطنيّة » . وهم يعتقدون أن الإمامة

---

(١) الكامل ، حوادث ٤٤٧ .

قد انتقلت (بعد جعفر) من إسماعيل – المتوفى قبل أبيه – إلى ابنه محمد ، والذى يدعى بالسابع التام .. حيث تمّ به الدور السابع للأئمة .

وقد انقسم الأئمة بعد محمد إلى فئتين :

الفئة الأولى : فئة الأئمة المستورين ، ويدعو لهم دعاتهم .

الفئة الثانية : فئة الأئمة الظاهرين . وكانت بدايتهم مع ظهور أبى عبيد الله المهدى ، الذى دعا للمذهب الاسماعيلى جهراً ، وصرّح بأن من لم يؤمن بأن كل ولد من أولاده (الواحد تلو الآخر) إمامٌ .. مات ميتة الجاهليّة [1] .

واشتهر عدد من دعاة هذا المذهب على مرّ العصور ، منهم :

ميمون القدّاح الأهوازى (ت ٢٦١ هـ = ٨٧٤ م) ، أبو عبد الله الشيعى الذى أطلق سراح الإمام أبى عبيد الله المهدى من سجنه فى « سجلماسه » ، وأوّل من دعاه بالمهدى المنتظر . وبعد إطلاقه تركّزت الدولة الفاطمية عام ٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م فى شمال إفريقية ، وانتشرت الدعوة الفاطمية فى مصر إلى حد كبير . ثم بدأت تضعف بجلوس الحاكم بأمر الله على العرش ، وبظهور دعاة من الفرس يؤلّهون الحاكم أمثال الدرزى وحمزة والأخرم الفرغانى . وتمكّن بدر الجمالى من تحويل الإمامة بعد المستنصر إلى المستعلى ، وحرم منها صاحب النص « النزار ابن المستنصر » ، فانقسمت الدعوة على أساس ذلك إلى فرعين رئيسيين :

(أ) الاسماعيليّة النزاريّة ، وكانت تسمى أحيانا « الاسماعيليّة الشرقيّة » : وأحيانا « الاسماعيليّة الحشيشيّة » . أما اليوم فتسمّى (الأغاخانيّة) .

(ب) الاسماعيليّة المستعلية ، وكانت تسمى « الاسماعيليّة الغربيّة » ، ويمثّلهم اليوم فى الهند جماعة (البهوريّة) . وقد بلغ سلطان الدولة الفاطميّة الاسماعيليّة أقصى حدّه فى زمن المستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ = ١٠٣٥ – ١٠٩٤ م) .

---

(١) تاريخ ادبيات در ايران ، جـ ١ ، ص ٢٤٦ .

وفى أوج حكم السلاجقة أخذ عدد من دعاة الفاطميّة الاسماعيليّة يدعون إلى المستنصر العلوى فيما وراء النهر ، وتبعهم الكثيرون ، لكن « بغراخان » – ملك البلاد – أوقع بهم وقتلهم ، وقطع آثار الدعوة الاسماعيليّة فى بلاده [١] .

ومن الفرق ذات الشأن والخطر فى ذلك العهد :

• **القرامطة :**

شيعة متطرفة تصلهم بالاسماعيليين والفاطميين صلة نسب ، غالوا فى شروحهم وعرض إباحياتهم ، وساروا على نهج الاسماعيليّة . لكن الاسماعيلية مع ذلك يتحفّظون عند الكتابة عنهم ، ويخفون أخبارهم عن العامة ، ويحرّفون أسماء دعاتهم [٢] .

وينسب البعض القرامطة إلى فلّاح عراقى داعية اسمه « حمدان قرمط » ، بينما ينسبهم البعض إلى كلمة قرمط السريانية ومعناها (المعلم السرى) .. بينما يطلقون هم على أنفسهم : « المؤمنين المنصورين بالله ، والناصرين لدينه ، والمصلحين فى الأرض » [٣] .

وقد ظهر حمدان قرمط عام ٢٧٧ هـ = ٨٩٠ م فى المنطقة المحيطة بواسط حيث أخمدت ثورة الزنج . ودعا الناس إلى جمعيّة سريّة اشتراكيّة ، فتبعه سواد الكوفة وأهل واسط ، وما أن تأسست لهم فى جنوب العراق – بعد سنوات –

---

(١) لمعرفة الكثير عن الاسماعيلية ... أنظر :
دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « أهل الحق » ، فضائح الباطنيّة ، ص ١٦ ؛
تاريخ ادبيات در ايران ، جـ ١ ، ص ٢٤٦ ؛
السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ١٦٧ وما بعدها ؛ محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الغزنويين ، مصر ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٧ م .

(٢) انظر : فيليب حتى : تاريخ سورية ، جـ ٢ ، ص ١٨٩ ؛ عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق ، جـ ٥ ، مصر ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م ؛
المنتظم ، جـ ٥ ، ص ١٠ ، جـ ٦ ، ص ٤٣ ، ٢٢٢ .

(٣) اتعاظ الحنفاء ، ص ١٣٠ ؛ عبد القاهر البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص ٢٣٦ ، طبع ١٩٥٩ م ؛ تراث فارس (ترجمة) ص ١١٩ ؛ النوبختى : فرق الشيعة ، ص ٧٢ ، طبع النجف ١٩٣٦ م .

دولة مستقلة ... حتى نشروا الخراب .

وفى ظل نظام الألفة الذى نادى به حمدان تنازل الفرد للجماعة عما يملك ، وتنافس الأتباع فى تقديم الخدمات لأهل مذهبهم . وإزاء وعده الفلاحين والفقراء عامة بامتلاك العالم أخلص أتباعه فى انضمامهم لفرقته .

ويعتبر بعض المؤرخين حركة القرامطة حركة اقتصاديّة اجتماعيّة ، لكنها ولاشك حركة تعتمد على العنف فى سبيل تحقيق أهدافها ؛ فعلى يد داعيتهم « زكرويه الدندانى » عمّ الفساد والقتل والأسر فى الشام ؛ لقد قتلت فرقتُه حتى الصبيان والبهائم ، وتمركزت فى حمص . وانتقل نشاطها إلى طريق الحجاج فقاتلتها بغداد . وقُتِل زكرويه ، لكن الثورة استمرت وبلغت الأحساء فى الجزيرة حيث أنشئت دولة عاصمتها المؤمنية (الهفوف حاليا) . ومن هنا بدأت غاراتهم على بغداد وقوافل الحجاج ، وانتزعوا – بقيادة ابن أبى سعيد – الحجرَ الأسود من الكعبة وباب البيت وكسوته ، وذلك فى عام ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م . وأرسلت تلك المقدسات إلى الأحساء ، وبقى بها الحجر الأسود ٣٠ سنة ، أو ٢٢ سنة فى بعض الأقوال [١] .

وقد استقى القرامطة والاسماعيليون وسائل دعايتهم من نظام الكون ، فقسّموا العالم ١٢ قسما بعدد أشهر السنة ، وأسموا كل قسم (جزيرة) ، وجعلوا لكل جزيرة داعية أسموه « داعى دعاة الجزيرة » أو « حجّة الجزيرة » أو « صاحب الجزيرة » . ولأن الشهر ٣٠ يوما فقد جعلوا لهذا الداعية ٣٠ مساعدا أسموهم النقباء . ولأن ساعات اليوم أربعة وعشرون جعلوا تحت إشراف كل نقيب ٢٤ داعيا ، ١٢ منهم ظاهرون كالشمس بالنهار ، و١٢ مختفون كالشمس بالليل .

---

(١) أنظر : تاريخ أخبار السلاجقة ، ص ١٤ ؛ تاريخ القرامطة ، ص ٢٨٩ – ٢٩١ ؛ تاريخ سورية ، جـ ٢ ، ص ١٨٩ ؛ الكامل ، حوادث عام ٣١٧ ؛ الطبرى حوادث عام ٢٩٤ .

The Origine of Islamic camb : 19 .

History of Islamic Peoples : 144 .

ويُحتَرَم الدعاة ويحظون بالاهتمام ، وهم يتّبعون تسع مراحل مدروسة ليمكنهم جذب المريدين .. تبدأ بالتفرّس وتنتهى بالسلخ [1] .

● **الصباحيّة :**

اتخذت أكثر من تسمية إلى جانب « الصباحيّة » .. منها «الاسماعيلية الشرقيّة » و« الحشيشيّة » .

وهى من أكبر أعداء السلاجقة فى الداخل . قادها نحو أهدافها دعاة كبار ، أمثال عبد الملك بن عطاش ، وابنه أحمد ، والحسن الصباح . وقد استغلّ أحمد خلافات السلاجقة فاستولى على قلعة « شاه دُز » بأصفهان ، واتخذها مركزاً لدعوته ، ومنها بثّ الذعر فى قلوب المعارضين . أما داعيته الحسن الصباح فقد تمكن من الاستيلاء على قلعتى طبس والموت : وكر العقاب (آله : النسر .. كلمة بهلوية ، آموت : عش .. لهجة محليّة فى قزوين) . ثم استولت فرقته – فيما بعد – على عدّة قلاع فى فارس وسوريا .

والحسن الصباح ينتسب إلى ملوك حِمير القدامى كما يرى بعض المؤرخين ، وهو شيعى كلّفه ابن عطّاش عام ٤٦٤ هـ = ١٠٧٢ م لمقابلة المنصور الخليفة الفاطمى ، فوصل إلى مصر عام ٤٧١ هـ = ١٠٧٨ م ، وأيّد « نزاراً » فى صراعه على الخلافة دون المستنصر (نزار والمستنصر ولدا المنصور) . وحين عاد إلى بلاده واستولى على الموت قام بحملات ضد السلاجقة ، وتعرّض لنقمة نظام الملك وسخطه .

واستطاع بركيارق أن يقتل ابن عطاش ويهدم شاه دز وما جاورها من قلاع عام ٥٠٠ هـ = ١١٠٧ م . ومع ذلك لم يكفّ الصباح عن ممارسة العنف

---

(١) لمزيد من التفاصيل ، ارجع إلى :
فضائح الباطنية ، ص ٢٣ ؛ قرامطة العراق ، ص ١٦٦ – ١٧٤ ؛ تأويل دعائم الإسلام ، جـ ١ ، ص ٢٩٧ .

والاغتيالات إلى أن مات عام ٥١٨ هـ = ١١٢٤ م ؛ فسارت فرقته فى طريق الضعف . وقد ترك وراءه عددا من المقالات تحلل مبدأه وتكشف عن نشاطه ، ويفخر فيها بأنه أهم الدعاة ، وأنه حجة فى المذهب . والحق أنه كان عظيم المكانة بين قومه الذين خصّوه بلقب (سيدنا) ، وقد قامت فرقته بأعمال من أهمها :

قَتْل نظام الملك ، وقَتْل ولديه أحمد وفخر الدولة ، واغتيال عدد من الخصوم . وينسب إليها البعضُ دسّ السم للسلطان ملكشاه .

وكان حسن الصباح يقسّم فرقته إلى طبقات ، العليا منها تعيش فى إباحية تامة ، بينما يبدى الأتباع المنفّذون تعصّبا وانقيادا أعمى . وكان كلّ منهم يؤمن بأنّ قتله لشخص ما – بناء على أمر الزعيم – يكسبه رضوان الله .

هذا ، وقد انتهى نشاط هذه الفرقة بهدم المغول قلاعهم وإحراق كتبهم وإفناء فكرهم وتعاليمهم [1] .

ولاشك أن تأليف الكتب والمقالات والأشعار فى إثبات عقائد هذه الفِرَق أو ضَحْدِها ... كان له أثره فى الأدب الفارسى .. بحيث يمكن القول بأن تلك الفرق – خاصة الاسماعيلية – كان لها تأثيرها فى الأدب السلجوقى .

ويمكن لدارس هذه الفترة أن يقرر أيضا أن السلاجقة قد اختاروا المذهب الحنفى لتحرّره وطواعيته بالقياس إلى غيره من المذاهب ، وعزفوا عن الشافعى لأنه – فى رأيهم – أقلّ تسامحا فى استعمال الرأى والقياس . وأن السلاجقة نتيجة حبّهم للإسلام قد نشروه فى آسيا الصغرى ، وأوصلوا العربيّة والفارسيّة – بالتالى –

---

(١) لمعرفة هذه المعلومات وغيرها بالتفصيل ، أنظر :

حول الأدب فى العصر السلجوقى ، ص ٨٨ ، ٨٩ ؛ السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ١٧٤ ؛ لباب الألباب ، جـ ١ ، الحواش ص ٣٥٤ ؛ سياست نامه ، ص ٧٥ – ٨٥ ، طهران ١٣٢٠ ؛ مجمع الوصايا لنظام الملك ، ص ٣٠ ، بمباى ١٣٠٥ هـ . ش ؛ تاريخ جهانكشا للجوينى ، ليدن ١٩٣٧ م ،

Aldo R : Travels of Marcopoio (London 1931) No 49 and 53 .

إلى مضائق الدردنيل . وكانوا متسامحين مع أصحاب الديانات الأخرى من يهود ومسيحيين ، لا يتدخّلون فى شعائرهم بل ويشاركونهم احتفالاتهم وأعيادهم . وقد سمحوا للزردشتية وتعاليمها بالبقاء فى عدد من بلاد فارس ، وسمحوا لهم بإجراء ما شاءوا من طقوس وبناء معابد للنار وإيقادها . وكانت المانوية فى عهدهم منتشرة فى ما وراء النهر ، والمزدكيّة معروفة فى اذربيجان [١] .

* * *

(١) أنظر : الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، صفحات متفرّقة ؛ المسالك والممالك ، ص ١١٩ ؛ أحسن التقاسيم ، ص ٤٢٩ ؛ الفَرْقُ بينَ الفِرَق ، ص ١٦١ ؛ صورة الأرض ، ص ٤٤٤ .

الفصل الخامس

الناحِيَـة الفَنِـيّـة

نكتفى هنا بالحديث عن اللغة والأدب باعتبارهما أدخل فى موضوعنا من غيرهما من الفنون . وقد راجت الفارسية فى عهد السلاجقة لإقامتهم فى إيران ولاتّخاذهم مدنا إيرانية عاصمة لهم ، فتسبب ذلك فى انتشار الأدب عامّة والشعر خاصّة فى بيئة لسانها ولغتها الأصليّة هى الفارسيّة . كما راجت نتيجة إصرار الحكّام على أن تكون هى لغة البلاد الرسميّة ولغة الكتابة بدلاً من العربية التى ظلّت كذلك حتى جلوس ألب ارسلان على العرش .. (١) فكان إصرارهم سببا فى قطعها شوطا كبيرا فى طريق الرقى والكمال .

وإلى جانب رواج اللغة الفارسية راج أدبها رواجا ملحوظا ، وزاد عدد الشعراء والكتّاب نتيجة تشجيع العظماء من الوزراء الفرس ، فقد رأوا أن وجودهم فى البلاطات من جملة لوازم الرياسة ، وأن فضل البلاط على غيره يقاس بعدد من فيه من أدباء . كما كان بعض الحكّام والوزراء يشتغلون بالأدب . وقد أنتشرت المراكز الأدبية الفارسيّة متخطية شرق إيران إلى العراق وأذربيجان وغيرهما ، فظهر الكثير من الشعراء والكتّاب . ونشرت الفتوحات اللغة الفارسيّة ؛ فبرز بعض الأدباء فى البلاد المفتوحة .. ممن كانوا يكتبون بالفارسيّة .

ومما تسبّب فى توسعة دائرة الأدب الفارسى وساهم فى رواجه فى العصر السلجوقى أن النثر والشعر الفارسيين كانا متداولين فى الخانقاهات ، ويستخدمهما الصوفيّة فى مؤلّفاتهم لإرشاد الناس وهدايتهم . كما كان الصراع المذهبى بدوره عاملا مساعدا فى ذلك الشأن ، فقد أوجد نهضة فى تأليف الكتب العلميّة الفارسيّة .

---

(١) شعر العجم (تاريخ شعراء وادبيات إيران) ، ط ١ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

وامتزجت اللغة الفارسيّة بكثير من المفردات والمركّبات العربيّة أكثر مما كانت من قبل ، نتيجة لتدريس العربيّة وأدبها فى المدارس ، ولاطّلاع الأدباء الدائم على الآثار العربية للاستفادة من مفرداتها وتركيباتها وتعبيراتها ، وحفظهم الأشعار والمتون العربيّة باعتبارها شرطا أساسيا للكتابة والنظم . ولم يقتصر نفوذ العربيّة فى الفارسيّة على استعمال كلماتها وتراكيبها ، بل تجاوز ذلك إلى الاستفادة من قواعدها المقنّنة . كاستخدام الجمع السالم وجمع التكسير ، ووضع علامة التأنيث فى آخر الصفات .

وقد تسبّبت الكلمات والتركيبات والتعبيرات العربيّة الدخيلة غير المألوفة – مع عوامل أخرى – فى إيجاد لهجة فارسية جديدة لوحظت فى أشعار شعراء النصف الثانى من القرن السادس الهجرى ، وفى مؤلّفات كتّاب العصر السلجوقى [١] .

وكانت سنيّة السلاجقة سببا فى تقرّب حكّامهم من بغداد ، واهتمامهم بالمظاهر الدينيّة ، وإنعامهم على الأدباء والعلماء من أصحاب اللسان العربى ، وتشجيع طلّاب اللغة العربيّة .. رغم أميّة معظم هؤلاء الحكّام وعدم تذوّقهم للأدب .. وقد نجم عن هذا ظهور عدد كبير من الأدباء والعلماء الذين نظموا ونثروا بالعربية أكثر من غيرها . وقد شجّع رواجُ العربية عدداً من معارضى الشعوبيّة على نشر كتبٍ فى النحو والصرف العربى [٢] .

وتسببت الفتوحات وما تبعها من اختلاط العرب بالفرس .. فى وجود اختلاط أدبى وارتباط علمى ، وظهور تغيير واضح فى النظم والنثر الدرىّ [٣] – الذى كان وقتها خاصاً بخراسان وما وراء النهر – فتحوّل الإيجاز

---

(١) تاريخ أدبيات در إيران ، جـ ٢ ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) سبك شناسى (تاريخ تطوّر نثر فارس) ، ص ٦٥

(٣) نسبة إلى اللهجة الدريّة ، وهى اللهجة التى أصبحت منذ أواسط القرن الثالث الهجرى ، لهجة إيران الرسمية والأدبيّة ، وهى الفارسيّة الإسلاميّة .

إلى إطناب وقِصَر الجمل إلى طول فيها ، وكثُر الاستشهاد بآيات القرآن الكريم وبالنظم العربى ، وشاع ضرب الأمثال وإيراد النوادر العربية بصورة توحى بتقليد نثر العرب الفنى ، وراج استعمال الكنايات والاستعارات والتشبيهات والموازنة والسجع والصناعات البديعية بصفة عامّة .. ونموذج ذلك مقامات حميدى ومرزبان نامه . وقد زاد استعمال الصنعة الأسلوبيّة على نحو أدّى إلى اختفاء المعنى المقصود .

ونتيجة لرواج الآداب العربيّة اتخذ النثر أسلوبا جديدا هو أسلوب النثر الفنى المتكلّف ، وتبع الشعر الأسلوب العراق ، واعتُبر الكاتب الجيد من استفاد من علم سابقيه وأدبهم وحكمتهم .. ولا سيما العرب .

وترتّب على هذا الاهتمام الزائد بالعربيّة تقلّص دراسة قواعد اللغة الفارسيّة . وأصبح كتّاب الفرس وكأنهم عرب ، وباتت عباراتهم صعبة غامضة المعنى لكثرة الألفاظ العربيّة فى الأسلوب الفارسى . حتى جاءت فترة قلّ فيها وجود من ينشىء بالفارسيّة الخالصة . وشاع الأدب بصورته هذه فى قونية وسائر بلاد آسيا الصغرى حتى بلغ أرمنستان ، وخرج من هذه الديار عدد كبير من الأدباء والفضلاء .

وتلقّى بعضهم العلم فى القسطنطينية ، فأصبح الكثير من عناصر الفكر البيزنطى والثقافة البيزنطية يكوّن قسما جوهريا من الحضارة السلجوقيّة [١] .

ويعتبر عصر ملكشاه وعصر سنجر من العصور الذهبيّة للأدب الفارسى عامّة والشعر الفارسى خاصّة . وبموت سنجر ضاعت عدّة مراكز أدبيّة ، وزال العديد من المكتبات العامرة بكنوز العلم والأدب .

وإذا كان التأليف بالفارسيّة قد راج فى هذا العصر فقد حدث الشىء نفسه بالنسبة إلى التأليف بالعربية .. فقد كثر عدد المؤلفين بالعربية ممن هم من أصل

---

(١) تراث فارس (الترجمة العربية) ، ص ٧٩

فارسى ، ودخلت مؤلّفاتهم فى عداد آثار الأدب العربى القيّمة [1] ويمتاز العصر السلجوقى بظاهرة فريدة وهى أنه أول عصر يظهر فيه شعراء الصوفيّة الأول ، وأول عصر تظهر فيه المؤلّفات العرفانيّة النثريّة الفارسيّة الرائدة .

وراجت فى هذا العصر سوق المناقشات المذهبيّة فى إيران ، ونجم عن ذلك تأليف العديد من الكتب الدينيّة والمذهبيّة .

ويمكننا القول إن شعراء القرن الخامس وأوائل السادس الهجريين قد ساهموا - بتقليدهم للقدماء - فى إيجاد بعض التغيير فى الأسلوب الشعرى ، غير أن تأثير شعراء النصف الثانى من القرن السادس كان أكبر ، فقد توصّلوا إلى طريقة جديدة ، تعتمد على الاهتمام بلغة التخاطب والحوار ، وتعمّد البساطة والسلاسة .. بمعنى أنهم كانوا يوردون القسط الأكبر من شعرهم باللهجة نفسها التى يصوغون بها الكلام العادى وقت المحاورة .

وقد استعملوا العربيّة .. لا عن تكلّف وإظهار مقدرة علميّة وسعة اطّلاع ، بل باعتبار الكلمات والتركيبات العربيّة الواردة فى أشعارهم من مقولة الكلمات والتركيبات الرائجة آنذاك فى اللغة الفارسيّة ، والمألوفة فى الكتب العلميّة المتداولة . واهتمّوا بإيراد المعانى والمضامين الدقيقة فى أشعارهم ، وأفرطوا فى الاستفادة من الأفكار والاصطلاحات والقضايا والموضوعات العلميّة المختلفة ، دون إحداث تصرّفات شاعريّة كافية ، مما أدى - أحيانا - إلى الاستدلالات العقليّة كما هو فى الكتب العلميّة ، وأبعد شعرهم عن الحالة التى يجب أن يكون عليها ، وتسبّب فى وجود الكثير من الإيهام والغموض .

---

(١) يمكن معرفة الكثير عن المؤلّفات السجوقيّة النثريّة .. فارسيّة وعربيّة ، ويمكن الوقوف على محتوياتها وإدراك قيمتها والوقوف على أسماء مؤلّفيها ، وذلك بالرجوع إلى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٢٦٠ - ٢٩٠ .

وكان اهتمام هذه الطائفة بإيراد المضامين الدقيقة فى الغزل ، واتّباع أبسط الأساليب وأقربها إلى الطبيعة ، سببا فى رقّة الغزل ولطفه لفظا ومعنى إلى حد كبير ، وسببا فى إنشاء مدرسة جديدة فى الغزل . وكانت هناك مراكز كبيرة يمارس فيها هؤلاء الشعراء نشاطهم كآذربيجان فى شمال غربى إيران ، وخراسان ، وما وراء النهر ، والعراق .

ومن خصائص الشعر الفارسى فى العصر السلجوق :

(أ) انعكاس مضامين الشعر العربى وأفكاره فيه .. ولا سيما الشعر الجاهلى .

(ب) خروج الشعر من محيط البلاط المحدود ، واتّساع موضوعاته ، وبسطة بيانه ، وقوّة ما ينطوى عليه من أحاسيس . وقد تسبّب فى ذلك تفضيلُ الشعراء البعد عن البلاطات لما فيها من أخطار ، ونفوذ الأفكار العرفانيّة فى الشعر الفارسى ووصوله إلى الخانقاهات ، وتأثّره بالحكمة والعلوم المختلفة والأفكار الدينيّة والأبحاث المذهبيّة .

(جـ) عرض العقائد الصوفيّة بأبلغ أسلوب ، والدعوة إلى العزلة والاعتكاف .

(د) سيادة نزعة التشاؤم وكراهية الزمان .

(هـ) الاهتمام الكبير بإيراد المعانى والمضامين الدقيقة فى المديح وغيره من الأغراض الشعريّة ، مما تسبّب عنه الإبهام والغموض ، وتأليف الشروح لشرح بعض الأبيات وإزالة غموضها (١) .

(و) إيراد أبسط الأساليب وأقربها إلى الطبيعة فى الغزل .

(ز) سير التيّار الفكرى للمنظومات فى اتجاهين متعارضين ، أحدهما يساند الفلسفة والحكمة والآخر يعارضها ويعتبرها إلحاداً ؛ فبينما يرى « الأنورى » – مثلاً – أن الوقوف إلى جانب الفلاسفة والحكماء مدعاة للفخر ، ويجاهر

---

(١) رغبة من البعض فى إزالة الغموض الذى يكتنف أبيات الأنورى الشاعر السلجوق – على سبيل المثال – وجدنا الكثير من الشروح مثل : شرح مشكلات ديوان أنورى لحسين فرهانى .

بتبحّره فى الفلسفة وعلوم الحكمة ، ويبدى اعتقاده فى « ابن سينا » وينقل مؤلّفاته بخطّه .. يصرّح « سنائى » أن الإيمان بعقيدة اليونانيين معطّل للدين ، وأن قراءة الفلسفة أمر خارج عن التعقّل . ويدعو أتباعَ أرسطو وأفلاطون إلى نبذ مقالات مجانين اليونان ، ويؤكّد أن العقل فى قراءة القرآن والوقوف على أحكامه .

ويتّجه « الخاقانى » الاتجاه نفسه ، فيسبّ الفلاسفة ، ويتّهمهم بخلط دين العرب بالفلسفة .

والجدير بالذكر أن شعراء ذلك العهد كانوا يكوّنون طبقة محترمة ينتمى إليها الخاصة والعامة ، ويشكّلون جزءا لا يتجزأ من مجالس العظماء .. (١) يؤنسونهم ، ويتغنون بفضائلهم ، ويمازحونهم ، ويرافقونهم فى أسفارهم ، ويلهون معهم ، ويجالسونهم للطرب ولعب النرد والشطرنج . وكان بعض العظماء – مبالغة منهم فى تكريم الشعراء – يعودونهم فى منازلهم إذا مرضوا ، ويمتنعون عن سماع الأغانى ومجالسة الغوانى احتراما لمشاعرهم . إلا أنّ ذلك لم يكن يعصم الشعراء من إيذاء سادتهم حين يحلو لهم أن يوقعوا بين شاعر وآخر ليسمعوا هجاءهما بغية التسرية عن أنفسهم .

وقد أشتهر معظم شعراء هذا العصر بالخلاعة والمجون والإسراف والغرق فى بحار المتعة نتيجة لما وصل إلى أيديهم من أموال أغدقها عليهم العظماء بلا حساب .

وكانت شهرة الشاعر تعتمد على درايته الكبيرة فى أكثر من فرع من فروع العلوم . فقد ساد الاعتقاد بأنه كما يفيد الشعر فى كل علم فإن كل علم يفيد فى الشعر . وكان فى مُكْنَة بعضهم أن يؤلّف الكتب والرسائل . أما الإجلال والتقدير .. فقد كانا من نصيب الشاعر القادر على الارتجال ، والإتيان بحروف

---

(١) كان التكسّب بالشعر أمراً سائداً لا يتجنّبه إلاّ الأثرياء أو من يخشون حياة القصور وما فيها من مكائد ، وكان التكسّب يصل بالشاعر أحيانا حدّ الاستجداء من الممدوح .
أنظر : الأنورى : عصره وبيئته وشعره ، ص ٣٧ .

الروى الصعب ، والذى لا يقتصر على موضوع شعرى واحد ، ولهذا تعدّدت موضوعات الشعر ، ونظم الشعراء فى كلّ ما نظم فيه سابقوهم من المشاهير .

وقد عُقدت إمارة الشعر فى هذا العصر لعدد من مشاهير الشعراء ، وكان العظماء يسمحون لأمثال هؤلاء باختيار الشعراء الصالحين للبلاط ، مما فتح بابا للتنافس والخصومات ، وجعل البعض يزيل من طريقه من يتوسّم فيه النبوغ .

* * *

الفصل السادس
الناحِيَة العِلميَّة

منذ أواخر القرن الخامس الهجرى وطوال السادس تزايد الاهتمام بإنشاء المدارس . وقد تسبّبت المدارس فى الحّد من انتشار العلوم العقليّة ، وتسبّبت فى رواج اللغة العربيّة . ولأن العلوم العقليّة لم تكن تحظى بحب العامّة أو الخاصّة ، والعقيدة السائدة آنذاك هى أن الدراسات الدينية تؤدى إلى الرفاهية والوظيفة والراتب ، ولأن المتديّنين كانوا يقفون أموالهم وأملاكهم على المدارس التى تهتم بتدريس العلوم الدينيّة .. كان الإقبال عليها دون غيرها . ولم يكن يسمح فيها بقراءة كتب العلوم العقليّة – ولا سيما ما يتعلّق منها بالفلسفة ، ولم يكن يسمح فيها بالحديث فى الفلسفة أو الهندسة أو النجوم . ولمّا كان البحث فى مجال العلوم الدينيّة يتطلّب سعة اطّلاع فى حقل اللغة العربيّة وآدابها فقد اكتسبت هذه اللغة قوة ، واثّرت هى وأدبها فى الأدب الفارسى بصورة كبيرة لم يسبق لها نظير .

وكانت كلّ مدرسة – وفقاً لما يحدّده صاحب الوقف – تختصّ بفرقة مذهبيّة دون غيرها . وكانت مدارس الشيعة الإثنى عشرية ومراكزها التعليمية – شأنها شأن مدارس السنّة – تنعم بإقبال الدارسين والمدرّسين ، فكان فى إحداها مثلا ٤٠٠ شخص بين متكلّم وفقيه ومتعلم يدرسون الشريعة . غير أن مدارس السنّة كانت أكثر عددا ، ومن أهمها المدارس النظاميّة [١] ، وكانت خراسان لعظمتها تشتمل على عدد كبير من المدارس .

---

(١) يخطىء من يظن أن نظام الملك – الوزير السلجوقى – أول من بنى المدارس فى الإسلام ، إذ الواقع أنه كان فقط أول من عيّن راتباً ثابتا للطلاّب ، وأوقف الأموال لتغطية رواتبهم ورواتب الفقهاء ، وكان سخيا فى الإنفاق على المبانى .. مستهدفاً – هو ومن أسسوا المدارس النظاميّة – ثواب الله وخدمة المذهب الشافعى ومقاومة المغرضين . وقد أثبت المؤرخون وجود عشرات المدارس إلى جانب المدارس النظامية . وذكروا أنها كانت حافلة بالعلماء الاجلاّء ... وتقع مبانيها فى بغداد وخراسان ونيشابور والبصرة وأصفهان وبلخ وهراة ويزد والموصل . =

وهكذا يمكننا القول إن فترة الحكم السلجوقى كانت فترة رواج للعلوم المذهبيّة والأدبيّة بصفة خاصّة ، وفترة انطلاق للحركة المدرسيّة فى الإسلام .. لأن طبيعة الظروف السياسيّة العامّة كانت تتطلّب تلك السياسة التعليميّة .

وقد استمرت المساجد فى أداء وظيفتها التعليميّة ، وأُلحقت بمعظمها خزائن للكتب ، وانتشرت قربها حوانيت الوراقين ، وأصبحت مراكز أبحاث وأماكن لقاء .. يلتقى فيها الخبراء وهواة الدرس . وقلّما وُجدت مدينة تخلو من مجالس لتعليم التفسير والحديث والفقه والكلام والأدب [1] .

وكان الأمراء والحكّام والسلاطين والخلفاء يشرفون على إدارة المدارس ، وكان الناظر أو المتولّى يدير الوقف ، ويقوم بالتدريس معيدون متخصّصون ومدرّسون ، أو نائبو تدريس فى حالة الافتقار إلى مدرّسين أكفاء [2] .

وكان الطبّ يدرس فى المستشفيات وفى عدد قليل من المدارس . أمّا علم الحساب فكان يدرس بالمدارس ويحظى بالاهتمام . ولما كان علماء المسلمين راضين عن عِلمَى الأديان والأبدان دون العلوم العقلية .. فقد لجأ أساتذة الفلسفة وأمثالها إلى تعليم تلاميذهم خارج المساجد والمدارس .

وإلى جانب ذلك وجدت الخانقاهات والربط حيث يتعلم الصوفيّة [3] ،

= إرجع الى :
سراج الملوك ، ص ١٢٨ ؛ المختصر المحتاج إليه ، جـ ١ ، ص ١١٦ ؛
وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ٣٩٦ ، جـ ٣ ، ص ٣٧٥ ، جـ ٦ ، ص ٢٥٢ ؛
رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ؛ طبقات الشافعيّة ، جـ ٣ ، ص ١٣٧ ؛
دليل خارطة بغداد ، ص ٢٢٣ ؛ مرآة الجنان ، جـ ٣ ص ٢٨٤ ؛ الجامع المختصر ، ص ١٧٨ ؛
منية الأدباء ، ص ٢٠٥ ، الروضتين ، جـ ١ ، ص ٦٥ .

(١) تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، ص ٣٩٢ - ٤٠٠ .

(٢) الحوادث الجامعة ، حوادث عام ٦٢٦ ، رحلة ابن بطوطة ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٣) (الخانقاهات) تسمية فارسية عرفتها فارس والشام ومصر من الكلمة « خانقاه » وأصلها « خانكَاه » : بيت الدراويش ، أما (الربط) فتسمية عرفتها العراق ، ومفردها الرباط .

وكان لها أوقافها وخدمها . وكانت اجتماعات الذِكر الجماعى أو السماع تتم فى الربط إلى جانب الزهد والعبادة . ثم تطوّر الوضع فأصبحت كذلك أماكن للتأليف والتصنيف والقراءة والتثقيف ، منها تؤخذ الإجازات وفيها تُلقى المحاضرات . كما أُلحقت بها مكتبات عامرة لخدمة الصوفيّة [١] ، وبمرور الوقت صارت الربط عالَما ثقافيا له خصائصه المتميّزة فى الحضارة الإسلاميّة ، فقد نشأت فيه ألحان خاصّة تجمع بين الموسيقى والإنشاد ، وتتّسق ونفوس المقيمين فى الربط ، وتتناسب مع ورعهم وخشوعهم وذكرهم .. فكأن الربط بوضعها هذا قد ساهمت مساهمة جديّة فى تطوير الحركة الثقافية وازدهارها فى العصر السلجوقى .

وتنقسم علوم هذا العصر إلى شرعيّة وعقليّة ، وقد أُلّف العديد من الكتب فى كل قسم .

١ – العلوم الشرعيّة [٢]

من بينها **علم القراءة** ، وقد نال اهتماما بالغا ، واشتغل به عدد من كبار العلماء . ومن بينها **علم التفسير** ، وقد ارتقى على أيدى السنّة والشيعة ، وكُتبت فيه كتب هامّة فارسيّة وعربيّة ، وأهتمّ المؤلّفون فيه بالتفصيل أكثر من ذى قبل ، وكانوا ما بين شيعى وسنى وأشعرى ومعتزلى ومتصوّف ، وكان كل منهم يحاول إثبات عقائده فى كتبه . وكان أتباع الفرق يطرحون ما يريدون بحثه من مسائل تتعلّق بتفسير القرآن فى مجالس الوعظ ، ويأتى التفسير من وجهة نظرهم ويعتمدون فى أحكامهم على تفكيرهم واطّلاعهم . أما أبحاثهم فتدور فى نطاق تخصّصاتهم ، فعالِم النحو ينظر فى القرآن من جهة قواعد النحو ، وعالِم الأخبار ينظر فيه من جهة القصص والأخبار ، والفقيه من جهة قواعد الفقه ، والصوفى من جهة التصوّف .

---

(١) تذكرة الحفّاظ ، جـ ٤ ، ص ١٥٣ .

(٢) لمعرفة أسماء من اشتهروا فى ميدان العلوم الشرعيّة ، والوقوف على أشهر مؤلفاتهم وتواريخ تأليفها وما تشتمل عليه .. وما إلى ذلك .. ارجع إلى :
السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٣٧٨ – ٣٨٨

ومن بين العلوم الشرعيّة **علم الحديث** ، وكان المفسّر يهتمّ به لمعرفة أسانيد رجال الحديث وأسمائهم ومراتبهم . وكان عليه أن يحفظ قدرا كبيراً من الأحاديث ، وأن يقرأ الكتب التالية على أستاذ ، ويحصل منه على تصريح بروايتها :

الجامع الصحيح لمحمد بن إسماعيل البخارى ؛ صحيح أبى الحسين مسلم ابن حجاج النيشابورى ؛ سنن ابن ماجه ؛ سنن أبى داود ؛ جامع الترمذى ؛ سنن النسائى .

ويُلزم المفسّر أيضا بحفظ مسند الإمام أحمد بن حنبل أو موطأ مالك .

ومن بينها **علم الفقه** وكان مجالا خصبا لكثير من المؤلّفين . وقد تقدّم علم الأصول بصورة فريدة ، وذاعت شهرة عدد من فقهاء الشافعيّة والشيعة ، وجُمعت فتاوى عديدة كُتبت لها الشهرة فيما بعد .

وفى **علم الكلام** ، راج الخلاف حول المسائل الكلاميّة أكثر من سواها من المسائل المذهبيّة ، وشاع بين الأئمة أمر المناظرة والبحث فاقتضى ذلك دراسة علميّة للجدل وأصول الكلام .. وغير ذلك .. وكثر العلماء المتبحّرون وألّفوا العديد من الكتب ، وكان منهم السنى ومنهم الشيعى .

وبلغ علم الكلام وعلوم الجدل والخلاف والمناظرة منتهى الكمال لدى المذاهب السنيّة . وكان المذهب الأشعرى من أهم المذاهب الكلاميّة ، وذلك على العكس من مذهب الاعتزال الذى اتّسم بالضعيف .. إلاّ فى العراق وخوارزم وما وراء النهر . وقد قام النزاع بين الأشاعرة والمعتزلة ، وشارك فيه المشبّهة والمرجئة والكرامية .

ب – العلوم العقلية [١]

فى مجال العلوم العقليّة ، تضافرت عدة عوامل فى هذا العصر لتأخذ بيد هذه العلوم فى طريق الضعف ، ومن جملة هذه العوامل :

---

(١) لمعرفة الكثير عما ألّف فى ميدان العلوم العقلية ، إرجع إلى :
السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٣٨٩ – ٣٩٩ .

١ – الاهتمام بالوضع السياسى والاجتماعى .
٢ – قوّة علماء الدين .
٣ – التعصّب الشديد للعقائد المذهبيّة .

وقد قوبلت الفلسفة – وهى على رأس العلوم العقليّة – بتعصّب ومقاومة شديدتين ؛ فكلّ ألوان البحث والاستدلال واللجوء للعقل لحلّ المعضلات الدينيّة يُعَدّ فى نظر علماء السنّة والحديث والمعتقدين بظواهر الأحكام والآيات من بين المسلمين .. جسارة كبيرة خارجة عن حدّ المألوف .

ومن العلوم التى حوربت وكانت موضع النفور : العلوم الفلسفيّة والحِكَميّة . ويعدّ هذا التصرّف امتدادا لتصرّف « المتوكّل » أثناء خلافته (٢٣٢ – ٢٤٧ هـ = ٨٤٦ – ٨٦١ م) ، فقد منع الجدل والمناظرة وعاقب من يمارسونهما ، وأمر بالتقليد وأظهر الرواية والحديث . ومن يومنها بدأ التشدّد ضدّ المعتزلة أهل البحث والنظر والاستدلال . وتسبّب هذا الموقف فى إلصاق تهمة الكفر والزندقة بالرياضيين والفلاسفة والمتكلّمين والمعتزلة ونظائرهم ، وكان ذلك فرصة لظهور الأشعرى والأشاعرة [1] .

ومع تغلّب الترك على جهاز الخلافة سنحت الفرصة للسنّة والمحدّثين والفقهاء والمتعصّبين من العوام لإيذاء الفلاسفة والحكماء ، وصارت محتويات الكتب أفضل ما يتفتّق عنه العقل ، والعالِم الحافظ للعديد من النصوص الدينيّة واللغويّة أفضل من قليل الحفظ كثير التفكير ، والفقيه والمحدّث والمفسّر موضع التكريم أكثر من الفيلسوف والمفكّر .. لهذا ضاع رونق الفلسفة وسائر العلوم العقليّة وقلّ رواجها . وبمرور الوقت ، حلّ الفقهاء والمحدّثون والمفسّرون والمتكلّمون من الأشعريّة والكرامية وغيرهم مكان الشخصيّات البارزة فى الفلسفة والكيمياء والطبّ والطبيعيّات والرياضيّات والمنطق والإلهيّات .

---

(١) مروج الذهب ، جـ ٤ ، ص ٢٤٦ ، ظهور الإسلام ، ص ٤٣

ومنذ القرن الخامس ، مُنع تعلُّم العلوم العقليّة فى مدارس خراسان ثم العراق وبقية الممالك الإسلاميّة . واقتصرت الدراسة على الأدب ، والعلوم الدينية ، فقلّ رواج العلوم العقليّة واهتمام الطلاّب بها .

وكان ازدياد قوّة المتصوّفة كارثة ابتليت بها تلك العلوم ، لأن الصوفيّة تخالف كل العلوم وتعتبرها حجاب الحقيقة .

ولمّا كان العلم الموروث عن النبى عليه السلام هو وحده – فى نظر أئمة الدين والفقهاء والزهّاد – العلم النافع .. فقد اعتبروا علوم الأوائل علوما مهجورة تنتهى بالكفر والتعطيل (١) . وكان متكلمو الشيعة والسنّة على السواء يعادون الفلاسفة والحكماء ، ويعتبرونهم أعداء للدين منكرين لوحدانية الله . وكان ابن رشد وأبو بركات البغدادى والغزّالى والشهرستانى والرازى وسنائى والخاقانى والكنانى الأندلسى ممن هاجموا الفلاسفة . لكنّه .. برغم تلك الصعاب ، وُجِد بعض الحكماء ، ووُجدت أماكن لتعليم الفلسفة . ويعتبر فلاسفة هذا العهد تلاميذ فى مدرسة ابن سيناء .

وإلى جانب علوم الحكمة وُجدت العلوم **الرياضيّة والفلكيّة** ، وكان الرياضيّون والمنجّمون ينعمون برضا العظماء إذا أصابوا ، ويتعرضّون لسخطهم ونقمتهم إذا أخطأوا . وكان يشترط فى المنجّم ألاّ يضارَع فى أربعة علوم : الهندسة ، والحساب ، والهيئة ، والأحكام . وقد وَضِعت فى هذا العهد مؤلّفات بالفارسيّة فى الرياضة والفلك .

وإذا تحدّثنا عن الطبّ باعتباره أحد العلوم العقليّة .. قلنا إن هذا العلم لم يحرز تقدما ملحوظا على يد أهل هذا العصر ، فالعلماء لم يتجاوزوا سابقيهم كابن سينا مثلاً ، غير أنهم تركوا مؤلفات شهيرة فى هذا الفن كان بعضها بالفارسيّة . وقد بذل العلماء الكثير فى سبيل خدمة اللغة الفارسيّة حين ضبطوا العديد من الاصطلاحات الطبيّة الفارسيّة المتداولة فى ذلك العهد ، وأثبتوها وقاموا بتسجيلها .

---

(١) مجموعة الرسائل الكبرى ، جـ ١ ، ص ٢٣٨ ...

وقد عمل بعضهم فى مهنة الطبّ ، وكان يكسب قوته من وراء علاج المرضى . ولوحظ أن معظم الرياضيين والفلاسفة كانوا على دراية بفن الطبّ ، وكانت لهم مؤلّفات فى هذا الفرع من العلوم العقليّة .

جـ – العلوم الأدبيّة واللغويّة والبلاغيّة [١] :

وإلى جانب العلوم الشرعيّة والعقليّة وجدت العلوم الأدبيّة واللغويّة والبلاغيّة ؛ وارتقت رقيا ملحوظا لانتشار المدارس فى الممالك الإسلامية كافة ، وكثرة الأساتذة العظام .

ويرجع رواج العلوم الأدبيّة إلى الاهتمام بتدريس العلوم الأدبيّة العربيّة إلى جانب الدينيّة ، وإلى وجود المكتبات والأوقاف فى العديد من المدن مما ييسر الأمر على الدارسين . كما ساهم فى الرواج وجود سلاطين ووزراء وعظماء يعملون على تشجيع علماء اللغة العربيّة وآدابها ، مما أدّى إلى زيادة عددهم .

وقد سار **علم اللغة** فى هذا العصر على الخط الذى اتّبعه أصحاب العلوم اللسانيّة من قبل ، فنظّمت الكلمات بناء على قواعد الاشتقاق ، واتّبع أسلوبان معروفان بين اللغويين الإسلاميين فى تدوين الكلمات :

(ا) الأسلوب المبنى على تنظيم الألفاظ من جهة معانيها (وينتج عنه معاجم المعانى) .

(ب) الأسلوب المبنى على تنظيم الألفاظ بناء على حروف الهجاء ، وذكر معانيها (وينتج عنه معاجم الألفاظ) .

ومن أبرز خصائص كتب اللغة فى ذلك العهد أنّ بعضها كان يشتمل على تفسير الألفاظ باللغة الفارسيّة . هذا وقد أنجب هذا العصر عددا كبيرا من كبار علماء اللغة .

---

(١) لمعرفة الكثير حول من ألّفوا فى هذا الميدان وحول مؤلفاتهم .. أنظر : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٣٩٩ ، ٤٠٣ .

أما **العلوم البلاغية** فإنها بلغت مرتبة الكمال ، وأصبحت تخضع لضوابط وقواعد مدوّنة ، وصال فى ميدانها وجال عدد من كبار علماء العصر السلجوقى ، أمثال : « عبد القاهر » صاحب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز .. وهما فى مقدّمة الكتب المدوّنة المرتّبة فى علم المعانى والبيان ، وإن عابهما خلوّهما من مراعاة ترتيب الفصول الأبواب . و« جار الله الزمخشرى » صاحب أساس البلاغة ، والقسطاس ، والمحاجاة (محاجّات) فى علم الأحاجى . و« السكّاكى الخوارزمى » (سراج الدين أبو يعقوب يوسف) صاحب كتاب مفتاح العلوم .

وبدأ تأليف الكتب البلاغية وتدوينها باللغة الفارسيّة فى أواخر القرن الخامس الهجرى على يد « محمد بن عمر الرادويانى » الذى ألّف كتابا بالفارسيّة يبحث فى المعانى والبيان والبديع الفارسى أسماه « ترجمان البلاغة » . وقد اعتمد « رشيد الدين الوطواط البلخى » على هذا الكتاب – قبل ضياعه – فى كتابة كتاب فارسى يبحث فى الموضوع نفسه ، أسماه « حدائق السحر فى دقائق الشعر » .

* * *

الباب الثاني

بيئة الخيام وحياته

الآن ، وبعد هذه السياحة السريعة فى عصر الخيام ...

أرجو أن أكون قد وفّقت بعض الشىء فى إعطاء خلفية أحسست أنه لابد من توافرها لمعرفة السرّ فى اتجاه الخيّام إلى أمر دون آخر ، أو ربّما لالتماس العذر له إذا كان قد تعلّق بشىء يُستغرب من مثله التعلّق به .

والحقّ أن الحديث عن الخيّام قديم جديد ، لكنّه فى كل حال يؤكّد أن رباعيّاته المتّسمه بشدّة التركيز ، وتشعّب الأهداف ، وتأرجح الأسلوب بين الرقّة والمنطق والاستدلال والجدّ والمزاح والفكاهة والجرأة والخوف والخشية والرجاء .. إنما هى رباعيّات ذات ظاهر وباطن ، على نحو يجعل قرّاءها ينقسمون بشأنه إلى أكثر من فريق ، فبينما يضعه فريق بين كبار المتصوّفة وأهل العرفان ، يضعه آخر فى مصاف الفلاسفة ومنكرى الأديان ، وبينما يؤكّد فريق خلاعته ومجونه ، يرجّح غيره اتّجاهه إلى طلب المعرفة .. شأنه شأن العلماء المتدبّرين متفتحى الأذهان .

والخيّام فى عجالة سريعة هو أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيّام (أو الخيّامى) [1] .. أحد كبار مفكّرى إيران وعلمائها فى العصر السلجوقى .

---

(١) (الخيّام) لقب للشاعر ولعائلته ، وهو يفسّر هذا اللقب فى رباعيّة له حين يشبّه نفسه بالخيمة . ويبدو أن أباه وعائلته كانوا يصنعون الخيّام . وعلى أى حال فإنه لا يوجد ما يؤكّد الطبقة الاجتماعيّة التى تنتمى إليها عائلته .

وقد وُلد الخيّام فى عهد السلطان طغرل – مؤسس الدولة السلجوقية – وعاش حقبة دراسته وسنى شبابه فى عهد ألب أرسلان . ودخل فى خدمة ملكشاه ، وعاصر كلاً من : محمد ومحمود وبركيارق .. أبناء ملكشاه ، كما عاصر ملكشاه بن بركيارق ، وشهد طفولة سنجر وعاده أثناء إصابته بمرض الجدرى ، ومات بعد جلوسه على العرش – سلطاناً – بمدّة طويلة .

وفى مقدّمة رسالة الخيّام فى الجبر والمقابلة وفى جهار مقاله لنظامى ، وفى الزاجر للصغار عن معارضة الكبار للزمخشرى يرد لقبه النسبى « الخيّامى » وليس الخيّام . ويرد فى معجم الألقاب (المجلد الرابع ، ص ١٧٦) ما يفيد أن هناك شاعرا يعرف بالخيّام اسمه علاء الدين على بن محمد بن أحمد بن خلف الخراسانى ، له ديوان بالفارسيّة تعرفه خراسان وآذربيجان ، وهو غير عمر الخيّام المعروف .

وفى الرسالة التى كتبها الإمام القاضى أبو النصر محمد بن عبد الرحيم النسوى للخيّام يسأله عن حكمة الله فى خلق الإنسان وتكليفه بالعبادة ... يرد لفظ (الخيمى) فى قوله :

إن كنت ترعين ياريح الصباذمى   فاقرى السلام على العلامة الخيمى

عاصر السلاطين العظام من آل سلجوق : طغرك وألب أرسلان وملكشاه وسنجر ، وارتبط ببعضهم على نحو ما . ولازم خاقان بخارى : « شمس الملوك » الذى يؤثر عنه أنه كان يدعوه للجلوس إلى جواره على العرش . وزامل – فى المرحلة المبكرة من حياته الدراسية – كلاً من « نظام الملك » الوزير السنّى الخطير ، و« الحسن الصباح » الداعية الشيعى الشهير [١] .

وقد كانت علاقة الخيام بالسلطان ملكشاه علاقة طيبة ، وكان ينزله منزلة النديم ، يؤكّد ذلك قول الخيام :

« كنت يوما بين يدى السلطان ملكشاه ، فدخل على صبى من أولاد الأمراء وأدّى خدمة مُرضِية ، فتعجبت من حسن خدمته على صغر سنه .. فقال لى السلطان :

لا تتعجب فإن فرخ الدجاجة إذا تفقّات بيضته يلتقط الحب بلا تعلّم ، ولكنه لا يهتدى إلى بيته سبيلا . وفرخ الحمامة لا يلتقط الحب إلاّ بتعليم الزق ، ومع ذلك يصير حماما هاديا يطير من مكة إلى بغداد . فتعجّبت من كلام السلطان ، فقلت : (كل كبير ملهم) .

---

(١) يمكن الوقوف على القصّة الخاصة بزمالة الخيّام لنظام الملك والحسن الصباح فى فترة الدراسة .. بالرجوع إلى : كتاب « الوصايا » لنظام الملك ؛ « جامع التواريخ » لرشيد الدين فضل الله ؛ كتابنا « النار تتكلم » ، ص ١٩٥ ؛ تاريخ كَزيده ؛ روضة الصفا ؛ حبيب السير ؛ تذكرة دولتشاه ؛ المقدّمات الإنجليزية والفارسيّة على الرباعيّات . وهناك من يؤكّد هذه القصة أو يرى على الأقل أنها غير مستبعدة ، كأبى نصر مبشر الطرازى الحسينى فى كتابه « كشف اللثام عن رباعيّات الخيّام » . وهناك من يستبعدها كمحمد ابن عبد الوهاب القزوينى فى حواشيه على « جهار مقاله » (ص ٢١٧ ، طبعة عام ١٩٠٩ م) استنادا إلى أن نظام الملك قد وُلِد فى عام ٤٠٨ هـ ، ومات الخيّام فى عام ٥١٧ ، ومات الصباح بعده بعام .. فلكى تتحقق هذه الزمالة يكون كلّ من الخيّام والصباح قد عاش أكثر من مائة عام .. وهذا فى رأيه أمر مستبعد .

أما إذا صَحَّت الرواية فقد كان من نتيجتها تخصيص نظام الملك مبلغ ألف ومئتى مثقال من الذهب سنويا للخيّام . وقد رضى الأخير بها دون المناصب ، فتمكّن من تأدية مهمّته نحو العالم الإنسانى .

ومن مظاهر العلاقة الطيّبة أنه انتدبه عام ٤٦٧ هـ على رأس عدد من الفلكيين - أو ضِمْنهم - للقيام بتعديل التقويم السنوى ، فوضع التقويم الجلالى (الزيج) الذى لم يُكتب له البقاء ولم يعُمّ استعماله .. على الرغم من أنه أدقّ من التقويم الغريغورى المألوف .

أما علاقته بالسلطان سنجر فكانت سيئة . ويرد فى العديد من المصادر أنه كرهه لإذاعته خبر مرضه بالجدرى فى صباه . لقد حدَّث عمرُ الخيام فى ذلك الوزيرَ « مجيرَ الدولة » بعد أن فحص الصبىَ « سنجر » ، فسمعه خادم حبشى وفهم ما يرمى إليه ، فرفع ذلك إلى سنجر . فلما شفى أضمر له البغض ، ولما صار سلطانا لم يُبد ميلا إليه . ورغم عمومية هذا الخبر .. فإن « شمس الدين السامى » فى كتابه قاموس الأعلام التركى يقول إن « سنجر » كان يجلسه على كرسى خاص فى جنب عرشه .

وُلِدَ الخيام فى نيشابور أو بستك أو شمشاد ، على خلاف بين المؤرخين . غير أن الغالبية تميل إلى نسبته إلى نيسابور .. التى كانت تشتهر على عهده بمدرستها النظامية الرفيعة المستوى ، التى اشتهرت بالعلاّمة « عبد الملك الجوينى » . وقد عُرِف عن هذه المدينة - التى اشتهرت بخضرتها وطيب هوائها وفخامة مبانيها وكثرة قبابها ومئاذنها ووفرة علمائها ومدارسها ومكتباتها - شيوع الصراعات الطائفية وغير الطائفية بين أرجائها ، كما أُثِر عنها أنها كانت بيئة صالحة لإحدى الطوائف المتحمّسة ، ونعنى بها طائفة (الكرامية) التى أسسها أبو عبد الله محمد ابن كرام النيشابورى ، والتى تتميَّز برفضها السنّة والشيعة ، وقولها بالتجسيد .

وقد خرّجت نيسابورُ - بصفة عامة - العديدَ من أهل العلم والأدب والفلسفة والطب . والثابت أن الخيّام قد نشأ بها ودفن فيها ... وذلك فى مقبرة إمام زاده محمد المحروق الواقعة فى حيره نيسابور . أما ولادته بها فأمر غير مؤكّد .

وعلى أى حال فقد كان لبيئتها تأثير فى حياته وفكره ونبوغه [١] .

وكان يخرج منها فى بعض أسفاره وسياحاته ليعود إليها ثانية وبذا قضى بها سنى عمره .

والثابت أن الخيّام كان حيا حتى عام ٥٠٨ هـ ، فقد أخبرَنا معاصرُه وتلميذُه الشاعر الفارسى « نظامى العروضى السمرقندى » فى كتابه : جهار مقاله (المقالات الأربعة) أنه (أى الخيّام) قد أخبر السلطان الحاكم – فى العام المذكور – عن أنسب الأيام لخروجه للصيد ، بعد أن استشاره باعتباره منجّما [٢] .

كما أخبرنا بما يثبت أيضا أنه قد دفن فى نيشابور ، إذ قابله – بناء على روايته – فى مدينة بلخ عام ٥٠٦ هـ ، وسمع منه أن قبره سيكون فى موضع يسمح للورود – التى تنثرها ريح الشمال ربيع كل عام – أن تغطّيه . وحين زار نيشابور عام ٥٣٠ هـ ، وجد القبر على الصورة التى تنبّأ بها الخيام ، وسمع من أهل المدينة أنه قد توفى منذ بضع سنوات [٣] .

ورغم شيوع تلك القصة التى تعنى أن وفاة الخيام قد وقعت فى الفترة ما بين عام ٥٢١ هـ وعام ٥٢٧ هـ .. فإن الكثيرين يجعلون وفاته فى عام ٥١٧ هـ ، ويرتّبون على ذلك أن تكون ولادته فى عام ٤٤٥ هـ . وهم يستندون فى ذلك إلى رباعيّة للخيام قالها فى آخر عمره – على ما يبدو – وقد بلغ الثانية والسبعيّن ..

---

(١) أنظر : راحة الصدور وآية السرور للراوندى ؛ الملل والنحل للشهرستانى ، جـ ١ ، ص ٩٩ – ١٠٤ .

(٢) الحكاية الثامنة والعشرين من الكتاب الفارسى . ويمكن الاطلاع على نصها فى الترجمة العربية لهذا الكتاب ، تلك التى قام بها الدكتور عزام والدكتور الخشّاب . أو بالرجوع إلى صفحتى ٣٠٥ ، ٣٠٦ من كتاب براون : « تاريخ الأدب فى إيران – من الفردوس إلى السعدى » تعريب الدكتور الشواربى .

(٣) الحكاية السابعة والعشرون من كتاب « جهار مقاله »
أنظر الكتاب المُترجَم ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

غير أنى أرجّح – بناء عل ما ورد فى الرباعيّة نفسها وما جاء فى رواية نظامى السالفة الذكر – أن تكون ولادته فى الفترة ما بين عامى ٤٤٩ ، ٤٥٥ هـ .

يقول الخيّام فى رباعيّته :

شقّ قلبى للعلم كلَّ سبيل ...
لم يعد خافيا – يا صاح – غيرُ قليل ...
بعد سِتّين وسبعين وسُهدٍ وعنا ...
ها أنا أخطو على الدرب الطويل [١].

فإن نحن طرحنا السنوات التى عاشها الخيّام من التاريخ التقريبى الذى وضعه نظامى لوفاته – وفق استنتاجى – نتج ما رجّحته فى هذا الصدد .

ويؤثر عن الخيّام – فى بداية حياته – ميله للتنقّل ، وحبّه للاختلاط ، وشغفه بمجالسة العلماء ومناقشتهم .. فقد وقعت بينه وبين « أبى الحسن البيهقى » – على سبيل المثال – مناظرة فى تفسير بيت عربى ورد فى ديوان الحماسة [٢] . واجتمع به حجة الإسلام الفقيه الغزالى مرارا . قبل أن يقطع صلته به لاختلاف مشربيهما الفلسفى والعَقَدى . وقد أورد صاحب كتاب « حكماء الإسلام » خبرين

---

(١) النص الفارسى :

هركَز دل من زعلم محروم نشد
كم ماند ز اسرار كه مفهوم نشد
هفتاد ودو سال فكر كردم شب وروز
معلوم شد كه هيج معلوم نشد

(٢) ورد هذا الخبر فى « تاريخ الأدب فى إيران » جـ ٢ – الترجمة العربيّة ، ص ٣١٥ ، نقلاً عن كتاب « فردوس التواريخ » ، المؤلّف عام ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ – ١٤٠٦ م . وتفصيل الخبر – طبقاً لما رواه الشيخ الإمام ظهير الدين أبو الحسن ابن الإمام أبى القاسم البيهقى (ت ٥٦٥) « فى حكماء الإسلام » – يتّضح من النصّ الذى أورده المؤلّف والذى يقول فيه : دخلت على الإمام (عمر) رحمه الله فى خدمة والدى سنة سبع وخمسمائة ، فسألنى عن بيت فى الحماسة هو :

ولا يرعون أكناف الهوينا   إذا حلّوا ولا أرض الهدون =

عن لقاءٍ عظَّم فيه الغزالى الخيّام ، ولقاءٍ لم يقع من نفس الغزالى موقع القبول ؛ فقال فى الخبر الأول :

(قيل) دخل الإمام عمر يوما على شهاب الإسلام الوزير ، وهو عبد الرزاق ابن الفقيه الأجلّ أبى القاسم عبد الله بن على ابن أخ نظام الملك ، وكان عنده إمامُ القرّاء أبو الحسن الغزالى (ت ٥١٦ هـ) ، وكانا يتكلمان فى اختلاف القُرّاء فى آية ، فقال شهاب الإسلام : (على الخبير سقطنا) . فسئل عمر عن ذلك ، فذكر وجوه اختلاف القُرّاء وعلل كل واحد ، وذكر الشواذ وعللها ، وفضّل وجها واحدا على سائر الوجوه . فقال الغزالى : كثّر اللهُ فى العلماء مثلك ، اجعلنى من أرمة أهلك ، وارض عنى ..... فإنى ما ظننت أن واحداً من القرّاء فى الدنيا يحفظ ذلك ويعرفه فضلا عن واحد من الحكماء .

وقال فى الثانى :

دخل عليه الغزالى وسأله عن تعيين جزء من أجزاء الفلك القطبيّة دون غيره ، مع أن الفلك متشابه الأجزاء ، فأطال الإمام عمر الكلام ، وابتدأ من أن الحركة من مقولة (كذا) ، وظنّ بالخوض فى محل النزاع ، وكان من دأب ذلك الشيخ المطاع . حتى قام قائم الظهيرة وأذّن المؤذّن ، فقال الإمام الغزالى : « جاء الحق وزهق الباطل » ، وقام [1] .

= فقلت : الهوينا تصغير لا تكبير له .. كالثريا والحميّا ، والشاعر يشير إلى عزّ هؤلاء القوم ومَنَعَتهم .. يعنى لا يسفون (أى لا يسرعون) إذا حلّوا مكاناً إلى التقصير ، ولا إلى الأمر الحقير ، بل يقصدون الأشد الأشد من معالى الأمور .

ويمضى الخبر فيقول أن الخيّام - بعد إجابة البيهقى - سأله عن أنواع الخطوط القوسية الأربعة . فلما أجابه ، قال الخيّام لوالد البيهقى : « شنشنة أعرفها من أخزم » .

(١) ورد الخبران بصورة مختصرة مقتضية فى تاريخ الأدب فى إيران ، جـ ٢ ص ٣١١ (الترجمة العربيّة) ، نقلاً عن كتاب « نزهة الأرواح وروضة الأفراح » للشهرزورى .. المؤلف فى القرن السابع الهجرى (ق ١٣ م) .

كما وردت فى كتاب « الزاجر للصغار عن معارضة الكبار » ، الذى ألفه أبو القاسم الزمخشرى عام ٥١٦ ، مناظرةٌ بين الخيّام ومؤلف الكتاب .. دارت فى مجلس فريد العصر أبى مضر محمود بن جرير الضبى الأديب ، شيخِ الزمخشرى (ت ٥٠٧ هـ) ، وقد انتصر فيها الزمخشرى واعترف الخيام له بجودة الترتيب والتحقيق . ونصّ ما ورد فى كتاب الزمخشرى ، طِبقاً لما ذكره الصرّاف فى كتابه « عمر الخيام الحكيم الرياضى الفلكى النيسابورى » (ص ٢٨ ، ٢٩) ، هو :

« ولعهدى بحكيم الدنيا وفيلسوفها الشيخ الإمام الخيّامى ، وقد نظمنى وإياه المجلس الفريدى . فسألنى عن عين المطبق والمصمم فى وصف السيف ، فقلت : إنها مكسورة . وفسرت المطبق بانه الذى يصيب طبق المفصل ، والمصمم بالذى يصيب صميمه . وقلت : ومنه قول الخاصّة صممت عزله (كذا والظاهر عزيمة) فلان ، وصمم فلان عزيمة من غلط العامة . وآنسته بقوله (يطبق فى أفعاله ويصمم) .

فقال : أنا كنت أعرف أن العين فيها مفتوحة . وتكلّم فى ذلك بكلام .

فلما كان بعد ذلك بأيام قعد ينشد فى المجلس الفريدى عينيَّة أبى العلاء .

نبى من الغربان ليس على شرع   يخبرنا أن الشعوب إلى صدع

فقال : (أصدقه فى مرته وقد امترت) ، فلحنته ، فلجّ ، وادّعى أن المرت الكذب .

فقلت : لعلّه مذكور فى الكتاب الذى ذكر المطبق والمصمم بفتح العين .

فصمت مسقوطا فى يده ، ثم زاد فى توقيرى . وقال غير مرة لفريد العصر :

« ما أنسَ لا أُنسى سهم الجواب الذى رميت به عن قوس فلان » .

وكان يجلس إلينا ، ويتسمّع الأوراد التى تدرس بين يدى .

وكان يقول لأصحابى : ألا أخبركم عن بصيرة وخبرة ، إنّ مثل هذا الترتيب والتحقيق لا يوجد فى جميع المعمورة إلا فى هذه الرقعة خاصة ، فاعلموا .

وورد فى كتاب « روضة الصفا » لميرخواند (ت ٩٠٣ هـ) حكاية على لسان نظام الملك – الوزير السلجوقى – يفهَم منها أنه حين توجّه إلى نيسابور قادما من طوس ، وقصد الشيخ الموفّق النيسابورى أحد كبار علماء خراسان ، التقي عنده بتلميذين ذكيين ، هما عمر الخيام وحسن الصبّاح ، أوّلهما من نيسابور والآخر من الرى ، فارتبط بهما برباط الصداقة الخالصة . وتعاهد الثلاثة على مساعدة من يصبح ذا قيمة لأخويه .. بعد أن طلب الصبّاح ذلك العهد . وبلغ نظام الملك منصب الوزارة ، فعرض على الخيّام أن يجعله ملازما لمجلس السلطان ، ويجعله مثله ، فرفض مبدياً شكره مظهراً تواضعه فى قوله : (فإن رجلا ضعيفا مثلى لا يكون مظهراً لتواضع وزير المشرق والمغرب) . وأصرّ على مزاولة العِلم والبعد عن المناصب ، فى قوله : (والآن انزوى ملازما لباب دولتك ، ومشتغلا بنشر العلم والفوائد والدعاء لك بالعمر الطويل) . يقول نظام الملك : (وأصرّ الخيّام على هذا الكلام ، لأنى أعلم أنه رجل كان يتكلم بما فى ضميره بلا تكلّف ، فأمرت أن تجرى عليه كل عام ١٢٠٠ دينار من ارتفاع نيسابور ينفقها على معاشه .. ولكنه رجع بعد ذلك إلى موطنه ، واتمّ تعلّمه الفنون خصوصا فنّ الهيئة .. ووصل فى هذا الفنْ إلى درجة رفيعة جدا .

وفى عهد ملكنا العظيم ملك شاه جاء الخيّام إلى مرو وأخذ فى تدريس علم الحكمة ، وكان مظهر عناية السلطان ، وبلغ مقاما كان فيه من كبار العلماء والحكماء) .

غير أن أسفاره الكثيرة إلى الرى وبلخ وبخارى والحجاز وبغداد ، تلك الأسفار التى التقى فيها بالعديد من الشعراء والحكماء والرواة والعظماء ورجال الدين والمفكّرين ، واستفاد فيها من المدارس والمعاهد الدينيّة والعلميّة والأدبيّة وخزائن الكتب ومجالس المناظرة والجدل ... قد تبدّلت بكراهيةٍ للأسفار ورفضٍ للبُعد عن مسقط رأسه . كما تبدّل ميله للاختلاط والانتشار والظهور إلى حُبٍ للعزلة والبعد عن الأضواء – فيما بعد – نتيجة عوامل منها سوء بيئته وقسوة هجمات خصومه ومعارضيه .

لقد مزج الخصوم والمعارضون بين المدح والقدح ، ولاشك أن – مدحهم كان له ما يبرره وكذلك قدحهم . لكن الخيّام – نتيجة خوفه بطش معاصريه – قرّر الفرار ، وإن لم يثنه ذلك عن الرد على من جعلوه هدفا لغمزهم ولمزهم ، مظهراً اعتزازه بنفسه وفكره ومنهجه فى الحياة .

لقد رأى كيف تُلّفق التهم لرجال الفكر وأصحاب الفضل .. رأى تلميذه عبد الله بن محمد الميانجى يصلب فى بغداد (فى السابع من جمادى الآخر عام ٥٢٥ هـ) على يد الوزير الدركَزينى نتيجة تهمه ملفّقه ، ووجد نفسه يتعرّض للاتهام بالزندقة – وهى صفة كانت يطلقها الجهّال فى عصره على الأحرار المفكّرين ، بل وعلى من يخالف ما كان عليه الجمهور – لهذا قرّر الابتعاد عن الدهماء ، والتقليل من الصداقات والزمالات ، وهجر مجالس العلم والمناظرة قدر الإمكان .

ولو تتبّعنا ما صدر على لسان معارضيه لسجّلنا ما يلى من اتهامات ولمزات :

(١) يقول البيهقى عن الخيّام فى (حكماء الإسلام) : سيىء الخلق ضيّق العطن ، له ضنّة بالتصنيف والتعليم .

(٢) ونجمُ الدين أبو بكر الرازى فى (مرصاد العباد) :

ما الحكمة فى جعل هذه الروح العلوية النورانية فى قالب سفلى مظلم متخذ فى التراب ؟ . ثم ما السبب فى التفريق بين الروح والجسد وقطع العلاقة بينهما ؟ . لم تتلاشى هذه الصورة وهذا الشكل ؟ وما السبب فى نشر جسد الإنسان فى المحشر مرة أخرى ؟

أجل إن الذى خرج من زمرة (كالأنعام بل هم أضل سبيلا) ، ووصل إلى المرتبة الإنسانية ، وخلص من قوله : (ويعلمون ظاهراً من الحياة وهم عن الآخره هم غافلون) ، وسلك بذوق وشوق عظيمين الطريق الحسن .. علم أن ثمر النصر والقدم هو الإيمان والعرفان .

إن الفيلسوف الدهرى الطبيعى محروم من هذين المقامين ، حتى أن أحد الفضلاء وهو المشهور بحكمته وكياسته (عمر الخيّام) قد تاه فى بيداء الضلال بقوله :

مجيئنا وذهابنا فى دائرة .. لا بداية لها أو نهاية .

ولا قدرة لأحد على إخبارنا من أين كان مجيئنا فى البداية ، وإلى أين ذهابنا فى النهاية .

وبقوله :

إذا كان الخالق قد ركّب الطبائع .. فلماذا جعلها قابلة للزيادة والنقصان ؟!

إن جاءت رديئة فالعيب عيبه ، وإن جاءت جيدة .. فلماذا يفسدها بالأدران ؟!

(٣) ويقول المؤرخ العربى الوزير جمال الدين أبو الحسن على – ابن القاضى الأشرف يوسف القفطى (ت ٦٤٦ هـ) ، فى (تاريخ الحكماء) :

– الخيّام ، يأمر بالتزام السياسة المدنيّة حسب القواعد اليونانية .
– نقل متأخرو الصوفية شيئا من ظواهر شعره إلى طريقهم ومجالسهم وخلواتهم ، وبواطن ظواهر شعره حيّات للشريعة لواسع ومجامع للأغلال جوامع .
– قدحوا فى دينه ، وأظهروا ما أسرَّ من مكنونه ، فخشى على دمه ، وأمسك من عنان لسانه وقلمه ، وحجَّ متاقاة لا تقيَّة ، وأبدى أسرارا من السرار غير نقيّة .
– فى بغداد ، سدّ بابه دون أهل طريقته فى العلم القديم ، سد النادم لا النديم .
– فى بلده بعد الحج ، كان يروح لمحلّ العبادة ويغدو ، ويكتم أسراره فتبدو .

- كان عديم القرين فى علم النجوم والحكمة ، وبه يضرب المثل فى هذه الأنواع لورُزِق العصمة .
- له شعر طائر تظهر خفياته على خوافيه ، وتكدّر عرق قصده كدر خافيه .

(٤) ويتحدّث أحمد بن نصر الله التتوى ، فى (التاريخ الألفى) حول :

- تناسخ الأرواح ، واعتناق الخيام لهذا المذهب .

ويورد رباعيّة يستدلّ بها على قول الخيام بالتناسخ .

(٥) ويقول الخونسارى ، فى (روضات الجنات) :

من المنسوب إلى الخيام – وهو صريح فى الجبرية والأشعرية – قوله بالفارسية :

مى خوردن من نزد خدا سهل بود   كَرمى نخورم علم خدا جهل بود

(يعلم الله أنى سأشرب الخمر ، فإذا لم أشربها يكن علمه جهلا) .

وقد ردّ عليه مولانا الخواجه نصير الدين الطوسى ، بقوله :

علم ازلى علت عصيان كردن   نزد عقلا زغايت جهل بود

(يرى العقلاء أنه من الجهل المطبق أن يكون العلم الأزلى علّة العصيان) [1] .

---

(١) هكذا تعرّض الخيّام لهجوم كبار الصوفية والعلماء والعامة وردّ على من نعته بالفلسفى فى قوله :

فلسفى أنت قال الخصم لى   يشهد الديّان أن قد أخطأ

إننى عند الأسى أسعى إلى   كشف ذاتى هل ترانى مخطئا

وأكّد ميله إلى اعتزال الناس وابتعاده عن الشهرة فى قوله :

السعيد الحق من لم يك معروف المكان

لم يصر فى قوطة أو جبّة أو طيلسان

فهو كالعنقاء قد طار من الدارين طرا

لم يكن مثلى يوما بين أطلال الزمان

(ثورة الخيّام لعبد الحق فاضل ، ص ١١٦) .

ومن القصص والأخبار التى وردت فى كتب السير .. نستنتج أن الخيّام كان يمتاز بقوة الذاكرة والقدرة الفائقة على الحفظ . فقد ورد فى أحد الكتب [١] أنه قد تأمّل كتاباً بأصفهان سبع مرات وحَفِظه ، فلما عاد إلى نيشابور وأملاه لم يجد القوم بين ما أملاه وبين نسخة الأصل كبير تفاوت .

ومن أحدها أيضا نستنتج أن الخيّام كان واسع الحيلة حاد الذكاء ؛ فقد دأب أَحَدُ الفقهاء على اتهامه بالكفر والإلحاد ، بينما هو يذهب إلى داره كل يوم قبل طلوع الشمس ليقرأ درسا فى الحكمة . ولكى يكشف الخيام سرّه ويبرئ نفسه ، أخفى عددا من قارعى الطبول ونافخى الأبواق فى حجرة بداره إلى أن أتى الفقيه كعادته . وما أن استقر به المقام حتى دقّوا ونفخوا ، فحضر أهل نيسابور ، وعرفوا جليّة الأمر [٢] .

وكما ذكرنا سابقا ، فقد أكّد لنا أحد واضعى هذه القصص وذاكرى تلك الأخبار أنه كان يدين بمذهب تناسخ الأرواح [٣] ؛ فذكر فى هذا الصدد أنه (الخيّام) كان يسير فى فناء مدرسة قديمة قد تهدّم قسم من مبناها ، وكانت الحمير تمرّ أمامه حاملة الآجر فى طريقها إلى باب المدرسة ، فرأى حمارا يمتنع عن الدخول ، فتوجّه إله مبتسما وأنشده الرباعى التالى على البديهة :

يا من ذهبتَ وعدتَ كالأنعام فى ثوب الحَزَن ..
وفقدتَ إسمكَ .. لم يَعُد للإسم ذِكرٌ فى الزمن ..
أظفارُك اجتمعت لعينى .. كالحوافر شكلُها ،

---

(١) نزهة الأرواح للشهرزورى .

(٢) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٣١٨ .

(٣) ورد هذا الخبر فى كتاب (التاريخ الألفى) للتتوى ، ونقله المستشرق الروسى (فالنتين زوكوفسكى) فى مقاله بعنوان : Prof . Volentin Zhukovski : Umar Khayyam and the Wondering Quatrians .
أنظر : عمر الخيّام للصرّاف ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، لمعرفة شىء عن التناسخ .

والذقن قد نبتت وراءَك .. فهى ذيلٌ للبدن [1]

وما أن انتهى من انشاد رباعيّته حتى دخل الحمار بين دهشة الحاضرين ، ففسر لهم الأمر بقوله : تقمّصت جسدَ الحمار روحُ مدرس كان يعمل بهذه المدرسة ، فلم تشأ الدخول خشية تعرّف الزملاء عليها . وحين تأكّد لديها معرفتهم خبرها - بعد سماع رباعيّتى - اضطرت إلى الدخول .

والواقع أنى أشتمّ فى رباعيّة الخيام روحَ المزاح ، وألمس فيها ميله إلى التهكّم بالمدرّسين ، أو ربما العطف على أصحاب حرفة التدريس الشاقة المضنية . لكنها على أى حال لا تكفى شاهداً على اعتناقه مذهب تناسخ الأرواح ، ولا سيما إذا أثبتت رباعيّاته عكس ذلك . وربما انتحل القصّة شخصٌ بغية تفسير تلك الرباعيّة التى نظمها الخيّام بنفسه أو نُسِبت إليه ضمن ما نُسِب .

ولا شك فى أن التناسخ مما يشين الخيّام وهو مذهب قديم عرفه الهنود وعرب الجاهليّة ؛ فقد زعموا أن الإنسان إذا مات أو قُتِل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته وانتصبت هامته ، فيرجع إلى رأس القبر على رأس كل مائة سنة .. وقد دفعهم الرسول عليه السلام ، وردّ زعمهم فقال : لا هامة ولا عدوى ولا صفر .

ثم كثر علم العرب بهذا المذهب فى صدر الإسلام ، وذلك منذ أواخر القرن الأول ، وكان فريق من غلاة الشيعة قد تديَّن به كأصحاب « عبد الله ابن سبأ » الذى قال لعلى رضى الله عنه (أنت أنت) أى أنت الإله ، فنفاه إلى المدائن ، فادّعى بتناسخ الجزء الإلهى فى الأئمة بعد على .

ومثل هؤلاء أصحاب « أبى كامل » الذى كان يدّعى أن الإمامة نور يتناسخ متنقّلاً من شخص إلى شخص . وذلك النور يكون فى شخص نبوّة . ويكون

---

(١) اى رفته وباز آمده بل هم گشته
نامت زميان نامها گم گشته
ناخن همه جمع آمده وسم گشته
ريش ازپس كون درآمده دم گشته

فى شخص إمامة ، وربما تناسخت الإمامة فصارت نبوّة . وقال بتناسخ الأرواح وقت الموت .

والغلاة على أصنافهم متفقون على التناسخ والحلول . ولقد كان التناسخ مقالة لفرقة فى كل أمة ، تلقوها من المجوس المزدكيّة ، والهنود البرهميّة ، ومن الفلاسفة والصابئة . ومذهبهم أن الله تعالى قائم بكل مكان ، ناطق بكل لسان ، ظاهر بشخص من أشخاص البشر ، وذلك هو معنى الحلول .

وقد يكون الحلول بجزء كإشراق الشمس فى كوة أو إشراقها على البلّور . وأما الحلول بالكلّ فهو كظهور ملك بشخص أو كشيطان بحيوان ... ومراتب التناسخ أربع : النسخ والمسخ والفسخ والرسخ .

وقد اتخذ جماعة من الدعاة هذا المذهب وسيلة لنشر الدعاية ، لآل البيت . ومن أولئك الشاعر السيد الحميرى الذى أعماه تعصّبه فأخرجه عن طريق الصواب ، وجعله يأتى بنزّهات وسخافات يقابلها العقلاء بالسخرية . وكان المعرّى ممن ذمّ هذا الرأى وشنّعه فى شعره :

يقولون إن الجسم ينقل روحَه　　إلى غيره حتى يهذّبه النقلُ
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلّة　　إذا لم يؤيد ما أتوك به العقلُ

* * *

البابُ الثالِث

نتاج الخيام

لو طرقنا أبواب كتب التراجم لوجدناها تُلبِس الخيامَ ثوبَ العالِم المتمكّن ، وتظهره فى صورة من يجمع إليه الكثير من العلوم الشائعة فى عصره . وتسند إليه مقام الإمامة فى العلوم المذهبيّة والأدبيّة والتاريخيّة ، وتشيد بتفّوقه ونبوغه فى مجالَى الطبيعة والرياضيّات . وتتحدّث عن تبحّره فى علم الهيئة والفلك .. مما أهلّه لرئاسة جماعة من كبار العلماء – بناء على أمر السلطان ملكشاه – لإخراج زيج ملكشاه أو ما يعرف بالتقويم الجلالى . وقد تمكّنت هذه الجماعة فى عام ٤٦٧ هـ من جعل النيروز أول نقطة من الحمل ، وكان قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت . وصار ما فعله السلطان مبدأ التقاويم .

وفى نفس العام عُمِل الرصد للسلطان ملكشاه ، واجتمع جماعة من أعيان المنجّمين فى عمله ، منهم عمر بن إبراهيم الخيّامى ، وأبو المظفر الأسفزارى ، وميمون بن البخيت الواسطى ، وغيرهم . وخرج عليه من الأموال شىء عظيم . وبقى الرصد دائراً إلى أن مات السلطان سنة خمس وثمانين وأربعمائة هجريّة ، فبطل بعد موته .

وقد أشاد المؤرخ الانجليزى « جيبون » ببراعة الخيام فى تعديل التقويم السنوى ، وقال إن مذهبه فى تقويمه يفضل المذهب الغريغورى دقّة وإحكامها . كما أشاد « بروكلمن » بإصلاحه للتقويم ، وقال إن التقويم الجلالى (الزيج) لم يعمّ استعماله رغم أنه – بلا شك – أدق من التقويم الغريغورى المألوف (١) .

كما تذكر تلك الكتب أنه قد قام بنشر عقائد فلاسفه اليونان وأفكارهم نتيجة شغفه بالفلسفة . وأن ذلك قد عرّضه لكراهية العامّة ونسبتهم الإلحاد

---

(١) يشيد زكريا بن محمد بن محمود القزوينى بالخيّام حكيما عارفا رياضيا ، ثم يقول فى كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد) : « وفى عهد السلطان ملكشاه السلجوق سلّم إليه مال كثير ليشترى به آلات رصد الكواكب ، فمات السلطان وما تمّ ذلك » . وهو بذلك يخالف ما قيل فى هذا الشأن فى كتاب ابن الأثير وغيره . وتمام الفائدة .. إرجع إلى : « تاريخ هبوط وسقوط الدولة الرومانية » لجيبون » ؛ و« تاريخ الشعوب الإسلامية » لبروكلمن ، الترجمة العربيّة ، ص ١٣١ .

والزندقة إليه ، وسعيهم فى قتله . وقد سافر للحج درءاً للشبهات ، وغاب حتى هدأت ثائرتهم ، وعاد ليبتعد عمن يطلبونه ويقصدونه لتعلّم الفلسفة .

ورغم هذا التيار المعاكس .. وُجِد من يسجّل إعجابه به ، ويقول إنه كان فى أجزاء علوم الحكمة والفلسفة تلو أبى على بن سينا .

وقد استمدّ الخيّام فلسفته من الكتب اليونانيّة المترجمة ككتب أفلاطون وجالينوس وغيرهما من علماء الفلسفة الطبيعيّة والإلهيّة والرياضيّة . وأفاد فى هذا المجال من ظهوره فى عهد نضج فيه علم الكلام ، واشتهرت فيه رسائل إخوان الصفا .

ويشهد الخبر الذى أورده القفطى فى كتابه أن الخيام واحد من حمله العلوم اليونانيّة – أى الحكمة والفلسفة – وأنه عديم القرين فى علم الحكمة . أما الحكماء فيصفونه بأنه تلو أبى على سينا فى أجزاء علوم الحكمة من الرياضيّات والمعقولات ، وأنّه ابن بجدتها . كما يصفونه بأنه حكيم عارف بكل أنواع الحكمة سيّما النوع الرياضى . وقد بلغ الأمر ببعض الدارسين المعاصرين حدّ القول بأن رباعيّات الخيّام المتضمّنة لمعالم الحكمة جديرة بأن تعلّق على الفلك الرابع .

وقد تحدّثنا عن مباحثاتٍ له ، ومناظرات فى الحكمة والعلوم بينه وبين الغزالى وغيره من مشاهير عصره . ويمكننا أن نستنتج مما ورد من أخبار أنه كان يعطى دروسا فى الحكمة . كما يمكننا أن نستنتج من إحدى رباعيّاته أنه كان يغضب إذا نُعِت بالفلسفى و لم ينعت بالفيلسوف ، فالفلسفى من يستخفّ الناس بعقله ورأيه ، والفيلسوف من يعظمون قدره وفكره . ولذا يقول رداً على خصومه :

فلسفى أنت قال الخصم لى ... يعلم الديّان أن قد أخطأ
إننى عند الأسى أسعى إلى ... كشف ذاتى ، هل ترانى مخطئا ؟![1]

---

(١) أنظر : تاريخ الحكماء ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ؛ ما كتبه أحمد رفعت بالتركيّة فى كتابه : لغات تاريخية وجغرافية .

هذا ، والنص الفارسى للرباعيّة هو : =

ومؤلّفات الخيّام شاهد صدق على تبحّره فيما ذكرناه من فنون [١] ، غير أن عددها المتواضع لا يكفى لنفى ما يشاع من أنه كان قليل التأليف . ويلاحظ أن معظمها رسائل علمية أو فلسفية ، وأن القليل منها فى الأدب والاجتماع [٢] .

وقبل الحديث عن نتاج الخيام يجمل بنا هنا أن نتحدّث عن المؤثّرات السياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة والأدبيّة والعلميّة التى أثّرت فى حياته وكان لها فضل تكوين شخصيته وتشكيلها . وأن نتحدّث عن مخالطيه وأساتذته وزملائه وتلاميذه ، وأنصاره وخصومه .. ممن كان لهم فضل توجيه سير نتاجه ومنحى تفكيره .

= دهمن بغلط كَفت كه من فلفسيم ..
ايزد داند كه آن جه أو كَفت نيم .
ليكن جو در اين غم آشيانه آمده ام
آخر كم از ان كه من بدانم كه كيم

(١) لم يترك لنا الخيّام كتابا فى الطب ، رغم وجود أخبار تثبت عمله فى هذا الحقل . فقد استدعى يوماً لفحص سنجر – وكان ما زال صبيا لم يجلس على كرسى السلطنة – فحكم بأنه مصاب بالجدرى ، وأبدى تخوّفه ، ونجح فى تشخيصه لكنه كسب عداوته .
تتمّة صوان الحكمة ، ص ١١٤ ؛ وزارات در عهد سلاطين برزك سلجوق ، ص ١٩٥ .

(٢) تحدّثت كتب التراجم حول مؤلّفات الخيّام بعموميّة وهموليّة ؛ فقال صاحب فردوس التواريخ مثلاً إنه كان فى مقدّمه أهل عصره فى أكثر العلوم ولا سيما فى علم النجوم ، وإن له رسائل عمّت الدنيا وأشعارا لا نظير لها . أما كتّاب عصرنا فقد بذلوا جهداً فى نشر مؤلّفاته وترجمتها ووضع قوائم لإحصائها . وقد ثبت من هذه القوائم أن عدد مؤلّفاته ليس بالكثير ، مقارنةً بما كان ينتظر من مثله أن ينتجه وهو المسيطر على العديد من العلوم والفنون . ولعلّ السبب فى قلّتها راجع إلى انشغاله بالنواحى العمليّة كالرصد والطب وغيرهما ، أو انشغاله بالتدريس والإعداد للمناظرات ، أو الجلوس فى مجالس العظماء والعمل بالمنادمة فى مجالس الأنس ، أو ذهابه إلى الخانقاهات واختلاطه بالصوفيّة ، فقد كانت أشعاره تُنشد فى مجالسهم وخلواتهم ، كما يؤثر عنه أنه نزل فى بعض الربط ، واتّخذ تمثالاً من الطين على هيئة الطير ، ونصبه على شرفة من الشرفات فانقطع الطير عن الحضور وتنجيس أهل الرباط بذرقة .
وقد يرجع قلّتها إلى انشغاله بترجمة أعمال غيره أو قراءتها واهتمامه بحفظ أشعار كبار الأدباء من فرس وعرب . وقد ترجع إلى رغبته فى الإجادة دون الكم . ومن بين القوائم قائمة وضعها الدكتور « روس » لمؤلفات الخيّام المكتوبة باللغة العربية وهى تشتمل على عشرة كتب أغلبها علميّة فلسفيّة .

وكان الواجب قبل هذا وذاك أن ندير الحديث حول أسرته ، لكن المراجع لم تسعفنا بشيء ذي بال في هذا الخصوص وكل ما استنتجناه أن والده - ربما - كان يشتغل بمهنة صُنع الخِيام أو بيعها [١] ، وأنّه كان مهتماً بتعليمه ؛ فقد أرسله ليتعلّم القرآن والحديث والفقة الشافعي وعلوم العربية على يد الإمام هبة الله الموفّق النيسابوري ، حيث تعلم « الكندري » الذي صار فيما بعد وزيرا لطغرليك ، وحيث التقى بنظام الملك الوزير الخطير والحسن الصباح الداعية الشيعي الشهير . وكان السائد في عقيدة الناس أن من كان يتعلّم عند الإمام الموفّق النابغة الجليل .. كان ينبغ في العلوم العربيّة ، وينال العز والجاه [٢] .

---

(١) انظر : مجموعة رباعيّات الخيّام لمحمد على الفروغى الإيرانى :

وقد يكون « الخيّام » لقباً له أو لعائلته . وقد فسّر هذا اللقب فى الرباعيّة التالية :

خيّام تنت بخيمة مانـد راست :

إن جسدك ياخيّـام خيمـة .. لامـراء

جان سلطانيكه منزلش دار بقاست :

والروح سلطان ، سوف يحل فى دار البقاء

فراش ازل زبهر ديگر منـزل :

فإذا رحلت الروح إلى الدار الأخرى وغادرت المكان

نه خيمه بيفكند جوسلطان برخواست !:

ألا تسقـط الخيمـة برحيـل السلطـان !

كما قال رباعيّة أخرى حول هذا اللقب .. ربما فى آخر حياته ، أو فى فترة انحسار الأضواء عنه :

خيام كه خيمه هاى حكمت ميدوخت :

الخيام الـذى طـالما حـاك خيـام الحكمـة

دركورة غم فتاد وناكاه بسوخت :

وقع فى كور الغم فجأة واحترق بالـنيران

مقراض اجل طناب عمرش ببريد :

قـرض مقـراض الأجـل طـنب عمـره

دلال امل برايگـانش بفـروخت :

وفرّط دلّال الأمـل فيـه ، وباعـه بالمجّـان

(٢) لمعرفة الكثير حول هذه المدرسة (الكُتّاب) ومن تخرجوا منها وأفادوا من شيخها ...

أنظر : دمية القصر للباخرزى ، تحقيق د . محمد التونجى ، دمشق ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م ؛ =

كما أن هناك خبراً أورده الشيخ الإمام ظهير الدين أبو الحسن ابن الإمام أبي القاسم البيهقي في (حكماء الإسلام) تحدّث فيه أول الأمر عن الخيّام وأسرته حديثا مجملاً ، فقال : « الدستور الفيلسوف حجّة الحق ، كان نيسابوري الميلاد والآباء والأجداد » ، وبذا حدّد مكان مولده ومسقط رأسه ورأس عائلته .

ثم جاء بقصّة تفيد أنه كان متزوجا ، وأن زوجته تنتمي إلى أسرة تضمّ بينها علماء لهم شأنهم وقدرهم ، فقال : وحكى (ختنه) الإمام « محمد البغدادي » أن الخيام كان يتخلّل بخلال من ذهب ، وكان يتأمّل الإلهيات من كتاب الشفاء للحكيم ابن سينا ، فلما وصل إلى فصل الواحد والكثير ، وضع الخلال بين الورقتين وقال : « ادع أحد الأذكياء حتى أوصي » ، فوصّى فقام وصلّى ولم يأكل ولم يشرب . فلما صلّى العشاء الأخير سجد وكان يقول : « اللهم إنك تعلم أني عرفتك على مبلغ إمكاني ، فاغفر لي ، فإن معرفتي إياك وسيلتي إليك » ، ومات .

ولما كان الختن هو زوج الابنة ، فإن هذا يؤكّد زواج الخيّام ، وإنجابه بنتاً زوّجها من الإمام العالم محمد البغدادي ، الذي كان حياً في أواسط القرن السادس الهجري ، يراسل الوزير رشيد الدين الوطواط . وهذا يضحد قول « شمس الدين السامي » التركي الذي ورد في كتابه « قاموس الاعلام » ووافقه عليه الكثيرون ، والذي يفيد أن الخيّام لم يتزوّج طوال عمره . غير أنه ليست هناك أية معلومات عن ابنته هذه .

ولا نعلم ما إذا كان الخيّام قد أنجب ولدا ذكرا أم لا ، لكن هناك إشارة أوردها « دولتشاه السمرقندي » في كتابه (تذكرة الشعراء) يفهم منها أن

= معجم الأدباء لياقوت الحموي ، طبع بيروت ؛ تجارب السلف لهندوشاه بن سنجر ، طهران ١٣٤٤ هـ . ش . ؛

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، جـ ٥ ، ص ١٣٦ ، مصر ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٥ م ؛

وزارت در عهد سلاطين بزرك سلجوق ، ص ٤٣ ؛ جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله .

« شاهفور الأشهرى » (ت ٦٠٦ هـ) – الشاعر النيشابورى – كان حفيد الخيام .. ولو صح هذا لرجح احتمال انجابه لولد .. وقد يكون سبطه أو ابن عم أو عمة أو خالة له .

وإذا كنا لا نعرف شيئا عن زوجته .. فإن الأديب التركى الدكتور « عبد الله جودت » يجعل فى حياة الخيّام معشوقة لم يقترن بها . وهو ينفرد بهذا الخبر فى كتابه : رباعيّات الخيّام (ط ٢ ص ٢٤ ، عام ١٩٢٦) . ونفهم مما ذكره – نتيجة دراساته – أن الخيّام كان يهيم بحب شاعرة اسمها « مهستى » كانت « نديمة للسلطان سنجر » ، وأن هذه الشاعرة قد ولدت فى كَنجه ونشأت فى نيسابور . وقد لقبت بمهستى إى السيدة الكبيرة ، ولقيت شهرة فى إيران فى حياتها . وبالرجوع إلى نسخة الرباعيّات الحجريّة المطبوعة فى بمباى عام ١٢٩٧ هـ ، نجد له رباعيّة يوجّهها إلى محبوبته هذه ، نصّها :

خواهى زفراق در فغان دار مرا   خواهى زوصال شادمان دار مرا
من باتو نكَويم كه جه سان دار مرا   زانسان دل توخواست جنان دار مرا

وترجمتها :

إن شئت فاجعلينى أشكو فراقك ..
أو شئت فاجعلينى مسرورا بلقائك وودادك .
لا أوجّهك إلى ما تفعلين وأى طريق تسلكين .
فافعلى بى ما يمليه عليك قلبك وفؤادك .

وبذلك يتأكّد لنا أن قسطاً من التأثير فى هذا المجال يرجع إلى أبيه وأصهاره ومحبوبته الشاعرة .. باعتبارهم من وقَفْنا على أخبارهم ولا نعرف شيئا عن غيرهم من أفراد بيئته العائلية أو من هم فى حكمها .

ومما ذكرناه عن الناحية السياسية وغيرها يمكننا أن نستنتج أن الخيّام كان يعيش بين أتراك غُز سُنّة مسلمين حنفيّة ، ويخالط السلاطين والعظماء والمفكّرين والخاصّة والعامّة ، ويغشى القصور كما يغشى الخانقاهات .

لقد عايش انتصارات ملكشاه وسيطرته على مختلف أجزاء العالم الإسلامى ، والأقطار غير الإسلامية التى كانت بيد الرومان . ورأى – رعب العالم المسيحى من السلاجقة . وعاصر الخطر الإسماعيلى فى أوجه وذروته . وشهد مصرع ملكشاه ووزيره نظام الملك ، فخسر معينا وفقد نصيرا . وأحسّ تفكك السلاجقة ، ورأى تمزّق دولتهم بين أكثر من أمير ، وجلوس أكثر من سلطان على العرش فى وقت واحد ، وتصارع الوزراء للوصول إلى المنصب الخطير .. منصب الوزارة .

عاش عصرا مضطربا فتقلّب كمعاصريه بين اليأس والتشاؤم والأمل والتفاؤل والخشية والرجاء .

رأى بزوغ نجم العوام وأدعياء الدين والزهد ، ولمس الهجوم على ذوى الفكر والرأى ، وأحسّ رواج سوق الفساد والكذب والتزوير والظلم والعدوان ، وكل ما يدفع المرء – خاصة الأديب والمفكر – إلى التقلّب بين العزلة والاختلاط ، وبين الفلسفة والتصوُّف ، وبين التديّن والإلحاد .. فخالط واعتزل ، وروّج الفلسفة ، واقترب من التصوّف ، وأبدى تديّنا ، وهاجم أدعياء الزهد والتديّن ، وصرّح بأفكار دفعت البعض إلى نسبته إلى الإلحاد .

عاش إيرانيا بين ترك وعرب ، ورأى العصبيّات العنصريّة ، وأحسّ تحقير الأتراك للفرس ، ونفور الفرس من الأتراك ، ولمس مساندة الحاكم التركى للخليفة العربى لإضفاء الصبغة الشرعيّة على ملكه وسلطانه .

ورأى حب القوم كبيرهم وصغيرهم للخمر ومجالسها ، وكيف صارت الندامة مهنة والمؤانسة حرفة . وأحسّ بميل معاصريه إلى الانطلاق والمتعة ، وتقريبهم النساء والغلمان ، وحبّهم الرياء والفحش والهجاء والترف والبذخ .

فاقترب من الحاكم العربى والسلطان التركى والوزير الفارسى ، وكسب فى الغالب ودّ الجميع . وعاقر الخمر فى مجالس الشراب ، وامتهن الندامة وأحبّه مخالطوه أنيسا لبقا . وعاش فى بحبوحة وترف ، – يتغنّى بالجمال وينشر أفكاره وعلومه ، ويثبت وجوده وشخصيته .

رأى توقير الخاصة والعامة للصوفية حينا ومهاجمتهم لهم حينا . وشهد الصراع الرهيب بين السنّة والشيعة ، والانقسامات الحادة بين أتباع المذاهب المختلفة ، ورواج سوق الاتهامات والافتراءات المذهبية ؛ فكان يقترب من كل فرقة بحذر .. إلى درجة جعلت معاصريه وقريبى - العهد منه لا يقطعون - إلاّ نادرا - باعتناقه مذهبا دون آخر ، أو بانتسابه إلى فرقة معينة . وجعلت الدراسين المعاصرين يختلفون حول مدلولات رباعيّاته ، وهى نتاج فكره المتميّز .

ولاشك أن الخيّام قد عاش عصرا أدبيا متميّزا عن العصور التى سبقته والتى لحقته ، فقد كان السلاجقة على جهل مطبق ، ولذا قلّت عنايتهم بالأدباء والعلماء ، وتركوا ذلك لوزرائهم من الفرس ، فأبدى نظام الملك - مثلاً - تعلّقة بأهل العلم والأدب والدين ، وقرّب الفقهاء والصوفيّة والأدباء والمفكّرين من مجلسه ، وبالغ فى الإحسان إليهم . ولم يكتف بذلك بل فتح المدارس وأغدق على المشتغلين بها والدارسين فيها ، وأوقف عليها ، وزوّدها بالكتب ، فحظى بالثناء والمديح . ومن المدائح العربيّة التى وجّهت إليه بهذا الشأن مدح الخطيب التبريزى :

هنيئا لمولانا العلا وسعوده   وأُرغم شانيه وكُبَّ حسودُه
هو الماجد المرجوّ فيض نواله   وكعب الندى والمنذران عبيده
ومازلت أشكو من زمانى وصرفه   إلى أن بدت لى من ذراه سعوده
فآمننى منه ذمام عقدته   لدى خير جار لا تُحَلُّ عقوده

ولا يعنى هذا أن السلاجقة كانوا بعيدين تماما عن الحركة الأدبيّة والعلميّة ؛ إذ أنهم ساهموا - أحياناً - فى التشجيع على الانتاج ، - بدءا من ألب أرسلان - فبرز فى عهدهم العديد من الأدباء والعلماء من عرب وفرس ، ومن بينهم عدد من أصحاب اللسانين .. يجيدون الفارسيّة والعربيّة وينتجون بهما .. فكان لهم دورهم فى تمدّن الشرق (١) .

---

(١) Tamara Talbet Rice : Seljuks , P.33 , London , 1961.

وقد دفع العديدَ إلى تعلّم العربيّة رغبتُهم فى العمل بالدواوين التى تشترط فى العاملين بها حُسْن الخط ، والقدرة على الحفظ ، والبراعة فى الكتابة .. إذ كانت العربيّة هى لغة الكتابة فى دواوين السلاجقة .

وعن طريق ذوى اللسانين وُجِدت الترجمات من الفارسيّة إلى العربيّة ومن العربيّة إلى الفارسيّة ، ووُجِد الشعر الملمّع (فيه المصراع الأول أو البيت الأول بالفارسيّة ، والمصراع الثانى أو البيت الثانى بالعربيّة) .

وقد أثّر الغلمان والإماء الأتراك فى الأدب ، خاصّة الشعر .. فكان الحديث يدور حول جمالهم أو ظلمهم :

قوم ترى الصلوات الخمس نافلة   وتستحلّ دم الحجاج فى الحرم
لقد ضاع أمر الناس إذ ساس ملكهم   وصيف وأشناس ، وقد عظم الكرب

وسجّل الشعراء ما كان يدور بالمنازل من طهى وحياكة وفن وأمثالها ، فظهرت أفكار جديدة وصور مستحدثة فى الشعر .

وظلت الفارسيّة رائجة رغم انتشار العربيّة وضغط الدولة التركية . وشجع الترك العربيّة والفارسيّة إيمانا منهم بأن لغتهم ليس لها زصيد حضارى . واتخذوا من الأبجدية العربيّة أداة للتعبير والكتابة وذلك عن طريق الفارسيّة . وشجع نظام المُلك التعليم ، وفَتَح العديد من المدارس ليوفّر للدولة الموظفين الأكفاء المتدينين الشافعيين ، وليخرج منها من يحارب الشيعة والباطنية وكل فرقة تعادى السنّة (١) . ومما يدعو للأسف أن هذه المدارس كانت سببا فى إيجاد فجوة بين السنّة والشيعة ، والشافعيّة وغيرهم من السنة .. فقد كان الوزير يشجّع المذهب الشافعى ، والسلاجقة

---

(١) اقرأ حول هذه المدارس ونُظُمها فى :
مجلة الدراسات الأدبيّة ، مقال لسعيد نفيسى ، ص ٦٨ ؛ طبع بيروت ؛
رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٦ ، ٢١١ ، مصر ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥ م ؛
ابن بطوطة : تحفة النظّار ، ص ١٥٠ ، مصر ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦ م .

يشجّعون المذهب الحنفى . وكان هذا كله موجدا لصدع فى الصف الإسلامى ، وعاملا من عوامل إضعاف الدولة السلجوقيّة .

وممن عاصرهم الخيّام ، وقاموا بالتدريس فى هذه المدارس : أبو النصر محمد ابن عبد الواحد (ابن الصبّاغ) . أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد النيسابورى (المتولى) ، أبو إسحق جمال الدين إبراهيم الشيرازى ، أبو زكريا يحيى بن على الشيبانى (الخطيب التبريزى) ، الإمام زين الدين أبو حامد الغزالى ، موهوب ابن أحمد الجواليقى (صاحب كتاب المعرّب) . وممن خرجتهم هذه المدارس من كبار علماء الإسلام والعربية والفارسيّة :

سعدى الشيرازى ، وأبو اسحق إبراهيم بن يحيى الكلبى ، وأبو القاسم على ابن الحسن بن عساكر ، وكمال الدين عبد الرحمن بن الشافعى الأنبارى ، وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد العماد الكاتب ، والغزالى ، والأبيوردى .

ومن أدباء هذ العصر فى القرن الخامس الهجرى بصفة عامّة :

الزوزنى ، عبد القاهر الجرجانى ، الخطيب التبريزى ، الماوردى ، عبد الله الأنصارى .

ومن أدباء هذا العصر فى القرن السادس الهجرى :

الزمخشرى ، السمعانى ، الميدانى ، أبو زكريا التبريزى ، الجواليقى .

وممن ينسبون إلى القرنين المذكورين :

الغزالى ، الحوفى المصرى ، الثعالبى النيسابورى ، البيرونى ، البيهقى ، عمر الخيّام ، الشهرستانى ، الفرّاء ، النسفى ، الطبرسى .

وممن برزوا من الشعراء :

الباخرزى ، الثعالبى ، مهيار ، الواسانى ، الشريف الرضى ، المرتضى ، المعرى ، إبراهيم بن يحيى أبو إسحاق ، ابن التعاويذى ، التهامى ، الطغرائى ، ابن كيعلغ ، عبد الله بن سنان الخفاجى ، أبو زكريا التبريزى ، الحسن الواسطى ،

أبو غالب القمّى ، أبو هلال العسكرى ، أبو الحسن البلخى ، حيص بيص ، قابوس بن وشمكَير ، صرّ دُرّ ، الخيّام ، الأنورى ، مسعود سعد سلمان ، أديب صابر ، أزرقى ، قطران التبريزى ، ناصر خسرو ، سنائى ، المعِزّى ، عَمْعَق ، فتوحى ، حميدى ، عبد الواسع الجبلى ، سمائى ، سوزنى ، رشيد الوطواط ، الخاقانى ، ظهير الفاريابى ، نظامى الكَنجوى ، فريد الدين العطار .

وهكذا عاصر الخيّام هذا العدد الضخم من العلماء والأدباء والمفكّرين ، وواكب مسيرة الشعر فى مرحلة اتّسم فيها بالغزارة وسعة الآفاق مع تشابه الأفكار والأسلوب إلى حدٍ بعيد ، وكثر فيه الجيّد والردئ[١] .

وقرأ لمعاصريه وسابقية من فرس وعرب . وحفظ ما يستحق الحفظ ، ووعى ذهنه وتفجّرت عبقريته ؛ فكتب أفضل ما كتب .. الرباعيّات .

وقد خاض شعراءُ هذا العصر كافةَ الأغراض الشعريّة وعلى رأسها المديح ، بغية التكسّب . وكان هذا الغرض الأخير يخرج دون عاطفة صادقة معتمدا على الأسلوب والمبالغة .. إذ كان الشاعر يمتدح أحيانا من لا تربطه به صلة أو مودّة ، أو يمتدح من لا ينتمى إليه عنصريا ؛ فها هو الباخرزى يمدح طغرلبك التركى السلجوقى بقوله :

سرنا ومرآة الزمان بحالها ... فالآن قد مُحقت وصارت منحلا
تَخِذ الركاب فلا تعوج بنا على ... طلل الحبيب ، ولا تحيّى المنزلا
وتحرّك الأعطاف تشميرا بنا ... وتيمم الملك المظفر طغرلا[٢]

ولما كان السلاجقة فى الغالب أميين يجهلون العربيّة والفارسيّة ، فقد اتّجه الشعراء إلى الوزراء ، وغدا الوزير الرمز الأعلى فى المدح . وهكذا برز اسم الكندرى ونظام الملك والصاحب إسماعيل بن عباد وغيرهم دون سادتهم من خلفاء

---

(١) حول الأدب فى العصر السلجوقى ، ص ١٢٥

(٢) ديوان الباخرزى - تحقيق د التونجى بيروت ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م

وسلاطين هذه الحقبة . فرأينا أحد الشعراء يقول :

ما خلق الله تعالى وجل   مثل وزير الوزراء الأجل
أروع كالنصل ولكنه   أمضى من النصل إذا ما بسل [١]

كما شاع امتداح الممدوح بأوصاف دينية ، كأن يقول ابن الخياط :

أنت للمسلمين حصن وحرز   ولراجى نداك ذكر وكنز
أبداً ما تزال عصفا عليهم   ودفاعا عنهم تحجّ وتغزو [٢]

وشاع الخروج عن الشرع فى المديح ، كأن يقول الطغرائى الفارسى بالعربيّة :

لجلال قدرك تخضع الأقدار   وبيمن جدّك يحكم المقدار
والدهر كيف أمرته لك طائع   والله حيث حللته لك جار [٣]

وجاء وقت كان فيه استعمال القلم أفضل ما يميّز الممدوح ، مما يؤكّد رفعة شأن العاملين بالدواوين ، وعلوّ منزلة القضاة والفقهاء والعلماء .

وبهدف التكسّب ، كان الشاعر يمتدح شاعرا مثله علّه ينال نواله ، وقد يتدنّى إلى حدّ تقبيل يد الممدوح . ومنهم من جوّز الاستجداء ، أو عزف عن المديح لأنه لا يجد من يستحقه أو يصله [٤] .

* * *

---

(١) دمية القصر ، جـ ١ ، ص ٧٨ .
(٢) ديوان ابن الخياط ، ص ٢٦٨ ، تحقيق خليل مردم ، دمشق ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٨ م .
(٣) ديوان الطغرائى ، ص ٣ ، طبع القسطنطينية عام ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٢ م .
(٤) أنظر : دمية القصر ، جـ ٣ ؛ ديوان الأنورى ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ ، طبع طهران ١٣٣٧ هـ ؛ وفيات الأعيان لابن خلكان ، جـ ٨ ، مصر ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٨ م

أما الهجاء فكان يعبّر بصدق عن نفسيّة ناظمه مع ميل إلى المبالغة والسخرية أو التجريح والفحش .

ولم يكن الشاعر يستثنى أحدا من الهجاء ، فتعرّض بهجائه للوزير والعالم والفقيه والحاجب والمحصّنات والحرائر . وامتدّ الهجاء إلى المدن وأهلها . ودخل هذا الغرض الشعرى بعض الابتكار وسادته فى كثير من الأحيان بذاءة الألفاظ . يقول أحد الشعراء يهجو وزيرا :

إن المقابح والفضائح كلها ... مستجمعات فى ابن عبد الله
كلب تصدّر للوزارة وهو عن ... أم العزيـز وخالتيـه ساه
أضحت أمور الملك واهية به ... وكذاك إن تبق الأمور كما هى

ويقول آخر فى هجاء العلماء واستهجان اتّجاههم الدينى ، والسخرية من رمضان :

أقول لشهر الصوم لما قضيته ... عليك سلام الله بوركت راحلا
وقد كنت من سحبان أفصح لهجة ... فغيّر طبعى باقلاؤك باقـلا

ويقول ثالث فى هجاء أحدهم :

يلوم الناس بالبخل ابن عيسى ... وفيه لهم ، لو اعتبروا صفات
أنامله بخيط البخـل شدّت ... وكيف تجود وهى معقّدات

ويقول رابع :

وطوّل الشارب كى لا تُرى ... إذا تغذّى ، حركاتُ الشفاه

ويقول خامس :

لبنى المهذّب فى .. نسائهم ... نسب يقودهم إلى الفـحشاء
تحت الحضيض جباههم وقرونهم ... مقرونـة بكـواكب الجوزاء [1]

---

(١) يمكن رؤية العديد من أمثال هذه المهجويات بالرجوع إلى :
دمية القصر ومعجم الأدباء وديوان ابن الخياط وديوانِ أنورى .

وكان الهجاء الذى يوجّه إلى المدن وأهلها يؤدى أحيانا إلى الانتقام من الشاعر ، كما حدث بالنسبة للأنورى حين نُسِب إليه هجاء بلخ وأهلها .. إذ كاد القوم يفتكون به لولا أن ثبت لهم أن غيره هو ناظم الهجويّة [1] .

وقد ابتعد الخيّام فى شعره العربى والفارسى عن المديح رغم صلته بالعظماء ، لأنه لم يكن فى حاجة إلى التكسّب بشعره ، بعد أن أغناه نظام الملك بما قرّره له من راتب سنوى ضخم . ولأنه لم يكن يهمّه أن يدرج اسمه بين أسماء الشعراء ، ويتعرّض لما يتعرّضون له أحيانا من غدر ممدوحيهم .

كما ابتعد عن الهجاء حتى يجنّب نفسه كراهية من يهجوهم ، ويحافظ على هيبته العلميّة . غير أن هناك بيتا ينسب للخيام ذُكِر فيه الترك بالسوء ، ولهذا يستبعد الدراسون أن يكون للخيّام الذى كان سلاطين السلاجقة يقرّبونه ويكرّمونه . وهذا هو البيت كما جاء فى تتمة صوان الحكمة :

لذاك تمادت دولة اللؤم وانبرت ... بنو الترك يبغون السماء مصاعدا

* * *

وانعكست ظروف البيئة وافرازاتها فى أشعار الشعراء . فظهر يأسهم من وجود الشهم المُخلِص :

- ما في زمانك ماجد ... لو قد تأملت الشواهد
فاشهد بصدق مقالتى ... أو قم فكذبنى بواحد
- إذا قلت إنى قد ظفرت بصاحب ... سلكت إليه ، خاننى وأرابا
أقلب عينى لا أرى غير صاحب ... ظننت به الظن الجميل فخابا

وأبدوا كراهيتهم للمكان والزمان . وفى ذلك يقول الأنورى بالفارسيّة ما ترجمته :

---

(١) أنظر مقالنا : الأنورى شاعر السلاجقة ، مجلة عالم الفكر ، المجلد السابع ، العدد الثانى ، ص ٥٤٧ .

– لا تتردد فى ترك مكان تتعرّض فيه لاحتقار الناس .
– فلو تحركت الشجرة من مكانها ...
ما تعرضت لظلم المنشار وقسوة الفأس [١] .
– حين ينظر العاقل فى صروف الدنيا .
لا يشترى يابسها ورطبها بحبّة شعير .
– إنها ما تكاد تهب الجواهر حتى تستردّها ..
ككلب يُخرج ما فى جوفه ثم يأكله [٢]

وأبدوا كراهيتهم للزواج نظراً لتوفّر المتعة ، وفى ذلك يقول « الكيا الديلمى » :

يا طالب التزويج إنك بالذى   تبغيه منه جاهل مغـرور
لا تبغ فى الدنيا نكاحا لازما   وافعل به ما يفعل الزنبور [٣]

والأنورى يبدى كراهيته للزواج لهدف آخر ، فيقول بعد أن – يهاجم الاقتران بزوجة :

– قِلّة العيال سعادة ، فالرجل يفعل ما يشاء إن قلت العيال .
– إعلم أنه لا شيء يكبّل الرجل فى دنياه سواهم ، وأنهم بمثابة الأغلال [٤]

وقد ردّد الخيّام فى رباعيّاته هذه الأفكار وأمثالها لنفس الأسباب أو سواها عن اعتقاد أو مجاراة منه لمعاصريه من الشعراء .

وفى مجال الفخر كثرت الأشعار الفارسيّة والعربيّة ممزوجة بالمرارة والشكوى . ومما قيل بالعربيّة :

---

(١) ديوان أنورى ، ص ١٢١ .
(٢) ديوان أنورى ، ص ٥٩٦ .
(٣) أنظر : حول الأدب فى العصر السلجوقى ، ص ١٦٣ ، وقد جمع المؤلف العديد من الأمثلة فى هذا الشأن .
(٤) ديوان انورى . ص ٤٣٩ .

- ولقد شربت من العلوم بأنقع وسقيت غيرى من علومى أنقعا
وحويت آدابا لبست جمالها وبهاءها وحلفت ألاّ أنزعا
- فأين انتفاعى بالأصالة والحجا ؟!
وما ربحت كفى من العلم والحكم
ومن ذا الذى فى الناس يبصر حالتى
فلا يلعن القرطاس والحبر والقلم ؟ (١)

ومما قيل بالفارسية ما ترجمته :

- لى ذهن كالنار ، ولسان كالماء ، وأفكار حاسمة ..
وذكاء فياض ، وطبع لا خلل فيه ...
- وا أسفا ، لا يوجد ممدوح يقدّر المديح ...
وا أسفا ، لا يوجد معشوق يستحق الغزل (٢)

ويكثر الخيّام فى أشعاره العربيّة - خاصة - من الفخر الذى يصل أحيانا حدّ المساواة بينه وبين خالقه فى بعض الصفات .

* * *

عرف الأدب العربى الحكمة فى الأمثال ، وسمعها الشخصى العربى من الكهّان قبل الشعراء ، لكنها كانت محدودة محصورة فى نطاق بيئته ، ثم كُتِب لها فيما بعد الاتساع نتيجة الترجمة عن اليونانيين والهنود والفرس البهلويين . ودخلت النثر والشعر العربى ، ونَحَت فى الغالب نحو النصح ، وعلاها القتام نتيجة صعوبة الحياة .

والحِكَم فى الفارسيّة كثيرة ، تصدر عن خبرة وتجربة .. ولكنها بدورها سُخِّرت للنصح والإرشاد . والشاعر أفضل من يوصل الحكمة إلى السامع أو

---

(١) حول الأدب فى العصر السلجوقى ، ص ١٥١ ، ١٦٠
(٢) مجلة عالم الفكر ، الأنورى شاعر السلاجقة ، ص ٥٤٦ .

القارئ ، وقوله أيسر وأكثر تركيزاً وأقرب إلى القلوب .

ومن نصائح الشعراء العربيّة فى العهد السلجوقى ... التى تأخذ شكل الحكمة :

– نصحت أخى وهو لا يعلم ‏ ‏ وقلت له قول من يفهم
تعلّم إذا كنت ذا ثروة ‏ ‏ فبالمال يحسن ما تعلم

– استرزق الله فالأرزاق فى يده
ولا تمد إلى غير الإله يدا
وحاذر الدهر أن يلقاك منفردا
فمهرق النرد مأخوذ إذا انفردا

– لقاء الناس ليس يفيد شيئا
سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلاّ
لأخذ العلم أو إصلاح حال (١)

ومن نصائحهم بالفارسية ، ما ترجمته :

– لا يزيد الرزق بالبحث والعدو .. مهما تسابق الناس وبذلوا من جهد .
– فأغصان البلّوط تبقى بلا ثمر .. ولو مدّت مائة يد .

ومنها ما ترجمته :

– الخلود فى العذاب كجرجيس ، والذهاب إلى الجحيم كإبليس ..
– خير من السؤال والطمع ، وأفضل من الوقوف بباب رجل خسيس .
– كل من لا يقبل الاعتذار ، لا تخالطه وباعد بينك وبينه المزار .
– السفر مُربّى الرجل وعتبة الجاه ، السفر خزينة المال وأستاذ الفضل فى الحياة .
– كل من يؤمن مثلى بكفره وحده المسلم من بين الخلق كافة .

---

(١) معجم الأدباء ، جـ ١٨ ، ص ٢٨٤ .

- كيف تأتى السيادة من الوضيع ، والسقنقور من الكافور [١] .

وتكثر الحكم لدى الخيّام لا عن رغبة فى الوعظ والإرشاد ، وإنما رغبة فى تسجيل رأيه حول بعض الأمور الحياتيّة والغيبيّة .

* * *

والزهد والقناعة يبرزان فى ظل مثل هذا العصر المتّسم بالقلق والاضطراب ، حتى ليُظَنّ بصاحبهما أنه قد انخرط فى سلك الصوفيّة وأمثالهم :

- اللهم ارزقنى بدل نعمك العديدة .. القناعةَ بالحق ، والرزقَ الطاهر والزادَ النظيف .
- واجعل الأمن والصحّة والطاعة قوام حياتى ... والخرقة المهلهلة ، والاعتكاف ، والرغيف [٢] .

وقد طرق الخيّام مثل هذه الأفكار ، لكنّه طرق إلى جانبها أفكارا تناقضها .. مما يوحى بأنه كان ينظِم وفق حالته النفسيّة .

* * *

وفى هذا العصر ، وفى ظل الانحلال الخلقى .. تفشّت ظاهرة اجتماعية خطيرة هى عشق الغلمان وتفضيلهم على النساء ، وكثر بين الشعراء وصفُهم والتشبيبُ بهم . ومما قيل فى ذلك بالفارسيّة ما ترجمته :

- اسلك مسلك أهل العصر واتّخذ غلاما ،
  يكن لك فى الحضر محظية وفى السفر بطلا ..
- يطعن فى النهار والليل خصمك بالسهام ،
- ويتقبّل قبلاتك وجماعك مدى الشهور والأعوام .

---

(١) ديوان أنورى ، ص ٣٨٥ ، ٤١٣ ، ٤١١ ، ١٢١ ، ٥٩ ، ١٥٦

(٢) ديوان أنورى ، ص ٤٥٨ .

– فهو زميل وقرين ونديم ورفيق وغلام وجارية وراكب [١] .. ولا يوجد فى أشعار الخيامّ ما يناظر هذه المنظومة وأشباهها .

* * *

وفى العصر السلجوقى كانت الحياة اللاهية – بما فيها من خمر ورقص ولهو – هى السمة البارزة ، والانحلال الخلقى يضرب أطنابه فى المجتمع ، مما أثّر فى الأدب والمسيرة الأدبيّة .. وجعلنا نجد آثار الأدباء حافلة بالحديثِ عن اللذائذ ... ووَصْفِ حياة القصور والحانات والجوارى ، والإشادةِ بقيمة المال وبالحضارة الصاخبة ، وكشفِ مكنون الصدور فى إلحاد واستهتار بالشرع والخلقيّات .

ولم يكن ذلك يأتى بصورة فرديّة كما كان فى العصور السابقة ، وإنما كان يرسم جواً عاماً ، ويأتى عادياً ... وكان من لا يفعل ذلك شاذا .. فانحلال الشخصيّة هو الأساس .

لقد وصف الأدباءُ – خاصّة الشعراء – مفاسدَ القصور ومجالسَ الأنس والخلاعة وحانات الشراب ، ولم يختصّ شاعر منهم بناحية فكلّهم شربوا أو تصنّعوا ، وكلّهم تغزّلوا ماديا بالجوارى والغلمان ، وفحشوا بالقول ولو لمجرد التندّر والمداعبة [٢] .. إلاّ من عصم ربك .

فالخليفة القائم بأمر الله يقول :

القلب من خمر التصابى منتشى
من ذا عذيرى من شراب معطش ؟
جُمعت على من الغرام عجائب
خلّفن قلبى فى إسار موحش
خل يصد وعازل متنقّح
ومعاند يؤذى ونمّام يشى

---

(١) ديوان أنورى ، ص ٤٠٧ .
(٢) حول الأدب فى العصر السلجوقى ، ص ٢٠٨

وأبو يعلى الهروى يقول :

ليس ينفى الهموم غير الحميا
فاسقيانى من كف طلق المحيا
قهوة تترك السقيم صحيحا
وتزيل الهموم محواً وطيّا

وتميم الطائى يستخفّ بالشرع والواعظين ، فيقول :

قم مع الراح مع الصبـ ـح إذا قام المؤذّن
وإذا أعلن باللـ ـه فقل للعود : أعلن
إن تسىء يا أيها العبـ ـد فإن الله محسن

وأبو زراعة يجهر بشرب الخمر وعشق الغلمان ، فيقول :

لبسنا به ظل السرور ، فكلّنا
شروب لما تنهاه عنه المصاحف
كأن أباريق المدامة بيننا
من المنظر الأعلى ظباء رواعف
يدير علينا الراح رطبٌ بنانه
وصيفٌ جَفَتْ فى الشكل عنه الوصائف

وأبو الفضل المقدسى يحض على ترك الزهد والانغماس فى الإثم وهجر القيم الدينية ، فيقول :

دع التصوّف والزهد الذى اشتَغَلَت
به خوارج أقوام من الناس
وعُج على دير داريّا فإن به الرهـ
بان ما بين قسيس وشمّاس

واشرب معتّقة من كفّ كافرة
تسقيك خمرين من لحظ ومن كاس
ثم استمع رنّةَ الأوتار من رشأ
مهفهفٍ طرفُه أمضى من الماس [1]

والملفت للنظر أن شعر الفحش قد تجاوز الحدّ بين الفقهاء – والعلماء ، وأن التصريح كان يغلب على الكناية والتلميح . كما أن وصف المطرب فى مجالس الشراب والأُنس كان يأتى بصفة عارضة .... تكميلا لصورة هذه المجالس [2] .

والخلاصة أن الشعر السلجوقى كان حافلا بالتجاوز والجرأة والفجور .. وهو بذلك امتداد لما سبقه من انحطاط من الخلقيات ، وتمهيد لما جاء بعده من انحطاط فى القيم الشخصيّة والمفاهيم الشعريّة .

وقد نظم الخيّام فى كثير من هذه الموضوعات دون فحش أو بذاءة ، ودون تشبيب أو تغزّل بالغلمان .

* * *

فى العصر السلجوقى وفى البقاع الموالية لآل البيت نظمت مدائح عديدة تحفل بالفخر بنسبهم والحطّ من نسب غيرهم .

بينما نُظِمت على يد خصومهم هجوميّات فى حقهم ، وظهر العديد من الكتب التى كان لها تأثيرها . ولا نجد مثل هذا عند الخيّام امتدادا لعزوفه عن المدح والهجاء ، ورغبته فى عدم الانخراط فى الصراعات المذهبيّة .

---

(١) هناك الكثير من هذه الأمثلة فى :
خريدة العراق ، جـ ١ ؛ دمية القصر ، جـ ١ ، جـ ٢ .
(٢) حول الأدب فى العصر السلجوقى ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ . ويورد المؤلف الكثير من الشواهد التى استقاها من يتيمة الدهر ، دمية القصر ، خريدة القصر ، محاضرات الأدباء .

وحفلت دواوين الشعراء بالحديث عن أعياد النيروز والمهرجان والسذق [١] . ولم يتحدّث الخيّام عن هذه الأعياد فى أشعاره ، غير أنه أفرد كتابا تحدّث فيه عن النيروز بصفة خاصة .

وشاع فى هذا العصر – نظرا لإجادة الكثيرين للعربية والفارسية واطّلاعهم على آداب اللغتين – ترجمة العديد من الموضوعات والمنظومات من الفارسية إلى العربية ومن العربية إلى الفارسية . وقد قام الخيام بترجمة خطبة لابن سينا إلى الفارسية ، وجاء فى بعض رباعيّاته بأبيات تكاد تكون ترجمة لأبيات عربية .

وقد طرق شعراء هذا العصر موضوعات تافهة تحطُّ من قيمة الشعر ومنزلته . وهى موضوعات غثّة لا ترفع من قدر ناظمها .. كأن يطلبوا عَلَفا لخروف أو سرجا لدابة ، أو يستجدون حصيرا أو يشكرون على دن خمر أو طبق طعام ، أو يطلبون زيارة عظيم أو يستعيرون كتابا .

– قلت : أيها الخروف كل (تبنا) ...
فهو الجاهز الموجود من بين أنواع العلف .
– قال أريد شعيرا ، قلت له : لا أملكه ...
قال : استجده من سيدك ...
– قلت له : وممن سوف أطلبه ؟ إنها محنة حاقت بك .
– قال : انهض واطلبه من كال الدين مسعود .
فإنه ولّى نعمة كلّ الأحرار .

ويقول ما ترجمته :

– أعطنى ، فقد ضاق بى الحال هنا فى محط الرحال .
الذى أصبح وكأنه مسرح للهجوم والسلب والنهب ..

---

(١) أفضنا فى الحديث حول هذه الأعياد وأثرها فى الأدبين العربى والفارس .

- وقد بات أمرى متوقفا على الحصول على سرج وخيمة ،
بعد أن صرت فى غير حاجة إلى حصان وفراش .

ويقول : إن لم يكن هناك ما نال به إسماعيل الخلاص والنجاة ، فلابد من وجود ما هبط آدم بسببه من الجنة .

ويطلب الشحم وزيت الإضاءة ، فيقول :

- ليالىّ بعيداً عن وجهك حالكة الظلمة ، والشموع لازمة لإضاءتها .
- فأرسل إلىّ قطعة من إنشائك لتضىء ليلى ،
وتحيل حجرتى إلى حوض زهور .
- وإلاّ فمُر خادمَ قصرك المكرّم بإنفاق دانقين فى شراء رطل من الزيت [1]

ولم يعمد الخيام إلى مثل هذا الأمر .. ولا ظِلَّ لمِثلِهِ فى أشعاره باللغتين .

* * *

وفى العصر السلجوقى ، شاع استخدام الصور البيانية والصنعة البديعية ، وطرق بابَ الشعر عددٌ كبيرٌ من علماء اللغة والنحو والصرف والنقد والبلاغة ، لكنهم كانوا يفتقرون إلى الشاعرية والتذوُّق ، ويهدرون قدراتهم فى الغث دون السمين : إلاّ أنهم على أى حال كانوا يُلبسون كلَّ غرض ثوبه المناسب . وكان الأسلوب يختلف من إقليم إلى آخر . وكان « التلاعب بالألفاظ » أحد الصناعات الأسلوبية التى طرقوها بالقلب والألغاز وغيرها ، وكان من الصناعات التى أجادوها أيضا « لزوم ما لا يلزم من القافية » :

عميد الملك زرتُ رفيع بابك   وألحقنى السرى بِعُلا ركابك ...
أجوب بجاهك الفلوات ليلا   وأمشى فى الدجى بسنا سنـــابك

---

(١) ديوان أنورى ، ص ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٦١ ، ٢٨٨ .

وبزيادة حجم الصنعة زادت الألفاظ العامية ، ومال الأدباء إلى الحوار والأسلوب القصصى مما بث فى الشعر روحا جديدة وحيوية وجاذبية ، وقرّبه إلى وجدان السامعين والقرّاء .

كما لجأوا إلى منهج المنطقيين فى النظم ... فبدى ميلهم إلى النقاش والحوار واتّباع أسلوب القياس .

وزاد حجم المفردات الفارسيّة فى العربية ، وطغى الطباق والجناس والتورية والإبهام والاستعارة والتشبيه والتضمين والاقتباس فى الأدب . وبلغ الاستهتار حد الاقتباس عن القرآن فى مجال نظم الشعر الفاحش :

يا خالِقَ الخَلْقِ حملتَ الورى — لما طغى الماءُ ، على « جاريه »
وعبدك الآن طغى ماؤه — فى الصلب ، فاحمله على « جاريه » (١)

ولا وجود لمثل هذا فى أشعار الخيام فالصناعات عنده قليلة وعفويّة ، والرباعيات التى تشكل معظم أشعاره لا تحتمل التلاعب بالألفاظ والهبوط بمستواها ، وإدراج النقاش والحوار بصورة موسّعة .

ويلاحظ أن بعض الشعراء كانوا عند نظمهم بالعربية يُحدِثون القليلَ من التغيير فى الأوزان ، ويتصرّفون بحيث يوزّعونها توزيعا أشبه ما يكون بالموشّحات لتصلح للغناء . كقول أحدهم :

جود الإمام المستضىء غمامة للمجتدى — تروى بها آماله
منح الورى منه بأبلج فى الشدائد منجد — معدومة أمثاله
إن الخلافه بالخليفة فى المكارم تقتدى — فدليلها أفعاله

لقد اتخذ الشاعر الدال رويّا خاصا .. ولولا ذلك لاعتبرنا الأبيات من البحر الكامل المجزوء .. كما أنه فصل فصلا موسيقيا .

---

(١) حول الأدب فى العصر السلجوقى ، ص ٢٤٥ ٢٤٨

كما يلاحظ أن بعضهم كان ينظم على بحر « السلسلة » – أحد الأبحر السبعة المحدثة فى أوزان الشعر [١] – كأن يقول :

هل تأمنُ يُبقى لك الخليطُ إذا بان   للهمِّ فؤاداً وللمدامعِ أجفان

وتقطيعه : فعلن فعلاتن منفعلن فعلاتان .

غير أن ما أحدثوه من تجديدات فى الشكل لم يكن كثيرا . وقد استطاعوا بقدراتهم اللغوية أن يسدوا مسألة النقص العروضى ، وألاّ يلجأوا – إلا قليلاً – إلى الزحافات والضرورات . وقَلَّ من بينهم من حاول الخروج على التزام القافية الواحدة . وكان بعضهم ينظم على روىّ سابقيه . ولم نجد مثل ذلك عند الخيام الذى لم يصلنا من أشعاره العربية إلاّ القليل .

أما ضُروب الشعر فكانت تُطرق وفقاً لحاجة الناظم ؛ فتتراوح بين القصيدة والقطعة والغزلية والرباعية والتركيب بند والترجيع بند والمثنوية والأبيات المفردة والملمّع . ولم يطرق الخيام سوى ضربين شعريين هما القطعة والرباعى . وكان الشعراء يستغلون علمهم فيما يكتبون ، ويميل بعضهم إلى الفلسفة والحكمة ويهاجمهما البعض الأخر .

كما راج شعر العرفان إلى حد كبير [٢] ، ولا نستطيع أن ننسب الخيام إلى شعراء العرفان ، لكنّ فى بعض رباعيّاته لمحات صوفية ، كما أنه كتب حول التصوف . أما الفلسفة والحكمة فإنهما واضحتان بارزتان فى منظوماته ، وهو بالطبع يستغل علمه فيما يكتب ، لكنه لا يضاهى فى ذلك الأنورى على سبيل المثال .

* * *

---

(١) الأبحر السبعة هى : السلسلة ، الدو بيت ، القوما ، الموشح ، الزجل ، كان كان ، المواليا .

(٢) حول الأدب فى العصر السلجوق ، ص ٢٥٠ – ٢٥٢ ؛ السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٢٩٣ – ٣٠٢

يمكننا الآن أن نقول إن تأثير البيئة الخاصة – العائلة والأسرة – فى الخيام كان معدوما أو ضعيفا ، أو لنَقُل منصفين إنه لا توجد أخبار ذات قيمة فى هذا الشأن ، وإن ما كتبه الخيام لا يضع بين أيدينا ما يمكننا الاعتماد عليه فى تصوّر هذا التأثير .

لكننا إذا طرقنا أبواب بيئته العامة خرجت علينا « نيشابور » بوجهها المشرق ، وقبابها ومآذنها ومدارسها العديدة ، وبساتينها ومزارعها . لقد نشأ بها وترعرع ، وكان يتركها لبعض شؤونه ثم يعود إليها . بها درس وإلى شيوخها وفضلائها جلس ، وفى كتّابها التقى بنظام الملك والحسن الصباح ، وارتبطوا برباط الصداقة الخالصة ، وتعاهدوا على أن من يبلغ درجة كبيرة يجب عليه أن يساعد رفيقيه . وصار نظام الملك وزيرا ، فعرض على الخيّام ملازمة مجلس السلطان والاشتغال بالسياسة فرفض وأبدى شكره وتواضعه . وأصرَّ على مزاولة العلم والبعد عن المناصب ؛ فأمر الوزير أن تجرى عليه كل عام ١٢٠٠ دينار من ارتفاع نيسابور ، ينفقها على معاشه . ورجع إلى موطنه وأتمّ تعلّمه الفنون .. خصوصا فن الهيئة الذى وصل فيه إلى درجة رفيعة جدا . وبلغ من رفعة الدرجة العلمية أن جاء إلى مرو فى عهد ملكشاه وأخذ فى تدريس علم الحكمة ، فكان موضع عناية السلطان ، وبلغ مقاما عِلياً بين كبار العلماء والحكماء .

ولابد أنه كان يسكن قصرا فخما وينفق عن سَعَة ... فقد كان الراتب المخصص له كبيرا ، كما كان زوّاره من علية القوم . ولابد أنه اشتغل بالندامة حتى أنس إليه السلاطين والعظماء وصار أسمه يقترن بهم فى مجالسهم .

وقد حدثتنا المصادر عن أساتذةٍ دَرَس الخيّام عليهم ، أما هو فلم يذكر أحداً . والمشهور من بين أساتذة الخيّام الإمام الموفّق هبة الله الذى كان يقوم بالتدريس فى كتّاب بنيشابور . وكان لهذا الإمام سمعة علمية طيبة ، حتى ليقال إن الأهالى كانوا يرون أن من يدرس على يديه يصيب منصباً فى الديوان

ويرد فى معظم المصادر التاريخية وكتب السير أن طغرليك مرّ بالإمام الموفّق أثناء وجوده فى نيشابور ، وطلب منه شخصا فصيح اللسانين العربى والفارسى . فقدّم له « الكندرى » ، وكان لامعاً بين تلاميذه وتتوفر فيه الشروط . ولمّا كان بَعْدُ فتى ، فقد أعطاه وظيفة فى ديوان الإشراف ثم ولاّه خوارزم . وعند الإمام المذكور ، درس الخيّام القرآن والحديث والفقه الشافعى وما إلى ذلك مما كان الإمام يقوم بتدريسه أما دراسته للفلك والرياضيات والهندسة والفلسفة (أى أجزاء علوم الحكمة) والطب والفقه واللغة والتواريخ والقراءات فكانت على يد مشاهير عصره فى نيشابور وغيرها .

و لم يذكُر لنا الخيّام أسماء هؤلاء الأساتذة ... إلّا أن شمس الدين السامى فى كتابه التركى « قاموس الأعلام » يقول : « إن الخيّام حصل على العلوم عند شيخ الإسلام ناصر الدين محمد منصور أستاذ الحكيم سنائى ، وعند سائر مشاهير عصره » . وهكذا يذكر لنا اسم أستاذٍ دون أن يحدد تخصصه أو يذكر المصدر الذى استقى منه هذه المعلومة .

وإذا أردنا أن نصل إلى شىء فيما يتعلّق بأساتذته ، فإن علينا أن نذكر العلوم الشائعة فى عهده والتى كانت فى متناول يده ، وأن – نتحدث عن كبار العلماء والأدباء ، وما يمكن أن يكون قد استفاده من وجوده بينهم .

لقد كان عهد السلاجقة عهد شيوع الفلسفة اليونانية ، والاهتمام بترجمة كتبها .... فيه عُرفت مؤلفات أرسطو طاليس وأفلاطون وأقليدس وبطليموس وجالينوس وفيثاغور وزه نون وأبيقور .. فى الفلسفة الطبيعية والإلهية والرياضية ، وما يتفرع عن ذلك من طب ومنطق وهندسة وأخلاق وسياسة وهيئة ، وانتشرت بين الناس . وفيه احتدم الجدل حول آراء السوفسطائيين والكلبيين والمتشائمين والرواقيين وغيرهم من أهل المذاهب الفلسفية .

وفيه أيضا نضج علم الكلام ، ودَبَّ النزاع العلمى بين الأشاعرة والمعتزلة والحنابلة والجبرية ، وشاعت آراء الباطنية ، وانتشرت رسائل إخوان الصفا .

وفيه أبدت الفرق تعصّبها لمذاهبها ، واشتد النزاع بين الدين والفلسفة وظهرت الكتب فى هذا الشأن . وفيه عَظُم أمر التصوّف ، وطرح بعض المفكرين آراء حرة لا تلائم ذوق الجماهير فاتـُّهموا بالزندقة والإبطان .

ولقد عاصر الخيّام الفلاسفة والعلماء والأطباء والمهندسين والرياضيين والفلكيين ، وتتلمذ على النابغين من بينهم . وكان أستاذا لعدد منهم يترددون عليه أو يتردد عليهم . كما كانت بينه وبين العديد منهم مجادلات ومحاورات ومراسلات دون أن يكون لهم صفة الأستاذية أو التلمذة بالنسبة إليه ، لكنه كان ولاشك يفيد منهم ويفيدون منه على نحو ما .

وأول أساتذه الخيّام – على ما يبدو – هو الإمام الموفّق هبة الله . ومن أساتذته أيضا شيخ الإسلام ناصر الدين محمد منصور ، وأبو المعالى عبد المَلِك مفتى المدينة الذى كان يلقّب بإمام الحرمين ، والحكيم أبو الحسن الأنبارى عالم الهندسة ... والذى كان الخيّام يستفيد منه وهو يقرر له المجسطى . وفى رسالة للخيّام يبحث فيها عن تفاوت الموجودات يذكر ابن سينا فيقول : ولَعَلّى ومعلمى أفضل المتأخرين الشيخ الرئيس أبا على الحسين بن على بن عبد الله سينا البخارى ، – أعلى الله درجته – قد أمعنّا النظر فيها وانتهى بنا البحث إلى ما قنعت به نفوسنا .

وهذا يوحى للقارىء بأنه أستاذه . ولما كان الفرق بين وفاة ابن سينا ووفاة الخيّام يقارب المئة عام ، فإن الأقرب للصحة أن يكون الخيّام تلميذا لابن سينا عن طريق القراءة والمطالعة .

ومما رواه الصفدى فى (الوافى بالوفيات ص ١٤٣) نعرف أن الخيّام قرأ الإشارات لابن سينا على « بهمنيار » تلميذ الرئيس ، فهو إذاً أحد أساتذته .

أما تلاميذه فكثيرون ، ومن أكبرهم وأبرزهم :

١ – فرامرز بن على بن فرامرز ملك يزد ، الملك العادل العالم صاحب (مهجة التوحيد) .

كان مريدا للخيّام ، وله معه جدال وحوار حول اعتراضات الحكيم أبى البركات على كلام أبى على بن سينا .

٢ – السيد الإمام الفيلسوف شرف الزمان محمد الإيلاقى . يمتدحه أهل عصره بقولهم :

اجتمعت فيه الفضائل بأسرها .. العلمية والعملية .. وينسبون إليه من التصانيف :

اللواحق ودوستنامه وسلطان نامه واعداد الوفق والحيوان وغيرها .

كانت له رتبة عالية فى الإفادة والإنصاف والتمييز ، وكان مباركاً حسن المصالحة . أقام فى باخرز إلى أن استدعاه علاء الدين بن تماج إلى بلخ ليكون فى خدمته . وقد قُتِل أثناء القتال مع كورخان فى قطوان . كان الإيلاقى تلميذاً للخيّام يختلف إليه ويستفيد من علومه .

٣ – العلاّمة عبد الله بن محمد الميانجى . كان تلميذاً للخيّام وتلميذاً للعديد من مشايخ العصر وأئمّته ... كصدر المشايخ محمد بن حمويه ، والإمام أبى الفتح أحمد بن محمد الغزالى . وقد اشتغل بالحكمة والتصّوف ، ومزج بين كلام الصوفيّة وكلام الحكماء . واشتغل بالأدب والفقه ، وصنّف فى فنون العلوم ، وضُرِب به المَثَل فى الذكاء والفضل . وكان البعض يعتقد فيه ويتبرّك به ، والخاصة والعامة يتقربون منه ، مما أطلق السنة الحاسدين فى حقّه ، فقصده الوزير أبو القاسم الدركَزينى ، وكتب عليه محضراً ، وأرسله مقيّداً إلى بغداد ، ثم صُلِب فى همدان عام ٥٢٥ هـ عن عمر يناهز الخامسة والثلاثين .

٤ – الحكيم على بن محمد الحجازى القاينى ، الطبيب الوقور الذى اجتمعت فيه آداب الأطباء .

كان ذا خلق ، عارفا بظواهر المعقولات ، يكتب فى الطب والمعالجات . وله كتاب فى مفاخر الأتراك أهداه إلى سنجر ، وآخر فى الحكمة أهداه إلى أتسز بن محمد .

وقد تتلمذ على الخيّام ، ومات فى عام ٥٤٦ هـ .. وعمره تسعون سنة .

٥ – نظامى عروض سمرقندى صاحب كتاب « جهار مقاله » . وقد اعترف بنفسه أنه تلميذ الخيّام .

٦ – الشيخ شرف الدين محمد المسعودى ، طِبقًا لما جاء فى كتاب « الوافى بالوفيات » ، وليست لدينا معلومات ذات شأن عنه .

وممن عاصروا الخيّام وأفادوا منه وأفاد منهم (١) :

١ – الفيلسوف محمد بن المعمورى البيهقى ، تلو ابن موسى فى الرياضيات . وقد عاصر الخيّام وشاركه فى بناء الرصد ، واعترف الخيّام بتبريزه ومتانته . وقد مات مقتولا .

٢ – الحكيم الفيلسوف أبو حاتم المظفّر الأسفزارى ، الذى كانت بينه وبين الخيّام مناظرات ، وقد عمل معه فى الرصد ، وكان يشتغل أكثر ما يشتغل بعلوم الهيئة وعلم الأثقال والميل . وله تصانيف كثيرة فى الرياضيات والآثار العلوية . عمل ميزان (ارشميد) ، وهو بمثابة مقياس يعرف به الغش والعيار ، فلما كسره خازن السلطان الأعظم حتى لا تظهر خيانته فى الخزانة .... مات المظفرٌ حسرة على المدة الكبيرة التى أضاعها فى عمله .

٣ – الحكيم ميمون بن النجيب الواسطى الذى عمل مع الخيّام فى الرصد . كان طبيبا فلكيا حكيما يحفظ المنطق والطبيعيات والإلهيات من كتاب الشفاء ، ولا يخالط العظماء والأثرياء كثيرا .

٤ – أبو الفتح عبد الرحمن المنصور الخازنى . أحد علماء النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى . اشتغل بالطبيعة لاسيما بعلوم الميكانيكا فبلغ القمَّة ووضع كتابا فى الميكانيكا أسماه (ميزان الحكمة) ، وهو الأول من نوعه بين الكتب العلمية القيّمة . كما قام بعمل زيج فلكى لسنجر – فى الغالب –

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٩ وما بعدها .

اسمه الزيج المعتبر السنجارى واخترع ميزاناً لوزن الأجسام فى الهواء والماء. ويعتبر الخازنى (الخازن) من ألمع علماء الرياضيات والميكانيكا فى عصر الخيّام.

٥ – محمد بن أحمد أبو يسر بهاء الدين الخرقى، الفلكى الرياضى الجغرافى، صاحب الكتب العربيّة الذى اشتهر بكتابيه: منتهى الإدراك وتقسيم الأفلاك والتبصرة. وقد شارك الخيّام فى الرصد.

٦ – أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن أحمد البغدادى المعروف بالبديع الاسطرلابى.

وهو حكيم فاضل أديب طبيب عالم فيلسوف متكلّم، شارك الخيّام فى الرصد، ويعتبر من أعظم معاصريه، وأفضل صانع للاسطرلابات والآلات الفلكية. وقد قام بعمل جداول فلكية عام ٥٢٤ هـ.. ضمَّنَها كتابا اسمه « الزيج المحمودى » نسبة إلى السلطان محمود أبى القاسم محمد.

٧ – الإمام أبو الحسن الغزال، إمام القرّاء فى عصره. وقد اجتمع به الخيّام فنال رضاه وثناءه واستحسانه. وقد شهد للخيّام بأنه مقرىء بارع للقرآن.

ومن زعماء الحركة الفكرية فى عصر الخيّام، والذين ارتبط بهم على نحوٍ ما [1]:

١ – أبو حامد محمد الغزالى الذى بدأ حياته سوفسطائيا مرتابا يميل إلى مذهب الشك ثم سار فى طريق الزهد والنسك والإيمان بالله وقدسية أنبيائه وخلود النفس، وانتهى بالميل كليَّة للتصوّف، وقراءة كتب الجماعة، ومحاربة الفلسفة والفلاسفة. وقد بنى كتابه (تهافت الفلاسفة) على هذا الغرض، وردَّ عليه ابن رشد فى كتابه (تهافت التهافت) منتصرا للفلاسفة.

---

(١) المصدر السابق، ص ٨٩ وما بعدها.

من مؤلفاته القيّمة : إحياء العلوم ، الوسيط ، البسيط ، الوجيز ، الخلاصة فى الفقه ، المستصفى فى أصول الفقه ، محكّ النظر ، معيار العلم ، المقاصد ، المضنون به على غير أهله ، المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ، مشكاة الأنوار ، المنقد من الضلال ، حقيقة القولين ، المنخول والمنخل فى علم الجدل .
لُقّب بحجّة الإسلام . وقد التقى بالخيّام فى بغداد فى مجلس الوزير شهاب الإسلام ، وتكلّما حول اختلاف القرّاء فى آية ، فانتزع الخيّام إعجابه ، وجعله يقول : كثّر اللهُ فى العلماء مثلك ، اجعلنى من أرمة أهلك وارضَ عنى ، فإنى ما ظننت أنّ واحدا من القرّاء فى الدنيا يحفظ ذلك ويعرفه فضلاً عن واحدة من الحكماء .

كما التقى بالخيّام مرة أخرى وسأله عن تعيين جزء من أجزاء الفلك القطبية دون غيره ، مع أن الفلك متشابه الأجزاء . وبعد أن استمع إليه .. قام – لأنه سمع المؤذّن يؤذّن لصلاةّ الظهر – وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل » .

٢ – أبو الفتح محمد بن أبى القاسم عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستانى . إمامٌ فقيه عالم بالأديان ، تلقّى العِلم مع الخيّام فى مدينة واحدة ، وكانا متقاربين عمراً ، ولذا يُرجَّح أنهما كانا على صلة ببعضهما البعض . ومن مؤلفاته :

نهاية الإقدام فى علم الكلام ، الملل والنحل ، المنهاج ، البيان ، المضارعة ، تخصيص الأقسام لمذاهب الانام .
ونتيجة لاشتغاله بالفلسفة أتُّهِم بالزندقة .

٣ – الشيخ أبو إسحق (ت ٤٧٦ هـ) : كان ينظم الشعر إلى جانب مؤلفاته القيمة المفيدة ، أمثال : المهذب فى المذهب والتنبيه فى الفقه واللمع وشرحها فى أصول الفقة والتبصره والمعونة ، والتلخيص فى الجدل .

٤ – أبو المعالى عبد المَلِك (إمام الحَرَمَين) . مفتى المدينة وأوحد زمانه فى العلوم ، وهو أحد أساتذة الخيّام . أحصى بن خلكان مؤلفاته وعدّها ثروة عظيمة (جـ ١ ص ٢٨٧) .

توفى فى عام ٤٧٩ هـ فكسر أربعمائة تلميذ من تلامذته أقلامهم ومحابرهم ... وأقاموا على ذلك عاما كاملا . وأغلقت الأسواق ، وكُسر منبره فى الجامع ، وقعد الناس للعزاء وأكثروا فيه المراثى .

٥ – أبو القاسم الزمخشرى ، صاحب أقدم الوثائق التاريخية التى وردت فيها أخبار الخيّام : (الزاجر للصغار عن معارضة الكبار) ، ألفه عام ٥١٦ هـ .

وَرَدَت فى هذا الكتاب مناظرة بين الخيّام والزمخشرى ؛ دارت فى مجلس فريد العصر أبى مضر بن جرير الضبى الأديب ، شيخ الزمخشرى ، (ت ٥٠٧ هـ) وقد انتصر الزمخشرى فى المناظرة ، واعترف الخيّام له بجودة الترتيب والتحقيق . ويدل الخبر على أن الخيّام كان يحفظ أشعار أبى العلاء المعرّى ، فقد قال بيتا من عينيَّة أبى العلاء هو :

نبى من الغربان ليس على شرع   يخبرنا أن الشعوب إلى صدع

* * *

ومما أوردته المصادر وكَتَبَهُ الخيّام ... يَثْبُت للدارس أنه كان مهتما بالفلك والرياضيات والهندسة والفلسفة (أى أجزاء علوم الحكمة) . وأنه كان يُعنى بالطب ويتتلمذ فيه على مشاهير عصره ، لكنه لم يحترفه . وأنه كان عالما بالفقة واللغة والتواريخ وعلم القراءات . وانه لم يكن صاحب مذهب فلسفى خاص ، ولم يبتدع فى الحكمة أسلوبا خاصا انفرد به ، ولم يأت بمقالة جديدة .. بل درس الفلسفة اليونانية . فهو فلكى رياض فى المقام الأول ، ثم حكيم يستعرض النظريات الفلسفية فى المقام الثانى .

أما قضايا الحكمة والأدب والفقه فهو فيها رائد . كما يختلف رأيه عن غيره فى واجب الوجود ، ويسلك مسلك الفلاسفة اليونانيين فى الفلسفة الإلهية .

كان متمكّنا من العربية والفارسية .. وإن تغلّب عليه الزمخشرى فى العربية . وكان يجيد نظم الشعر لكنه لا يتكسّب منه ، ولا يهمه أن ينعت بالشاعر ...

ولهذا وذاك لا نجد له مدحا ولا هجاء ولا غزلا ولا نسيبا ولا رثاء ولا قصائد طويلة . لقد اختار قالبا جميلا لإبراز أدبه ، فتخصص فى نظم الرباعى [١] ، وعروضه (لاحول ولاقوة إلاّ بالله) . وباتت رباعيّاته تمثل شخصيته ، وهى جدّ أصيلة ، لم تنهل إلا من عقله وشعوره ، وصار بذلك شاعر الخاصة والأذكياء والمهمومين والحكماء .

ولعل اضطلاعه بالفلسفة والطب وسائر علوم عصره الشائعة ، وتفوقه فى أجزاء الحكمة والرياضيات والمنقولات ، وشيوع آرائه فى الفلسفة ونظرياته فى الحكمة .. هى السبب فى اتهامه بالزنادقة .

لكن الذى لاشك فيه أنه كان متفوقا فى معظم تلك العلوم وإلاّ ما استحق أن يطلق عليه هذه الألقاب : الدستور ، الإمام ، الحكيم ، الفيلسوف حجّة الحقّ .

ولكونه دائرة معارف وصاحب عقلية فذة وشاعرية متميّزة .. كان القوم ينتظرون منه أن يترك وراءه أسفارا جليلة وتصانيف عظيمة كثيرة العدد .. لهذا وصف بأن له ضنة بالتأليف والتصنيف .

أما ابتعاده عن التعليم وقبول المريدين فإن له ما يبرره ، فقد وُصِف بالمروق واتُّهِم بالزندقة شأنه شأن الكثيرين قبله من ذوى الفضل والرأى الحُرّ ... فخشى على نفسه سوء العاقبة . كما أنه صار يخشى الاختلاط ويوصى بقلّة الأصدقاء بعد أن رأى ما حلّ بتلميذه عبد الله بن محمد الميانجى الذى أُعدِم بتهمة ملفّقة .

ولقد عرفنا مصادر الفلسفة فى هذا العهد ، ولابد أن يكون الخيّام قد استفاد منها فاطّلع على الكتب المترجمة وتأثّر بآراء السوفسطائيين والكلبيين

---

(١) يرى الفيلسوف التركى رضا توفيق أن الدو بيت (الرباعى) هو (الايكَرام) اليونانى وقد أخذه الفرس من اليونانيين .

والمتشائمين والرواقيين سلبا أو إيجابا ، وتأثّر بعلم الكلام ، والصراعات المذهبية والآراء الباطنية [١] ، ورسائل إخوان الصفا [٢] . ولعل عزوفه عن التأليف حال دون اطلاعنا على أفكاره ونظره فيما درسه وعايشه [٣] . لكنه على أى حال لم يستطع إخفاء تأثره بالفلسفة اليونانية .. خاصة فلسفة (ابيقور) ورأيه فى (اللذة) ، فبدت فى رباعياته .

وقد سافر الخيّام إلى الرى وبلخ وبخارى ، وسافر إلى الحجاز وبغداد . وقد استفاد من سفرته إلى بغداد .. كعبة العلم وقِبلة العلماء والحكماء والشعراء ، ومقرّ أهم المدارس والمعاهد الدينية والعلمية والأدبية والمكتبات ومجالس العلم والأدب ، حيث يثور النقاش والحوار والجدل .

---

(١) تضمّنت رسالة عبد الله بن الحسن القيروانى الباطنى المذهب إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابى أشياء منها : إباحه الخمر وجميع الملذات ، إنكار الوحى والنبوّات والمعجزات ، الاعتراف بأن العالم قديم ، إبطال القول فى المعاد والنشر من القبور وكون الجنّة نعيم دائم ، وصايا ترمى لهدم الشرائع وتثبيت دعائم الإلحاد . وما ورد فى رسالة القيروانى يشكّل مبادىء الباطنيّة . ويرى أحمد حامد الصرّاف (فى كتابه عن الخيّام ، ص ١٠٠ ، ١٠٢) أن الخيّام متأثر بتلك العقائد تأثرا قويا وأنه كان مقتنعا بها ومناصرا لها . بل ويرجّح أن يكون من دعاة الباطنيّة ، لأنه بثّ فى رباعياته كل هذه المبادىء الهدامة – ما عدا إنكار النبوات والمعجزات والوحى – معتمدا على أن ما بثّه يحتمل التأويل الصوفى .. أما ما تجنّبه فلا حيلة له فيه ؛ لأن إنكار الوحى والنبوات والمعجزات قد يودى بحياته .

(٢) إخوان الصفا : جماعة من الفضلاء ، اجتمعوا فى البصرة فى منتصف القرن الرابع وكوّنوا جمعية سرية . وأخرجوا ٥١ رسالة عظيمة الشأن جمعوا فيها خلاصة العلوم الشائعة فى عصرهم . وكانوا يهدفون إلى إنقاذ الشريعة من الأوهام والأباطيل والضلالات .. إذ كانوا يرون أن الفلسفة التى تحوى الحكمة العقدية والمصلحة الاجتهادية هى القادرة على تنقية الشريعة من الدناسات والجهالات . كما كانوا يؤمنون بالفلسفة ؛ ولذا ذكروا فى أول رسالة لهم أن الحكماء والفلاسفة – الذين ظهروا قبل الإسلام – قد تكلموا فى علم النفس وأطالوا الخطب فيها ... فلما نقلها من لغة إلى أخرى من يجهلون معانيها ولا يفهمونها حرّفوها وغيّروها ، فانغلق على الناظر فيها فهم معانيها ، ثم يقولون : ونحن قد أخذنا لبّ معانيها وأوردناها بأوجز ما يمكن من الألفاظ فى إحدى وخمسين رسالة .

(٣) يبدو أن الخيّام قد تأثّر بها أو أنه – على الأقل – قد طالعها بدقة وإمعان ؛ إذ انعكس هذا فى لهجته فى رسالته كشف الحجاب عن ضرورة التضاد فى العالم ، وجوابه عما أورده أصحاب مذهب الجبر . كما أن رأيه فى رسالته « الكون والتكليف » يكاد يكون نفس لهجة إخوان الصفا فى رسائلهم .. حتى إن الصراف يقول (ص ١١٨) : إنه يكاد يصعب التفريق بينها لتقارب الفكر واللهجة والتقرير وبسط الحُجّة .

مؤلّفات الخيّام :

عديدة ومتنوعة ، لكنها أقل مما كان يتوقعه العارفون بفضله وسعة أفقه وكثرة اهتماماته .

لقد وصف بأن له ضنَّة بالتأليف ... إذ كان المنتظر منه – وهو دائرة معارف ، كثير الأسفار ، واسع الاطلاع ، منظّم الفكر ، قوى الذاكرة ، مجيد للغتين العربية والفارسية وآدابهما – أن يترك وراءه العديد من الكتب والرسائل الجليلة القدر فى كل ميدان طرقَه وعلم تخصص فيه . ولعل الظروف السياسية والاجتماعية والمذهبية كان لها دخلها فى هذا الإقلال ، لكن ما كتبه على أى حال كان له صداه بين العلماء والأدباء على قِلّته إذا ما قورن بما كتبه غيره . وليست العبرة بالكثرة بل بالإجادة .

وتنحصر مؤلفات الخيّام فى :

(١) رسالة فى براهين الجبر والمقابلة مع خمسة ألواح للأشكال كتبها بالعربية ، وطبعها المستشرق « وبكيه » فى باريس لأول مرة عام ١٨٥١ م بعد ترجمتها إلى الفرنسية ، وكان لها صداها الطيب فى نفوس المشتغلين بهذا العلم . وقد قال « بروكلمن » فى شأن هذه الرسالة [١] :

كانت دراسات الخيّام فى علم الجبر أول محاولة ناجحه لحل المعادلات التكعيبية ، وقد ميز منها ثلاث عشر معادلة . ولم يحلّها حلاً جبريا فحسب ، بل حلاً هندسيا أيضا .

وحين يذكر كاتب جلبى هذا الكتاب فى مؤلفه « كشف الظنون » [٢] يقول بشأنه :

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة عربية ، جـ ٢ ، ص ١٣٠ ، ١٣١

(٢) كشف الظنون ، المجلد الثانى ، ص ٥٨٤ ، طبع ١٨٣٥ م .

قال الفاضل عمر بن إبراهيم الخيّامى إن أحد المعانى التعليمية من الرياضيات هى الجبر والمقابلة ، وفيه ما يحتاج إلى أصناف من المقدمات معتاصة جدا متعذر حلّها .

وقد بزغت فى سماء الوجود مؤلفات ثلاثة فى جبر الخيّام تشهد بنبوغه فى الرياضيات .

وأول هذه المؤلفات هو « جبر عمر الخيام » للدكتور داود . س . قصير ، وقد طبع فى نيويورك عام ١٩٣١ م . وثانيها هو « جبر عمر الخيام » تأليف ونتر وعرفات ، وقد طبع فى عام ١٩٥٠ م .

وثالثها هو « تراث العرب العلمى » وقد وردت فيه نماذج من المعادلات التى حلّها عمر الخيام .

وقد أورد الصرّاف أثناء حديثه – فى صفحة ٣٣٢ من كتابه عن الخيام – نموذجا من حل الخيام للمعادلات التكعيبية هندسيا ، نقلها عن هذا الكتاب الذى ألفه قدرى حافظ طوقان . وهذا هو النموذج الذى أورده :

م ، حـ فى المعادلات الآتية أعداد موجبة صحيحة :

(١) $س^{٣} + د^{٢} س = د^{٢} حـ$

ويقول الخيام إن جذر هذه المعادلة هو الإحداثى الأفقى لنقطة تقاطع الخطين البيانيين للمعادلتين :

$س^{٢} = د ص$

$ص^{٢} = س (جـ - س)$

(٢) $س^{٣} + م س^{٢} = حـ^{٣}$

وجذرها هو ، الإحداثى الأفقى لنقطة تقاطع الخطين البيانيين للمعادلتين :

$س ص = حـ^{٢}$

$ص^{٢} = حـ (س + م)$

هذا وقد ترجم الدكتور غلام حسين مصاحب هذه الرسالة الهامة إلى الفارسية ، وطبعها فى طهران .

(٣) $س^{٣} + م\ س^{٢} + د^{٢}\ س = د^{٢}\ جـ$

وجذرها هو الإحداثى الأفقى لنقطة تقاطع الخطين البيانيين للمعادلتين :

$$ص^{٢} = (\ س + م\ )\ (\ حـ - س\ )$$

$$،\ س\ (\ د \neq ص\ ) = د\ حـ$$

وهو أيضا من أوائل الذين حاولوا تقسيم المعادلات إلى أقسام متنوعة ، واعتبر المعادلات ذات الدرجة الأولى ، والثانية والثالثة إما بسيطة وإما مركّبة ، فالبسيطة تكون على ستة أشكال ، والمركّبة تكون على إثنى عشر شكلا .. والمركّبة قد تكون أيضا مركّبة من أربعة حدود ...

وبحث الخيّام فى النظرية المسماه بنظرية (فرما) ، وقال : إن مجموع عددين مكعبين لا يمكن أن يكون مكعبا . ويوجد فى كتابه عن الجبر قانون لحل المعادلات ذات الدرجة الثانية . والقانون الذى وضعه يستعمل للمعادلات التى تكون على النمط الآتى :

$$س^{٢} + د\ س = حـ$$

أما القانون فهو :

$$س = \sqrt{\tfrac{١}{٤}\ د^{٢} + حـ} - \tfrac{١}{٢}\ د\ .$$

(٢) نوروز نامه :

رسالة فى رسوم وأعياد إيران ، وفى تراجم بعض ملوك فارس . كتبها الخيّام بالفارسية ، ونشرها السيد مجتبى مينوى سنة ١٣١٢ وهى تفيد فى تاريخ الاحتفالات بهذا العيد وآدابه . والرسالة حافلة بالمعلومات الهامة ؛ ففى صفحتى ٨ ، ٩ منها يذكر الخيام أنه طبقا للحساب الذى كان معمولا به فى عهد « كيومرث » عُلِم أن شهر فروردين يتأخر كل سنة عدة ساعات

عن موضعه الأصلى ، ثم يعود بعد مرور ١٤٦١ سنة إلى الموضع الذى هو عبارة عن نقطة الاعتدال الربيعى . ومنذ أن أوجد كَيومرث حساب السنة الشمسية الى نهاية سنة ٤٢١ - وهى المدة التى حكم فيها جمشيد - انتهت فترة الـ ١٤٦١ سنة المذكورة ، وعاد فروردين إلى موضعه الأول فى برج الحمل . ولأن جمشيد قد أدرك هذا اليوم ، وسمّاه « نوروز » وأمر الناس بالاحتفال به عندما يحل شهر فروردين الجديد فى كل سنة .. فقد اعتبروا ذلك اليوم « يوما جديدا » .

وفى ص ١٨ ، ١٩ (١) يعطى الخيّام تفصيلات دقيقة عما كان يجرى فى ذلك اليوم . ويبيّن كيف أنه من عهد كيخسرو إلى عهد يزد جرد آخر ملوك فارس كان من السُنَّة أن يكون أول من يدخل على الملك - من غير أساورته - موبد الموابدة مع كأس ذهبى ملىء بالمدام ، وخاتم ودرهم ودينار خسروانى ، وقبضة من نبات الشعير الأخضر ، وسيف وسهم وقوس ، ودواة وقلم ، وحصان وبازى ، وغلام حسن الصورة .

ثم يذكر عبارات المديح التى كان يكيلها موبد الموابدة للملك ، ويسجل الدعاء الذى يدعو له به ، والنصائح التى يوجّهها إليه . ويبين علّة حملِهِ الشراب ونبات الشعير والدينار والدرهم وغيرها مما هو معه .

وتعتبر الرسالة مرجعا هاما لمن يريد البحث فى عيد النوروز وآدابه .

(٣) رسالة فى شرح ما أشكل من مصادرات كتاب إقليدس :

رسالة بالفارسية ، لها نسخة مخطوطة بدار الكتب بليدن فى هولندا . وقد طبعت فى طهران عام ١٣١٤ هـ .

---

(١) عمر خيام : نوروزنامه ، نشر مجتبى مينوى ، تهران ١٣١٢ هـ .

(٤) زيج ملكشاهى :

رسالة ألفها الخيّام فى بيان زيج ملكشاه الذى كان الخيام على رأس من وضعوه . تحدث صاحب كشف الظنون عنها حديثا مقتضبا (المجلد ٣ ، ص ٥٧٠) فقال : « الزيج الملكشاهى لعمر الخيام ، ذكره عبد الواحد فى شرح « سى فصل » (الفصول الثلاثين) » .

(٥) رسالة ميزان الحكمة :

رسالة بالعربية فى الاحتيال لمعرفة مقدارَى الذهب والفضة فى جسم مركّب منهما . يذكر بروكلمن فى كتابه « تاريخ علوم العرب » – ح ١ ص ٤٧١ – أن لها نسخة محفوظة فى مكتبة جوته بألمانيا .

(٦) رسالة فى الكون والتكليف :

ألفها الخيام بالعربية ، جوابا لسؤال وجهه إليه الإمام القاضى أبو نصر محمد ابن عبد الرحيم النسوى – أحد كبار معاصريه وتلميذ الشيخ الرئيس – حول الحِكمة من خلق الله سبحانه العالم ، والحكمة من وراء تكليف الناس بالعبادات . وكان تأليفه لها فى عام ثلاث وسبعين وأربعمائة من الهجرة .

وقد طبعت هذه الرسالة أكثر من مرة ، ويؤكد نسبتها للخيام ذكر ظهير الدين البيهقى لها والشهرزورى فى كتابه (نزهة الأرواح) .

وهذه الرسالة واحدة من ثلاث رسائل للخيام نشرها الصرّاف ، وتبدأ بهذه الفقرة :

كتب أبو نصر محمد بن عبد الرحيم النسوى ، وهو الإمام القاضى بنواحى فارس ، سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ، إلى السيد الأجلّ حجّة الحق فيلسوف العالم نصرة الدين سديد حكماء الشرق والغرب أبى الفتح عمر ابن إبراهيم الخيامى – قدس الله نفسه – رسالة منطوية على المباحثة عن حكمة الله تبارك وتعالى فى خلق العالم – وخصوصا الإنسان – وتكليف الناس بالعبادات ... ويقول الخيام فى السطور الأخيرة منها ذاكراً المنافع التى تنجم عن الطاعات :

« ثم يحصل من تلقى الأوامر والنواهى الإلهية والنبويّة بالطاعات ثلاث منافع :

إحداها : ارتياض النفس بتعوّدها الإمساك عن الشهوات وزمها عن القوة الغضبية المكدّرة للقوة العقلية .

والثانية : تعويدها النظر فى الأمور الإلهية وأحوال المعاد والآخره لتجرّها المواظبة على العبادات من جانب الغرور إلى جناب الحق والتفكّر فى الملكوت ، وتحرّضها على تحقيق وجود الحق الأول ، أعنى الذى عنه وجود كل موجود ، جل جلاله وتقدست أسماؤه ولا إله غيره ، والذى فاضت الموجودات عنه منتظمة فى سلسلة الترتيب التى اقتضتها الحكمة الحقّة بالبرهان المبنى على القياس المجرّد من أصناف التمويهات والمغالطات .

والثالثة : تذكيرهم الشارع الحق ، وما أتى به من الآيات والإنذارات ووعده ووعيده الممضى المحض أحكام السنّة العادلة فيما بينهم ، فيجرى بينهم التعادل والترافد ، ويبقى نظام العالم الذى اقتضته حكمة البارى (جل وعلا) على حاله .

فهذه هى منافع التكليف ومنافع العبادات . ثم زاد لمستعمليه الأجر والثواب فى الآخرة ، فانظر إلى حكمة الحق القيّوم ثم إلى رحمته تلحظ جنابا يبهرك عجائبه » .

ثم يقول فى ختامها ما نصه :

« فقد بان أن جميع الذوات والماهيات إنما تفيض من ذات المبدأ الأول الحق جل جلاله على ترتيب وفى سلسلة نظام ، وهى كلها خيرات لا شرٌّ فيها بوجهٍ من الوجوه . إنما الشر الذى هو الذم أو لازمه يحصل من ضرورة التضاد على ما قد عرفت تفصيله ... تعالى الله عما يقول الظالمون الملحدون علوا كبيرا ، ولاحول ولاقوة الّا به وهو حسبى ونعم المعين . والحمد لله الذى هو المبدأ الأول ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين . تمّت بعون الله وتوفيقه » .

وتنتهى الرسالة بقوله :

هذا هو القدر النزر الذى لاح لى فى الحال ، فعرضته على مجلسك الرفيع أيها الكامل الأوحد لكى تسد خلله ، وتصلح فاسده ، وتعوضنى عنه ما أسكن إليه بلقائك الشريف وكلامك اللطيف . والله تعالى أعلم بالصواب . والحمد لله أولاً وآخراً وباطناً وظاهراً .

(٧) رسالة فى جواب عن ثلاث مسائل اعتقادية :

رسالة بالعربية كتبها الخيّام فى جواب ثلاث مسائل تتعلق بالحكمة . نشرها محيى الدين صبرى مع عدة رسائل بعنوان (جامع البدائع) وطبعها فى مصر .

وهى تحتوى على أجوبه عمر الخيام على ثلاث مسائل . ولا يوجد بها اسم السائل ولا نصوص الأسئلة حرفيا .

وأولى هذه المسائل : كيف صدر ملازيم التضاد والشر عن الواجب مع البتّ بأنه عز وجل يتعالى عن أن يكون مصدر شر أو ظلم وجور ، ومع القول بامتناع تعدد الواجب ؟

وثانيتها : أى الفريقين أقرب إلى الصواب ، وقوله اشبه بالتحقيق ؟ الجَبْرية القائلين بالجبر ونفى الاختيار من الممكن ، أم القَدَرية الناسبين إلى العبد خلق أفعاله الاختيارية .

وثالثتها : إن قوما يقولون بأن البقاء من صفات المعانى ، أى أنه صفة زائدة عن ذات الباقى فى الخارج ، فكيف يصح قولهم وما سبيل المناقشة معهم ؟

وتبدأ بما يلى :

أجاب الخيام : (وبعد) فإن مباحثته إياى عن مسألة ضرورة التضاد رفعت من ذكرى ، وعظمت فى أمرى ، واستوجبت لله تعالى خالص شكرى ..

إذ لم يخطر ببالى أن أسأل عن أمثالها ، خصوصا فى ذلك النمط ، مردفا بذلك الشك القومى ، وهو أن ضرورة التضاد إن كانت واجبة الوجود بذاتها كان فى واجب الوجود بذاته كثرة . وقد قام البرهان على أن واجب الوجود بذاته واحد من جميع جهاته .

ثم إن كانت ممكنة كان سببها وموجدها هو الواجب الوجود الواحد ، وقد قطعتم بأن الشرور لا تفيض من عنده . وتنتهى بقوله :
.... فتلك المعانى ينبغى أن تبقى مع الباق مدّة يمكن أن يوصف الباق فيها بأنه باق ، وإلا فلا معنى للبقاء والباق وإن كانت موجودات متشافعة ، فقد بان أن الوجود والبقاء هما معنى واحد ، وأن البقاء ليس هو إلا استمرار الوجود ، أو اتصاف الموجود بالوجود ملتفتا فيه إلى المدة ... إذ الوجود المطلق يجوز أن يكون فى آنٍ من الزمان ، ولا يجوز أن يكون البقاء إلا فى مدة .... فهذا هو سمت الجدال معهم وقمعهم . والحق عندى أنه لا يلاج من يكون عقله بحيث يخفى عليه هذا القدر من المعقولات ... فهذا هو الذى سنح لى فى الحال ، والله أعلم بكل المقال .

(٨) رسالة روضة القلوب فى كليات الوجود :

رسالة كتبها الخيّام بالفارسية بناء على طلب فخر الملك بن المؤيد . نشرت على يد سعيد نفيسى فى مجلة الشرق بتهران ، ثم طبعت مستقلة . كما نشرها الصراف بدوره .
ويستهلها الخيّام بقوله : إن الموجود الذى هو موضوع الفلسفة الأول ، أعنى العلم الكلى الذى تحته جميع العلوم ، ظاهر التصور لا يحتاج فى تصوره إلى تصور أمر آخر يسبقه ، لأنه أعم الأشياء ، وهو وما أشبهه إذا حكم عليه بأمر ما وجودى لا يمكن إلا أن يكون موجودا على ما علمت تفصيله ....

وقد عرض فيها الخيّام للحديث عن مذهب الصوفية وبدا من كلامه أنه يرجح هذا المذهب على سائر المذاهب . ويبدأ كلامه فى هذا الموضوع عندما يقول بالفارسية :

« بدانكه كسانى كه طالب شناخت خداوند سبحانه وتعالى اند جهار كَروهند :

أول : متكلمانند كه ايشان بجدل وحجتهاى اقناعى راضى شده اند ويدان قدر يسنده كرده اند در معرفت خداوند .

دوم – فلاسفه وحكماء اند كه ايشان بأدلۀ عقلى صرف در قوانين منطقى طلب شناخت كرده اند كه هيجكونه بادلۀ اقناعى قناعت نكرده اند ، لكن ايشان نيز بشرايط منطقى وفاء نتوانستند بردن وازآن عاجز آمده اند .

سوم – اسماعيليانندكه ايشان كفتند كه طريق معرفت جز اخبار مخبر صادق نيست ، جه در ادلۀ معرفت صانع وذات وصفات وى اشكالات زيادى ست ، وادلۀ عقلى ومتعارفى در آن متحير وعاجز ، يس أولى تر باشد كه از صادق طلبند .

جهارم – اهل تصوف اند كه ايشان نه بفكر واندیشه طلب معرفت كردند بلكه به تصفيۀ باطن وتهذيب اخلاق ، نفس ناطقه را از كدورت طبيعت وهيأت بدنى منزه كردند ، جون اين جوهر صافى كشت ، ودر مقابل ملكوت افتاد ، صورتهاى اين تحقيقات وآن جايكاه يبدا شد بى هيج شكى وشبهتى ، واين طريق ازهمه بهترست ، جه معلوم شد كه هيج كمالى از حضرت خداوند دريغ نيست ، منع وحجاب نيست مكر هرآنجه هست آدمى را از جهت كدورت طبيعت باشد ، جه معلوم شده كه اكر حجاب زايل شود وحايل ومانع دور كردد حقائق جيزها جنانجه باشد يبداشود ، وسيد عالم عليه افضل السلام والتحيه براين اشارت كرده ست وفرموده كه « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوها » .

إن من يطلبون معرفة الله سبحانه وتعالى ينقسمون إلى أربع فرق .

أولاها : المتكلّمون الذين قنعوا بالجدل والحجج الإقناعية ، واكتفوا بهذا لمعرفة الله سبحانه .

وثانيتها : الفلاسفة والحكماء الذين اعترفوا بالأدلة العقلية الصرفة فيما يتعلق بالقوانين المنطقية للموضوع . فهم لم يقنعوا قط بالأدلة الإقناعية ، كما أنهم أيضا لم يفوا بالشروط المنطقية وعجزوا عن ذلك .

وثالثتها :الاسماعيليون الذين قالوا بأن طريق المعرفة ليس سوى أخبار المخبر الصادق .. لأن فى أدلة معرفة الصانع وذاته وصفاته صعابا كثيرة . والأدلة العقلية المتعارف عليها تحار فى ذلك وتعجز ، فالأَوْلى إذاً أن تطلب من الصادق .

ورابعتها : الصوفيون الذين لم يسعوا إلى معرفة الله بالفكر والبحث وإنما طلبوها عن طريق تصفية الباطن وتهذيب الأخلاق . لقد نزهوا النفس الناطقة عن كدورة الطبيعة والهيئة البدنية ، فإن هذا الجوهر حين تنزه ووقف أمام الملكوت ظهرت صور هذه التحقيقات ، وتبدّى ذلك المقام دون شك وريب . وهذه الطريقة أفضل الطرق ؛ فالمعلوم أن أى كمال من الكمالات غير محجوب عن حضرة الله . ولامنع ولاحجاب للإنسان إلا من كدورة الطبيعة . كما أنه من المعلوم أنه إذا أزيل الحجاب وأبعد المانع فإن حقائق الأشياء تبدو كما هى . وقد أشار سيد العالم عليه أفضل السلام والتحية إلى ذلك فقال : « إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوها » .

وقد أنهى الخيّام رسالته هذه بقوله :

إن الوجود الذى هو مقابل العدم المقول على جميع الأشياء .. هو من لوازم تلك الماهية ... فلو كان ذلك المعنى أمرا على حدة لتكثر به ذات البارى جل جلاله وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا . وعند هذا الموقف عديد من مباحثات عميقة وتحصيلات كثيرة وتحاقيق جمّة . ومن أخذت الفطانه بيده وصحبه توفيق من الله تعالى صادف فى التوحيد ههنا ما يسكن إليه العقل . نسأل الله التوفيق للوصول إلى الكمال ، والحمد لله على كل حال .

ويذكر الصرّاف فى كتابه عن الخيّام (ص ٣٠٩) ، أن هذه الرسالة قد جاء ذكرها فى فهرست دار الكتب الألمانية ببرلين ، تحت رقم ٢٣٨٩ . وجاء فى أولها :

رسالة الوجود لعمر بن إبراهيم الخيامى : سبحان الذى جل جلاله وتقدست أسماؤه .... الأوصاف للموصوفات على ضربين ، ضرب يقال له الذاتى ، وضرب يقال له العروضى .... الخ .

لكن هذه الرسالة غير التى تحدثنا عنها ، كما أنها بالعربية وليست بالفارسية . وقد ذكرها صاحب كتاب « كشف اللثام » وقال : هى رسالة فى الوجود أو فى الأوصاف والموصوفات بالعربية . وقال : إن الرسالة الفارسية التى قدّمت لفخر الملك موجودة فى متحف بريطانيا بلندن ، وقد كتب عليها - عنوانا لها - ما نصّه :

« رسالة بالعجمية لعمر بن الخيّام فى كليات الوجود » .

(٩) رسالة لوازم الأمكنة :

كتبها الخيّام فى البحث عن درك الفصول الأربعة ، وعلّة اختلاف الجو فى البلاد والأقاليم .

وقد ذكرها التتوى فى كتابه (تاريخ الألفى) مع رسالة ميزان الحكمة .

(١٠) رسالة فى الطبيعيات :

ذكرها كل من البيهقى والشهرزورى عند حديثهما عن الخيّام .

(١١) رسالة الضياء العقلى :

كتبها الخيّام بالعربية فى موضوع العلم الكُلّى . وقد طبعت فى مصر والهند .

(١٢) ترجمة خطبة ابن سينا :

نقلها الخيّام عام ٤٧٢ هـ - عند وجوده فى إصفهان - من العربية إلى الفارسية - وأوردها القاضى أحمد ميان آكنار فى كتابه « الدراسات الإسلامية الشرقية » - طبع لاهور .

وقد قام سعيد نفيسى بطبعها فى مجلة الشرق . وهذا نموذج لنثر الخيّام الذى وضعه لقسم من هذه الخطبة العربية .

يبدأ الخيّام بقوله :

ياكا يادشاها ، دادار وايزد كامكار - خداوندى كه آغاز همه جيزها ازوست ، وبازكشت وانجام همه جيزها بدوست - وايزد جل جلاله جوهر نيست كه بيذيرفتن اضداد متغير كردد - ببايد دانست كه نه هر جوهرى ضد يذير باشد .

وينهى الرسالة بقوله :

خداوند ما وآفريدكار ما خداوند وآفريدكار مبادى تاترا جوئيم وترايرستيم واز تو خواهيم وتوكّل بتوكنيم كه آغاز همه جيزها از توست وبازكشتن همه جيزها بتوست - والسلام على سيد الأنام محمد وآلِه البررة الكرام .

(١٣) مشكلات الحساب التى وردت فى مقدمة رسالة شرح ما أشكل من مصادرات كتاب اقليدس .

(١٤) رسالة نظام الملك فيما يتعلق بالحُكْم .

(١٥) رسالة فى صحة الطرق الموصلة لاستخراج الجذر المكعّب ، تدل على تضلّعه فى العلوم الرياضيّة .

(١٦) بعض الجداول الفلكية فى النجوم .

(١٧) أشعار عربية :

ضاع أكثرها ، وما بقى منها جاء متناثرا فى كتب التراجم والسير ، وكلها من ضرب واحد شعرى هو (القطعة) .

روى الشهرزورى والقفطى مقطوعتين منها ، وجاء عدد آخر فى كتاب تتمة تتمة صوان الحكمة [1] .

---

(١) يورد الصراف هذه الأشعار فى كتابه (عمر الخيّام ص ١٦٦ ، ١٦٧) نقلا عن تتمة تتمة صوان الحكمة - نسخة مصورة من الأصل المحفوظ فى مكتبة داماد زاده باستانبول =

وأسلوب الأشعار العربية لدى الخيّام أشبه بأسلوب العلماء منه بأسلوب الشعراء . وتبرز هذه الأشعار عميق خبرته ، وفيها من التشابيه والاستعارات وذكر الظواهر الطبيعية ما يشير إلى أن قائلها يشتغل بالطبيعة والأفلاك . وهذا أدل على الخيّام حتى من رباعياته الفارسية .

والفخر فى شعره العربى كثير ، بينما هو قليل فى شعره الفارسي ، ولعله بذلك يقلد العرب ... فالفخر يشيع فى شعرهم . ومنظومات الخيّام العربية تتفرق فى أكثر من كتاب ... على صورة قطعات من أبيات محدودة .. كما ذكرنا .

وتبرز منظومة من بينها فرط اعتزازه بنفسه :

وما ساقنى فقر إليك وإنما أبى لى عزوف النفس أن أعرف الفقرا
ولكننى أبغى التشرف إنه سجيّة نفس حرة ملئت كبرا

بينما تبرز أخرى وفاءه وتؤكد ميله للجبر دون الاختيار :

ولو أعطانى الدهر اختيارى بحسب السر منى والطويه
لسرت على جفونى كى أزجى لدى مغناك عن عمرى بقيه

وتهاجم إحداها الترك الحاكمين ، وتستبطىء انتقام الأفلاك ، وإن كان ذلك مستبعدا ، نظراً لقربه من السلاجقة واهتمامهم به :

أظلت رياح الطارقات رواكدا أم انطبقت منها الجفون رواقدا ؟
تحللت الأفلاك أم راث دورها فصرن حيارى قد ضللن المراشدا ؟

= ويسبق الأشعار هذه الفقرةُ نقلا عن الكتاب المذكور ، وهى تنبىء عن قدرته الكبيرة على تفسير القرآن :

« سئل الخيام عن معنى المعوذتين وسبب تكرار بعض ألفاظها فاندفع يسرد كل قول نادر ، ويورد كل شاهد شارد ... حتى أتى بما لو جمع لبلغ حجم مجلد .

هذا مقامه المحمود فى التفسير مع أنه لم يمتط غاربه ، فما ظنك بعلم أنفق فيه عمرَه حتى استوفى غاربه . ثم له شعر يشرق صوب المزن بمائه ، وتشرق أرجاء الفضل بضيائه » .

كأن النجوم السائرات توقفت عن السير حتى ما بلغن المقاصدا
ففى قلب بهرام وجيب وروعة وكيوان أعشى ليس يرعى المراصدا
لذاك تمادت دولة اللؤم وانبرت بنو الترك يبغون السماءِ مصاعدا

وتشهد إحداها بقناعته :

إذا قنعت نفسى بميسور بلغة يحصلها بالكد كفى وساعدى
أمنت تصاريف الحوادث كلها فكن يا زمانى موعدى أو مواعدى
وهبنى أخذت الشعريين منازلى وفوق مناط الفرقدين مصاعدى
اليس قضى الرحمن فى حكمه بأن يعيد إلى نحس جميع المساعد ؟
متى ما دنت دنياك كانت قصيّة فواعجبى من ذا القريب المباعد
إذا كان محصول الحياة منية فسيان حالا كل ساع وقاعد

وتكشف أخرى عن يأسه من تحقق الوفاء على يد أبناء عصره :

زجيت دهرا طويلا فى التماس أخ يرعى ودادى إذا ما خُلةٌ خانا
فكم ألفت وكم آخيتُ غير أخ وكم تبدلت بالإخوان إخوانا
وقلت للنفس لما عز مطلبها إياك أن تألفى ما عشت إنسانا

ويكشف غيرها عن عدم ثقته بالأيام وصروفها :

العقل يعجب فى تصرفه ممن على الأيام يتّكل
فنوالها كالريح منقلب ونعيمها كالظل منتقل

ومن بينها ما يؤكد فخره بهمّته وحكمته :

سبقت العالمين إلى المعالى بحسن خليقة وعلو هِمَّه
ولاح بحكمتى نور الهدى فى ليال بالضلالة مدلهمّه
يريد الحاسدون ليطفئوه ويأبى الله إلّا أن يُتِمَّه

كما أن من بينها ما يعكس فخره بشيمه العالية ودوره في توجيه مواطنيه ، غير أنه يستهل فخره هذا بالتطاول على خالقه سبحانه ... بفرض صحة نسبة الأبيات إليه :

تدين لى الدنيا بل السبعة العُلا
بل الأفق الأعلى إذا جاش خاطرى
أصوم عن الفحشاء جهرا وخفية
عفافا وتقديسى بتقديس فاطرى
وكم عصبة ضَلّت عن الحق فاهتدت
لطرق الهدى من فيضى المتقاطر
لأن صراطى المستقيم بصائـر
نصبن على وادى العمى كالقناطر

* * *

الباب الرابع

الرباعيات

و

الدراسات والترجمات

الفصل الأول

رُباعِيَّات الخيَّام

ونظراً لحدّة الخلاف بين الباحثين وتباين وجهات النظر حول عقائد الخيّام وأسلوب تفكيره وطريقته فى الحياة .. نجد بنا ميلا إلى الحديث حول رباعيّاته الفارسيّة باعتبارها المصدر الخصب الذى نطمع فى أن يمدّنا بما يكشف عن خبيئة نفسه ، ويبدى اتّجاهات فكره ، ويجلّى مدى تأثّره بغيره وتأثّر الآخرين به . غير أننا نرى – من المناسب وتحقيقا للفائدة – أن نحيل الدارسين – قبل التفرّغ للحديث عن الرباعيّات إلى بعض المراجع القديمة والأبحاث الحديثة التى تمكّنهم من معرفة الكثير عن هذا الشاعر العالم أو العالم الشاعر . وهذه أهمّها :

تاريخ الحكماء للقفطى ،	الملل والنحل للشهرستانى ،
الكامل لابن الأثير ،	النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ،
تاريخ الإنطاكى ،	حبيب السير لخواندمير ،
جهان كَشا للجوينى ،	شعر العجم لشبلى النعمانى ،
نهاية الأرب للنويرى ،	تاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ،
روضة الصفا لميرخواند ،	مرآة الزمان لسبط بن الجوزى ،
ديوان الخاقانى الشيروانى ،	سيك شناسى لمحمد تقى بهار ،
التاريخ الألفى لأحمد بن نصر الله ،	كشف الظنون لحاجى خليفة ،

فردوس التواريخ لخسرو الأبرقوهى ، مرصاد العباد لنجم الدين الرازى ،

آثار البلاد وأخبار العباد لزكريا القزوينى ،

جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله ،

تذكرة الشعراء لدولتشاه السمرقندى ،

نزهة الأرواح وروضة الأفراح للشهرزورى ،

جهار مقاله لنظامى عروض السمرقندى ،

تاريخ كَزيده لحمد الله مستوفى القزوينى ،

تاريخ أدبيات در ايران لذبيح الله صفا ،

تاريخ ادبيات ايران لرضا زاده شفق ،

مقدّمة ساخاتو على الآثار الباقية للبيرونى ،

رباعيّات خيّام للعلامة التركى رضا توفيق بك ،

مقدّمة أحمد رامى على ترجمته لرباعيّات الخيّام ،

مقدّمة أحمد الصافى النجفى على ترجمته لرباعيّات الخيّام ،

مقدّمة أديب تقى على تعريب النجفى لرباعيّات الخيّام ،

رباعيّات الخيّام لوديع البستانى ،

ثورة الخيّام لعبد الحق فاضل ،

عمر الخيّام الحكيم الرياضى الفلكى النيسابورى لأحمد حامد الصرّاف ،

عمر الخيّام وعصره لدنيسون روس ،

بين المعرى والخيّام لأحمد كمال ، مجلة الشعر ، يناير ١٩٨٠ م ،

عمر الخيّام والرباعيّات الجائلة لفالنتين جكوفسكى :

Umar Kh . and wandering Quatrians .

المقابلة بين ترجمة فيتزجرالد لرباعيّات الخيّام وأصولها الفارسيّة ، لإدوارد هارون ألن :

Loward Fitz Cerald's Rubaiyyat of Omar kh .
With their Original persian Sources .

تاريخ الأدب فى إيران لإدوارد جرنفيل براون :

A Literay History of persia - from Firdawsi to sa'di .

ويشتمل الملحق التاسع والأربعون – الذى نشره ناثان هسكل للرباعيات فى بوسطن ولندن عام ١٨٩٨ م – على قائمة طويلة من الطبعات تكفى لإشباع نهم كل معجب بالخيّام وأخباره وأفكاره ، ويعترف جامعها بكثرة ما كُتب حول الخيّام فى قوله :

« إن مجرد جمع ما كُتب عن عمر الخيّام فى جميع اللغات يقتضى من المرء أن يتفرّغ لذلك طوال حياته ، وإن مجموع المؤلّفات التى كتبت عنه يكفى بلاشك لإنشاء مكتبة عامرة حافلة » .

والآن ونحن نطرق أبواب الرباعيّات الفارسيّة التى ارتضاها الخيّام ، قالبا لاحتواء أفكاره وإبراز آرائه ، والتى تعتبر النبع الفياض لآرائه الفلسفيّة ، والمرآة العاكسة لشعوره ، وما كان يختلج فى صدره من شكوك ونزعات ووساوس .. نعرّف بالرباعيّة ، فنقول إنها منظومة مستقلّة فيها وحده فى الشكل والمضمون ، وأنّها ضرب جميل من ضروب النظم بشرط أن يحيكها شاعر مجيد ، يستطيع أن يمهّد لما يرمى إليه فى أشطرها الثلاثة الأولى ، وأن يفرغ فى الشطر الرابع النتيجة التى مهّد لها .

والرباعيّة فن فارسى خالص ، يرتكز على أربع شطرات من الشعر ولذا تسمّى بالرباعى أو الرباعيّة . أما الذين يطلقون عليها اسم الـ « دوبيت » فإنهم يعتبرونها مجرد بيتين من الشعر كأى بيتين فى مطلع قصيدة أو غزليّة .. وهم فى زعمهم مخطئون . إذ يشترط فى الرباعيّة دائما أن تكون على وزن من الأوزان الخاصة المستخرجة من بحر الهزج (١) وأن تفى بالغرض الذى أنشئت من أجله ، فلا تكون هناك صلة بينها وبين الرباعيّة السابقة عليها أو التالية لها . ونؤكّد بالتالى أنه لا توجد منظومة من عدة رباعيّات ، ولهذا فإن ناظمى الرباعيّات يرتّبون رباعيّاتهم فى دواوينهم على نحو واحد ، يتّبعون فيه الترتيب الألف بائى وفقا للحرف الأخير من القافية .. فى الشطرات المقفّاة ، إذ تقفّى مصاريع الرباعيّة (الأول والثانى والرابع) مع بعضها بعضاً دائما ، بينما يقفّى المصراع الثالث معها أولا يقفّى .. والحالة الأخيرة هى الأفضل .

---

(١) تأتى الرباعيّة فى بحر فارسى دخيل على العربية ، يسمى بحر الدو بيت ، وأفضلها ما كان على وزن (لاحول ولاقوة إلّا بالله) ... غير أن بعض المتأخرين من أدباء العرب - كإيلياس فرحات والشيخ على الشرق - قد أطلقوا اسم الرباعيّة على أربعة أبيات تشبيها لها برباعيّات الخيّام ، بينما رباعيّات الخيّام تتألف من بيتين فحسب (أنظر فى ذلك رباعيّات عمر الخيّام ، للنجفى ص ١٠) .

والرباعيّات ضرب من النظم سهل التقليد والمحاكاة ، فهى تتشابه غالبا فى الصيغة والألفاظ والوزن والتركيب والمحسّنات البلاغيّة ، إلى جانب كونها قصيرة النَفَس ، تعالج الخاص من الأمور دون العام .. وهذا ما يجعل من الصعب على القارئ أو السامع إطلاق حكم قاطع بأن شاعراً بعينه هو ناظم رباعيّة بعينها .

وقد أوتى بعض شعراء الرباعيّات موهبة الارتجال والقدرة على إنشاد رباعيّاتهم على البديهة ؛ فكان ذلك سببا فى تقدير العظماء لهم . وعن هذا الطريق ، نال الأمير « المعزّى » شهرته وغناه [١] وهّدأ « العنصرى » ثائرة مولاه [٢] ، وأراح « الأزرق » فؤادَ الملك « طغانشاه » [٣] .

ومنذ زمن قريب نسبياً تركّز اهتمام القرّاء فى رباعيات الخيّام وطارت شهرته خارج وطنه بصورة لم يكن يحلم بها يوم أن نظم رباعيّاته . إذ المعروف أنه لم يشتهر فى حياته شاعراً ، ولم يرد ذكره – فى الكتب القديمة المعتمدة – بين الشعراء ، وإنما ورد ، ذكره بين الرياضيين والفلكيين . بل إننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن بنى جلدته من الإيرانيين أنفسهم لم يعنوا بالتفتيش عن آثاره الشعرية وطبعها ، ولم يقم بعضهم بنشرها إلاّ بعد أن اشتهر الخيّام برباعيّاته خارج وطنه ... ومع ذلك كان ما طبع على أيديهم تكثر به العيوب ويتفشّى فيه القبح .

---

(١) بالرجوع إلى تاريخ الأدب فى إيران (جـ ٢ – الترجمة العربيّة – ص ٤٩ – ٥٢) نقف على قصّة المِعِزّى ملك الشعراء والسلطان ملكشاه السلجوق ، ونرى كيف استطاع عن طريق رباعيتين قالهما على البديهة أن يحصل من السلطان على ألف دينار بالإضافة إلى جواد خاص يبلغ ثمنه ثلاثمئة دينار نيسابورى ، كما أصدر أمره لوزيره فصرف له راتبه وأجره . ثم أمر بأن يمنح لقب « الأمير معزّى » اشتقاقا من لقبه الخاص (معِزّ الدنيا والدين) . أما الأمير علاء الدولة على بن فرامرز – صهر السلطان ونديمه الخاص – فقد خصّه برعايته ومنحه ألف دينار ، وأمر بأن يأخذ من راتبه ألف دينار ومئتين ، وأرسل إليه ألف حِمل من القمح ، وجعله نديما للسلطان .

(٢) يرد فى تاريخ الأدب لبراون (جـ ٢ – ترجمة – ص ٥٢ ، ٥٣) نقْلاً عن جهار مقاله أن محموداً الغزنوى كان قد أمر أثناء سكره بقطع طرّة غلامه ومعشوقه « إياز » فلما أفاق ندم على فعلته وأفرط فى الشراب . فخافه أتباعه .. لكن الشاعر « عنصرى » استطاع برباعيّة أنشدها على البديهة أن يهدىء ثائرته ويدفعه إلى النسيان .

(٣) يرد فى بعض كتب السير أن الملك الشاب « طغانشاه » ثار عندما رمى النرد طالبا ستتين =

وإذا أردنا التثبّت من افتقاره إلى الشهرة فى حياته شاعراً وجب علينا أن نلجأ إلى المصادر القديمة التى وضعت حول سير الشعراء وآثارهم . فإن رجعنا إلى كتاب (جهار مقاله) المؤلّف فى القرن السادس الهجرى .. وجدنا مؤلّفه « نظامى عروض السمرقندى » الذى يعترف بأن للخيّام عليه حقوق الأستاذية .. يورد اسم الخيّام وبعض أخباره فى المقالة الخاصة بعلم النجوم والمنجّمين [١] ، ولا يوردها فى المقالة الخاصة بالشعر والشعراء .

وإن تصفّحنا كتاب (لباب الألباب) لمحمد عوفى – وهو المؤلّف فى القرن السابع الهجرى – لم نجد فيه ذكراً للخيّام قط .. وهذا أمر بالغ الأهمية ، لأن الكتاب المذكور هو أقدم كتاب بين كتب التراجم الفارسيّة .

ولو ذهبنا إلى كتاب (تذكرة الشعراء) لدولتشاه السمرقندى – وهو المؤلّف فى نهاية القرن التاسع الهجرى – لوجدنا فيه ذكرا عارضا للخيّام ، فالكتاب لم يعن بتخصيص مقالة مستقلّة مفردة له كما فعل بالنسبة إلى غيره ممن ذكرهم من الشعراء ، وإنّما تحدّث عنه عرضا عندما ترجم لحفيد له يسمى « شاهفور الأشهرى » ، وهو شاعر مغمور توفى عام ٦٠٦ هـ [٢] .

أما كتاب (وفيات الأعيان) فإنّ مؤلّفه « ابن خلّكان » صاحب السير المشهور يتجاهل الخيّام تماما . وكذلك يفعل « ابن شاكر » فى كتابه (فوات الوفيات) ، رغم اشتهاره بأنه قد حاول فى كتابه أن يتدارك ما نسيه ابن خلّكان .

وهكذا يتأكّد لنا أن شهرة الخيام شاعراً لم يكن لها فى العهود القديمة دويّها الكبير كما هو حالها الآن . غير أن عدم رواج رباعيّاته خاصة وأشعاره بصفة عامة لا يعنى أنّها لم تكن معروفة ، فقد وجدنا بعضهم يستشهد بنماذج على

= فحصل منه على واحدين . ويقول كاتبو القصة إنه ظل ثائرا إلى أن استمع إلى رباعيّة أنشدها الشاعر (أزرق) على البديهة ... تتعلّق بهذا الأمر .

أنظر : تاريخ الأدب فى إيران (جـ ٢ ، ترجمة ، ص ٥٣) .

(١) الحكاية السابعة والعشرون والحكاية الثامنة والعشرون .

(٢) تذكرة الشعراء ، ليدن ١٩٠٠ ، ص ١٣٨ .

صحّة ما أُلصقه بالخيّام من تهم أو استحقاقه لما كاله له من مديح ، « فنجم الدين الرازى » – فى كتابه « مرصاد العباد » المؤلّف فى القرن السابع الهجرى – يصفه بأنه فيلسوف ودهرى وطبيعى ، ويستشهد على كفره وإلحاده برباعيتين محاولاً أن يتّهمه بالحيرة والضلال .

و« القفطى » – فى كتابه (تاريخ الحكماء) المؤلّف فى القرن السابع الهجرى – يجمع بين مدح الخيّام وقدحه ، فهو يلقّبه بالإمام والعلّامة والحكيم والفيلسوف والمنجّم قبل أن يطعن فى ظواهر شهره التى وقف عليها متأخرو الصوفية ونقلوها إلى طريقتهم . وتحاضروا بها فى مجالسهم وخلواتهم ، بينما هى حيّات للشريعة لواسع ، ومجامع للأغلال جوامع . ويقول فى صراحة وتأكيد : « كان يُرجى منه العصمة لو رزق الحكمة » . ثم يستشهد له بسبعة أبيات عربية .

و« الشهرزورى – فى كتابه (نزهة الأرواح) المؤلّف فى القرن السابع الهجرى – يستشهد بأشعار فارسيّة للخيّام وأخرى عربيّة .. ليؤكّد نبوغه فى أجزاء علوم الحكمة ، ويشيد بتفوّقه فى علوم اللغة والتواريخ والقراءات السبع ، ويمتدح قوة ذاكرته وقدرته الغريبة على حفظ ما يقرأ ، أو ليتّهمه بسوء الخلق وضيق العطن .

أما خسرو « الأبرقوهى » فإنه يورد فى كتابه (فردوس التواريخ) – المؤلّف فى القرن التاسع الهجرى – رباعيتين للخيّام ، بينما يورد « أحمد بن نصر الله التتوى » – فى كتابه (التاريخ الألفى) رباعيّة يستشهد بها على اعتناق الخيام مذهب تناسخ الأرواح .

ولو أننا عقدنا مقارنة بين رباعيّات الخيّام ورباعيّات غيره من معاصريه أو الذين سبقوه أو جاءوا بعده من شعراء الفرس .. لأقررنا بأستاذيته فى الاتجاه والأسلوب والبيان . إلاّ أن هذا لا يمنعنا من الإقرار أيضا بأن بعضهم قد تناول فى رباعيّاته موضوعات لم يتناولها هو ؛ « فبابا طاهر الهمدانى » (العريان) أحد شعراء القرن الخامس الهجرى – على سبيل المثال – كان يَتَبَدّى فى رباعيّاته شعوره بالاشتياق المعنوى على نحو لا وجود له عند الخيّام ، وإن كانت رباعيّاته لا تجرى

على أوزان الرباعى المعروفة .. وإنما على وزن الهزج المسدّس المحذوف [١] ولا تبلغ من حيث الصياغتين : اللفظيّة والمعنويّة .. مبلغ رباعيّات الخيّام .

أما « أبو سعيد بن أبى الخير » [٢] – أحد شعراء القرن الرابع الهجرى – فإنه أوّل من روّج الرباعيّات وجعلها وسيلة صالحة لأداء – الأفكار الدينيّة والصوفيّة والفلسفيّة ، وأدّاها بحيث تتركَز فيها وتصدر عنها جميع التجليّات الصوفيّة الرائعة . وهو أيضا أول من أضفى على الرموز والتعبيرات الصوفية هذا الجمال الباهر والخيال القاهر اللذين أثرا عن الشعر الصوفى منذ ذلك الوقت ، وهو أمر لم يفعله الخيّام .

---

(١) فى هذا الوزن ، تتكرر (مفاعيلن) ستّ مرات فى البيت الواحد ، ولكن التفعيلة الثالثة والسادسة منها تقتضب إلى (مفاعل) أو (فعولن) . هذا وقد طبعت رباعيّات بابا طاهر ثلاث مرات :

الأولى مع ترجمة فرنسية لكليمان أوبار فى المجلة الآسيوية (عدد نوفمبر وديسمبر ١٨٨٥ م ، المجموعة الثامنة – مجلد ٦) .

والثانية مع ترجمة انجليزية نثرية لإدوارد هارون آلن فى كتابه (أشجان بابا طاهر) ، المنشور فى عام ١٩٠٢ م .

وهناك تعليقات على الطبعتين . كما أن كتاب (أشجان بابا طاهر) يتضمّن ترجمة منظومة للرباعيّات بالانجليزية من وضع السيدة اليزابيث كورتيس برينتون .

وهذه رباعيّة لبابا طاهر ننقلها لبيان الوزن :

جه خوش بى مهربونى از دو سربى
كه يك سر مهربونى درد سر بى !
اكَر مجنون دل شوريده اى داشت !
دل ليلى از او شوريده تر بى !

والثالثة مع ترجمة عربيّة للدكتور محمد نور الدين عبد المنعم (نشر دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٨ م) .

(٢) ولد فى قرية (مهنة) من أعمال (خاوران) فى السابع من ديسمبر عام ٩٦٧ م ، وكانت وفاته فى الثانى عشر من يناير ١٠٤٩ م (٣٥٧ هـ إلى ٤٤١ هـ) . ويقال إنه كان يتّفق مع ابن سينا . ويقال عكس ذلك . ويمكن معرفة الكثير عنه بالرجوع إلى : اخلاق جلالى المؤلف فى القرن التاسع الهجرى) ، ص ٢٨ ، تاريخ كَزيده ؛ نفحات الأنس ، أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ؛ هفت إقليم ؛ مجموعة مقالات نشرها إتيه فى عامى ١٨٧٥ ، ١٨٧٧ م ، ونشر فيها ٩٢ رباعيّة لأبى سعيد مصحوبة بترجمة منظومة وبكثير من الحواش والتعليقات ؛ مقالة قصيرة فى تفسير رباعيّة لأبى سعيد =

ولعلّ محاولة الخيّام إخفاء تصوّفه هى التى دفعت « ميرزا محمد خان قزوينى »[1] إلى التصريح بأن كثيرا من الرباعيّات الصوفيّة المغزى السمجة المعنى قد دست بين لآلىء أشعار الخيّام ، بينما الحقيقة هى أن سلوكه قد أهاج عليه المتصوّفة .

ولكى يؤكّد الأديب المذكور بُعد الخيّام عن التصوّف يقول إن مثل هذه الرباعيّات قد دُسّت عليه من قِبَل أناس أرادوا تنزيهه والقول بأنه فى شيخوخته لم يعد يفكّر فى غير الناحية الدينيّة . ثم يستشهد على صحّة رأيه برباعيّة قالها الخيّام وقد بلغ من الكبر عتيا :

غداً سأطوى ذيل حاضر توبى
للخمر أمشى فى معيّة شيبى
سبعون عاما عشتها يارفقتــى
إن لم أبادر ، سوف أظلم قلبى[2]

غير أن لى تعليقا حول تصوّف الخيّام ... أرجئه إلى أن أتحدث عن مذاهبه الفلسفيّة . وإذا تصفّحنا ديوان « الأنورى » — أحد شعراء القرن السادس الهجرى —

= بعنوان (رسالة حورائية) لأبى عبد الله بن محمود ؛ مجلدان محتويان على نصوص نادرة تتصل بحياة أبى سعيد ، قام جوكوفسكى بنشرها عام ١٨٩٩ م . كما قامت الدكتورة اسعاد قنديل بترجمة « أسرار التوحيد » ووضعت للترجمة مقدمة ضافية .

وقد طبعت رباعيّات أبى سعيد فى البلاد الشرقيّة أكثر من مرّة ، كما طبعت ضمن مجموعات تشتمل على رباعيّات من نظم شعراء آخرين .

(١) مقدمة « أديب تقى » على (رباعيّات حكيم عمر خيام نيشابورى) للنجفى ، ص ٢ ومابعدها من القسم العربى .

(٢) من دامن زهد وتوبه طى خواهم كرد
با موى سفيد قصد مى خواهم كرد
پيمانهٔ عمـــر مـــن بهفتاد رسيـــد
اين دم نكنم نشاط كى خواهم كـرد

وجدنا فيه ٤٧٦ رباعيّة تتعدّد فيها لأغراض بصورة تميّزها من رباعيّات الخيّام .. بل إن كل رباعيّة منها - تدور حول الغَزَل - تصلح لأن تكون نواة لغزليّة تامة[١] .

ويمكننا أن نضيف إلى بابا طاهر وأبى سعيد والأنورى شاعرا آخر هو « محمد فرّخى اليزدى » [٢] أحد شعراء القرن الرابع عشر الهجرى . ويتميّز الفرّخى باختياره فن الرباعى لحمل أفكاره السياسية وشرحها وتوضيحها للناس . وهو يمّثل طائفة من الشعراء كانت لهم فى رباعيّاتهم غايات خاصة كالدين والوطن والإنسانية . ولم يرم الخيام إلى مارمى إليه هؤلاء ، وإنما كان له تفكير خاص وطبيعة فلسفيّة خاصة تأثر بها عدد من شعراء الفرس على نحو ما . ومن جملة من تأثروا بأسلوبه فى التفكير وبمنهجه الفلسفى « حافظ الشيرازى » و« ناصر خسرو » .. إلاّ أنّ أبرز من حاكاه فى أفكاره ومعانيه وألفاظه هو الأديب « ميرزا عباس خان » .

---

(١) يمكن معرفة الكثير عن الأنورى ورباعيّاته بالرجوع إلى :
أوحد الدين الأنورى : عصره وبيئته وشعره ؛ مقدمة سعيد نفيسى على ديوان الأنورى ، طهران ١٣٣٧ هـ ؛ الأنورى شاعر السلاجقة ، عالم الفكر ، العدد ٢ ، م ٧ ، عام ١٩٧٦ م ؛ السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ص ٣٣٤ - ٣٤٥ .

(٢) هو الشاعر محمد فرّخى اليزدى ، من مواليد عام ١٣٠٦ هـ = ١٨٨٨ م وهذا نموذج لرباعيّاته التى نظمها فى هذا الاتجاه مع ترجمتها إلى العربيّة :

النص :
آنانكه زخون در دست رنگين كردند
آزادى حق خويش تامين كردند
دارند در انظار ملل حق حيات
آن قوم كه انقلاب خونين كرد

الترجمة : إن من خضّبوا أيديهم بالدماء .. جعلوا الحريّة حقا لهم .
إذ ترى الشعوب أن مستحقى الحياة والبقاء ...
من قاموا بالثورات الدامية ... دون غيرهم .

للقراءة حول الشاعر ورباعيّاته ، أنظر : « فرّخى اليزدى » للدكتور أحمد الخولى .
رسالة ماجستير مقدمة لجامعة عين شمس ، عام ١٩٦٨ م ؛ دراسات ومختارات فارسية للدكتور الخولى ومجموعة من المتخصصين ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ .

وتعدّ ترجمة « فيتزجرالد » - الشاعر الانجليزى - لرباعيّات الخيّام أفضل أسباب شهرتها . وأبرز علل تعلّق القرّاء بها . لقد أجاد الشاعر الترجمة فانتشرت شرقا وغربا ، ونجم عن انتشارها صدور عدد كبير من الأعمال حول الخيّام ورباعيّاته (١) . والحقّ أن ترجمته ليست ترجمة بالمعنى المفهوم ، بل هى مجرد استثمار للنص فى خضم الحركة الرومانسية فى الآداب الأوربية .

ويمكننى أن أضيف سبباً آخر لشهرة الرباعيّات لا يقلّ أهمية عن تلك الترجمة ... وهو فهم الخيّام الكامل لمعنى الحياة وفق عقيدة المدنيّة الحاضرة وذوقها فى بريطانيا بخاصة ... فهو وإن كانت عيناه لم تكتحلا بمرأى مثل هذه الحياة .. قد سطر دساتيرها فى رباعيّاته بأسلوب شائق ، فرأى الغربيّون فيه شاعرا حكيما بعيد النظر ، يسبق زمنه فكريا ، ويناسب المرحلة الحياتيّة القلقة التى كانوا يعيشونها فى القرن الماضى .. فأخذوا يطرون تعاليمه ويمتدحون طريقته ، ومن ثم عشقوا رباعيّاته . أما الشرقيّون ، فقد رأوا فيه شاعرا جريئا يثير القضايا الحبيسة فى صدورهم ، ومرآة صافية تعكس نظراتهم التشاؤمية ورغباتهم الدفيئة وشرههم المستور إلى العبّ من نهر الحياة الزاخر بالمتعة .. فعشقوا بدورهم رباعيّاته . ولاشك أن الخيّام قد نظم العديد من الرباعيّات . لكننا لا نستطيع أن نجزم على وجه اليقين - مهما حاولنا - بأنه ناظم رباعيّة بعينها مما ينسب إليه . فاللغه الفارسيّة الأدبية التى استعملها منذ قرون لا تختلف عن تلك التى استعملت بعده إلا اختلافا طفيفا ، ولذا لا يمكن التفرقة بين الأصيل من الرباعيّات والدخيل . ولو كان شعر الخيّام يتميز بميزات خاصة لأمكن التفرقة . لكن أشعار الفرس تجرى كلها - تقريبا - على طرائق متماثلة ، ولا يشذ هو فى ذلك عن غيره .. حتى أن شعره الثائر على الآراء الدينيّة والأحكام السماويّة - والذى كان من الممكن أن يميّز رباعيّاته - له نظيره فى كتابة سلفه « ابن سينا » وخلفه « أفضل الدين الكاشانى » وغيرهما (٢) .

---

(١) سأتناول هذه النقطة بالتفصيل فيما بعد .

(٢) مقدمة وديع البستانى على كتابه (رباعيّات الخيّام .

ونتيجة لصعوبة التمييز بين الأصيل والدخيل ، والتأكّد مما يمكن نسبته للخيّام دون سواه .. نسب الدارسون الكثير من الرباعيّات الواردة فى الدواوين التى تحمل اسمه إلى شعراء آخرين ، حتى لقد صرّح بعضهم بأنه توجد فى طبعة من طبعات رباعيّاته – وهى التى نشرها نيكولاس – مالا يقلّ عن اثنتين وثمانين رباعيّة يمكن نسبتها إلى واحد من الشعراء التالية أسماؤهم [١] :

الأنصارى ، أبو سعيد ، أفضل الكاشى ، عاكف ، علاء الدولة السّمنانى ، الأنورى ، العَسْجدى ، أثير الدين ، العطّار ، ابن سينا ، أوحدى الكرمانى ، بديهى السجاوندى ، الفردوسى ، سيف الدين الباخرزى ، فخر الدين الرازى ، أحمد الغزالى ، حافظ الشيرازى ، كمال الدين اسماعيل ، مجد الدين همكَر ، المغربى ، الملك شمس الدين ، شاهى ، نجم الدين الرازى ، ناصر الدين الطوسى ، نعمة الله الكرمانى ، سعد الدين الحموى ، رضاء الدين ، سلمان الساوَجى ، سراج الدين القمرى ، طالب الآملى ، عز الدين الكراتشى ، جلال الدين الرومى ، جمال الدين القزوينى ، الخاقانى الشروانى .

وقد أدّى العجز عن التفرقة بين رباعيّات الخيّام ورباعيّات غيره من الشعراء إلى اختلاف الدارسين والمترجمين حول عدد رباعيّاته ، ونجم هذا الاختلاف عن وجود صفات مشتركة بين الرباعيّات – على النحو الذى ذكرناه – أو نتيجة لما نسبه بعضهم إلى الخيّام نظرا لشهرته فى هذا الميدان من ميادين النظم ، أو لما دسّه الآخرون عليه ... إذ كان الدسّ على العلماء والمؤلفين والشعراء والنابهين منتشرا فى عصر الخيّام ، وكان له من الأعداء من يهّمه تشويه صورته شأنه شأن متعددى المواهب . ويرى بعض المتعاطفين مع الخيّام أن الرباعيّات السخيفة التافهة هى وحدها المنحولة المفتعلة المدسوسة عليه [٢] .

---

(١) تاريخ الأدب فى إيران – جـ ٢ ترجمة – ص ٣١٩ .

(٢) أنظر : عمر الخيّام الحكيم الرياض الفلكى النيسابورى .

هذا وقد عمد الكثيرون إلى الدفاع عن الخيّام . ويمكننا أن نرجع فى ذلك إلى مقالة سيد محمد باقر سيزوارى فى مجلة (نامة استان قدس) ، شمارة دورة نهم ، ٣٠٦ مسلسل ، خرداد ١٣٥٢ هـ ، ش ، ص ٧ وما بعدها .

ويمكننا أن نعزو الاختلاف أيضا إلى رأى شديد الأهميّة ، وهو افتقار الدارسين والمترجمين إلى نسخة قريبة العهد من زمن الشاعر ؛ فأقدم النسخ المخطوطة تعود إلى عام ٨٦٥ هـ ، أى أنّها قد نسخت بعد وفاته بأكثر من ثلاثة قرون . وقد نجم عن التباين الملحوظ بين النسخ الخطيّة اضطراب فى عدد الرباعيّات ، فنسب له بعضهم ٣٥ رباعيّة ، وزادها آخرون إلى ٧٦ أو ١٥٨ أو ٦٠٦ أو ٧٨٠ ، أو ٨٤٥ رباعيّة ، وأوصلها بعضهم إلى ١٢٠٠ رباعيّة .

وأحس الدارسون والمترجمون بذلك الاختلاف فذكروه فى دراساتهم ، ونوّهوا به فى مقدّمات ترجماتهم . وقد علّل بعضهم أسباب وجود هذا الاختلاف . بينما وقف بعضهم كلّ جهدهم للإشادة بأعمالهم والدفاع عن أنفسهم . أو لتأكيد أنّ ما قاموا بترجمته هو الرباعيّات الحقيقية التى لا تجوز نسبتها لغير الخيّام ولا تجوز نسبة غيرها إلى الخيّام [١] .

وقد أدّى اضطراب العدد إلى اضطراب الوحدة ، بمعنى أن الرباعيّات باتت خالية من التماسك والارتباط ، فالفكرة تتكرر أكثر من مرة وفى أكثر من موضع . ويمكن أن يُعزى اضطراب الوحدة إلى أنّ الخيّام قد كتب رباعيّاته فى أكثر من طور من أطوار حياته ، وفى فترات متقطعة .. وفق وحى خاطره ووجدانه . وهذا فى حدّ ذاته ينطوى على دليل واضح على صدق شاعريّته ، وشاهد صريح على أنه شاعر حقيقى تجوب فى نفسه أفكار متعددة فينبرى لتسجيلها دون التزام بموقف ثابت ، أو اهتمام بما سبق له الحديث حوله .

ونتيجة لافتقار رباعيّات الخيام إلى التماسك والارتباط .. دخل التغيير والتبديل على بعضها حين تناقلتها الألسن ، فبتنا لانتبيّن الخيّام واضحا ، وكأن فلسفته وآراءه قد تاهتا من أثر السنين [٢] ؛ فهو تارة يسير فى مضمار الشك وتارة فى مضمار اليقين ، يبدو مؤمناً مطمئناً تارة ومرتاباً مضطرباً تارة أخرى .

---

(١) هذا ما فعله على سبيل المثال ، محمد عبد الغفار الهاشمى الأفغانستانى فى مقدّمة كتابه : رباعيّات الخيام الحقيقيّة .

(٢) مجلة أبولو ، أعلام الشعر ، عمر الخيام ، ص ٤٧ .

ومع ذلك فإن رباعيّاته - رغم تعدّدها - تنحصر فى موضوعات مشتركة ، من بينها :

- الشكوى من تقلّبات الدنيا والتبرّم بها والتألّم من صروفها ، واليأس من لذّة العيش فى عهده الموبوء .
- اليأس من عطاء الدنيا والإيمان بسرعة زوال العمر ، والإحساس بأن الخيبة والحرمان هما نهاية المطاف .
- الترغيب فى انتهاز الفرص والعبّ من منهل المتعة والسرور قبل أن يغيض ماؤه .
- اعتبار القَدَر هو المتصرّف المتحكّم الذى لا يُجدى معه العناد أو يغير شيئا مما قرّره .
- اليأس من معرفة مسبّبات الهناء ، والعجز عن إدراك أسرار القضاء .
- إظهار الحيرة والشك ، وإبراز التشاؤم والاستهتار .
- الميل إلى الجدل والنقد والمجون .
- مهاجمة أدعياء الزهد والورع ، والهزء بمن ساءت طباعهم من معاصريه ، والحثّ على العزلة .
- التعريف بالشراب ، وامتداح الخمر ، والميل إلى الحسناوات ، والتحذير من الارتباط بالنساء .
- مناقشة مسائل فلكيّة وخلقيّة وأدبيّة وفلسفيّة ، وميل إلى الدهريّة والطبيعيّة والانقلابيّة .
- اعتناق مذهب تناسخ الأرواح .
- الإقرار بالجبر والاعتراف بأن الإنسان مسيّر لا حيلة له ، واستنكار العقاب فى ظل الجبر .
- الإيمان بإنسان المستقبل وقدرته على حلّ المعميات .
- الإيمان بالله والحساب والعقاب والثواب ، والميل إلى التصوّف كطريق للوصول إلى الله .
- الاقتناع بأنه لا عدل فى وجود ثواب أو عقاب فى عالم آخر .

- الجرأة على الدين والآداب وتوجيه اللوم إلى الخالق سبحانه .
- الدعوة إلى التوبة والإنابة ، والكشف عن ثقته فى عفو الله وطمعه فى صفح مولاه .
- الإيمان بعدم إمكانية البعث بعد الموت وبأن الغاية عدم مطلق .

والخيّام فى عرضه لهذه الموضوعات – المتعارضة فى بعض الأحيان تبعا لنفسيّته – يستغلّ فهمه للطبائع البشريّة .. فيعمد إلى الرقَة أحيانا والاستدلال والمنطق أحيانا . ويلجأ إلى الصراحة تارة وإلى التلميح تارة . غير أن عباراته تبدو فى كل الأحيان منسجمة سلسة خالية من التكلّف زاخرة بالصور المعبّرة والتشبيهات والاستعارات دون افتعال ، حافلة بالألفاظ الرشيقة التى تدور فى فلك الخمر والراح والكوز والساق والنديم والزهر والطين والمغنّى والعود والناى والحور والنساء .

وهو فى تركيزه – الذى فرضته عليه طبيعة الرباعيّات – لا يدخل بالرباعيّة فى دائرة الخلل ، وإنما يصل بالمعنى إلى أقصى حدود الكمال ، وكأنه يكتب قصيدة كاملة العناصر واضحة المعالم ، وبذا يؤكّد عبقرية فذة .

وقد أضحت رباعيّاته – بفضل ما اتّسمت به من طرافة وروعة فى التعبير وقدرة على الإفصاح عمّا يعتمل فى نفوس عدد كبير من مثقّفى عصره رغم اختلاف آرائهم ونزعاتهم – تشكّل أسس مدرسة فى الشعر والفكر يتتلمذ عليها الشعراء . غير أن ما يعاب على هذه الرباعيّات – كما ذكرنا – هو التكرار ، فقد نجد محتوى إحدى الرباعيّات فى رباعية أخرى ، أو نجد المقدمّة والنتيجة فى أكثر من رباعيّة . ونحن إن تغاضينا عما دسّ عليه من رباعيّات وسلّمنا بأنه ناظم كل ما ينسب إليه .. وجدنا تبريراً لهذا التكرار ، إذ يمكننا أن نُرجع ذلك إلى نظمه للرباعيّات فى أوقات متباعدة ، لأن هذا كفيل بدفعه إلى تكرار نفسه شكلا أو تشبيها أو استعارة أو موضوعا أو مغزى .. مع شىء من الاختلاف ... وليس فى هذا ما يعيبه .. شأنه شأن عدم التزامه بموقف ثابت إزاء أفكاره الواردة فى رباعيّاته كما ذكرنا .

وإن تساءلنا عن السبب فى عدم تنقيح الخيّام لرباعيّاته قبل جمعها فى نسختها - إذ كان ذلك كفيلا بتلافيه وضع هذا التكرار تحت نظر القرّاء - كان الردّ المناسب أنه لم يجمعها فى حياته ، ولم يُطلع عليها إلا خاصّة أصدقائه ومريديه خشية أن يتّهم بالمروق ، أو غير ذلك مما يعرّضه للخطر . وهكذا جُمعت من بطون الكتب بعد وفاته ، فلم يكن لأحد مصلحة فى تنقيحها . بل إنه يمكننا أن نمضى أبعد من ذلك فنقول إنه أطلع أصدقاءه ومريديه على الرباعيّات متفرّقة فلم ينتبهوا إلى ما فيها من تكرار أو ينبّهوه إلى هذا التناقض .

وبناء على ما ورد فى الرباعيّات من صور ، رسخ فى أذهان كثير من الدارسين أن الخيّام ينسج رباعيّاته على منول لزوميّات « أبى العلاء المعرّى » الشاعر العربى المولود فى عام ٣٦٣ هـ . وهكذا ، حكموا بأنه تلميذه فى أفكاره ، وخليفته فى مبادئه وآرائه . والواقع أن التشابه بين الشاعرين كبير ، والتماثل بينهما فى الأفكار قائم فى نقاط كثيرة ، لكنّ الخلاف بينهما كبير أيضا فى نقاط أخرى [1] . ولما كان المعرّى يسبق الخيّام بثمانين سنة على الأقل فالمرجّح أنه قرأ أشعاره وخضع لتأثيرها ، لكن اختلاف مزاجيهما أدّى إلى اختلاف نظرتيهما لحل قضية الحياة .. رغم تشابههما فى عقائدهما الفلسفيّة وموقفهما الصريح من الدين والمذهب إلى حد بعيد . ومع ذلك يظلّ التساؤل قائما .. هل يرجع التشابه إلى قراءة الخيّام لما كتبه المعرى ؟ هل يرجع إلى اتفاقهما فى عقائدهما الفلسفيّة وموقفهما الصريح من الدين والمذهب ؟ هل يرجع إلى وجود مصدر واحد تأثّرا به معا ؟ هل يرجع لواحد من هذه الأمور أو أكثر أو يرجع لها مجتمعة ؟

والواقع أن التشابه يمكن أن يعزى إلى هذه الأمور مجتمعة ما دام المعرّى أسبق من الخيّام زمنا ، وما دامت حياة كل منهما تماثل حياة الآخر فى بعض الجوانب ، وما دام الخيّام الفارسى يجيد العربيّة وعلومها وآدابها . لكن القدر المشترك بينهما لا يكفى لاتّهام الخيّام بالسرقة الشعريّة - كما قد يتصوّر بعضهم -

---

(١) ارجع إلى مجلة الشعر ، العدد ١٧ ، يناير عام ١٩٨٠ م ، « بين المعرى والخيّام » للاطلاع على الاختلافات . ويمكن الرجوع إلى « مقايسه اى بين أبو العلاى معرى وخيّام » لمعرفة الكثير فى هذا الموضوع .

فما هو بينهما لا يعدو أن يكون تصويرا لحقائق ، وإيراداً لحجج وبراهين عقلية فى قالب شعرى . وهو ليس من قبيل الاستعارات والكنايات وأنواع البديع التى لا تقرّ إلاّ لمبتكرها .

والموازنة بين اللزوميّات والرباعيّات تؤكّد أن المعرّى والخيّام كان يرميان إلى أغراض متقاربة ؛ كخلع ثوب الرياء ، وتجنّب الغرور ، وتحكيم العقل فى أمور الدين ، واعتناق فلسفة الماديّة . كما تؤكّد أن تشاؤم المعرّى كان حقيقيا أما تشاؤم الخيّام فكان نظريا شعريا .. فالخيام يائس أكثر منه متشائم .

وتؤكّد الموازنة أيضا أن المعرّى كان جادا وقورا فى تفكيره ، متقشفا بعيدا عن اللذات والشهوات ، أقواله فلسفية أخلاقية تحثّ على القناعة والزهد ؛ بينما الخيّام يهوى المتعة ويفتنه الجمال ويساير شهواته .. فهو أبيقورى عاقل معتدل لا ولع له بدروس الفضيلة والأخلاق التى تشغل المعرّى . كما تؤكّد أن الشاعرين وإن كانا بالنسبة إلى فلسفة الرواقيين يتفقان نظريا ويختلفان عمليا – فإنهما يتشابهان غاية التشابه بالنسبة إلى الفلسفة الانقلابية .

أما دراسة حياة كل منهما فإنهما تكشف عن ميولهما المتشابهة للخشونة والعصبية وضيق الصدر والحساسية المفرطة ، وسرعة التألّم والشك والاضطراب ، والشكوى والتذمّر والجرأة والصراحة فى نقد الغير ، وتوخّى الحرص عند الحديث حول العقيدة . ويعترف المعرّى بحرصه هذا فى قوله :

وليس على الحقائق كل قولى ولكن فيه أصناف المجاز (١)

كما يؤكّده فى قوله :

إذا قلتُ المحالَ رفعتُ صوتى وإن قلتُ اليقينَ أطلتُ همسى (٢)

بينما يلجأ الخيام إلى لسان غيره – توخيا للحرص – يطلقه بما يشاء من أفكار عقدية :

---

(١) لزوم ما لايلزم ، جـ ١ ، ص ٦٣٠ .

(٢) لزوم ما لايلزم ، جـ ٢ ، ص ٥٦ .

رأيت فى حانة شيخا فقلت له :
أريد منك حديثا حول من ذهبوا
قال : اشرب الخمر ، قد ذهب الكثيرُ و لم ..
تصل لأسماعنا أخبارُ من ذهبوا [١]

ولقد كان لحساسية الشاعرين ، وعقدهما الشخصية ، وميلهما إلى احتواء الألم ، ومجابهتهما بالهجوم العنيف من قبل معارضى أفكارهما الفلسفية التحرريّة الثائرة على الأوضاع الفاسدة .. دخل فى ميلهما إلى التشاؤم ، فمثل هذه الأمور تجعل المرء كارها للحياة ملولا رافضا يائسا يتوقع الشرّ من دنياه . ولا أدل على ذلك من قول المعرّى :

قد فاضت الدنيا بأدناسها   على براياها وأجناسها [٢]

وقول الخيّام مؤكّدا الشىء ذاته :

سعيدُ القلبِ من يمضى من الدنيا على عجل
وأسعد منه مجهول من الأرحام لم يصل [٣]

ولا أدل على تأثّرهما بهجوم خصومهما وتألمهما .. من قول المعرّى فى أسف وحسرة :

لحا الله قوما إذا جئتهم   بصدق الأحاديث قالوا : كفر [٤]

---

(١) پيرى ديـــدم بخانـــة خمارى
كَفتم ندهى ز رفتكَان أخبارى
كَفتا ميخور كه همجو ما بسيارى
رفته وكس باز نيامد بـارى
(٢) لزوم ما لايلزم ، جـ ٢ ، ص ٦٣ .
(٣) خرّم دل انكه زين جهان زود برفت
وآسوده كس كه خود نزاد از مادر
(ترانه هاى خيام ، ص ٣٤) .
(٤) لزوم ما لايلزم ، جـ ١ ، ص ٦١٥ .

وقول الخيام فى تحدٍ واستهانة :

نعم أنا من راح المجوس بنشوةٍ
وصبٌّ خليعٌ لم أزل مدمن الراح
يرى كلّ حزب فىَّ رأيا ومذهبا
وإنى لنفسى كيفما كنت يا صاح (١)

وقد يؤدى الأمر إلى ذم المعرّى لزمانه وأهل زمانه :

أتروم من زمن وفاءً مُرْضِياً ؟ إن الزمان كأهله غدّارُ (٢)

أو يؤدّى إلى تمنّى زوال الفلك ، فى قول الخيّام :

لو كنت كالبارى الذى أجرى الفلك
للفظتُ (زُل) .. أو كان حتما قد هلك
ولحلّ ما يَرضى الورى بفعاله
الحرُّ فيه ، كل شىء قد مَلَك (٣)

ويتلاقى الشاعران فى حب مرحلة الشباب ووجوب الاستفادة منها فيقول المعرّى :

إنّ الشبيبة نار إن اردتَ بها أمراً فبادره إن الدهر مطفئها (٤)

---

(١) كَر من ز مى مغانه مستم ، مستم
كَر عاشق ورند ومى پرستم هستم
هر طايفه اى بمن كَمانى دارد
من ز آن خودم ، جنانكه هستم هستم

(٢) لزوم ما لايلزم ، جـ ١ ، ص ٤٥٤ .

(٣) كَر بر فلكم دست بدى جون يزدان
برداشتمى من اين فلك را ز ميان
از نو فلك دكَر جنان ساختمى
كازاده به كام دل رسيدى آسان

(٤) لزوم ما لايلزم ، جـ ١ ، ص ٤٩

ويقول الخيام :

قد انطوى سِفر الشاب واغتدى ربيعُ أفراحى شتاء مجدبا
لهْفى لطيرٍ كان يدعى بالصبا متى أتى وأى وقت ذهبا ؟ (١)

ويقول أيضا :

أطفىء لظى القلب ببَرد الشراب فإنما الأيام مثل السحاب
وعيشنا طيف خيال ، فنل حظّك منه ، قبل فوت الشاب (٢)

ويرى كلاهما أن الأمن يتحقّق بالعفّة والقناعة ، فيقول المعرّى :

الحمد لله قد أصبحت فى دعة أرضى القليل ولا اهتمّ بالقوت (٣)

ويقول الخيام :

إذا رضِيَتْ نفس بميسور بُلغة يحصّلها بالجدّ كفّى وساعدى
أمنتُ تصاريف الحوادث كلّها فكن يا زمانى مُوعدى أو مواعدى (٤)

ويتشابه الاثنان فى الحيرة أمام سرَّى : الخلق والفناء ، ويؤلمهما فناء المخلوق

---

(١) افسوس كه نامهٔ جوانى طى شد
وان تازى بهار شادمانى دى شد
آن مرغ طرب كه نام او بود شباب
فرياد ندانم كه كى آمد كى شد

(٢) مى بر كف من نه كه دلم در تابست
وين عمر گريز پاى جون سيما بست
بر خيز كه بيدارى دولت خوابست
در ياب كه آتش جوانى است

(رباعيّات الخيّام لاحمد رامى ، طـ ٦ ، ص ٤٩) .

(٣) لزوم ما لايلزم ، جـ ١ ، ص ٢٢٦ .

(٤) نزهة الارواح ، ص ١٥٠ – ١٥١ ، تاريخ الحكماء ، ص ٢٤٤ ، رباعيّات عمر الخيّام (المقدّمة) ، ص ١١ .

وزوال الشباب ، ويؤمنان بأن الموتى لا يعودون ، يقول المعرى :

نفارق العيش لم نظفر بمعرفة   أى المعانى بأهل الأرض مقصود

ويقول :

فهل قام من جدث ميّت   فيخبر عن مسمع أو مرى ؟

ويقول :

أسير عن الدنيا ولست بعائد   إليها ، وهل يرتدُّ قطن إلى دجن ؟

ويقول :

نزول كما زال أجدادنا   ويبقى الزمان على ما نرى

ويقول الخيّام :

لا تفش سراً ولا تظهر   الورد إن مات لا يزهر

ويقول الخيّام :

لا لن تعود إلى الحياة   فإن مضيتَ فقد مضيت

ويجمع بين الاثنين ميزة عمق التفكير إزاء تلك المسائل الحسّاسة الدقيقة ، واللجوء إلى الهياج النفسى فى مواجهة الأسئلة الحائرة .

ولكى يجيب كل منهما على ما يحيّره ، لجأ المعرّى إلى الوحدة والسكوت ، ولجأ الخيّام إلى النسيان عن طريق المتعة والاعتماد على العقل تارة والدين تارة أخرى .. فاختلفت الوسيلة .. ولكن النتيجة كانت واحدة .. وهى زيادة الحيرة الروحية ، وتضارب الأفكار ، والضياع بين الإيمان والعقيدة والدهريّة والطبيعيّة ، وإسناد السيطرة للفلك ، والإقرار بعجز البشر تارة ، والإشادة بقوّة البشر والتهوين من شأن الفلك ، والانتقاص من قدرة الدهر تارة أخرى .

فقد يتعرّض كلاهما للسرور أو الألم ؛ فيقلل أحدهما من شأن الفلك وسلطة الدهر ، ويعزو الأمور إلى القضاء والقدر مظهرا بذلك فرط حيرته :

نبكى ونضحك والقضاء مسلّط ما الدهر أضحكنا ولا أبكانا
نشكو الزمانَ وما أتى بجناية ولو استطاع تكلّما لشكانـا
والدهر لا يدرى بما هو كائن فيه ، فكيف يلام فيما كانا ؟ (١)

أو يفاخر الآخر بقوة الإنسان وتفوّقه وأفضليّته ، فيقول الخيّام :

يُعزى القبيح ويُعزى الحسن للبشر
وفرحنـا للـقضا ، والحزن للقـدر
لا تعز أمرا جليلا قط للفلك ..
فأنت أقوى ، وأفضل منه ... بالفِكـَر (٢)

وتتّفق رؤية الشاعرين بالنسبة إلى الآدمى فهو نموذج للجحيم ، يقول المعرّى :

هاويةٌ نفسُك ما ساءَها فلتخش أن تلقى إلى الهاوية (٣)

ويقول الخيام :

النار تأخذ لفحها من حزننا والخلد أوقات الهناء المسرع (٤)

ويختلف الشاعران ويبدو التناقض بينهما جليا عندما يعلنان عن موقفهما من المرأة والخمر ؛ فبينما يبدى المعرّى كراهيته للمرأة يتغنّى الخيّام بحسنها ويدعو إلى مجالستها وتدليلها ، يقول المعرّى :

---

(١) لمعرفة الكثير حول هذه الموضوعات وأقوال الشاعرين بشأنها ، إرجع إلى : مقالة « بين المعرّى والخيّام » للدكتور أحمد كمال الدين ، مجلة الشعر ، العدد ١٧ ، يناير ١٩٨٠ م .

(٢) نيكى وبدى كه در نهاد بشراست
شادى وغمى كه در قضا وقدر است
با جرخ مكن حواله كاندر ره عقل
جرخ از تو هزار بار بيجاره تراست

(٣) لزوم ما لايلزم ، جـ ٢ ، ص ٦٥١ .

(٤) دوزخ شررى زرنج بيهودة ماست
فردوسى دمى زوقت آسودة ماست

لا تتبعنَّ الغانيات مماشيــاً   إن الغوانى جمّة تبعاتها [١]

ويقول الخيام :

فاعبثْ بشعر الحبيب واشرب   فالعمر يمضى غدا هباء [٢]

وبينما يبدى المعرّى كرهه للخمر وشاربيها ، ولا يسمح لنفسه بشربها :

لو كانت الخمر حِلاً ما سمحْتُ به   لنفسىَ ، الدهر ، لاسراً ولا علنا [٣]

يُظهر الخيّام فرط عشقه لها فى قوله :

هـات اسقنيها أيُّهـذا النـديم
أخضب من الوجه اصفرار الهموم
وإن أمت فاجعل غسولى الطلى
وقُدَّ نعشى من فروع الكروم [٤]

وتؤكّد رباعيّات الخيّام أنه كان ينظر إلى الخمر على أنها مزيلة للهموم . وعلى أنها علّة التوفيق ، والحياة الخالدة ، ولازمة تؤنس شاربها . بينما تؤكد أشعار المعرّى أنه كان يخافها لأنها تذهب بأفضل أصدقائه .. العقل ، وإن كان يؤمن بقدرتها على التسرية والسلوان . يقول :

يقول الناس إن الخمر تودى   بما فى الصدر من همٍ قديم

---

(١) لزوم ما لايلزم ، جـ ١ ، ص ٢٨١ .
(٢) هان مى خور وزلف دلبرى كَير كه زود
هم بگذرد ونماند اين روزى جند
(٣) لزوم ما لايلزم ، جـ ٢ ، ص ٥١٢ .
(٤) اى همنفسان مرا ز مى قوت كنيد
واين جهرة كهربا جو ياقوت كنيد
كَر فوت شوم باده شوئيد مرا
و ز جوب رزم تختة تابوت كنيد

ولـولا أنها بالـلبّ تـودى لكنت أخا المدامة والنديم [١]

ويقول :

لا أشرب الراح أشرى طيب نشوتها بالعقل، أفضل انصارى وأعوانى [٢]

ورغم بغضه لها – كما يزعم – فإنه يتمنى فى قرارة نفسه أن يحلّ له شربها لتذهب همومه التى ينوء بحملها ، ولهذا يقول مخالفا مبدأة :

تمنّيت أن الخمر حلّت لنشوة تجهّلنى كيف استقرّت بى الحال [٣]

ويقول :

أيأتى نبىّ يجعل الخمر حلّة فيحمل شيئا من همومى وأحزانى ؟ [٤]

ويختلف الشاعران أيضا فيما يتعلّق بالزهد ، فالخيّام يدعو إلى التمتّع بكل ما فى الحياة من نِعَم ، ولا يوافق على حرمان النفس منها . وهو لا يدعو إلى الزهد إلا إذا أحس بأن اللجوء إليه سيوفر له الكرامة والعزة ، ويصونه من أن يكون عبداً لمحسن يمنّ عليه بإحسانه . وهو كذلك يرفض الزهد القائم على الادّعاء والتظاهر .

أما المعرّى فإنه يدعو إلى الزهد صراحة ويحثّ عليه .. وإن كانت هناك أبيات له تشير إلى بَرَمه بهذا الأسلوب أحيانا :

كل امرىء يضحـى مريّـا والدهـر لا يُبقـى سريـا
فتـروّ مـن هـذى الحيـا ةِ لكى تموت النفسُ ريّا [٥]

---

(١) لزوم ما لايلزم ، جـ ٢ ، ص ٤٦٦ .
(٢) لزوم ما لايلزم ، جـ ٢ ، ص ٥٥٧ .
(٣) مقدمة النجفى على كتابه : (رباعيّات عمر الخيّام) ، ص ٩ .
(٤) نفس المرجع والصفحة .
(٥) لزوم ما لايلزم ، جـ ٢ ، ص ٦٤٨

وعندما يتقارب مدلول أشعارهما ، نجد الخيّام وكأنه يكرّر كلمات المعرّى أو يترجمها . يقول المعرّى فى مقام الفخر بنفسه :

ولى منطقٌ لم يرضَ لى كنه منزلى   على أننى ، بين السماكين نازل (١)

ويقول الخيّام :

ولى فوق هام النيِّرين منازل   وفوق مناط الفرقدين مَصاعدى (٢)

ويقول المعرّى مظهرا اعتقاده فى الفلسفة الانقلابيّة ، حاثا على التواضع وتجنّب الغرور :

خفّف الوطء ما أظن أديم الـ   أرض إلاّ من هذه الأجساد (٣)

ويقول الخيّام فى نفس المعنى :

فامش الهوينا إن هذا الثرى   من أعين ساحرة الإحورار (٤)

ويقول المعرّى معربا عن إيمانه بأن الموتى لا يرجعون :

فهل قام من جدث ميت   فيخبر عن مسمع أو مرى ؟ (٥)

ويقول الخيّام مؤكّدا نفس المعنى :

لم يأت من خارج الدنيا لنا أحدٌ   حتى يقصّ لنا أخبار من ذهبوا (٦)

---

(١) سقط الزند ، ص ١٩٤ .

(٢) ثورة الخيّام لعبد الحق فاضل .

(٣) سقط الزند ، ص ٧ .

(٤) با بر سر هر سبزه ببخارى ننهى
كين سبزه زخاك لاله روئى رسته است

(٥) لزوم ما لايلزم ، جـ ١ ، ص ٥٩ .

(٦) كس نامد ازان جهان كه پرسم از او
كاحوال مسافران دنيا جوشد

ويقول المعرّى مظهرا تسليمه بقضاء الله :

رضاً بقضاء ربّك فهْوَ حتم ولا تظهر لحادثة وجوما [١]

ويقول الخيّام فى نفس المعنى :

فجار دهرك واخضع للقضاء فلن تطيق تبديل ما قد خطّه القلمَ [٢]

وقد يبدى المعرّى حبّه لذاته أو إيمانه بحتميّة الموت ، فيقول :

إذا غيّبونى لم أبالِ متى هفا نسيمُ شمال ، أو نسيمُ جنوب [٣]

ويفعل الخيّام نفس الشىء ، فيقول :

إلى م اهتمامى فى قديم وحادث وسيّان بعدى حادثُ وقديم [٤]

ويبدى المعرّى يأسه من وجود الوفاء فيقول :

أما الأنام فقد صاحبتُهم زمنا فما رضيتُ من الخلّان مصحوبا [٥]

ويقول الخيام بدوره :

وقلتُ للنفس لما عزّ مطلبُها بالله لا تألفى ما عشتُ إنسانا [٦]

لكن هذا التشابه والتقارب لا يكفى – كما قلنا – لاتّهام صاحب الرباعيّات بالسرقة ، فالاتّجاهات الفكرّية المتقاربة ، والنبع الفلسفى الواحد ، وحفظ الخيّام

---

(١) لزوم ما لايلزم ، جـ ٢ ، ص ٤٣١

(٢) تن را به قضا سپار وباوقت بساز
كاين رفته قلم ز بهر تو نايد باز

(٣) لزوم ما لايلزم ، جـ ١ ، ص ١٥٢

(٤) تاكى زقديم ومحدث اميدم وبيم ؟
جون من رفتم ، جهان جه محدث جه قديم .

(٥) لزوم ما لايلزم ، جـ ١ ، ص ١٢٥

(٦) مقدمة النجفى على كتابه : (رباعيّات عمر الخيّام) ، ص ١١

لأشعار أبي العلاء – كما يؤكّد الزمخشري [١] – تجعل التشابه والتقارب غير المتعمَّدين أمراً ممكناً .

وإذا كان البعض قد شبّهوا الخيّام بأبي العلاء ، فإن الكثيرين يشبّهونه « بابيكورس » (أبيقور) ... الحكيم والفيلسوف اليوناني ، الذي يبني فلسفته على أساس إيمانه بأن السعادة كائنة في اللذائذ والمشهيات ، وينادي بأن أيام العمر قليلة ، وفرص المتعة نادرة وينبغي اقتناصها قبل ضياعها .

وهناك أيضا من يشبّهونه بالشاعر الروماني « لوكريسيوس » الذي يمثّل آراء أبيقور أصدق تمثيل . وقد بنى هؤلاء وهؤلاء حكمهم على ما ورد في رباعيّاته من أفكار [٢] .

والواقع أن أدباء الغرب قد قدّروا الرباعيّات حقّ قدرها . وامتد تقديرهم إلى ناظمها ، فامتدحوه وعقدوا المقارنات بينه وبين عظمائهم .. فجعلوه مماثلا « لشوبنهاور » في التشاؤم ، ومشابها « لفولتير » في عدم المبالاة بالدين وعدم النفور من الناس والاشمئزاز منهم . ومخالفا له في خلو رباعيّاته من التهكّمات الدقيقة التي يتميّز بها شعر فولتير . وربما كانت تهكمات الفرنسي أدق وألذع ، لكن الأمر يختلف عما ذكروه فيما يتعلق بالنفور والاشمئزاز ، فقد كان الخيّام ينفر ممن يتلوّنون ويغدرون ، ويفضّل البعد عنهم واعتزالهم ، ويجالس العلماء والعظماء ويرتاح إليهم ويتقرّب منهم .

ولقد تحدّث عنه « جوته » فامتدحه وأكّد احتواء رباعيّاته على جميع مقاطع (هملت) قطعة قطعة . أما الحكيم المؤرّخ « ارنست رينان » فقد أثرت فيه

---

(١) يؤكّد الزمخشري أن الخيّام كان يحفظ أشعار أبي العلاء ومن جملتها بيته :

نبيٌّ من الغربان ليس على شرع ‏ ‏ ‏ ‏ يخبّرنا أن الشعوب إلى صدع

أنظر مقال فروزانفر : (قد يمترين اطلاع از زندكى خيّام) في مجلة كلية الآداب جامعة الفردوسي ، العدد ٨ – ٩ ، ص ٢٨ .

(٢) أنظر : المقدّمة التي كتبها أديب التقي لكتاب (رباعيّات حكيم عمر خيّام نيشابوري) ص ٢ وما بعدها .

الرباعيّات إلى حد كبير ، وقد دفعه هذا التأثير إلى القول إن الخيّام نظير « لجوته » و« هنرى هاينه » . كما دفعه إلى أن يقول أثناء عقده مقارنة بين الخيّام وأحد الشعراء : ليس لشاعرنا هذا قوّة الخيام ولا قدرته على التهكّم ، وليس له مزاحه المرّ نفسه .. وهو الذى لم يُشاهد فى عصر من العصور شاعر إباحى مثله .

وقد بهرت شخصية الخيام المستشرق الفرنسى « باربيه دومينار » بعد أن عاش مع رباعيّاته ، فكتب يقول : الا يُعَدّ حادثا غريبا ظهور شاعر فى إيران فى القرن الحادى عشر الميلادى يكون — كما قال رينان — نظيراً لجوته وهنرى هاينه ؟ [1] .

وقد قارن « ادوارد جرينفيل براون » — المستشرق الانجليزى — بين الخيّام و« بابا طاهر الهمدانى » — شاعر الرباعيّات — فقال :

« ولمّا كانت هذه الرباعيّات من صياغة رجال سذّج من رجال الريف فإنها بالضرورة لا تبلغ من حيث الصياغة اللفظيّة والمعنويّة مبلغ الرباعيّات التى كتبها رجال فنانون من أمثال عمر الخيّام » [2] .

وإن تركنا أدباء الغرب إلى أدباء الشرق ، ، وجدنا عددا كبيرا منهم يثنى على الرباعيّات وعلى ناظمها ، فالشاعر الاديب « أحمد الصافى النجفى » [3] يشبّه الرباعيّات باللآلىء المكنونة التى تسطع بآراء الخيّام الفلسفيّة ونكاته الأدبيّة الرائعة ، ويرى فى ناظمها فيلسوفا رزينا ، يتّخذ من الدعوة للراح وسيلة لعرض فلسفته ، وحلية لتجميل تشاؤمه ، ومجالات لصبٍّ نقمته ونقد مجتمعه . ويعيب النجفى بعد ذلك على بعضهم تصوير الخيّام بصورة الخليع المدمن والعاشق المفتون ، ويعتبر دفاعه عن حمى الخيّام دفاعا عن حمى الأدب .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) تاريخ الأدب فى إيران ، جـ ٢ ، الترجمة العربيّة ، ص ٣٢٣ .
(٣) رباعيّات عمر الخيّام للنجفى ، المقدّمة ط ٢ ، ص ٦ ، ١٠ ، ١١ .

والشاعر أحمد رامى [١] يقول فى حديثه عن الرباعيّات إن الخيام يبدو فيها أميل ما يكون إلى اليأس إلى حدّ السخرية من الحياة .. والسخرية من الحياة إلى حدّ الضحك من كل شيء فى الوجود .. على أن الصورة حيّة فى شعره ، وهى من صنعه وإن تعدّدت ألوانها فى شعر غيره . وإنما نفعه فى نشر أفكاره قيام كلّ رباعيّة بمعنى واحد ، وقيام كل بيت بفكرة واحدة فى أكثر هذه الرباعيّات .

ويقول رامى إن آراء عمر الخيّام الفلسفيّة مرّة قصيرة ، تجعل لأسلوبه روحا خاصا ... تختلف عن روح معاصريه من الشعراء . وإن فى أغلب الرباعيّات نفس حائرة تبحث عن الهدوء والحقيقة فى كل مكان .

والشاعر « وديع البستانى » [٢] يرى أن الرباعيّات هى شعر الخيّام الفسلفىّ الجليل ، وأثره الشعرىّ الخالد ، ويرى أن الخيّام وُلِد فيلسوفاً وعاش عيشة الفيلسوف ، ووُلِد شاعراً وعاش عيشة الشاعر ، وأنه مات فيلسوفاً وشاعراً .

والشاعر « أحمد حامد الصرّاف » [٣] يرى فى الخيّام شاعرا فاق جميع الشعراء فى نظم الرباعيّات . ويعتبر رباعيّاته المصدر الوحيد لآرائه الفلسفية . ويرى أنها وحدها المعبِّر عن شعوره وما يختلج فى صدره من شكوك ونزعات ووساوس .

والبحّاثة « عبد الحق فاضل » [٤] يؤكد أن الخيّام يجمع فى رباعيّاته بين الطرافة وروعة التعبير . ويقول إنه قد استطاع بهما أن يفصح عمّا يعمر نفوس الكثيرين من مثقفى ذلك العصر رغم اختلاف آرائهم ونزعاتهم . وإن الشعراء قد حرصوا على تقليده ؛ فبات مدرسة فى الشعر والفكر . ويحكم بأن لكل رباعيّة صورة ذهنيّة وألوانا مختلفة . وأن لأسلوبها حلاوة وطراوة ، وأن بها من التشابه والاستعارات ما يمنحها رونقا وبهاء . ويَخلُص إلى أنّ أسلوب الخيّام جديد فى رباعيّاته .

---

(١) مقدّمة رامى على كتابه : رباعيّات الخيّام ط ٦ ، ص ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) أنظر : رباعيّات عمر الخيّام لوديع البستانى ، خلال الحديث عن فلسفة الخيّام وشعره .
(٣) أنظر : عمر الخيّام الحكيم الرياضى الفلكى النيسابورى لاحمد حامد الصرّاف .
(٤) أنظر : ثورة الخيّام لعبد الحق فاضل ، عام ١٩٥١ م ، ص ٢٤٨ وما بعدها .

ويتعرّض لمبنى الرباعيّات . فيقول إنّه يتوفّر فى بعضها الإيجاز ، ويتوفّر فى بعضها الإطناب ، وإن الآفة هى التكرار .

أما الناقد « أديب تقى »[١] فيؤكّد أن رباعيّات الخيّام ليست خير الرباعيّات الفارسيّة وأنّ مقامه ليس مميزا عن مقام غيره من الشعراء . لكنه يصفه بعد ذلك بأنه كان موفّقا فى ألفاظه ، يجمع بين الانسجام والسلاسة ، ويورد التشبيهات والاستعارات اللطيفة ، ويتعمّد السهولة وعدم التكلّف . ويستخدم العبارات التى تفى بالغرض وتوصل المعنى ، وتدلّ على فلسفته ومشربه فى أربع شطرات تحوى من المعانى ما يقتضى شرحه عدّة صفحات . ومثل هذه العبارات تؤكّد أنها محصول عبقرية فذّة ونبوغ نادر .

ويعلّق « إبراهيم عبد القادر المازنى »[٢] على الرباعيّات فيقول : إنّه يخيّل إليك وأنت تقرأ رباعيّات الخيّام المترجمة عن الفارسيّة إلى العربيّة كأنّ الخيّام (كأولاد البلد) أبناء الجيل الماضى فى مصر ، ممن كان همّهم أن يحيوا الليل بالشراب والأنس والطرب ... ولانعدم من هؤلاء فلسفة ؛ فالعمر قصير ، والمنايا واحدة ، والعصفور فى اليد خير من ألف على الشجرة ... إلى آخر هذه الكلمات المبتذلة التى لا تستحقّ تكريم الارتفاع بها إلى مستوى النظرات فى الحياة . ومع أنه هنا يبدو فى صورة المهاجم إلاّ أنّه فى عين الوقت يؤكّد أن الرباعيّات تحوى أفكار صِنف من الناس وأحاسيسهم ، مما لا يمكن عزله عن المجتمع .

أما « محمد عبد الغفار الهاشمى »[٣] الأفغانستانى فيقول : « خرجت من

---

(١) أنظر : مقدّمة أديب تقى على كتاب (رباعيّات حكيم عمر خيّام نيشابورى) ، ص ٢ من القسم العربى .

(٢) ترجم إبراهيم عبد القادر المازنى بعض الرباعيّات إلى العربيّة فى (حصاد الهشيم) ، وبالرجوع إلى مجلة أبولو (سبتمبر ١٩٢٤) ، باب أعلام الشعر ، ص ٤٦ – ٥٢ نجد خلاصة رأى المازنى فى الخيّام والرباعيّات والردّ عليه ص ٥١ .

(٣) مقدمة محمد عبد الغفار الهاشمى الأفغانستانى على ترجمته التى وضعها تحت عنوان « رباعيّات الخيّام الحقيقية » ص ٢٨ .

دراسة الخيام بأنّ كل رباعيّة تخالف الشريعة الاسلاميّة وتكون منسوبة للخيّام أو غيره .. هى من جميع وجوهها ليست من الخيّام ولا من مسلم .

ولا يعنى هذا بالطبع أن رباعيّات الخيّام كانت ممتدحة على طول الخط . فرغم الإجماع على قدرة الخيام الكبيرة على التركيز والابتكار فى بعض النواحى ، فإن هناك شبه إجماع أيضا على وجود عيب لا يمكن إغفاله وإن حاول البعض تبريره .. وهو التكرار .

كما أن بعضهم يهاجم ما اشتملت عليه من أفكار دسّها شاعر خليع مدمن عاشق مفتون يعرض فلسفته من خلال الكاس والطاس ، والحديث عن الجمال ، ومهاجمته معاصريه . شاعر جرىء ينقد شرع خالقه ، ويكشف عن دهريّته وطبيعيّته وإلحاده دون حياء أو خجل .

ولاشك أن قول « القفطى » فى كتابه تاريخ الحكماء (المؤلف عام ٦٤٠ هـ) قول له قيمته فى هذا الشان لأنه ينصبُّ على الأفكار الرائجة فى شعر الخيّام ، يقول القفطى [(١)] .

« عمر الخيّام ، إمام خراسان وعلاّمة الزمان ، يعلم علم يونان ويحثُّ على طلب الواحد الديّان بتطهير الحركات البدنيّة لتنزيه النفس الإنسانيّة ، ويأمر بالتزام السياسة المدنيّة حسب القواعد اليونانيّة . وقد وقف متأخرو الصوفيّة على شىء من ظواهر شعره فنقلوها إلى طريقتهم ، وتحاضروا بها فى مجالسهم وخلوتهم ، وبواطنها حيّات للشريعة لواسع ، ومجامع للأغلال جوامع . ولمّا قدح أهل زمانه فى دينه ، وأظهروا ما أسرّ من مكنونه ، خشى على دمه ، وأمسك من عنان لسانه وقلمه ، وحجَّ متاقاة لاتقيَّة ، وأبدى أسرارا من السرار غير نقيَّة . ولما حَلَّ ببغداد سعى إليه أهل طريقته فى العلم القديم ؛ فسدَّ دونهم الباب سدَّ النادم لاسدَّ النديم . ورجع من حجّه إلى بلده يروح إلى محلّ العبادة ويغدو ،

---

(١) تاريخ الحكماء ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، والكتاب من تأليف القفطى عام ٥٦٤ = ١٢٤٢ م ، وقد طبع فى ليبزج عام ١٩٥٣ م ، وقد توفى القفطى عام ٦٤٦ هـ = ١٢٧٨ م .

ويكتم أسراره ، ولابد أن تبدو . وكان عديم القرين فى علمي : النجوم والحكمة ، وبه يُضرَب المَثَل فى هذه الأنواع لو رُزِق العصمة » .

والقراءة فى رباعيّات الخيّام تقود القارىء إلى الحكم على هذا الشاعر بأنه أحد كبار المفكّرين ، وتدفعه إلى الاعتراف به فيلسوفا صاحب مدرسة . لكنّ هذه القراءة عينها تؤدى أيضا إلى إبراز الخلاف بين القرّاء حول تعيين عقيدته الفلسفيّة المذهبيّة ، ووضْع تفسير مناسبٍ لسلوكه الشخص وتصرّفاته الحياتيّة ، وتحديد مدى قربه أو بعده من الدين بعامّة والتصوّف بخاصّة .

وقد أخذ بعض الباحثين القدامى موقفا ثابتا من هذه الأمور ؛ فالصوفى الخالص « نجم الدين الرازى » يراه فيلسوفا ودهريا وطبيعيا وملحدا ، وهو يذكر ذلك فى كتابِه (مرصاد العباد) المؤلف فى عام ٦٢٠ هـ = ١٢٢٣ م ؛ و« الشهر زورى » يراه تلو ابن سينا فى علوم الحكمة ، ويؤكّد أنه كان حجّة فيها ، ولكنه يصفه أيضا بسوء الخلق وضيق العطن . ويسجّل ذلك فى كتابِه (نزهة الأرواح) المؤلَّف فى عام ٦٠٠ هـ تقريبا . ونخرج من كلامه فاهمين بأنه لا يصمه بالإلحاد ، بل يضعه فى مصاف المؤمنين الأوّابين الباحثين عن الحقيقة .. إذ يقول :

كان يتأمل الإلهيات فى كتاب الشفاء لابن سينا ، فلمّا وصل إلى فصل الواحد والكثير وضع الكتاب وقام فصلّى ، ثم أوصى ولم يأكل ولم يشرب . فلمّا فرغ من صلاة العشاء سجد لله وقال فى سجوده : « اللهم إنى عرفتك على مبلغ إمكانى فاغفر لى ، فإنّ معرفتى إياك وسيلتى إليك » ، ثم أسلم نَفَسَه الأخير .

أما « القفطى » الصوفى الشهير فإنّه يقسّم حياته إلى مراحل ؛ أولاها تلك التى اشتغل فيها بالعلم والفلسفة ، والأخيرة منها تلك التى ابتعد فيها عن تدريس ما يجعل الناس تقدح فى دينه ، واهتم فيها بالعبادة وربّما التصوّف .. وهو يجعله

فى كلّ الأحوال مسلما يؤدى شعائر الله متاقاة لاتقيّة [١] .

وإذا نظرنا فى كتابات المحدَثين ، نجد أن غالبيتهم قد كوّنوا آرائهم اعتمادا على ترجمات للرباعيّات افترضوا صحّة ترجمتها ونَظْم الخيّام لكل ما ورد بها .. فكانت النتيجة أن انقسموا بين مدافع ومهاجم ومؤيّد ومعارض .

وكذلك الحال بالنسبة إلى من يجيدون الفارسيّة ممن وضعوا لنا ترجمات لرباعيّات الخيّام ، فإنهم ينقسمون إلى متعاطف مع الخيّام يهمّه إثبات طهارة ذيله ونسبة كلّ حَسَن إليه ، أو متحامل عليه قد هالته جرأته فحكم بمروقه أو مجونه . أو من هو بين هذا وذاك .... يظهر حيرته ويتخبّط فى أحكامه ولا يكاد يستقر على رأى إلاّ ويعود عنه .

فإن رجعنا إلى المقدّمة التى وضعها « أحمد رامى » لما ترجمه من رباعيّات للخيّام .. وجدنا [٢] تعليلا لميل الخيّام إلى العبّ من متع الحياة وتفسيرا لجمعِه بين ألوان من العلم عديدة متنوّعة . فرامى يرى أن ذلك يرجع إلى عيشته فى (نيسابور) أيام أن كانت عاصمة خراسان .. تشتهر بغناها وخيراتها وخصبها ، وكثرة مائها ووفرة محاصيلها . ونضرة سهولها ومحاصرتها بالجبال .

يقول رامى : « فى هذه المدينة بجامعاتها الست ومرصدها الذى بناه الوزير السلجوقى « نظام الملك » ، عاش الخيّام طالبا وعالما وارتقى سلّم الشهرة درجة درجة ، فأحب الحياة ومناعمها ، وتقلّب فى أوساط العلماء وأَنِس إلى عشرته العظماء . وفى هذه الديار أُتيحت له دراسة العلوم الإلهية والفلسفيَّة والمنطق والطبيعة شأن إخوته فى الجامعات الإسلاميّة فى ذلك العهد . ثم درس الطب ومهر فيه ، وتوفّر على درس الرياضيّات وأخصّها الجبر ، وطبّق علوم الرياضة على

---

(١) بالرجوع إلى تاريخ الأدب فى إيران جـ ٢ - ترجمة ، ص ٣٠٨ - ٣١٢ ، نحصل على معلومات وافية عمّا ورد فى الكتب الثلاثة خاصا بهذه الأمور .

(٢) تقع المقدّمة فيما بين الصفحتين ٧ ، ٣٤ ط ٦ - القاهرة ١٩٥٨ م ، ويتحدث فيها عن عصر الخيّام وعيشته ورباعيّاته .

الفلك ؛ فدعاه السلطان ملكشاه مع جَمْع من العلماء إلى إصلاح التقويم ، فأخرجوا التقويم الجلالى الذى يبدأ من يوم النيروز (١٦ مارس سنة ١٠٧٩ م = ١٠ رمضان سنة ٤٧١ هـ) ، ولا يزال مبدأ هذا التقويم عيدا من أعياد الفرس إلى اليوم . وألّف الكثير من الكتب العلميّة ولكنّه لم يعش للآن إلا فى رباعيّاته » .

ويبرّر رامى اتّساع خبرة الخيّام بكثرة أسفاره بين البلدان والعواصم المتمدينة آنذاك ، ثم يعزو تشاؤمه إلى عيشته عيشة الشاعر الحكيم .. ينعى الحياة ويتعلّق بها . ويناقش مسألة إيمانه فيبرز اعتقاده فى أن الإنسان لن يعود إلى هذه الدنيا . ويقول إن هذا شك فى أمر الحياة والموت ، ومع ذلك فالخيّام موحّد يؤمن بوجود إله خلق الكون وهيمن عليه ، متديّن يؤدّى فريضة الحج ويواظب على الصلاة . والملاحظ أن رامى لم يضع تعليلا لنسبة الإيمان إلى شخص لا يؤمن بالبعث شأن الكافرين المعاندين .. ولو تنبّه إلى إمكانيّة انتقال الخيام بين العديد من العقائد خلال مراحل حياته العديدة كأىّ إنسان مفكّر مثقّف متدبّر لوضع التعليل وأوجد المبرّر .

ويحكم رامى بأنَّ المتصوّفة كانوا ألدَّ أعداء الخيّام إما لاشتغاله بالفلسفة وإما لأن الكثير منهم لم تُرُقْهُ طائفة من رباعيّاته بعد أن تسرَّبت إلى خلواتهم ومجالسهم . والحقُّ أنّ الخيّام لم يكن محبوبا من قِبَل الصوفيّة لعدم إخلاصه فى هذا السبيل . ولم يكن محبوبا من قِبَل العامّة لهجومه على الشرع وجرأته على الحق سبحانه ... لكنه لم يكن بعيدا عن التصوّف كما حاول رامى أن يظهره حين تطرَّق لذكر الخمر وأكَّد أنه كان يحتسى الخمر الحقيقية ، يحبُّ طعمها ولونها ويتغنّى بكأسها ودنّها ، لأنها تسمو بروحه حتى تصبح فى نجوة من الجسد .. فلا يحسُّ همومه ، ولأنه يجد السعادة فى مجلسها مع الصاحب والنديم .. حيث يمكنه أن يستغلَّ حلاوة لسانه وسرعة خاطره وخفّة روحه . أو عندما ذكر أن الخيام كان يلجأ إليها نتيجة شكّه الدائم فى أمر القضاء ، ويأسه من حلّ لغز الحياة ، ويرتمى فى أحضانها حين لا تجديه الحكمة ولا الاستهتار فتيلا فى فهم أسرار الوجود ، فإذا صحا من نشوته وهدأت أعصابه وشعر بخطيئته تاب وأناب وسأل ربّه الرحمة والغفران .

ولعل رامى كان فى شك من حُكمِه بعدم انخراط الخيّام فى سلك الصوفيّة ، إذ نجده يعود فيقول ما يوحى بتصوُّفه .. وذلك فى أكثر من موضع وبأكثر من تعبير ، فيقول : « وهو بين ظلمة الشك ونور اليقين يعتقد بوحدة الروح ويؤمن بعدم فناء المادّة . ويقول : « وانجلى لعينيه بُطلان العالم وبان غرور الحياة ، فقصر وقته على فئة من أصحابه سكن إليهم وارتاحت نفسه إلى مجالسهم .. وتخلّص من متاع الحياة الزائل ، وآثر أن يكون مذهوبا فى عالم الروح حتى يتّصل بالخالق الذى منه وإليه كل شيء » .

ويقول : « وهو فى نظم رباعيّاته بين متفائل ومتشائم وقَدَرى ومتصوّف وتقى ومستهتر » ويقول : « هذا هو الخيّام الذى رماه الناس بالزندقة فى عهده ، والذى تقرن اليوم أشعاره بأشعار ابن أبى الخير والأنصارى والعطّار ، وهم من أطهر الشعراء صفحة » .

وإذا تركنا تصوُّف الخيّام إلى فلسفته وجدنا رامى ينبّه إلى أن آراءه الفلسفيّة مرّة قصيرة ، تجعل لأسلوبه روحا خاصا يختلف عن روح معاصريه من الشعراء . ولا يتجاوز ذلك إلى تحديد فلسفاته وتسميتها .

والخلاصة أننا نحسّ وكأن رامى تائه بين أفكار الخيّام وآرائه المتشعّبة التى فرضتها عليه طبيعة عصره ، وظروف بيئته ، وأخلاق معاصريه ، وميول مخالطيه ، وأهواء سادته ، وكثرة علومه ، وسعة ثقافته ، وتعدُّد أسفاره ، وفرط حساسيته ، وعمق شاعريته . ولعل رامى قد أحسَّ بذلك ، فقد وجدناه يقول معلّقا على الرباعيّات باعتبارها المصدر الذى كوّن منه رأيه عن الخيّام :

« ولو أن هذه الرباعيّات وُجِدت مجموعة حسب وضعها التاريخى لأمكننا أن نفهم تدرُّج روح الشاعرية فى عمر ، ولكنَّ جميع المخطوطات التى تحوى هذه الرباعيّات تضعها فى ترتيب أبجدى حسب القافية ، فتضيّع بذلك تسلسل أفكار الخيّام ، ولا تعطى صورة مطّرِدة لحياته أو مناحى تفكيره » .

وإن رجعنا إلى ما كتبه « السباعى »[1] فى هذا الصدد وجدناه يعمد إلى طريق قصير ليوحى بتصوُّف الخيّام . فيقول إنه كان يحسو الخمر لأنّها أقرب وسيلة وأقصر سبيل يسّهل عليه استشفاف نور الحق من وراء حُجُب الكائنات ، واجتلاء سرّ الأبد من خلال ظلمة الغيب . ولاشك أن السباعى يثبت بذلك أنّ الخيّام كان يحتسى الخمرة الحقيقية مما لا يجوز لمخلصى الصوفيّة . وهو يثبت ضمنا أنّ الخيّام لم يكن يعنى بالخمر – حين يذكرها – جمالَ القوة السماويّة وسحرها ، أو يرمز بها إلى تعاليم الصوفية . وإنّما هو سكّير ، خمره خمر العنب يشربها فيذهب عقله . ولا أدرى كيف يستشفّ – من ذهب عقله – نورَ الحقّ من وراء حُجُب الكائنات !! ولو قال إن الخيّام كان يسلك سبيل المتعة عن طريق الشراب فى فترة من فترات حياته ، ويسلك سبيل التصوُّف فى فترة أخرى .. لأصاب كبد الحقيقة ، وهو الرأى السليم .

ويغوص « وديع البستانى » وراء أفكار الخيّام معتمدا على رباعيّاته[2] ، ويقول : « بقدر حيرة الخيّام بالنسبة للخلق والكون يظهر إيمانه فى شعره وطمعه فى صفح ربّه . ومع إيمانه بالحساب والعذاب يجرى وراء المتعة والشراب الحقيقى اعتمادا على غفران ربّه » . ويعلق على ذلك بأنه قِمَّة الحيرة وقمّة الفلسفة الحقيقيّة والتصوُّف ، رغم أن كلّ ما كان يفعل يعتبر فى نظر الصوفيّة إلحادا وزندقة .

وهكذا يجعل منه صوفياً يخالف الصوفيّة فى الوسيلة . ثم يعود فيقول : « وقد كانت الصوفيّة منتشرة فى عهده ، ودعاتها وأتباعها بين مبتدع بدعة مؤمن بها ، ومختلق تزّهة مقبل عليها ، فكان التديُّن ممزوجا بالخشية ، وكان ثوب الرياء يشف عمّا تحته من عرى عن الورع المحمود ، وخلوٍ من الإخلاص للمعبود .

---

(١) قام الشاعر المصرى محمد السباعى فى العشرينيات بترجمة ١٠١ رباعيّة من رباعيّات الخيّام إلى العربيّة وكتب حول مؤلّفها .

(٢) ترجم وديع البستانى البيروتى بعض رباعيّات الخيّام شعرا عن الإنجليزية لعدم معرفته الفارسيّة ، وجعل النظم على صورة سباعيّات . ويعتبر أول من لفت أنظار أدباء العرب إلى رباعيّات الخيّام فى العصر الحديث .

أما الخيّام ذو النفس الزكية فإنه لم يخدع و لم يضلّ بل أخذ ينقد أعمالهم ويكشف سترهم ، فرموه بالكفر والإلحاد فلجأ إلى الحذر منهم .. فقد ثبت لديه أنّ الحياة سفرٌ وسيرٌ أوّله المهد وآخره اللحد ، وأن خيرَ متاع للمسافر هو التقوى وحسن الأعمال والبعد عن ظلم العباد وغشّهم » .

وهو فى هذه المرّة يفضّله على صوفيّة عصره من المرائين وأصحاب البدع ، ويجعل منه صوفياً مخلصاً . وما نكاد نطمئن لرأى البستانى حتى نجده يقول : « وقد يرى البعض أنّه مادى وجد الحياة أمدا معلوما وأجلا مصروما ، فخالف من قالوا : كلوا وأشربوا اليوم فغداً تموتون ، وقال : اسكروا وتناسوا هموم الحياة ، واغتنموا الفرصة قبل الفوات .. والدليل كثرة ذكره الخمر والكأس . بينما يراه البعض صوفياً بحتاً يتغزل بالخمرة تغزُّلا ، ويريد بها العزّة الألهية . والتعليل الوحيد لذكره الخمرة وحبّه لها أنه يريد أن يختطف لذّته اختطافا من يد الفناء والموت .

وتظهر وحدا نيته فى أشعاره ، فهو لا يؤمن إلاّ بإله واحد لا شريك له ، لكنّه لا يفتأ يذكر الحانة والمدام والندامى والمنايا التى ستتخطّف كل هذا من يديه ، فليس له حيلة إلاّ أن يشرب ويشرب قبل فوات الأوان وقبل الموت .. آملا فى عون الله ورحمته الواسعة » .

وهكذا ينتهى البستانى إلى عدم ترجيح رأى على آخر ، ويتراجع أو يكاد عن نسبة الخيّام للتصوّف ، ويكتفى بتأكيد توحيده لخالقه وإيمانه بوجوده .

ويؤكد البستانى فى ثنايا كلامه أن الخيّام كان فيلسوفا وشاعرا ، هكذا عاش وهكذا مات ، وهو قول لا يختلف عليه البستانى أو سواه .

ويؤكّد « أحمد حامد الصرّاف » [1] اشتغال الخيّام بالفلسفة ويقول إنه استمد هذه الفلسفة من الكتب اليونانيّة المترجمة عن أفلاطون وجالينوس وغيرهما

---

(١) ترجم الصرّاف رباعيّات الخيّام إلى العربيّة نثرا ، ونشرها مصحوبة بدراسة واسعة عن الخيّام .

من علماء الفلسفة الطبيعيّة والإلهيّة والرياضيّة . ويعلل لسهولة سلوكه هذا السبيل فيقول إنه ظهر فى عهد نضج فيه علم الكلام ، وانتشرت الباطنيّة وامتلأت المدارس بأتباعها ، واشتهرت رسائل إخوان الصفا ، وتعدّدت الطوائف المذهبيّة المتعصّبة .

ويسجّل الصرّاف رباعيّة تثبيت أنّ الخيّام كان يخشى أن يُنعت بالفيلسوف لما ينطوى عليه ذلك من خطر ، وكان يهمُّه أن يراه الناس فى ثوب المفكر الباحث عن الحقيقة :

« فيلسوف أنت » قال الخصم لى
يعلـم الديّـان أن قـد أخطــأ
إننى عنـد الأسى أسعـى إلــى
كشف ذاتى ، هل ترانى مخطئا ؟ [1]

كما يسجّل رباعيّة تؤكّد اتهام معاصرى الخيّام له بالزندقة ، وتبدى استهتاره استنادا إلى حريّته الشخصيّة ، ويترجمها على هذا النحو :

أنا إن أكن ثملاً بخمرة المجوس فأنا ذاك ،
أو كنت كافرا أو مجوسياً أو وثنياً فأناذاك ،
فلكـل زمـرة فى النـاس ظـنّ فــىّ
أما أنا فملك نفسى أكون كما أُريد

وقد اعتمد الصرّاف فى ذلك على رباعيّة تختلف بعض مفرداتها عن مفردات الرباعيّة الواردة عند النجفى على سبيل المثال . فأثبت بذلك الكفر والمجوسيّة والوثنيّة على الخيّام ، بينما ترجمها النجفى :

---

(١) أخطأ الصراف لأن فلفسى معناها فلسفى لا فيلسوف ، والفرق كبير .
دشمن بغلط كَفت كه من فلفسيم
ايزد داند كه آن جه أو كَفت نيم
ليكن جو در اين غم آشيانه آمد ام
آخر كم از ان كه من بدانم كه كيم

نعم أنا من راح المجوس بنشوة
وصبٌ خليعٌ لم أزل مدمن الراح
يرى كلُّ حزب فىَّ رأيا ومذهبا
وإنى لنفسى كيفما كنتُ يا صاح

وهكذا يَثْبُت لنا أن أحكام الدارسين قد تخطىء إذا لم يقع الدارس على النص الصحيح [١] .

ويتحدَّث « عبد الحق فاضل » [٢] فيقول : إن الخيّام ينقل إلينا معاناته وشعوره وأحاسيسه على أساس فلسفى . ويوضّح ما يعنيه بذلك فيقول : إنه ينظر إلى الإنسان نظرة عطف ، ويراه مستحقاً للغفران أكثر من استحقاقه للعقاب . ورغم أن تفكيره لم يهده إلى معرفة كل شيء عن الله والإنسان والحياة فإنه لم ييأس ، بل وضع أمله فى إنسان المستقبل لكشف ما أشكل عليه ، وقرّر أن ينعم بما بقى فى حياته من أيام قليلة فانية ، يقوده فى ذلك إيمانه برحمة الله الواسعة .

ويتحدَّث حول كفر الخيّام وإيمانه ، فيقول إن اتهامه بالكفر يرجع إلى شدة جرأته على المجاهرة بأفكاره . وينفى عنه وصمة الكفر ، ويؤكّد أنّه مجرَّد مفكّرٌ ثائر يجهر بما يهمس به غيره لنفسه ، ويحاول إيجاد التفاسير والحلول ، مع إيمانه بالله واليوم الآخر .

---

(١) من النصين التاليين يبدو الفرق المتمثل فى بعض المفردات ، وهو علّة الاختلاف :

كَرمن ز مى مغانه مستم هستم	كَرمن ز مى مغانه مستم هستم
كَر عاشقِ زند و بت برستم هستم	كَر عاشق ورند و مى برستم هستم
هر طايفة بمن كَمانى دارند	هر طايفة بمن كَمانى دارند
من ز آن خودم جنانكه هستم هستم	من ز آن خودم جنانكه هستم هستم

(٢) ارجع إلى كتابه : « ثورة الخيّام » ، الذى نشر طبعته الأولى فى عام ١٩٥١ م

والخيّام يُخضِع تصرّفاته لفلسفته التى أرتضاها عقله ، فهو حين يخشى أن يضيّع عليه تفكيره آخرته .. يلجأ إلى الاستمتاع بما فى دنياه حتى لا يفقد الدنيا والآخرة . ويشبّهه فاضل بالملاح التائه الذى يحاول كشف القناع عن أسرار الدنيا ، وبلوغ الشاطىء المجهول الذى لم يصل إليه أحد قبله إلاّ عن طريق الدين والإيمان .. يحاول بلوغه بعقله وفكره .

ويخلص فاضل إلى أن الخيّام - كما يبدو من رباعيّاته - لم يكن ماجنا أو كافرا .. بل هو مفكرٌ حرٌ أسيىء فهم تفكيره ، ومفكرٌ حرٌ يواجه قضايا الإنسان وهمومه فى حوارٍ حرٍ طليق . وبهذا يركّز على إيمانه بالله وحريّته فى التفكير دون إقحامه فى دائرة التصوُّف .

أما « محمد عبد الغفار الهاشمى » الأفغانستانى ، فإنه يسجّل إعجابه برأى « نيكولا » الفرنسى الذى وصف الخيّام بأنه شاعر صوفى مشغول بالعشق الإلهى ، سكران بخمرة الحبّ القدسى (حب الله) ، وشبّهه بالشاعر الإيرانى الشهير « حافظ الشيرازى » . ويعلّق الهاشمى على ذلك بقوله :

« وفى عقيدتى أن هذا الرجل الفرنسى قد أنصف الخيّام حيثُ عَرف من خلال عمله بالسفارة الفرنسيّة فى إيران أوضاع علماء الدين ، وكيف يبتعدون عن سفاسف الحياة لهوا ولعبا ومجونا » [1] .

وهكذا يؤكدّ الهاشمى تصوُّف الخيّام ، ويفسّر كلَّ ما ورد فى الرباعيّات من كلمات وعبارات وأفكار تفسيراً صوفياً .

وهو يعيب على رامى ابتعاده عن ذوق الخيّام ، وتركه العنان لخياله وآلامه وأحزانه وأوهامه ... لتبلغ به حدَّ الهجوم على هذا الحكيم الفارسى الشرقى والعالم الدينى الجليل .. ويقول محتدا : « إنّ رامى قد تحدّث عن نفسه بدلاً من حديثه

(١) رباعيّات الخيّام الحقيقية ، للهاشمى الأفغانستانى ، ص ١٥

عن الخيّام . لقد هام بحبِّ الخمر والنساء ، ونظر فى مرآة الخيّام إلى نفسه هو فخدعته نظرته ، ونسى الخيّام ، وأجاد فى التعبير عما يختلج فى صدره هو » [١] .

ويذكر الهاشمى هذه الفقرة من كلام رامى : « إنما أحبُّ الخيّام شرب الخمر لأنها تسمو بروحه حتى تصبح فى نجوة من الجسد .. ولم يقصر حبَّه على أثرها فى نفسه ، وإنما أحبَّ طعمها المُزَّ ، ولونها الصافى ، وأحب كأسها الشفّافة ودنَّها الملآن .. وكان يجد السعادة فى مجلس الشراب بين الصاحب والنديم .. وكان يوفَّق إلى هذه المجالس لما اختص به من حلاوة اللسان وسرعة الخاطر وخفَّة الروح » . ثم يعلِّق عليها بقوله : « وهذه العبارات من ترَّهات الخمّارين الذين يهذون سكرا وعربدة ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا » [٢] .

وكما يبدأ الهاشمى مدافعا عن الخيّام ينتهى بأن يُجَرِّد من نفسه مدافعا عن حِمى الخيّام ، فيقول دون دليل :

فالمسلم (عمر الخيّام) لم يذق خمر السكر والعربدة فى حياته بشهادة معاصريه [٣] - ويقول مختتما كلامه :

لقد خرجت من دراسة الخيّام بأن كلَّ (رباعيّة) تخالف الشريعة الإسلاميّة سواء من الخيّام أو غيره .. هى من جميع وجوهها ليست من الخيّام الحقيقى ولا من مسلم ... ولاسيّما هذه النماذج :

الخمريّات - التشاؤم - اليأس - التشكك - سلب الاختيار - إباحة النساء - إهانة أهل الدين - إهانة المسجد - إهانة عقيدة الجبر - إهانة العلم - إهمال الحياة - إظهار عدم المبالاة [٤] .

---

(١) رباعيّات الخيّام الحقيقية ، للهاشمى الأفغانستانى ، ص ٢٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٥ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٨ .

وهكذا نجد أن رباعيّات الخيّام كانت مرتعا خصبا لكل من تناول الخيّام بالبحث والدراسة ، ويتأكّد لنا أن كلًّ من قام بذلك قد رأى فيه رأيا ومذهبا – على حدّ قوله – فسجّل ما ارتآه معتقدا أنّه الصواب . لهذا نشعر بأن استعراض عدد من رباعيّات الخيّام والتعليق على أفكاره قد يفيدنا فى ترجيح مزاعم بعضهم أو تفنيدها . وربما يفيدنا أيضا فى الوقوف على ما خفى على غيرنا .

وإذا كان الخلاف كما رأينا يتركّز حول تعيين عقائده الفلسفيّة بعد أن ثبت لنا أنّه لا يقلّ عن غيره من الفلاسفة شأنا ... فإنّه يمكننا عن طريق مؤلّفاته الفلسفيّة ورباعيّاته التى تعكس أفكاره وتجلّيها – أن نعيّن تلك العقائد . ويمكننا أن نثبت العديد من الرباعيّات التى تؤكد أنّه كان فيما يتعلّق بمسائل ما وراء الطبيعة (الوجود المطلق حقائق الأشياء ، حقيقة الروح ، المبدأ والمعاد) يعتنق فلسفة اللاإراديّة ، وينتمى إلى الفلاسفة اللاإراديين الذين يعترفون بأن طاقة البشر عاجزة عن الإحاطة بمثل هذه الأشياء . فهاهو يقرّ بالعجز فى قوله :

لم يحلّ الناس اسرارَ الفَلَك
لا ، ولم نسمع بمخلوقٍ سَلَك
ها هو التلميذ يسعى جاهدا
مثلَ أستاذٍ له ... قبلُ هلك [١]

ويقرّ به فى قوله :

فكّرت فى الدين أقوامٌ فحارت
وكذا فى الشك حار الراغبون

---

(١) كس مشكل اسرار فلك را نكشاد
كس يكقدم از نهاد بيرون ننهاد
جون بنكَرم از مبتدى تا استاد
عجز است بدست هر كه ازمادر زاد

ثم نادى هاتفٌ : يا من سعيتم
دون علمٍ .. مُضْحِكٌ ما تفعلون (١)

ومما يعزّز انخراطه فى سلك اللاإراديين إيمانه بوجود قوّة قاهرة فوق قدرة البشر (القدرة الكليّة) ، ووجود صمدانى سرمدى هو الله . وهو كثيرا ما يكتب فى هذا المحيط ، ويؤكّد أنّه لا يمكن لمخلوقٍ أن يعرف أسرار الأزل ، ولن يتسنّى لكائنٍ من كان أن يحلّ المعمّياتِ . ويصرّح بأنّ الكشف عن حقيقة الموجودات المحسوسة أمر متعذّر ، لأنّ صور الحادثات لا ترتبط بالحقيقة المطلقة ، وإنّما ترتبط بأجهزتنا الحسيّة . ومما قاله فى هذا الشأن :

اتـــرك الأقـــدار لا تعبـــأ بها
لا تفكّر قطُّ فى هَمٍ مضـــى
عش سعيداً واقْضِ دهراً هانئـا
أنتَ لم تُخلق لتدبير القضـا (٢)

وقوله :

كُلنا تعييه أسرارُ الأزل ...
أنت تجهلها ، ولا أدرى أنا
خلف سِتر عيشنا طول الأجل

---

(١) قومى متفكرند در مذهب ودين
جمعى متحيرند در شك ويقين
ناگاه منادى برآيـد زكـمين
كاى بيخبران راه نه آنست ونه اين

(٢) از بودنى اى دوست جه دارى تيمار
وز فكرت بيهوده دل وجان افگار
خرم بزى وجهان بشادى گذران
تدبير نه باتو كرده اند أول كار

حين يبلى الِستر نمضى للفنا [١]

وقوله :

يومَ نأتى ويومَ نذهب غيب
لا فنـاء لدهرنـا أو بدايـه
بل ، ولم نلق من يقول بحق
كيف جئنا وما مقرُّ النهايـه [٢]

وقوله :

فلكٌ يحار العقـل فى لفتاتـه
فلكٌ تدور الناس فى جنباته
الشمسُ قنديل ، وفانوسُ الورى
دنيا ، ونحن بأسرنا صورٌ بِهِ [٣]

والمطّلع على أقوال الصوفيّة يدرك اتّفاقهم مع الفلاسفة فى تلك النقطة ، فكلّ فريق منهم يقول إن الوسائل الإدراكية هى التى تجعلنا نقنع بما نصل إليه من علم فيما يتعلق بالكائنات ... مع أن ذلك ليس الحقيقة والواقع . ولن يكون

---

(١) اسرار ازل را نه تو دانى ونه من
وين حرف معمى نه تو خوانى ونه من
هست از پس پرده گفتگوى من وتو
چون پرده برافتد نه تو مانى ونه من

(٢) روزى كه در او آمدن ورفتن ماست
اورا نه نهايت نه بدايت پيداست
كس مى نزند دمى در اين معنى راست
كين آمدن از كجا ورفتن بكجاست

(٣) اين چرخ فلك كه ما در او حيرانيم
فانـوس خيـال ازو مثـالى دانيم
خورشيـد چراغـدان وعـالم فانـوس
ماچـون صوريم كانـدر او حيرانيم

العِلم نفس المعلوم أو الإدراك نفس الإدراك لو جُهِّزنا بآلات إدراك غير التى لنا ، وهذا ما يعزِّز نسبة الخيّام إلى التصوُّف كما سيرد فيما بعد .

وتكثر الرباعيّات التى يبدى فيها الخيّام حيرته ، ويكثِر من التساؤل ، ويسجِّل على نفسه أنّه لا يدرى ... لا يدرى لماذا جاء ، لماذا يعيش ، لماذا يُهلِك الله الكائنات التى يخلقها بنفسه ، لماذا يعاقب المرء على خطأ مفروض عليه ... ولذا نسلكه فى عداد معتنقى فلسفة اللاأدرية ، ونورد هذه الرباعيّة لتأكيد ما ذهبنا إليه :

أتى بى خالقى دون استشاره
فزادت حيرتى والوهم زاد
وأمضى للردى .. عند الإشاره
لماذا ؟ ما الذى ربّى أراد ؟ (١)

وكان الخيّام يباهى بـ« لا أدرى » هذه ، ويرى أنه لا يجوز لكل شخص أن يدّعى مثل هذا المقام ، ويرى أنّه مقام خاص بالعلماء وحدهم ، فيقول :

جاهل أنت فى شؤون الحياة
فـ (للا أدرى) يَعِزُّ وصولك (٢)

ومن بين رباعيّات الخيّام أيضا ما يعكس فلسفته الانقلابيّة ، فهو ينظر فيها إلى الحادثات نظرة فلسفيّة علميّة ، شأنه فى ذلك شأن الفلاسفة الطبيعيين ،

---

(١) آورد به اضطرارم اول بوجود
جز حيرتم از جهان جيزى نفزود
رفتيم به اكراه وندانيم جه بود
زين آمدن وبودن ورفتن مقصود

(٢) تو بيخبرى ، بى خبرى كارتو نيست
هر بيخبرى را نرسد بى خبرى

ويلتزم فيها بفلسفة الانقلاب التى تعرف اليوم بـ (الموبيليزم) ؛ فالكائنات فى نظره سيلٌ مستمر يندفع من الأزل إلى آخر الأبد ، والإنسان فى هذا السيل كدقاق العيدان .. يتقاذفه السيل ويمضى به ، وهو جاهل لا يدرى من أين جاء وإلى أين يمضى . وجميع العناصر دائمة التركيب والانحلال ، والأجزاء البسيطة التى تتركب منها مادّة الموجودات .. فى تجمُّع وتفرُّق دائمين ؛ فالإنسان بعد الموت ومواراة جثته باطن الثرى (المعمل الكبير الذى يسمى الطبيعة) تنحلُّ عناصره وتتبعثر فيدخل بعضها فى زهرة ، ويتحوَّل بعضها إلى كتلة طين يشكّلها الخزاف أو غير ذلك ، وربما تكون ذرّات من جمجمة كيخسرو قد دخلت فى تركيب كأس يقدّمه الساق لأحد الشاربين . وربّما تكون الزنابق – التى تزيِّن ضفاف الجداول – شفة حسناء أو قلب عاشق .

إن العالم مستمر « فى الانحلال والتركيب دون انقطاع ، فإذا تبعثرت العناصر وتفرَّقت فى أجسام أخرى استحال عليها أن تعود فتؤلف الجسم الأول ، فالبعث إذاً بعد الموت أمر غير ممكن .

ومعظم رباعيّات الخيّام حافلة زاخرة بهذه الأفكار التى تكوِّن المبادىء الأولى والمعتقدات الأصلية لفلسفة الطبيعيين فى كل زمان ، والتى تشكِّل – هى نفسها – العقيدة الأساسية للماديّة التي اقتبست أصولها وأحكامها عن العلوم الطبيعية . ومثل هذا اللون من رباعيّات الخيّام حافل بالجمال شديد التأثير فى النفوس [١] ، ومن أمثلته :

– كلُّ ما فى الوجود من ذرّات
أوجه كالشمــوس ذات رواء
فاجلُ عن وجهك الترابَ وحاذر

---

(١) مقدّمة أديب تقى على (رباعيّات حكيم عمر خيّام نيشابورى) ص ٢ ، وما بعدها من القسم العربى

فهو وجهٌ لغادة حوراء (١)

– ذلك الكوز كان يعشق مثلي
يتغنّى بشعر من يهواه
يده فيما مضى كانت يدا
لامست جيدا يضيء سناه (٢)

– خزّافنا ، حاذر ولا تُهمن العبادا
إن كنت ذا عقل فبجّل ذا الثرى
فبنان أفريدون .. أنت سحقته
وبنان كيخسرو وأبطال الورى (٣)

– مر ليلٌ .. ومر ليلٌ وليلٌ
ونهارٌ قد جاء ثم نهارُ
طأ ثرى الأرض يا نديمُ برفق
فهو عينٌ وفتنةٌ واحورارُ (٤)

---

(١) هر ذرّه كه در روىِ زمين بوده است
خورشيد رخى زهره جبين بوده است
كَرد از رخ نازنين بارام فشان
كه اين هم رخ وزلف نازنين بوده است

(٢) اين كوزه جو من عاشق زارى بوده است
در بند خم زلف نكَارى بوده است
اين دسته كه بر كَردن او ميبينى
دستيست كه بر كَردن يارى بوده است

(٣) هان كوزه‌كَر بپاى اكَر هشيارى
تا چند كنى بر كَل آدم خوارى
انكَشت فريدون وكف كيخسرو
بر جرخ نهادهٔ جه ميندارى

(٤) پيش از من وتو ليل ونهارى بوده است
كَردنده فلك زبهر كارى بوده است

– العشب ينمو عند ضفّة نهرنا
أما حقيقته ... شفاهُ الحور
لا تحتقره .. لا تطأه بقسوة
فالعشبُ لو تدرى خدودُ زهور (١)

– قد زرتُ خزّافا تروج صناعتُه
فى معمل ناء وفيه بضاعتُه
قد كان يصنع للجرار عرى ، وكا
نت من أمير أو حقير طينته (٢)

– أنعامُنا تمشى على شوك الثّرى
والشوك صُدغُ حبيبة أو حاجبُ
الطين فى قصر علا إيوانه
خلٌّ .. نديمٌ .. حاكمٌ .. أو حاجبُ (٣)

= زنهار قدم بخاك آهسته نهى
كه اين مردمك چشم نگارى بوده است

(١) هر سبزه كه بر كنار جوئى رسته است
گوئى زلب فرشته خوئى رسته است
پا بر سر هر سبزه بخارى ننهى
كين سبزه زخاك لاله روئى رسته است

(٢) از كارگه كوزه گرى كردم راى
ديدم كه بپاى چرخ استاد بپاى
ميكرد دلير كوزه را دسته وناى
از كلهٔ پادشاه واز دست گداى

(٣) خارى كه بزير پاى هر حيوانيست
زلف صنمى وابروى جانانيست
هر خشت كه بر كنگرهٔ ايوانيست
انگشت وزيرى وسر سلطانيست

— تواری جسمَنا بعد الممات
قبورُ الطين تؤخذ من رفات
ويُصنع طينُنا قبراً ، ولكن
لمن يأتون بعدُ إلى الحياة (١)

ويمكن تفسير الكثير من تصرُّفاته الحياتيَّة وخلجاته النفسيّة من خلال معتقداته الفلسفيّة المذكورة ، فيمكن مثلاً أن يُعزى يأسه وتشاؤمه إلى اقتناعه – فى ظل فلسفته – بأنه لا عدل فى وجود ثواب أو عقاب فى عالم آخر ، ولا جدوى من وراء أعماله مهما بلغت من رفعة الشأن ما دام العقاب له بالمرصاد لقاء ما قدَّمت يداه دون حولٍ منه أو قوَّة :

— سويتنى يا خالقَ الأكوان من طين وماء
وتركتنى لجوارحي فى الكون أفعل ما أشاء
الشر أفعله وأفعل ضدَّه .. لا حول لى
أنت الذى قدَّرته ، وأنا المنفِّذ للقضاء (٢)

= برسنك زدم دوش سبوى كاشى
جون مست بدم كه كردم اين او باشى
با من با زبان حال ميكَفت سبو
من همجو تو بوده ام توجو من باشى

(١) از تن جو برفت جان باك من وتو
خشتى دو نهند بر مغاك من وتو
وآنكه ز براى خشت كَور دكَران
در كالبدى كشند خاك من و تو

(٢) از آب وكَلم سرشتهٔ من جكنم
بشم وقصبم تو رشته من جكنم
هر نيك وبدى كه از من آيد بوجود
تو بر سر من نوشتهٔ من جكنم

- طيننا سواه ربى يوم جئنا للحياه
ربنا قد كان يدرى فعلنا نحن العصاة
كلّ ما قد كان منا من ذُنوبٍ .. شاءها
هل دخول النار يوم البعث من عدل الإله (١)

وقد أسلمته عذه العقائد الفلسفيّة إلى إنكار البعث والآخرة ، والإيمان بقِصَر العمر وقرب الفناء وتفاهة حياة الإنسان وعدم جدواها ما دام الموت بالمرصاد .. وجعلته يرى أن الغاية عدم مطلق :

- يا قلبُ هل شاهد النيران إنسانُ
وهل أتى من جنان الخلد رضوانُ
تخاف تجزع ، ترجو الشىء ، ترغبه
ماذا تحقق ؟ أسماء وعنـوان ؟؟ (٢)

- قبّلتُ بالأمس ثغرَ الكوز فى وله
سألته – طامعا – خلدا لإنسان
فقبّل الكوزُ ثغرى وهو يهمس لى :
« لا لن تعود ، فعاقر إبنة الحان » (٣)

---

(١) ايزدجو كَل وجود ما مى آراست
دانست ز فعل ما جه بر خواهد خاست
بى حكمش نيست هر كَناهى كه مراست
پس سوختن قيامت از بهر جه راست

(٢) كس خلد وجحيم را نديده است اى دل
كونى كه از آنجهان رسيده است آى دل
اميد وهراس ما بجيزى كه از آن
جز نام ونشانى نه بديده است آى دل

(٣) لب برلب كوزه بردم از غايت از
تـازو طلبيم واسطـة عمـر دراز
لب بر لب من نهاد وميكَفت براز
مى خور كه بدين جهان نمى آيى باز

- الفجر لاح فسارع لابنة الحان
وهات عودا لنا ، واصدح بألحان
خلاّننا سوف لا يبقون ... وا أسفا
ولن ترى بعد منهم أيَّ انسان [١]

- رأيتُ شيخا يعاقر ابنــة الحان
فقلت : « يا شيخنا قد مات خلانى »
« إشرب فإنا سنمضى » ، قال فى ألمٍ
« وشأننا شأنهم .. لن يبعث الفانى » [٢]

- إشرب فسوف يطول نومك فى التراب بلا أنيس
دون الأحبَّة .. دون زوجك .. أنت مأسور حبيس
واحذر أخى أن تفش سراً دون وعيٍ قلتُه
لو جفَّت الأزهار لا تزهو ولا يرضى الجليس [٣]

---

(١) وقت سحر است خيز اى مايهٔ ناز
نرمك نرمك باده خور وجنك نواز
كه آنها كه بجايند نيايند. كسى
وآنها كه شدند كس نميآيد باز

(٢) پيرى ديدم بخانهٔ خمّارى
كَفتم ندهى ز رفتكان أخبارى
كَفتا ميخور كه همچوما بسيارى
رفتند وكسى باز نيامد بارى

(٣) ميخور كه بزير كِل بسى خواهى خفت
بى مونس وبى حريف وبى همدم وجفت
زنهار بكس مكَو تو اين راز نهفت
هر لاله كه بزمرد نخواهد بشكفت

– نفنى ويبقى كونُنا من بعدنـا
وتزول من سِفر الورى أسماؤنا
الكون كان منظَّما من قبلِنـا
وكذا سيبقى بعد فقد رسومنا [١]

– أنا راض من عيشتى بحبيب وبعـــودٍ وخمرةٍ وخميلـــه
لا أريد الجنان خذها صديقى لا أطيق الوعود حتى الجميله
دع حديث الجنان والنار واذهب أو أجب صاحبى عن سؤالى
هل من الخلد قد أتى لك خلّ ؟ أو مضت أمسِ للجحيم خليلة ؟ [٢]

– لا فَنـاءٌ لدهرنـا بـل بقـاء
وستبقـى نجومُنـا فى اقتـرانِ
وسيبنـون مـن ثـراك قصورا
أو سيغـدو ثـراك فى إيـوانِ [٣]

---

(١) اى پس كه نباشيم وجهان خواهد بود
نه نام زما ونه نشان خواهد بود
ز آن پيش نبوديم ونبد هيچ خلل
ز آن پس كه نباشيم همان خواهد بود

(٢) ساق و بتى وبربطى بر لب كشت
اين هر سه مرا نقد وترا نسيه بهشت
مشنو سخن بهشت ودوزخ از كس
كه رفت بدوزخ وكه آمد ز بهشت

(٣) خوش باش كه دهر بيكَران خواهد بود
بر جرخ قران اختران خواهد بود
خشتى كه ز قالب تو خواهند زد
ايوان وسراى دكَران خواهد بود

— سئمتُ البنـاء بسطح الميـاه
سئـمتُ المعابـدَ والأُديـره
لماذا الجحيم مصيرى ؟ ، ومن
صلاها ؟ ، ومن فاز بالمغفرة [١]

— دنياك ساعاتٌ فلا تحفل بها
واشرب ، فذا أولى بمن هو عاقلُ
أخمِد بماء الكاس نارا أضرِمت
واجلِ الهمومَ .. فعن قريب ترحلُ [٢]

— سارع إلى ما تشتهى قبل الفنا
فغداً تفارق جسمَك الروحُ ، غدا
الخمر قدتنسيك ضراً ، فاحسها
هل أنت تعلم ما ستلقاه غدا [٣]

---

(١) تا جند زنم بروى درياها خشت
نوميد شدم زبت پرستان وكنشت
خيام كه گفت دوزخى خواهد بود
كه رفت بدوزخ وكه آمد زبهشت

(٢) دنيا نه مقام تست نه جاى نشست
فرزانه در او خراب اوليتر ومست
بر آتش غم زباده آبى ميـزن
ز آن پيش كه در خاك روى باد بدست

(٣) درياب كه از روح جدا خواهى شد
در پرده اسرار فنا خواهى شد
مى خور كه ندانى زكجا آمدهٔ
خوشيا ندانى بكجا خواهى شد

- في فؤداي لوعةٌ هيا اسقني
إن عمري زئبق في راحتي
نحن في نوم ، وما نار الصبا
غيرُ ماءٍ دافقٍ يارفقتي (١)

- ركب عمري واكب الأحزانا
فإذا لم انل مناىَ سيقضى
قد مضى العمر ما طعمت هناءً
ويح نفسي .. أفي التعاسة يمضي (٢)

- العمرُ يومان فاحس الراح صافية
فقد تذوق الردى قبل انتهائهما
دنياك تسعى تجاه العُدْم في عجل
فاشرب صباحا ، وأكمِل في مسائهما (٣)

وإلى جوار الرباعيّات التي تُثبت قناعته بوجوب عدم وجود ثواب أو عقاب في عالم آخر والتي ينكر فيها البعث ويؤكد أن الغاية عدم مطلق .. نجد له بعض

---

(١) مى بر كف من نِه كه دلم در تابست
وين عمر كَريز پاى جون سيما بست
برخيز كه بيدارى دولت خوابست
در ياب كه آتش جوانى آبست

(٢) درياب كه عمر نازنين ميكَذرد
بنكَر كه جه سان زار وحزين ميكَذرد
عيش وطربى نديده ام ودر همه عمر
صد حيف ز عمرى كه جنين ميكَذرد

(٣) روزى دو كه مهلتست من خور مى ناب
كين عمر دو روزه درنيابى در ياب
دانى كه جهان رو بخرابى دارد
تو نيز شب و روز زمى باش خراب

الرباعيّات التى تسجّل إيمانه بالله ، وإقراره بوحدانيّته ، لكنه إيمان من يرتكب المعاصى ويخشى العاقبة ، ويوهم نفسه بأن رحمة الله ستشمل المذنبين وجنّته ستسع كل المؤمنين ، وأن عدم الشرك يكفى لغفران الخطايا .

– إرحم ، فلا أخشى ذنوبى كلُّها
ارزق ، فلا أشكو ولا أتألَمَ
تبيضُّ بالعفو الوجوهَ وبالرضا
ربّاه ، لا تسوُّد أو تتجهَّمُ (١)

– إن كنتُ لم أظفر بخالص طاعتك
والنفس لم تبرأ من العصيان
فإن قلبى واثق من لطفكم
لطفِ الإله الواحد الديّان (٢)

– قالوا سيشتدُّ الحِسابُ بنا غدا
ويضيق صدرُ حبيبنا فى المحشر
أيكون من حَسَن سوى حَسَن ، إذا
حَسنت عواقبنا ، فطب واستبشر (٣)

---

(١) بارحمت تو من از كَنه نينديشم
با توشهٔ تو ز رنج ره نينديشم
كَر لطف توأم سفيد رو كَرداند
حقا كه زنامهٔ سيه نينديشم

(٢) كَر كَوهر طاعتت نسُفتم هركَز
ور كَرد كَنه زرخ نرفتن هركَز
نوميد نيم ز باركَاه كرمت
زيرا كه يكى را دو نكَفتم هركَز

(٣) كَويند بحشر كَفتكَو خواهد بود
وآن يار عزيز تندخو خواهد بود
از خير محض جز نكويى نايد
خوش باش كه عاقبت نكو خواهد بود

— دخلتُ فى الحان نشوانا وكان به
شيخٌ على متنه كوزٌ وقد سكرا
فقلت : هلّا من الله اعتراك حيا !!
قال : احسها فهو يعفو ، واترك الهذرا (١)

— أيا من أتى بى للوجود بقدرةٍ
ورُبيت فى نعمائه أتدلّلَ
سامتحنُ العصيانَ تسعينَ حجَّة
لأعلم ذنبى أم سماحك أجزلُ (٢)

— أنا لستُ أقنط من خالق
رحيم لعبء ذنوبى الجسام
إذا اليومَ متُّ صريع الطَّلا
سيعفو غدا عن رميم العظام (٣)

---

(١) سرمست بميخانه گذر كردم دوش
پيرى ديدم مست وسبوئى بر دوش
گفتم ز خدا شرم ندارى اى پير
گفتا كرم از خداى مى نوش خموش

(٢) اى آنكه پديد گشتم از قدرت تو
پرورده شدم بناز در نعمت تو
صد سال بامتحان كه خواهم كرد
تا جرم من است بيش يارحمت تو

(٣) از خالق كردگار وز رب رحيم
نوميد نيم به جرم وعصيان عظيم
گرمست وخراب مرده باشم امروز
فردا بخشد باستخوانهاى رميم

– كم فى المدارس والصوامع أنفسٌ
ترجو الجنان وتختشى النيرانا
لكن من عرف الإله وسرَّه
لم يشغلنَّ بذى الأمور جَنانا [١]

– لو ارتكبتُ خطايا الناسِ كلَّهم
لكنتُ أرجو لذنبى منك غفرانا
قد قلتَ إنك يومَ العجْز تنصرنى
لا عجزَ أعظم لى من عجزىَ الآنا [٢]

– يا نفس ما هذا الأسى والكَدَر قد وقع الإثم وضاع الحذَر
هل ذاق حلوَ العفوِ إلاّ الذى أذنب والله عفا واغتفر ؟[٣]

– يا تاركَ الخمر لماذا تلوم دعنى إلى ربى الغفور الرحيم
ولا تفاخرنى بهجر الطلا فأنت جانٍ فى سواها أثيم

– يامن يَحار الفهمُ فى قدرتك وتطلب النفس حمى طاعتك
أسكرنى الإثم ولكننى صحوت بالآمال فى رحمتك

---

(١) در صومعه ومدرسه ودير وكنشت
ترسندهٔ دوزخند وجوياى بهشت
وآنكس كه ز اسرار خدايا خبراست
زين تخم در اندرون خود هيچ نكَشت

(٢) كَر من كَنه روى زمين كردستم
عفو تو اميد است كه كَيرد دستم
كَفتى كه بروز عجز دستت كَيرم
عاجز تر ازين مخواه كاكنون هستم

(٣) هذه الرباعيّة والرباعيّات الثمانية التالية لها من ترجمة الشاعر أحمد رامى ، وقد نشرها فى كتابه (رباعيّات الخيّام) دون أن يثبت أصلها الفارسى .

- اللهُ يدرى كل ما تُضمِر يعلم ما تخفى وما تُظهِر
وان خَدَعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن يَنشر

- قيل : لدى الحشر يكون الحساب فيغضب اللهَ الشديدُ العقاب
وما انطوى الرحمن إلاّ على إنالةِ الخير ومَنحِ الثـواب

- يارب فى فهمِك حارَ البشر وقصَّر العاجــزُ والمقتــدر
تبعثُ نجواك وتبــدو لهم وهم بلا سمع يعى أو بصر

- بينى وبين النفس حربُ سجال وأنت ياربى شديدُ المِحال
أنتظــر العفــو ولكننـــى خجلانُ من علمك سوءَ الفعال

- أنا الذى أبدِعت من قدرتك فعشتُ أرعى فى حمى نعمتك
دعنى إلى الآثام حتى أرى كيف يذوبُ الإثمُ فى رحمتك

- يا عالمَ الأسرار علم اليقين يا كاشف الضُّرّ عن البائسين
يا قابلَ الأعذار فئنا إلى ظلك ، فاقبل توبةَ التائبين

ونتيجة لقلق الخيّام وشقائه النابِعَين من تزلزل إيمانه بتأثير المذاهب الفلسفيّة فى عقائده الدينيّة .. يبدو التمزّق النفسى واضحا ، فيما يهدف إليه من وراء رباعيّاته التى ذكرناها ، وتزداد حدَّة هذا التمزُّق فيحار بين الخير والشر ؛ يدعو لكل منهما ، أو يخلط بينهما ، وكأنّه فقد القدرة على التمييز بين الطيب والخبيث ، أو كأن الخير والشرَّ قد تساويا فى نظره .

فها هو يوجِّه للخير صراحة ويقول :

أحسِن إلى الأعداءِ والأصدقاء فإنما أُنسُ القلوب الصفـاء[1]
واغفـر لأصحــابك زلاّتهم وسامِح الأعداء تمحُ العداء

---

(١) هذه الرباعيّة والرباعيّتان التاليتان لها من ترجمة الشاعر أحمد رامى ، وقد أوردها فى المرجع السابق دون أن يثبت الأصل الفارسى

– عاشِر من الناس كِبار العقول   وجانب الجهّال أهل الفضول
واشرب نقيع السمّ من عاقلٍ   واسكب على الأرض دواءَ الجَهول

– شيئان فى الدنيا هما أفضلُ   من كل ما تنوى وما تَعمَلُ
لا تتّخِذ كلَّ الورى صاحبا   ولا تنل من كلِ ما يؤكَلُ

– غداً إذا ما كان يوم الجزا
قدرك يغدو حسب المعرفة
فنل صفات حسنَت ، إنما
تحشر إن مُتَّ بشكل الصفة (١)

– لحكم القضا وَكِّل أمورك ما احتوى
كِيانُك أعصاباً وجلداً وأعظما
دع المنَّ من خلٍ وإن يَكُ حاتما
وللخصم لا تخضع وإن يَكُ رُستَما (٢)

وها هو يوجّه للشرّ صراحة فيقول :

– حتى مَ صومُك والصلاةُ تنسُّكا
فدع المساجدَ واقصدنَّ الحانا
واشرب فسوف ترى رفاتَك تارة

---

(١) فردا كه جزاى شش جهت خواهد بود
قدر تو بقدر معرفت خواهد بود
در حسن صفت كوش كه در عرصهٔ حشر
حشر تو بصورت صفت خواهد بود

(٢) نادر تن تست استخوان ورك وپى
ازخانه تقدير منه بيرون پى
كَردن منه ار خصم بود رستم زال
منت مكش ار دوست بود حاتم طى

كـوزاً وأخـرى أكـؤسا ودنانــا (١)

– إن ترم أن تنال عمراً صحيحا
وفــؤاداً لا يحمــل الأحزانــا
فارتشف صاف الطلا كـلَّ آنٍ
للتنــال السرور آنــا فآنــا (٢)

– خذ نصيبا من دَور دهرك واجلس
فوق عرش السرور واحسُ الجاما
غَنِيَ الله عن ذنوب وطاعا
تٍ فأدرك من الزمان المراما (٣)

– ألا قم لنحسوها ونُعمِل عودَنا
ونُبدِل حسنَ الصيت بالعار والرجس
ودعنا نبع بالكأس سجّادة التُّقى

---

(١) تا جند ز مسجد ونماز وروزه
در ميكده ها مست شو از دريوزه
خيام بخور باده كه اين خاك ترا
كه جام كنند كه سبو كه كوزه

(٢) خواهى كه اساس عمر محكم يابى
يكجند بعالم دل بى غم يابى
فارغ منشين ز خوردن بادهٔ ناب
تالذت عمر خود ودمادم يابى

(٣) از گردش روزگار بهرى بر گير
بر تخت طرب نشين وساغر برگير
از طاعت ومعصيت خدا مستغنى است
بارى تو مراد خود ز عالم برگير

ونكسر فوق الصخر قارورةَ القُدس [١]

- الله يخلق لـذّاتِ الحيـاة لمن
يحيا وحيداً بلا زوج بعصمتِهِ
أما الذى يترك اللذاتِ مقترنا
بزوجةٍ ، يحملنَّ هموماً فوق طاقتِهِ [٢]

وقد يخلط بين الخير والشر .. فيأمر بالإحسان وينهى عن الغيبة والقسوة ، ويحرِّض على ترك الفرض والسنَّة واحتساء الخمر ، فيقول :

- دع كلَّ مفروض ومندوب ومِن
قوتٍ لديك فأطعمنَّ النـاس
لا تؤذ خلق الله أو تَغتبْهُم
وأنا الضمين غدا ، فهاتِ الكاسا [٣]

وقد يتَّفق الخيّام مع الناس أو يختلف حين يذكر رأيه فى الحياة ويرسم المنهج الواجب اتّباعه ، لكنّه فى كلِّ حالة لا يجرِّد من نفسه مصلحا اجتماعيا . وهو يقيم رأيه ومنهجه على عقائده الفلسفيَّة وخبراته وتجاربه الخاصَّة .

---

(١) بر خيز وبيا كه جنك بر جنك زنيم
مى نوش كنيم ونام بر ننك زنيم
سجاده بيك پياله مى بفـروشيم
وين شيشهٔ زهد بر سر سنك زنيم

(٢) هر لذّت وراحتى كه خلّاق نهاد
از بهر مجرّدان آفـــــاق نهاد
هر كس كه ز طاق منقلب كَشت بجفت
آسايش خود ببرد وبر طـاق نهاد

(٣) سنّت مكن وفريضهٔ حق مكَـذار
واين لقمه كه دارى ز كسـان بازمدار
غيبت مكن وخلق خدا را مازار
در عهدهٔ آن جهان منم باده بيار

ومما يقوله متّفقا مع العرف العام أو مختلفا ، قوله :

- زخارف الدنيا أساس الألم وطالب الدنيا نديم الندم
فكن خليّ البال من أمرها فكلّ ما فيها شقاء وهم (١)

- من يحسب المالَ أحبَّ المنى ويذرع الأرض يريد الغنى
يفارق الدنيا ولم يختبر فى كدّه أحوالَ هذى الدنى

- أنّ الذى تأنس فيه الوفاء لا يحفظ الودَّ وعهدَ الإخاء
فعاشر الناس على ريبةٍ منهم ، ولا تكثر من الأصدقاء

- الله قد قدّر رزق العباد فلا تؤمّل نيل كلّ المراد
ولا تُذِق نفسَك مرَّ الأسى فإنّما أعمارُنا للنفاد

وتتبدى المثاليّة جليّة واضحة فى قوله :

- ليس الفتى من تستطيب فنونه
إن الفتى من للعهود حفيظُ
مرء يفى بالوعد يفضلُ غيره ...
سهمٌ يُفوَّق للعِدا ويغيظ (٢)

- من نال فى اليومين جَرعةَ ماء
من جرّة مكسورة ورغيفا
لا يغتدى عبداً لِمَن هو مثلَه

(١) هذه الرباعيّة والرباعيّات الثلاثة التالية لها من نظم أحمد رامى ، ولم يثبت أصلها الفارسى .

(٢) آنرا منكَر كه ذو فنون آيد مرد
در عهد ووفا نگر كه جون آيد مرد
از عهدهٔ عهد جون برون آيد مرد
از هر جه كَمان برى فزون آيد مرد

أو سائماً مَن دونَه تكليفـــا [١]

– نفسى الفداءُ لكلِّ كفءٍ عارف
أهوِى على قدميه غيرَ مبـالِ
أتريـد معرفـةَ الجحيم بكُنهِهـا
إن الجحيم لصحبـة الجهّـالِ [٢]

– الدرع لا تمنع سهمَ الأجل والمال لا يدفعه إن نـزل
وكلُّ ما فى عيشنا زائـل لا شئ يبقى غيرُ طِيبِ العمل[٣]

ومثل هذا التمزُّق وتلك الحيرة المواكبة للتشاؤم – يجعلان من الزمان خصما ، ومن الفلك عدوا ، ومن الوفاء حلما ، ومن الصداقة سرابا ، ومن الزواج هما ، فلا غرو أن يقول الخيّام :

– لا تأمِل الخلَّ المقيمَ الوفاء فـإنما أنت بدنيـا الريـاء
تحمَّـل الـداءَ ولا تلتـمس لـه دواءَ وانفـرِد بالشفـاء[٤]

– إذا بلغتَ المجدَ قالوا : زنيم وإن لزمتَ الدارَ قالوا : لئيم
فجانب الناسَ ولا تلتمس معرفةَ تورث حملَ الهمـوم

---

(١) يك نان بدو روز اكَر شود حاصل مرد
واز كوزه شكستهٔ دمى آبى سرد
مخدوم كم از خودى جرا بايد بود
يا خدمت جون خودى جرا بايد كرد

(٢) جانم بفداى آنكه او اهل بـود
سر بر قدمش اكَر نهى سهل بود
خواهى كه بدانى بيقين دوزخـرا
دوزخ بجهان صحبت نا اهل بـود

(٣) رباعيّات الخيّـام لأحمد رامـى .

(٤) المرجع نفسه ، وكذلك الحال بالنسبة للرباعيّة التالية .

– يا صاحِ أين المُدام فما الحياة سوى
نَفَس ولا ابتغى غيرَ السرور بِهِ
لا يبلغ المرءُ ما يهواه فى نَفَس
فاهنأ نديمى بما يأتى الزمانُ بِهِ (١)

– يا دهرُ ضِقنا بجورك هل ستعترفُ ؟
هل تكتفى أو بدارِ الظلم تعتكفُ ؟
تُعطى البخيلَ نعيماً لا يجود به
تُشقى الكريمَ ، حمارٌ أنت أم خَرِفُ ؟ (٢)

– لا تكِل للهموم نفسَك ... دعها
سوف تفنى الحياةَ ، فابغ السرورا
كيف ترجو الوفاء عند زمـانٍ
دائمِ الجورِ لا يملُّ الشرورا ؟ (٣)

– فى الفخِّ نسقط مثل طيرٍ عاجز
والدهـرُ يؤذينـا بكـلِّ سلاح

---

(١) ساقى قدحى كه كار عالم نفسى است
كَر شادى از او يك نفس آن نيز بسيست
خوش باش بهرجه پيشت آيد كه جهان
هركَز نشود جنانكه دلخواه كسيست

(٢) اى دهر بكرده هاى خود معترفى
در زاويهٔ جـور وستم معتكفـى
نعمت بخسان دهى وزحمت بكسان
زين هردو برون نهٔ خرى يا خرفى

(٣) بر خيز ومخور غم جهان كَذران
خوش باش ودمى بشاد مانى كَذران
در طبع جهان اكَر وفائى بـودى
نوبت بتو خود نيامدى از دكَران

أو أننا حيرى ندور بلا هدى
لا بالبقـا فُزنـا ولا بـــرواح [(١)]

– يا دهر قلبى دواماً أنتَ تجرحه
أو قد تمزُق ثوب السعد فى نَزَق
الريحُ أنشقُها نـاراً فتحرقنـــى
والماء أجرعُـه بالـطين والعَلَــق [(٢)]

– لم أكـد أخطـو بدربـىَ حتـى
كادَلى دهــرى وغـــلَّ يديّــــا
إنَّمـا العمـرُ دونَ خمرٍ وإلــف
ليس عمراً ، وليس يعدل شيّا [(٣)]

– ليتنى كالحقِّ امتلك الفلك
أو امدُّ له يـدى فأُزيلـه
كى أحِلَّ مكانه فلكاً به

---

(١) ماثيم در او فتاده جون مرغ بدام
دلخستهٔ روزگـار وآشفتـه مـدام
سرگشته در اين دايرهٔ بى در وبام
نا آمده بر مراد ونارفته بكـام

(٢) اى جرخ دلم هميشه غمناك كنـى
بيراهن خرمى مـن جـاك كنــى
بـادى كه كشم در دلم آتش كنيش
آبى كه خورم در دهنم خاك كنى

(٣) تاباز شناختم من اين باى ز دست
اين جرخ فرومايه مرا دست بدست
افسوس كه در حساب خواهند نهاد
عمرى كه مرا بى مى ومعشوقه بدست

يبلــغ الحرُّ المنـــى ، وينالـــه [١]

– قلّلن يا صاح ما اسطعتَ الرفاق
واعزفنْ عن الحديث والاقتراب
انّ من تختارُ لو تدرى نديمى
حيّةٌ تسعى ، عدوٌّ للصحـاب [٢]

– إن يطر فى الجو صيتُك ، لا يملُّ الناسُ ذمَّك
إن تعش فى الكون فرداً يعمر الوَسواسُ فكرَك
إن تكُ الخضرَ وإلياس ، وإن تسعد لشىء
فهو أن تنسى الجميعَ وأن يعافَ الناسُ أمرَك [٣]

– ما خلق الله راحة وهنا   إلاّ لمن عاش مفرداً عزبا
من ترك الانفرادَ واقترنا   فقد جنى بعد راحةٍ تعبا [٤]

وفى كثير من رباعيّاته يُسَيِّرُهُ تشاؤمه وما يصحبه من حيرة فيتخبط بين إظهار بغضه للظلم والتكلّف والمنّ والرياء ، وحبّه للقناعة والزهد ، وبين رغبته

---

(١) كَر بر فلكم دست بدى جون يزدان
برداشتمى من اين فلكرا ز ميان
واز نو فلكى دكَر جنان ساختمى
كه آزاده بكام دل رسيدى آسان

(٢) آن به كه در اين زمانه كم كَيرى دوست
با اهل زمانه صحبت از دور نكَوست
آنكس كه ترا بجملكَى تكيه بر اوست
جون جشم خرد بازكنى دشمنت اوست

(٣) كَر شهره شوى بشهر شر الناسى
ور كَوشه نشين شوى همه وسواسى
به زين نبود كَر خضر والياسى
كس نشناسد ترا تو كس نشناسى

(٤) رباعيّات الخيّام لأحمد رامى .

فى تحقيق الأمانى وجمع المال ... أو الموت وتوديع الحياة . وقد يصبر وقد يجأر بالشكوى .. فيكشف عن حسرته لعدم بلوغه ما يستحقُّ مع ماله من ميزات ومواهب . وهو فى كلِّ هذه الأحوال يكشف عما يعتمل فى النفس البشريَّة من مشاعر وأحاسيس متضاربة ، لا يملك الشاعر الصادق قدرة على سترها مهما بذل من محاولات :

– نحن يا مفتي الورى منكَ أدرى
لم تُزِل عقلَنا مدى السكر راحُ
أنت تحسو دمَ الأنـامِ ونحسو
دمَ كـرْمٍ ، فأيُّنـا السفّـاحُ (١)

– قال شيخٌ لمومسٍ : أنتِ سَكرى
كـلَّ آن بصاحبٍ لكِ وَجْـدُ
فأجابت : إنى كما قلتَ لكن ...
أنتَ حقاً كما لدى الناسِ تبدو ؟ (٢)

– إليكَ نُصحى إذا ما كُنتَ مستمعا
لا تُلبسنْ ثوبَ تدليسٍ على الجسدِ
العمرُ يفنى وعقبى المرء دائمـةٌ

---

(١) اى مفتى شهر از تو پركار تريم
با اين همه مستى از تو هُشيار تريم
تو خون كسان خورى ماخـون رزان
انصاف بده كدام خونخوار تريـم

(٢) شيخى بزنى فاحشه گفتا مَسْتـى
هر لحظه بـدام ديگرى پابستـى
گفتا شيخا هر انچه گوئى هستم
اما تـو چنانكه مينمائى هستـى ؟

فلا تبيعنْ بفانٍ عيشة الأبدِ [١]

— الراح أطيبُ لى من ملك طوسَ ومِن
سريرِ كسرى وتَخْتِ المَلْكِ قابوسِ
وإنما أنّـةُ السكّيرِ فى سَحَرٍ
خيرٌ من الزهدِ والتقوى بتدليسِ [٢]

— أحسنُ من زهدِ الفتى عن رِيا
رشفُ الحُميّا واقتفاءُ الحسان
إن كان أهلُ الحبِّ والراحِ فى
لظًى فلن تلقى امرءاً فى الجنان [٣]

— لم تقل لى ما قلت إلاّ لحقدٍ
زاعماً أننى بلا إسلامِ
أنا اقررتُ بالذى قلتَ لكن
أنتَ أهلٌ لمثلِ هذا الكلامِ ؟ [٤]

---

(١) پندى دهمت اگر مرا دارى گوش
از بهر خدا جامهٔ تزوير مپوش
عقبى همه ساعتى وعمر تو دمى
از بهر دمى عمر ابد را مفروش

(٢) يك جرعهٔ مى ز ملك كاووس بهست
واز تخت قباد وملكت طوس بهست
آه سحرى ز سينهٔ خمارى
از طاعت زاهدان سالوس بهست

(٣) مى خوردن وگرد نيكوان گرديدن
به ز انكه برزق زاهدى ورزيدن
گر عاشق ومست دوزخى خواهد بود
پس روى بهشت كس نخواهد ديدن

(٤) باما تو هر آنچه گوئى از كين گوئى
پيوسته مرا ملحد وبيدين گوئى

— تاركَ الراحِ لا تذمَّ السكارى
إن أوفق أتب ويمحى الأثامُ
باجتناب الطلا افتخرتَ وتأتى
بذنوبٍ لها المُدامُ غُلامُ [(١)]

— ربىَ افتحْ لى بابَ رزقٍ وأرسل
لىَ قوتى مِن دونِ مَنٍّ الأنام
وأدِم نشوةَ الطِّلا لى حتى
تذهلنّى ما عشتُ عن آلامى [(٢)]

— من كان نصفُ رغيف فى الحياة له
ومسكنٌ فيه مثواه وراحتُه
لم يغد سيِّدَ شخصٍ أو غلامَ فتى
فهنّه ، فلقد راقت معيشتُه [(٣)]

= من خود مقرّم بدانجه كَونى ليكن
انصاف بده ترا رسد كين كَونى

(١) كَر مى نخورى طعنه مزن مستانرا
كَر دست دهد توبه كنم يزدانرا
تو غره مشو بدينكه من مى نخورم
صد كار كنى كه مى غلامست انرا

(٢) اى رب بكَشاى بر من از رزق درى ...
بى منت مخلوق رسان ما حضرى
از باده جنان مست نكَهدار مرا
كز بيخبرى نباشدم درد سرى

(٣) در دهر هر آنكه نيم نانى دارد
واز بهر نشست آشيانى دارد
نه خادم كس بود نه مخدوم كس
كَو شادى بزى كه خوش جهانى دارد

– إلى مَ بهذا الحرص تقضى مدى العمر
وتُصبح للإثراء والفقر فى فكرِ ؟
ألا أشرب فعمرٌ سوف يعقبه الرَّدى
حقيقٌ بأن تقضيه بالنوم والسُّكرِ (١)

– حتى مَ تصبح للأطماع حِلفَ عنا
حيرانَ تعدو بهذا الكون مفتتنا ؟
مضوا ونمضى وكم يأتون بَعْدُ وَكَم
يمضون من دون أن يحظى امرؤ بمُنى (٢)

– إنَّ من أدركوا المناصبَ ذاقوا
جُـــرَعَ الهمِّ والأسى ألوانـــا
وعجيبٌ أن الذى ليس يهوى
حِرصَهـــم لا يرونَـــه إنسانـــا (٣)

– من العار أن تسعى لتحصيل شهرة
وأن تشتكى من جَوْر ذا الفلك البلوى

---

(١) تاكى عمرت بخود پرستى كـــذرد
يا در پى نيستى وهستى كَـذرد
مى نوش كه عمر كه اجل درپى اوست
آن به كه بخواب يا بمستى كَذرد

(٢) جند از پى حرص وآز تن فرسوده
سركَشت دوى كَرد جهان بيهـوده
رفتند ورويم وديكَر آيند وروند
يكــدم بمراد خويشتــن نابـــوده

(٣) اين جمع اكابر كـه مناصـب دارنـد
از غصّه وغـم زجان خـود بردارنـد
وآنكس كه اسير حرص جون ايشان نيست
اين طرفه كـه آدميـش نشمارنـد

لئن تَغدُ من عِطر الحُميّا بنشوة
يكن لك خيراً من غرورِكَ بالتقوى [١]

– كن حماراً فى معشرٍ جهلاء
أيقنوا أنهم أولو العرفانِ
فهُمُ يحسبون للجهل مَن ليـ
سَ حماراً خِلواً من الإيمانِ [٢]

– حين جودُ الإلهِ فاضَ برانى
وبدرس الغرامِ قِدْماً حبانى
ولقد صاغ من قُراضةِ قلبى
بعد هذا مفتاحَ كنز المعانى [٣]

– المالُ إن لم يغد ذخرَ أولى النهى
فالفاقدون له بعيشٍ أنكدِ
أضحى البنفسجُ مطرِقاً من فقره

---

(١) نيك است بنام نيك مشهور شدن
عار است زجور جرخ رنجور شدن
خمار ببوى آب انكور شدن
به ز انكه بزهد خويش مغرور شدن

(٢) با آن دو سه نادان كه جنان ميدانند
از جهل كه داناى جهان ايشانند
خر باش كه از خرى ايشان بمثل
هر كونه خراست كافرش ميدانند

(٣) جون جود ازل بود مرا انشاكرد
بر من ز نخست درس عشق املا كرد
وانكاه قراضهٔ زر قلب مرا
مفتاح خزانهٔ در معنى كرد

والوردُ يضحكُ لاقتناء العسْجد [١]

– بجميلِ الآمالِ أفنيتُ عمـرى
دون أن ابلغـنَّ يومـاً مـرادا
أنا أخشى أن لا يساعدنى العُمـ
رَ لأشفى من الزمانِ الفـؤادا [٢]

– كم جبتُ من وادٍ وسهلٍ دون أن
أحظى بتحسينٍ لبعضِ أمورى
قد سرَّنى أن الحياةَ قد انقضت
عنى وإن تكُ ما انقضت بسرور [٣]

– انظُر العمرَ كيف يبدو حزينا
فابتدره فسوف يودى ويقضى
ما رأيتَ الهناءَ عمرى فلَهْفى

---

(١) سيم ارچه نـه مايـهٔ خردمنـدان است
لى سيمان را باغ جهان زنـدان است
از دست تهى بنفشه سرير زانـوست
واز كيسهٔ زر دهان گل خندان است

(٢) دادم باميـد زندگـانى بربـاد
تا بوده ز عمر خويشتـن روزى شاد
ز آن ميترسم كـه عمر امانـم ندهـد
چندانكـه ز روزگـار بستانـم داد

(٣) بسيـار بـگشتيم بگـرد در ودشت
يك كار من از گشت همى نيك نگشت
در ناخـوشى زمانـه بـارى عمـرم
گر خوش نگذشت بارى خوش خوش بگذشت

لحيــاةِ كـــذا تمرُّ وتمضى (١)

– ليت الذى خلقَ الوجودَ يبيده
والكون يبدئ غيرَه ويعيده
فيزيد رزقى فى الحياة ، وإن أبى
فالموتَ أرجو والفناءَ أريده (٢)

وقد يجهر الخيّام بالمعاصى لا عن مجون وخلاعة ، كما يعتقد بعضهم وإنما لينفث غيظه المكبوت الناجم عن إحباطه وخيبة أمله . وقد يلجأ إلى السخرية واللامبالاة ليبدى عدم اكتراثه ، وكأنه يريد أن يقول : إذا كان الفلك يعاندنى والحياة لا تعطينى والخالق يقدر علىّ رزقى ، فسوف آخذ ما أريده قسرا ، وأفعل ما أشاء جهرا وأعترف به علانية .. وإن أغضبتُ النّاس واتُّهِمت بعصيان الخالق . وهو بذلك يعتنق فلسفة اللاأباليّة ، ويُعتبَر واحدا من أتباعها . ومن الرباعيّات التالية يتأكّد لنا جهره بالمعاصى وميله إلى السخرية واللامبالاة :

– قد قيل لى رمضان جاء فسوف لا
تسطيع رشفاً لابنــةِ العنقــودِ
فسأحتسى بختام شعبانَ الطِّـلا
عَـلاً لتصرعَنــى ليــومِ العيــدِ (٣)

---

(١) دريـاب كه عمـر نـازنين ميكـذرد
بنكَر كه جه سان زار وحزين ميكذرد
عيش وطربى نديده ام در همه عمر
صد حيف ز عمرى كه جنين ميكذرد

(٢) يزدان خواهم جهان دكَركَون كنـدى
واكنون كندى تانكَرم جون كنـدى
يا نام من از جريده بيرون كنـدى
يا روزى من زغيب افزون كنـــدى

(٣) كَويند كه ماه رمضان كَشت پديد
من بعد بكَرد باده نتوان كرديـد =

– يقولون : حور فى الغداة وجنّة
وثمّة أنهار من الشهد والخمر
إذا اخترت حوراءً هنا ومُدامة
فما البأس فى ذا وهو عاقبةُ الأمر [1]

– إذا ما أتينا خاشعين لمسجد
فلم نأت نقضى للصلاة فروضها
ولكن سرقنا منه سجّادةً ومَذ
عراها البِلى جئنا لكى نستعيضَها [2]

– عِش وابنةَ الكرمِ فى هناء
واشرب ودع باطلَ الخيالِ
فالبنتُ مهما تكن حراماً
أطيبُ من أُمّها الحلالِ [3]

= در آخر شعبان بخورم جندان مى
كه اندر رمضان مست بخسبم تا عيد

(١) كَويند بهشت وحور عين خواهد بود
وآنجا مى ناب وانكَبين خواهد بود
كَر ما مى ومعشوقه كَزيديم جه باك
جون عاقبت كارهمين خواهد بود

(٢) در مسجد اكَرجه بانياز آمده ايم
حقا كه نه از بهر نماز آمده ايم
روزى زينجا سجّاده دزديم بـم
آن كهنه شد است باز باز آمديم

(٣) در سر مكَذار هيج سوارى محال
مى خور همه ساله ساغر ما لامال
بادختر رز نشين وعيشى ميكن
دختر بحرام به كه مادر بحلال

– إذا نلتَ رِطلَى قَرْقَفٍ فاحس كاسها
بكل اجتماع راقَ أو محفلٍ حالى
فما يعتنى بارى الوجود بشاربٍ
لمثلك أو يهتمُّ فى ذقن أمثالى (١)

– أعُبُّ الطِلا عمداً ومثلى ذو حِجى
له يغتدى عند النُّهى شربُها سهلا
درى اللهُ قِدما بارتشافى للطلا
فإن أجتَنِبها ينقلب عِلْمُهُ جهلا (٢)

– هدَّ ركنَ الإيمان ذنبى وأنسى
ذنبَ من راح يعبد الأوثانا
أنا اخشى ذنبى متى وزنوه
يومَ حشرٍ أن يكسرَ الميزانا (٣)

---

(١) گَر زانکه بدستت افتد زمی دو منی
می نوش بهر محفل وهر انجمنی
کانکس که جهان ساخت فراغت دارد
از سبلت جون توئی وریش جو منی

(٢) من می خورم وهر که جو من اهل بود
می خوردن او نزد خرد سهل بود
می خوردن من حق ز ازل میدا نست
گَر من نخورم علم خدا جهل بود

(٣) دارم گُنهی که پشت ایمان شکند
بازار تمام بت پرستان شکند
بار گُنهم اگَر بمیزان سنجد
ترسم که بروز حشر میزان شکند

– إذا ما جاءنا رمضانُ يُلْقَى
به القيدُ الثقيلُ على حجانا
فأغفِل يا إلهي الناسَ حتى
يخالـــوا أنَّ شوّالا أتانـــا (١)

– قد أصبحَ الحانُ بنا عامراً
وكم نَقَضْنا من متابٍ لنا
ما يصنع العفُو بلا مأثم ؟
العفـــو يـــزدانُ بآثامنـــا (٢)

وقد يصل به الأمر حدَّ أن يُظنَّ به الخبل أو ينسب إليه الكفر والإلحاد ، فهو يحدِّث خالقه سبحانه ويسأله عن أشياء تحيِّره ، ويجيب هو بما تقوده إليه فلسفته ويقتنع به عقله ؛ فيتجرأ عليه وعلى أوامره ويعترض على مشيئته ، ويتطاول على ذاته جلَّ جلاله كما يبدو لقرّاء رباعيّاته . والحقُّ أن عقله لم يُصَب بالخبل ، وأنه حين قال ما قال لم يكفر ولم يُلحِد – وفق تصوُّره ونيَّته – وإنما هو مفكرٌ واعٍ متفتِّح الذهن واسع الاطلاع ، ألحّت عليه الأفكارَ وهاجمته الوساوسُ وحار بين قضايا فكريَّة عديدة ؛ فحاول إيجاد تفاسير لها ، ومتديِّن متصوِّف فيلسوف متدبِّر أحاطت به ألغاز الكون والحياة ، وقاده عقله إلى أبوابها فأمسك بأطراف خيوطها ووضع قدمه على أول درجاتها ، وحاول أن يجد الحلَّ لها فاستعصى عليه

---

(١) ماه رمضان جنانكه امسال آمـد
بر پای خرد بند گران حال آمد
ای بار خدای خلق را غافل دار
تا پندارند كه ماه شوال آمـد

(٢) آبادی میخانه زمی خوردن ماست
خون دو هزار توبه در گردن ماست
گر من نكنم گناه رحمت جه كند
آرایش رحمت از گنه كردن ماست

الأمر ، فانطلق يفكّر بصوت مسموع ، ويجهر بما يهمس به غيُره أو يخفيه ، واتّجه إلى ربّه بعد أن يئس ممن عداه .. فى إيمان مطلق بعدله وكرمه .

لقد عرض قضايا الإنسان وهمومَه فى حوارٍ فكرى حر طليق ، وفَلْسَفَ شعورَه ومعاناته ، وأراح نفسه بإجابات وجد فيها الحلّ والإنصاف للإنسان المكره المسيَّر المستحقّ للعفو والصفح والغفران .. وكأنه يريد أن يقول إن الإنسان الذى كرَّمه الله بالعقل قادر على حل المعميات ومعرفة كل شىء عن خالقه ونفسه وحياته وعالمه . لو أُعطِى الفرصة . ولم توضع القيودُ على أفكاره أو يُساء فهمها ، ولم يوصم بالمروق والخروج عن جادة الدين . وهذه بعض رباعيّاته التى نظمها إبان ثورته النفسيّة والفكريّة ، والتى تتسم بالجرأة كما قلنا :

– نصبتَ فى الدنيا شراك الهوى   وقلتَ : أُجزى كلَّ قلبٍ غوى
اتنصب الفخَّ لصيدى وإن   وقعتُ فيه قلتَ : عاصٍ هوى ؟ (١)

– وصَلْتَنى بالنفْس منذ القِدم   فكيف تفرى شملَنا الملتئم ؟
وكنت ترعانى فماذا دعا   إلى اطِّراحى للأسى والألم ؟

– اين طهورُ النفس عفُّ اليمين   وكيف كانت عيشة الصالحين ؟
إن كنت لا تغفر ذنبى فما   فضلك ياربى على العالمين !!

– طبائع الأنفس ركّبتَها   فكيف تجزى أنفساً صُغْتَها ؟
وكيف تغنى كاملاً أو ترى   نقصاً بنفسٍ أنتَ صوَّرتها ؟ .

– عبدك عاصٍ أين منك الرضاءَ   وقلبه داجٍ فأينَ الضياء ؟
إن كانت الجنّةُ مقصورةً   على المطيعين فأين العطاءَ ؟!

– سئمت البناءَ بسطح المياه
وعفت المعابدَ والأديره

---

(١) هذه الرباعيّة والأربعة التالية لها من نظم أحمد رامى ، ولم يثبت أصلها .

لماذا الجحيم مصيرى ... ومن
صلاها ، ومن فاز بالمغفرة ؟ [١]

- قد كان يدرى الله كلَّ فعالنا
من يوم صوَّر طيننا وبرانا
لم نرتكب ذنبا بدون قضائه
فإذاً لماذا ندخل النيرانا ؟ [٢]

- أنت أبدعتنى من الماء والطيـ
ـن كما قد نسجت أُلياف جسمى
كلُّ شرٍّ منى يلوح وخيرٍ
أنت قدَّرته فما هو جُرمى ؟ ! [٣]

- ألا ليتَ ربى يقلب الكونَ بغتة
وينشئه حالا لأنظر ما يجرى
فإما يزيد الرزق لى أو يميتنى

---

(١) تاجند رنم بروى درياها خشت
نوميد شده زبت برستان وكنشت
خيام كه كفت دوزخى خواهد بود
كه رفت بدوزخ وكه آمد ز بهشت

(٢) ايزد جو بكل وجود ما مى آراست
دانست ز فعل ماجه بر خواهد خاست
بى حكمش نيست هر كناهى كه مراست
پس سوختن قيامت از بهر جه راست

(٣) از آب وكلم سرشتة من جكنم
پشم وقصبم تو رشتة من جكنم
هر نيك وبدى كه از من آيد بوجود
تو بر سر من نوشتة من جكنم

ويمحو اسمى المسطور فى دفتر الدهر [١]

— إلهى قل لى : من خلا من خطيئة
وكيف ترى عاش البرىء من الذنب ؟
إذا كنت تجزى الذنبَ منّى بمثلِه
فما الفرق ما بينى وبينك ياربى ؟! [٢]

— كم للذى بسط الثرى وبنى السما
مـن لوعـةٍ بقلوبنـا وعـــذابِ
كم من شفـاهٍ كالعقيـق وطـرَّةٍ
كالمسك أودعهـا حقـاقَ تـرابِ [٣]

— يارب إنك ذو لطف وذو كرم
ففيمَ لا يَدخلنَّ المذنبُ الخلدا ؟
ما الجود إعطاء دارِ الخلد متّقيا
إنَّ العطاءَ لأصحاب الذنوب ندى [٤]

---

(١) يزدان خواهم جهان دگرگون كنـدى
واكنون كندى تانگرم جون كنـدى
يا نام من از جريده بيرون كنـدى
يا روزى من زغيب افزون كنـدى
(٢) ناكرده گناه در جهان كيست بگو
وآن كس كه گنه نكرد جون زيست بگو
من بد كنم وتو بد مكافات دهـى
پس فرق ميان من وتو جيست بگو
(٣) آنكس كه زمين وجرخ وافلاك نهاد
بس داغ كه او بر دل غمناك نهاد
بسيار لب جو لعل وزلفين جو مشك
در طبـل زمين وحقـهٔ خـــاك نهاد
(٤) اى رب تو كريمى وكريمى كرمست
عاصى ز جه رو برون زباغ إرمست

– لَأُرتشف المُدامــــة أيَّ وقت
وإن يَكُ أشرفَ الأوقات قدرا
ملأتُ الدنَّ من عـنب حـلالٍ
فقـــل للّهِ لا يجعلـــه خمرا [١]

– هل الجام مهما تمّ صنعا ودقّة
يرى كسره من كان منتشيا سكرا ؟
ففيم يرى الخلاّق ساقاً لطيفـة
ورأساً وكفاً ثم يكسرها كسرا ! [٢]

– سألتك هل زادت بملكك طاعتى
وهل أنقصت منه خطاياى من قدْر ؟
فدعنى ودع نصرى فطبعُك بان لى
سريعٌ لخذلان بطىء عن النصر [٣]

= با طاعتم ار ببخشى اين نيست كرم
با معصيتم اكَر ببخشى كرم است

(١) من بادهٔ تلخ تلخ ديرينه خـورم
واندر رمضان در شب آدينه خورم
انكَور حلال خويش درخم كردم
كَو تلخ مكن خـداى تا من نخورم

(٢) اجزاى پياله را كه درهم پيوست
شكستن او كجا روا دارد مست
جندين سرو ساق نازنين وكف دست
از بهر كه پيوست وبكين كه شكست

(٣) در ملك تو از طاعت من هيج فزود
وز معصيتى كه رفت نقصانى بود
بكَذار ومكَير زانكه مَعْلومَـم شد
كَيرنـدهٔ ديـرى وكذارنـــده زود

– الهى ومجرى كلّ حى وميّتِ
ورب السما ذات النجوم السواطع
لئن كنتُ ذا سوء فإنك سيِّدى
وما هو ذنبى إن تكن أنت صانعى ؟ (١)

– زيَّنت وجنة ذيَّاك المليح لنا
يارب فى سنبل كالمسك ذى عَبَقِ
ورحتَ تأمر أن لا ننظرنَّ له
كما تقول : « أمِل كأسا ولا تُرِقِ » (٢)

– ألقيتَ فى كل منهج شَرَكا
وقلتَ : من يخط خطوةً هلكا
بالذنب أغريتَنى وتنسب لى
ذنبا ، وكلُّ الأحكام فى يدكا (٣)

---

(١) سازندۀ كار زنده ومرده توئى
دارندۀ اين جرخ پراكنده توئى
من كَرجه بدم خواجۀ اين بنده توئى
كس را جه كَنه جو آفريننده توئى

(٢) يارب تو جمال آن مه مهر انكَيز
آراسته بسنبل عنبر بيز
پس حكم هيكنى كه دورى مكَر
اين حكم جنان بود كه كج دار ومريز

(٣) در رهكَذرم هزار جا دام نهى
كَوئى كه بكَيرمت اكَر كَام نهى
يكذره جهان ز حكم تو خالى نيست
حكمم تو كنى وعاصيم نام نهى

– صيادُ ذا الدهر ألقى الحَبَّ فى شَرَك
فصاد صيداً وقد سمّاه إنسانا
فكلُّ خير وشر منه قد نشئا
وراحَ يعزو لهذا الخلق عصيانا [١]

– كسرت يارب إبريقَ المُدام كما
سددت لى بابَ عَيْشى حيثما كانا
أنا شربتُ وتبدى أنت عربدةً
ليت الثرى بفَمى ، هل كنتَ نشوانا ؟ [٢]

وهذه بعض رباعيّاته التى يقرّ فيها الجبرَ دون الاختيار ، وهو يرى وجوب العفو عن المخطئين بناء على قناعته بذلك الرأى :

– لبستُ ثوبَ العيش لم استشر   وجِرت فيه بين شتّى الفِكَر
وسوف انضو الثوبَ عنى ولم   أدرِك لماذا جئتُ ، أين المقر ؟[٣]

– لا تشغل البالَ بأمر القَدَر   واسمع حديثى يا قصيرَ النظر
تنحَّ واجلس قانعا وادعا   وانظر إلى لعب القضا بالبشر

– لن يرجعَ المقدارُ فيما حَكَم   وحملك الهمَّ يزيدُ الألم
ولو حزنت العمرَ لن ينمحى   ما خَطَّهُ فى اللوح مَرُّ القلم

---

(١) صياد ازل كه دانه در دام نهاد
صيدى بگرفت وآدمش نام نهاد
هر نيك وبدى كه ميرود در عالم
او ميكند وبهانه در عام نهاد

(٢) ابريق مى مرا شكستى ربى
بر من در عيش را ببستى ربى
من مى خورم وتو ميكنى بد مستى
خاكم بِدَهَن مگر تو مستى ربى

(٣) هذه الرباعية والرباعيتان التاليتان من نظم أحمد رامى .

حتى م ذِكرك للجنا　　ن أو الجحيم المسعَرة
وإلى متى سُرُج المسا　　جد أو بخور الأُديرة ؟
انظر إلى لوح القضا　　واستَجلِ واقرأ أسطره
فالله قِدماً كلّ مـا　　هو كائن قد قدَّره [1]

– حقيقةُ الكون ليست عندَ ناظرِهـا
سوى مَجـازٍ ففيـــمَ الهمُّ والألم
فجارِ دهرَك واخضع للقضاء فلن
تطيق تبديل ما قد خطَّه القلـمْ [2]

– أبدعتنى يا خالقَ الأكوان من طين وماء
وتركتنى لجوارحى ألهو وأصنع ما أشاء
الشرَّ أفعله وأفعل ضدَّه ، لا حول لى
أنت الذى قدَّرته ، فمن البرىء ومن أساء ؟ [3]

– يا من غدوتَ لجوكان القضا كرةً
سِر كيف شاء ولا تنبس ببنت فمِ
فمن رمَى بك فى الميدان مضطرباً

---

(١) تاكى ز زيان دوزخ وسود بهشت
تاكى ز جراغ مسجد ودود كنشت
رو بر سر لوح بين كه استاد قضا
اندر ازل آنجه بودنى بود نوشت

(٢) اى دل جو حقيقت جهان هست مجاز
جندين جه خورى تو غم از ين رنج دراز
تن را بقضا سيار وبا وقت بساز
كاين رفته قلم ز بهر تو نايد باز

(٣) أنظـر الحاشيـة رقـم ٢٥٠

أدري وأعلمُ ما يجرى من القدم [١]

إنَّ القضاء لأمرٍ لا يُرَدُّ ومــا
نصيب ذى الهمِّ إلاّ السقمُ والألمُ
إن تقض عمرَك مهمومَ الفؤاد فلن
تزيد شيئا على ما خطّه القلــمُ [٢]

– فلكَ الشهْبِ قال لى : أفتعــزو
لىَ حكمَ القضاء فى الأكوانِ ؟!
لو غدا لى فى السير أدنى اختيار
لم تجدنى أدورُ كالحيرانِ [٣]

– طينُنا سوّاه ربى يومَ جئنا للحياة
ربُّنا قد كان يدرى فعلَنا نحن العصاة
كلّ ما قد كان منّا من ذنوب شاءها
هل دخولُ النار يومَ البعث من عدل الإله ؟ [٤]

---

(١) اى رفته بجوكان قضا همجون كَـو
جب ميخور وراست ميرو وهيج مكَو
كانكس كه ترا فكند اندرتك ويو
او داند واو داند واو داند واو

(٢) از رفته قلم هيج دكَر كَون نشود
واز خوردن غم بجز جكَر خون نشود
كَر در همه عمر خويش خونا به خورى
يكذره از انجه هست افزون نشود

(٣) در كَوش دلم كَفت فلك ينهانى
حكمى كه قضا بود زمن ميدانى
در كَردش خويش اكَر مرا دست بدى
خود را برهاند مى ز سر كَردانى

(٤) ايزدجو كَـل وجود ما مى آراست
دانست ز فعل ماجه بر خواهد خاست

- لو كنتُ ربَّ اختيارٍ ما أتيتُ إلى الد
دنيا ولم أرتحِل عنها ولم أبِنِ
ما كان أسعدنى لو لم أجىء أبدا
للكونِ يوما ولم أرحلْ ولم أكُنِ [1]

وإذا كان الخيّام يأمن ربّه ويثق فى حلمه وعدله وعفوه ، فإنه لم يكن يأمن أهل عصره ، وكان يعرف أنهم لن يغفروا له مثلَ هذا القول ، لهذا لم ينشُر رباعيّاته فى حياته ، واكتفى بإطلاع خاصّته ومريديه على بعضها ، ومع ذلك كان ما أطلعهم عليه – على قلّته – سبباً فى اتّهامه بالكفر والإلحاد ، وتعريض حياته للخطر .

وربّما فكّر الخيّام فى اللجوء إلى الستر والتمويه قبل أن يُطلِق العنان لقلمه وأفكاره ؛ فقد رأينا له عدداً من الرباعيّات تجرى على ألسنة الحيوانات وغيرها ، لكنه كان مُقِلّا فى ذلك ، وله عذره . فمِثْلُ هذا اللون لا يمكن أن يستوعب كلَّ أفكار الخيّام فى القالب الذى اختاره .. وهو الرباعيّات . ومن نماذج هذا اللون :

- قالت الوردة : لاخدَ كخدّى فى البهاء
فإلى مَ الظلمُ ممّن يبتغى عصراً لمائى ؟
فأجاب البلبل الغِرّيدُ فى لحن الغناء

- بى حكمتش نيست هر كناهى كه مراست
بس سوختن قيامت از بهر چه راست
(۱) كر آمدنم بمن بدى نامد مى
ور نيز شدن بمن بدى كى شد مى
به زين نبود كه اندرين دير خراب
نه آمد مى نه بد مى نه شد مى

من يكن يضحَكْ يومـاً يقضِ حـولاً بالبكـاء (١)

– قد خاطبَ السمكُ الأوزَّ منادياً :
سيعودُ ماءُ النهرِ فاصفُ هنـاءَ
فأجابَ : إن نُصبِح شواءً فلتكِ الد
دنيـا سرابـاً بعدنـا أو مـاءَ (٢)

– شاهدتُ ألْفَى جرَّةٍ فى معمـل
تدعـو ولم تفتـح بنطـقٍ فاهـا
فإذا بإحداها تنادى : أين من
صنعَ الجرارَ وباعها وشراهـا ؟ (٣)

– كسرتُ كوزاً للطلا عن جهلِ
إذ كنتُ نشوانَ سليبَ العقـلِ
فـراح يدعـو بـلسان الحال :
مثلك قد كنتُ وتغـدو مـثلى (٤)

---

(١) كل كفت به از لقای من روئی نیست
جندین ستم کلا بکر باری جیست
بلبل بزبان حال با او میکفت
یکروز که خندید که سالی نکریست

(٢) بابط میکفت ما هیء در تب وتاب
باشد که بجوی رفته باز آید آب
کفتا جو من وتو هردو کشتیم کباب
دنیا پس مرك ماجه دریا جه سراب

(٣) در کارکه کوره کری رفتم دوش
دیدم دو هزار کوزه کویا وخموش
ناکاه یکی کوزه بر آورد خروش
کو کوزه کر وکوزه خر وکوزه فروش

(٤) بر سنك زدم دوش سبوی کاشی
جون مست بدم که کردم این اوباشی

– رأيتُ شيخاً يعاقر ابنـة الحانِ
فقلت : يا شيخنا قد مات خِلّانى
« إشرب فإنّا سنمضى » ، قال فى الم ِ ،
« وشأننا شأنُهم لن يُبعثَ الفانى » (١)

– دخلت فى الحان نشواناً وكان به
شيخٌ على متنه كوزٌ وقد سكرا
فقلتُ : هلّا من الله اعتراكَ حيا ؟
قال : احسُها فهو يعفو واتركِ الهذَرا (٢)

– فلكَ الشُهْب قال لى : أفتعزو
لى حُكمَ القضاء فى الأكـوانِ
لو غدا لى فى السير أدنى اختيارِ
لم تجدنى أدورَ كالحيرانِ (٣)

= بامن با زبان حال میکفت سبو
من همجو تو بوده ام تو جو من باشی

(١) پیری دیـدم بخانـهٔ خمـاری
کفتم ندهی ز رفتکان اخبـاری
کفتا میخور که همجوما بسیاری
رفتنـد وکسی باز نیامـد بـاری

(٢) سرمست بمیخانه کذر کردم دوش
پیری دیدم مست وسبوئی بر دو ش
کفتم زخدا شرم نداری ای پیر
کفتم کرم از خدای می نوش خموش

(٣) در کوش دلم کفت فلك پنهانی
حکمی که قضا بود زمن میدانی
در کردش خویش اکر مرا دست بدی
خود را برهاندمی ز سر کردانی

وقارىء رباعيّات الخيّام يمكنه – دون إعمال فكر – أن يستنتج أنه كان يهوى المتعة ويغتنم الفرصة للعبِّ من نهر الملذّات ، فهو دائم الحديث عن الخمر والكأس والمجلس والساقى والنديم ، والموسيقا وآلات الطَرَب ، والمرأة الجميلة التى لا تقيِّده بقيود الزواج ، وهو لا يملُّ سيرة هذه الأشياء ولا يكفُّ عن امتداحها .. بل ، ولا يكره الموت ولايبغضه إلّا لأنه يقضى على مثل هذه الملذّات التى لا تطيب الحياة إلاّ بها ، ولا يكون لها طعم بدونها . فهى الكفيلةُ بتخفيف قسوة الزمان ، والقادرةُ على مساعدة المرء على النسيان ... نسيان ما يشغل باله ويحيِّر لبّه ، والأمينةُ بأن تأخذ بيد الإنسان وتسير به فى طريق المعرفة ... معرفة ذاته ووجوده وخالقه .

وما حب المتعة واقتناص الفرصة واصطياد اللذات والجرى وراء الشهوات سوى نزعة فلسفيّة ابيقوريّة .. ضمّها الخيّام إلى فلسفاته العديدة التى اعتنقها وشكّل حياته بموجبها .. كالرواقيّة والماديّة واللا إراديّة واللا أدريّة والانقلابيّة واللاأباليّة ، والتشاؤم باعتباره مذهباً قديما عرفته الديانة البوذيّة ، وكذلك الصوفيّة (كما سنرى) .

ولاشك أن الفلسفة الأبيقوريّة كانت تتلاءم وظروف عصر الخيّام الذى كانت تسود فيه المتع ويعمّه القلق والتوتُّر ، ويلقى فيه البعض النعيم والهناء ، ويشقى فيه البعض كل الشقاء ، فإذا سار الخيّام على هذه الفلسفة فلأنها توائمه وتسدّ احتياجاته كشخص ناجح لم ينل ما ناله من هم أقلُّ منه شأنا ، احتياجاته التى يحسُّ أنه حرم منها رغم استحقاقه لها ، احتياجاته التى تتمثل بالجاه والثراء والشهرة وحريّة التفكير والتعبير والنقد والبحث .

وكان الخيّام يدعو إلى اعتناق هذه الفلسفة أكثر من غيرها ، وينظم فى ذلك رباعيّات تتَّسم بالطرافة وروعة التعبير ؛ فيقول فى الدعوة لشرب الخمر ووجوب اغتنام فُرص السعادة التى يوفّرها الكأس والنديم وصَحبة الجميلات وسماع الموسيقا والألحان .. قبل ضياع الوقت وانتهاء العمر :

– الخمر توليكَ نعيمَ الخلود ولذَّةَ الدنيا وأنسَ الوجود [١]
تحرق مثل النار لكنّها تجعل نار الحزن ماء برود

– إن الذى يُذبل زهر الربيع ينثر أوراق وجود الجميع
والهمُّ مثل السمِّ ، ترياقُه فى الخمر ، فاشربْ قدرَ ما تستطيع

– اطفىء لظى القلب ببَردِ الشراب فإنما الأيامُ مثلُ السَّحاب
وعيشُنا طيفُ خيالٍ فنل حظَّك منه قبل فوتِ الشباب

– لا تشغلِ البالَ بماضى الزمان ولا بآتى العيشِ قبلَ الآوان
واغنم منَ الحاضرِ لذّاتِه فليس فى طبعِ الليالى الأمان

– غدٌ بظَهرِ الغيب واليومُ لى وكم يخيبُ الظنُّ فى المقبِلِ
ولستُ بالغافلِ حتى أرى جمالَ دنيایَ ولا أجتلى

– سارع إلى ما تشتهى قبل الفنا فغداً تفارق جسمَك الروحُ غدا
الخمرُ قد تنسيك ضُراً مسَّنا أوَ أنتَ تعلم ما ستلقاه غدا ؟ [٢]

– العمر يومان فاحس الراح صافيةً فقد تذوق الردى قبل انتهائهما
دنياك تسعى تجاه العُدْم فى عجل فاشرب صباحاً وأكمِل فى مسائهما [٣]

– أنا راضٍ من عيشتى بحبيب وبعودٍ وخمرةٍ وخميله
لا أريد الجنانَ خُذها صديقى لا أطيق الوعودَ حتى الجميلة [٤]

– الفجر لاحَ فسارع لابنة الحان وهات عوداً لنا واصدح بألحان
خلاّننا سوف لا يبقون كلُّهم ولن ترى بعدُ منهم أىَّ إنسان [٥]

---

(١) هذه الرباعية وأربع رباعيّات تالية لها .. من نظم رامى .
(٢) سبق تسجيل نص الرباعيّة الفارسى
(٣) » » » » »
(٤) » » » » »
(٥) وقت سحر است خيز اى مايهٔ ناز
نرمك نرمك باده خور وچنك نواز =

– لا تخشَ حادثةَ الزمان فـإنها
ليست بدائمة علينا .. سرمـدا
واغنم .. قصير العمر فى طرب ولا
تحزن على أمسٍ ولا تخشَ الغدا (١)

– اقطف وعاقر كأسها مغْ شادنٍ
كالسرو قـداً والـورود خـدودا
فسيغتدى كالورد من كفِّ الردى
ثوبُ الحيـاة مخضَّبـا مقـدودا (٢)

– لا تغرسنَّ فى الحشا غَرسَ التَّرح
واقرأ حييتَ دائما سِفر الفَرَح
وعاقر الراح ونل أقصى المنـى
فالعمـرُ مـا أقصَرَه كما اتَّضح (٣)

= كه آنها كه بجايند نيايند كسى
وآنها كه شدند كس نمى‌آيد باز

(١) از حادثهٔ جهـان آينـده متـرس
واز هرجه رسد جو نيست پاينده مترس
اين يكدمه عمر را غنيمت بشمار
از رفته مينديش وز آينده مترس

(٢) باسرو قدى تازه تر از خرمن كَل
از دست مده جام مى ودامن كَل
ز آن پيش كه ناكَه شود از كَرك اجل
پيراهن عمر تو جو پيراهن كَـل

(٣) در دل نتوان درخت اندوه نشاند
همواره كتاب خرمى بايد خوانـد
مى بايد خورد وكـام دل بايد رانـد
پيداشت كه جند جهان خواهـى مانـد

- إنَّ دينى الهنا ورشفُ الحميّا
وابتعادى عن كلِّ دين وكفر
قلتُ : ماذا يكون مهر عروس الدْ
دَهرِ ؟ قالت : جذْلانُ قلبك مهرى (١)

- قالوا : دع الراحَ ستلقى البِلى
منها ، وتُلقى فى لظى مُسْعَرَه
نعم ، ولكن نشوتى لحظة
أحلى من الدنيا مع الآخره (٢)

- عن الهمِّ أعرض ما استطعت ولا تدع
لما مرَّ أو لم يجىء فى الحشا وخزا
وعش وارتشف واهْنأ فلست بآخذ
لرمسك من فَلس وإن تمتلك كنزا (٣)

- أنظر لسوء فعال أفلاك السما
وانظر لدهرك من رفاقك خالى
ما اسْطعتَ فاهنَ اليومَ لا تنظُر غداً

---

(١) مى خوردن وشاد بودن آيين من است
فارغ بودن زكفر ودين دين من است
كَفتم بعروس دهر كابين تو جيست
كَفتا دل خرم تو كابين من است

(٢) كَويند مخور مى كه بلاكش باشى
در روز مكافات در آتش باشى
اين هست ولى زهر دو عالم خوشتر
اين يكدمه كه از شراب سرخوش باشى

(٣) تا بتوانى غم جهان هيج مسنج
برتن منه از آمده ونامده رنج
خوش ميخور وميباش دارين دير سپنج
باخود نبرى جوى اكَر دارى كنج

أو ما تقضّى وانظرن للحال (١)

- إن تواعدتم رفاق لأنسٍ
وسعدتم بالغادةِ الهيفاءِ
وادار الساق كؤوس الحُميّا
فاذكروني في شربها بالدعاءِ (٢)

- إن نلتُ من حنطةٍ رغيفا
وكوزَ خمر وفخذَ شاةِ
وكان إلفي معي بقفر
فقتُ بذا عيشةَ الولاةِ (٣)

- من نال ذرّة عقل عادَ منتبها
فلم يُضع من ثمين العمر لحظَتَهُ
إما سعى لرضاء الله مجتهداً
أو عبَّ كاسَ الطّلا واختار راحَتَهُ (٤)

---

(١) زين كَنبد كَردنده بد افعالى بين
واز جملهٔ دوستان جهان خالى بين
تا بتوانى تويك نفس خودرا باش
فردا منكَر دى مطلب حالى بين

(٢) ياران جو باتفاق ميعاد كنيد
خود را بجمال يكديكَر شاد كنيد
ساق جو مى مغانه در كف كَيرد
بيجاره فلانرا بدعا ياد كنيد

(٣) كَر دست دهد ز مغز كَندم نانى
واز مى كدوئى ز كَوسفندى رانى
با ماه رخى نشسته در ويرانى
عيشيست كه نيست حد هر سلطانى

(٤) هر كو رقمى ز عقل در دل بنكَاشت
يك لحظه ز عمر خويش ضايع نكَذاشت

– إجلس إلى الراح تبلغ مُلكَ محمود
وأَصغِ للعود تسمع لحنَ داود
دع ذكر ما لم يجيء أو ما أتى ومضى
والآنَ فاهنأ فهذا خيرُ مقصود (١)

– أسلك سبيلَ بنى الحانات واسعَ إلى
راحٍ وعودٍ وظبيٍ يبهج النظرا
فى الكفّ كأس وفوق المتن كوزُ طلا
اشرب حبيبى الحميّا واترك الهَذَرا (٢)

– لا يروق الوجودُ من دون ساق
ومُدام وصوت نايٍ عراق
لا أرى العيشَ ما تفكّرت فيه
غيرَ نيلِ السرور بين الرفاق (٣)

= يادر طلب رضای ایزد کوشید
يا راحت خود گزید وساغر برداشت

(١) با باده نشین که ملك محمود اینست
واز جنك شنو که لحن داود اینست
از نآمده ورفته دیگر یاد مکن
حالی خوش باش از انکه مقصود اینست

(٢) جز راه قلندران میخانه میوی
جز باده وجز سماع وجز یار مجوی
بر کف قدح باده وبر دوش سبوی
می نوش تو ای نگار وبیهوده مگوی

(٣) دوران جهان بی می وساقی هیچ است
بی زمزمهٔ نای عراق هیچ است
هرچند در احوال جهان مینگرم
حاصل همه عشرات است وباقی هیچ است

ولم يكتف الخيّام بذكر الخمر وما تجلبه من متعة وتحقّقه من نسيان وسلوان ، بل أخذ يبدى حبّه العارم لها ، ويتفنّن فى إبراز الصور الشعريّة التى تعكس فرط تمسُّكه بها فى حياته وبعد مماته ، ويفاضل بين التوبة عن احتسائها وبين معاقرتها .. فيفضّل عدم التوبة :

– نفس تميل إلى الحُميّا دائما
والسمع يهوى معزفاً وربابا
إن يصنعوا كوزا ثراى فليتهم
أن يملؤوهُ مدى الزمان شرابا [١]

– يقولُ المتّقون غداً ستحيا
على ما كنتَ فى هذى الحياة
لذا اخترت الحبيبةَ والحميّا
لأحشَرَ هكذا بعد الممات [٢]

– لاعيشَ لى بسِوَى صافى المُدام ولا
أطيق حَمْلاً بدون الراح للجسد
ما أطيبَ السكرَ والساقى يناولنى
كأساً ، وتعجز عن أخذ الكؤوس يدى [٣]

---

(١) ميلم بشراب ناب باشد دايم
كَوشم بنَى ورباب باشد دايم
كَر خاك مرا كوزه كَران كوزه كنند
آن كوزه پر از شراب باشد دايم

(٢) كَويند مرا انكسان كه با پرهيزند
ر آن سان كه بميرند جنان بر خيزند
ما بامى ومعشوقه از آنيم مدام
باشد كه بحشر مان جنان انكَيزند

(٣) بى بادهٔ ناب زيستن نتوانم
بى جام كشيد بارتن نتوانم

=

– مُذ ازدهَرت بالبدرِ والزُهرةِ السما
إلى الآن لم يوجد أَلذُّ من الخمر
فواعجبى من بائع الراح هل يرى
أعزَّ من الصهباء إن باعَها يَشرى ؟ (١)

– قالوا : ألا إن النشاوى فى لظى
قولٌ لـه عقـل المفكِّـر منكـرُ
إن كان من يهوى ويسكر فى لظى
سترى الجنان كراحة اليد تُصفِرُ (٢)

– قلتُ : سأترك الشرابَ تائبـا
فهو دمُ الكَرْم ولستُ أسفكـه
قال لى العقل : أَجِدّاً قلتَ ذا ؟
قلتُ : لقد مازحتُ ، كيف أتركه ؟ (٣)

= من بندهٔ آن دمم که ساقی گوید
يك جام دكَر بكَير ومن نتوانم

(١) تازهره ومه در آسمان كَشت پديد
بهتر ز مى ناب كس هيچ نديد
من در عجبم زمى فروشان كه ايشان
به زانكه فروشند چه خواهند خريد

(٢) كَويند كه دوزخى بود مردم مست
قوليست وليك دل در او نتوان بست
كَر عاشق ومست دوزخى خواهد بود
فردا بينى بهشت را چون كف دست

(٣) كَفتم كه دكَر باده كَلكَون نخورم
مى خون رزانست وديكَر خون نخورم
پير خـردم كَـفت ميكَوئـى
كَفتم كه مزاح ميكنم چون نخورم

– لاعشتُ إلاّ بالغــواني مغرمـــا
وعلى يدى تبرُ المُدام الـذائبُ
قالوا : سيقبل منك ربُّك توبةً
لا الله قابِلها ولا أنـا تـائبُ [1]

– كل يوم أنوى المتاب إذا مـا
جاءنى الليلُ عن كؤوس الشراب
فأتــانى فصل الزهـــور وإنى
فيـه يارب تـائبٌ عـن متـابى [2]

– لا تتب قط عن الراح فكـم
توبــة منها يتــوب التـــائبُ
قـد شدا البلبـل والـورد زهـا
أبِـذا الـوقت يتــوب الشاربُ [3]

ولما كان الموت هو القضاء المحتوم الذى يمكن أن يحرمه هناءه ، ويسلبه متعته ، ويفوِّت عليه فرص السرور ، ويحجب عنه الخمرة التى عشقها ، فإنَّه يُبدى بغضه له من هذا المنطلق .. لا خوفا ولا رهبة منه :

---

(١) در سر هوس بتان جون خورم بـاد
بر دست هميشه آب انكَورم باد
كَويند كسان خدا ترا توبـه دهـاد
او خود ندهد من نكنم دورم بـاد

(٢) هر روز بر آنم كه كنم شب توبه
از جام پيايى ولبالب توبـه
اكنون كه رسيد وقت كَل هر غم نيست
در موسم كَل زتوبه يارب توبـه

(٣) توبه مكن از مى اكَرت مى باشد
صد توبهٔ نادمات دريى باشد
كَل جامه دران وبلبلان نعره زمنان
در وقت جنين توبـه روا كـى باشد

لا تحسبوا أنى أخاف الزمان   أو أرهب الموت إذا الموت حان
الموتُ حقٌ لستُ أخشى الردى   وإنما أخشى فوات الأوان[١]

والخيّام يعرف أن شربه الخمر معصية ، وأن المتديّنين يكرهون منه ذلك ، ولهذا يهتمُّ بين الحين والحين بذكر أسباب شربه إياها ، ويمكننا استنتاج هذه الأسباب – على كثرتها – من هذه الرباعيّات وأمثالها :

– لم أشرب الخمرُ ابتغاءَ الطرب   ولا دعتنى قِلّة فى الأدب
لكنَّ إحساسى نزاعــاً إلى   إطلاق نفسى كان كلُّ السبب
– خيرٌ لى العشق .. وكأس المدام   من ادّعاء الزهد والاحتشام
لو كانت النارُ لمثلى ، خَلَتْ   جنّاتُ عدنٍ من جميعِ الأنام

– تقلّل الراحُ تكبُّرَ – الـورى
وهى تحلُّ مشكـلاتِ العالـــمَ
لـو ذاق إبليسُ المُدام مــرّةً
أتى بألفــىْ سجــــدةٍ لآدمِ [٢]

– أحسو المُدام ولا أعربِد قطُّ أو
كفّى تُمدُّ لِما عدا الكـاساتِ
تدرى لِم اخترت الطِلا ؟ كيلا أُرى
يا صاحِ مثلُك مولعاً فى ذاتى [٣]

---

(١) هذه الرباعيّة والتاليتان لها من نظم أحمد رامى .
(٢) از باده تكبر از سرهـا كــم
وز باده شوه كَشاده بند محكم
ابليس اكَر زباده خوردى يكــدم
كردى دو هزار سجده پيش آدم
(٣) من باده خورم وليك مستى نكنم
إلا بقــدح دراز دستـــى نكنـــم
دانى غرضم ز ميپرستى چه بود
تا همچو تو خويشتن پرستى نكنم

– الفجْر لاحَ فقم لنا يا صاحِ
واملأْ زجاجَك من عقيق الراحِ
فزمان أُنسك إن يفت لم تلقَه
وتظلّ تُنشدُ ساعةَ الأفـراحِ (١)

– اشرب الراحَ فهى روحُ الروح
بـلسمُ النـفس والحشا المجروح
وإذا ما دهـاك طوفـان هـمٍّ
فـانج فيها فـذى سفينةُ نـوح (٢)

– بِكَـرِّ الربيـعِ ومَـرِّ الشتـاء
حيـاتُك تـبلى وأوراقُهـا
فلا تأسَ واشرب فـإنَّ الهمـو
مَ هى السمُّ والـراحُ ترياقهـا (٣)

– قد قيل لى : قلِّل تعاطى الخمر
بأى عذر لم تـزل فى سكـر

---

(١) وقت سحر است خيز اى طرفه پسر
پر بادهٔ لعل كن بلورين ساغـر
كه اين يكدمه عافيت در اين كنج فنا
بسيـار بجوئـى ونيابـى ديگـر

(٢) مى خور كه مدام راحت روح تو اوست
آسايش جان ودل مجروح تو اوست
طوفان غم ار در آيد از پيش وپسست
در باده گريز كشتى نوح تو اوست

(٣) از آمدن بهار واز رفتـن دى
اوراق وجـود ماهميگردد طـى
مى خور مخور اندوه كه گفتست حكيم
غمهاى جهان چه زهر و ترياقش مى

نورُ الطلا عذری وخدُّ الساق
فهل تری أُوضح من ذا العذرِ (١)

والخيّام قليلا ما يعمد إلى الوصف ، لكنه حين يصف الكأس والخمر يأتى بصورة مبتكرة :

— ضم جسم الزجاج روحا فحاكى
يا سمينا يحيط فى ارجوان
لا لعمرى فالجام جامد ماء
ضم فى القلب سائل النيران (٢)

وإذا كانت الخمر فى نظر كارهيها هى الضلال بعينه ، فإن الخيّام يبالغ فى مدحها فيجعل منها الحقَّ المبين :

متى انبلج الصبحُ المشعشع فليكن
بكفِّك للصهباء جامٌ مرَوَّقُ
يقولون : إن الراح مرٌّ مذاقها
فقلت : إذا فالراحُ حقٌّ محقَّقُ (٣)

---

(١) كَويند مرا زمى كه كمتر خور ازين
آخر بچه عذر بر ندارى سر ازين
عذرم رخ يار وبادهٔ صبحدم است
انصاف بده چه عذر روشنتر ازين

(٢) اين جسم پياله بين بجان آبستن
همچون سمنى بارغوان آبستن
نى نى غلطم كه جام از غايت لطف
آبيست بآتش روان آبستن

(٣) هر كَه طلوع صبح ازرق باشد
بايد بكفت جام مروق باشد
كَويند بافواه كه من تلخ بود
بايد بهمه حال كه مى حق باشد

وإن تصفَّحنا أى ديوان يشتمل على رباعيّات الخيّام وجدنا الشراب يحتلُّ معظم الرباعيّات ، فقد كان – على ما يبدو – يرى فى الخمر رأس المتعة وأساس السرور .. ولعله لا يبدو غريبا بعد ذلك أن يخصِّص بعض رباعيّاته لشروط يضعها ليلتزم بها من يريد الشراب ، وليُلزم نفسه بها بدوره .. فهو يشترط عدم الإكثار أو الإدمان ، ويشترط الجليسَ المناسب والوقتَ والمكانَ المناسبين ، وتوخّى السريَّة . أما الشىء الغريب حقاً فهو أن يحرم الشراب إلا على العالِم :

– أحسو المُدام ولا أعربد قطُّ أو
كفّى تمدُّ لما عدا الكـاسات (١)

– إن تشرب الراحَ فاشرب مع ذوى أدب
أو ذى جمالٍ صقيلِ الخدِّ مبتسم
ودع تعاطيَهـا بين الملا علَنـا
واشرب خفاء ولا تُكثِر ولا تُدِمِ (٢)

– إن تشرب المُدام أسبوعا فـلا
تدَع لدى الجمعة قُدساً شربَها
السبتُ والجمعةُ عندى استويـا
لا تعبد الأصنامَ واعبد ربَّهـا (٣)

---

(١) من باده خورم وليك مستى نكنم
إلا بقدح دراز دستى نكنم

(٢) كَر باده خورى تو با خردمندان خور
يا باصنمى ساده رخى خندان خور
بسيار مخور فاش مكن ور دمساز
اندك خور وكَه كَاه خور خور

(٣) يكهفته شراب خورده باشى بيوست
هان تاندهى تو روز آدينه زدست
در مذهب ماشنبيه وآدينه يكى است
جبار پرست باش نه روز پرست

– ليس الشرابُ حلالا فى ديانتنا
لكنَّ مقداره ، أو كيف تشربُهُ
ومن جليسك .. يشفع فى تناولِه
وبعد ذا ، عالمٌ لا غير يقربُهُ (١)

ويكاد يختلط علينا الأمر حين نقرأ عددا كبيرا من رباعيّات الخيام يُثبت فيه على نفسه فقدان العقل والوعى بتأثير الشراب وعدم التقيُّد بوقت أو مكان مناسبين أو توخّى السريّة .. بعد أن طالعنا شروطه ، لكنّا نقبل ما جاء فى تلك الرباعيّات ، ولا نجد بأسا من نسبتها إليه بعد أن عرفنا أنه ابن وقته وأسير متعته ، وشاعر يسجّل ما يحسُّه عندما يحسُّه وكيفما يحسُّه :

أرانى من الصهباء لم أصح لحظة
وأثمل حتى إن تكن ليلة القدرِ
اعانق دنا أو أقبّل أكؤسا
وكفّى بجيد الكوز تبقى إلى الفجرِ (٢)

– ألا قُم لنحسوها ونُعمل عودَنا
ونبدل حسن الصيت بالعار والرجس
ودعنا نبع بالكاسِ سجّادة التقى

---

(١) مى كَرجه حرام است ولى تاكه خورد
آنكَه جه مقدار ودكَر باكه خورد
هر كه اين سه شرط شد راست بكَو
مى را نخورد مردم دانا كه خورد

(٢) هشيار نبوده ام دمى تا هستم
كَر خود شب قدر است من امشب مستم
لب بر لب جام وسينه بر سينهٔ خم
تاروز بكَردن صراحى دستم

ونكسر فوق الصخر قارورة القدس (١)

— لم يبق غيرُ اسم من اللذّات أو
غيرُ السلافة من جليس كيِّس
لا تلق من يدك المُدام فما بقى
فى الكفِّ هذا اليوم غيرُ الأكؤس (٢)

— ذو اللبِّ لا يصبح فى همٍ عديم المنفعه
ويشرب الراحَ تباعا فى كؤوس مترعه
الهمُّ فى القلب وفى الكوز المُدام مودعه
تعسا لمن عاف الطِّلا واحتمل الهمَّ معه (٣)

— إذا نلتَ رطلى قَرْقَف فاحس كاسها
بكلِّ اجتماع راق أو محفل حالى
فما يعتنى بارى الوجود بشارب
لمثلك ، أو يهتم فى ذقن أمثالى (٤)

---

(١) بر خيز وبيا كه جنك بر جنك زنيم
مى نوش كنيم ونام بر ننك زنيم
سجاده بيك پياله مى بفروشيم
وين شيشهٔ زهد برسر سنك زنيم

(٢) اكنون كه ز خوشدلى بجز نام نماند
يكهمدم پخته جز مى خام نماند
دست طرب از ساغر مى باز مكير
امروز كه در دست بجز جام نماند

(٣) عاقل غم وانديشهٔ لاشى نخورد
جز جام لبالب وپيابى نخورد
غم در دل وباده و در صراحى باشد
خاكش بسر آنكه غم خورد مى نخورد

(٤) كَر زانكه بدستت افتد ازمى دو منى
مى نوش بهر محفل وهر انجمنى
كانكس كه جهان ساخت فراغت دارد
از سبلت جون توئى وريش جو منى

وفى وصايا الخيام إذا جاز لنا أن نسميها بهذا الاسم ، نجد الشرابَ هو المستفيدُ الأول من الوصية ، لقد تمسك به الشاعر فقاسمه شهرته ، وارتبط به الآن فى ذهن قُرّائه :

– متى اقتلعت كفُّ المنيَّة دوحَتى
وعدتُ لدى أقدامها أتعفَّرُ
فلا تصنعوا طينى سوى كوز قَرقَف
عسى يمتلى بالراح يوما فأنشرُ [(١)]

– اجعلوا قوتى الطِّلا وأحيلوا
كهرُباءَ الخدود للياقوت
وإذا مِتُّ فاجعلوا الراح غُسلى
ومِن الكَرْمِ فاصنعوا تابوتى [(٢)]

– إن متُّ فاكتموا رفاقى واجعلوا
آخر أمرى عظة بين الملا
وبالطِّلا امزجوا ثراى واصنعوا
من طينه غطاءَ راقودِ الطِّلا [(٣)]

---

(١) در پاى اجل جو من سر افكنده شوم
وز بيخ نهال عمر بركنده شوم
زنهار گِلم بجز صراحى نكنيد
باشد كه زباده پر شود زنده شوم

(٢) اى همنفسان مرا زمى قوت كنيد
واين جهرهٔ كهربا جو ياقوت كنيد
گر فوت شوم بباده شوئيد مرا
وز جوب رزم تختهٔ تابوت كنيد

(٣) جون مرده شوم خاك مرا گم سازيد
احوال مرا عبرت مردم سازيد
پس خاك وگلم بباده آغشته كنيد
ور كالبد خشت سرخم سازيد

غسّلونى بالــراح بعــد المنــون
وإذكروهـا والكـاس فى تلقينـى
ولـدى الحشرِ إن أردتم لقـائى
من ثرى باب حانةٍ فاطلبـونى [1]

- هات اسقنيها أيُّهـذا النـديم أخضِب من الوجه اصفرارَ الهموم
وإن أمُت فاجعل غسولى الطِّلا وقُدَّ نعشى من فروع الكروم[2]

- إن تقتلع من أصلها سَرْحتى وتصبحُ الأغصان قد جـفَّت
فاصنع وعاءَ الخمر من طينتى واملأه تسرِ الروح فى جثّتى

وهكذا كان الخيّام يعشق الخمر الحيقيَّة فى مقدمة ما يعشق من صنوف الملذات ، ولم يكن يهتمُّ بإخفاء عشقه لها ، إذ كان شربها فى ذلك العصر شيئا مألوفا . وكانت الكؤوس تُدار فى مجالس العظماء التى يغشاها الخيام ، ويجتمع عليها الحضور . كما أنه لم يُخف معاقرته لها لأنه لم يكن يُعنى بأن يكون فى مصاف رجال الدين أو أن يُنسب يوماً إلى هذه الفئة . بل إن القارىء لرباعيّاته ما يكاد يحكم بتمسّكه بتعاليم الدين حتى ينقض حكمه بسبب ما ينادى به أو يفعله من أمور خارجة عن الدين منافية لقواعده . ولعل الخيّام كان يحسُّ هذا الضياع وذلك التمزُّق ، إذ وجدناه يقول :

يدٌ لـىَ فى جام وأخرى بمصحف
وطوراً أنا الجانى ووقتاً أنا العفُّ
اعيش ومالى تحت ذا الأفق مبدأ

---

(١) جون فوت شوم بباده شوئيد مرا
تلقين ز شراب وجام كَوئيد مرا
خواهيد بروز حشر بايد مـرا
از خاك در ميكده جوئيد مرا

(٢) هذه الرباعية والتالية لها من نظم أحمد رامى ، والنص الفارسى لهما (ص : ٢٣٧) .

فلا مسلِم محضٌ ولا كافر صِرفُ [١]

- نَــفَسٌ بين كفرنــا والديــن
نَــفَسٌ بين شكّنــا واليــقين
مـا أرى حـاصل الحيـاة سواه
فـاقضه بـالسرور قبـل المنــون [٢]

وإلى جانب الفلسفات العديدة التى انعكست فى رباعيّات الخيّام نرى بعض الرباعيّات التى تؤكّد صلته بالتصوّف . وتختلف الآراء حول هذه النقطة ، وتميل الغالبيَّة إلى عدم نسبته إلى هذه الطائفة نظراً لكثرة ما يُنسب إليه من رباعيّات تتّسم بالجرأة والاعتراض على مشيئة الخالق ؛ فأبسط قواعد التصوُّف حبُّ الله لا رغبةً فى جنّته ولا خوفاً من ناره ، والشغل بذكره ، ونبذ الملذّات والشهوات ، وعدم التعلُّق بالأمور الدنيويّة .. وهذا لا يبدو جليا فى رباعيّاته . ومع ذلك يمكننا الدفاع عن الخيّام .. بمعنى أنه يمكننا أن نؤكّد أنّه انخرط فى سلك الصوفيَّة فى فترة من فترات حياته ، فنقول إن ظروف العصر السلجوقى ، وما كان يتعرَّض له المتصوِّفة – الذين يخرجون عن جادة التصوّف – من هجوم وإيذاء يبلغ حدّ القتل أحيانا .. جعل الخيّام يخفى تصوّفه .. وإذا كان قد جهر بمعاصيه فقد كانت هذه سِمَة بارزةٌ من سمات العصر ، وهو لم يجهر بها فى فترة تصوُّفِه ولاشك .

---

(١) يكدست بمصحفيم ويكـدست بجام
كَه مرد حلاليم وكَهى مرد حرام
مـاثيم دريت كَنبـد فيروزه مقـام
نى كافر مطلق نه مسلمان تمـام

(٢) از منزل كفر تابدين يكنفس است
واز منزل شك تابيقين يكنفس است
اين يك نفس عزيز را خوش ميدار
جون حاصل عمر ماهمين يكنفس است

وإذا قيل : لماذا كان رجال الدين وكبار المتصوِّفة يهاجمونه ؟ كانت الإجابة : إن اهتمامه بالفلسفة قد أثار عليه رجال الدين ، وتسرُّب رباعيّاته إلى مجالس الصوفيّة وافتتانهم بها مع ما فيها من معارضة للشريعة .. قد أثار عليه كبار المتصوِّفة .

ويكفينا شاهداً على تصوُّفه أنه لا يوجد نصّ صريح لعارف صوفى يؤكّد عدم انخراطه فى سلك الصوفيَّة . لقد هاجمه كبارهم ، ولكنهم ركّزوا هجومهم على أقواله لما يمكنها إحداثه من ضرر بليغ بعقول الصوفيَّة المخلصين الذين قد يحلو لهم السير على ما ورد بها .. بعد أن تسربت إلى مجالسهم وعرفت طريقها إلى خلواتهم ، ودخلت فى أقوالهم ومحاضراتهم .

ونحن نلتمس العذر لمن يشكّكون فى تصوّف الخيّام ، لأن تلاقَى التصوّف والفلسفة فى بعض النقاط يجعل من الصعب تحديد موقف الخيّام ونسبته إلى طائفة دون الأخرى . فاللا أياليون مثلا يتلاقون مع الصوفيّة فى الإيمان بأن الكشف عن حقيقة الموجودات المحسوسة أمر متعذّر ؛ لأن صور الحادثات لا ترتبط بالحقيقة المطلقة وإنما ترتبط بأجهزتنا الحسيَّة . وكلاهما يرى أن الوسائل الإدراكية هى التى تجعلنا نقنع بما نصل إليه من علم يتعلق بالكائنات . مع أن ذلك ليس الحقيقة والواقع ؛ فلن يكون العلم نفس المعلوم أو الإدراك نفس الإدراك لوجَهّزنا بآلات إدراك غير التى لنا (١) .

فإذا ما تحدّث الخيّام حول هذه النقطة فلن يكون الحكم بتصوّفه أو فلسفته أمراً سهلاً ، أما إذا تحدّث – مثلا – عن العالم وكيف أنّه مستمر فى الانحلال والتركيب دون انقطاع ، وقال – مردداً أقوال الانقلابيين – إن العناصر إذا ما تبعثرت وتفرّقت فى الأجسام بناء على هذا .. استحال عليها أن تعود فتؤلّف الجسم الأول ، وحكم بعد ذلك بأن البعث بعد الموت أمر غير ممكن .. فلن يشك

---

(١) مقدمة أديب تقى على « رباعيّات حكيم عمر الخيام نيشابورى » (القسم العربى) .

أحد فى أنه يتحدّث بلسان الفلاسفة ؛ لأنّه بذلك يعارض ما يقوله المتصوّفة الذين يرون أن الإنسان يتّحد بالله ويعود إلى مصدر واحد بعد موته .. هو الله ، لأنه من روح الله .. بدليل قوله تعالى عند حديثه عن خلق آدم عليه السلام : « فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » ، فالبعث إذاً فى رأيهم أمر ممكن لأن ، عناصر الإنسان لم تتفرّق فى أجسام أخرى .

ولكى لانحار كما يحار بعضهم ، لجأنا إلى رباعيّاته الصريحة فى اتجاهها الصوفى – رغم قلّتها – والتى تقرر ما ذهبنا إليه . فهو وإن لم يجهر بتصوّفه قد أثبت عن طريق بعض رباعيّاته أنّه صوفى يفتقر إلى الإخلاق . وقد جاء هذا نتيجة حتمية لتأثّره بالعديد من الفلسفات ، واتّساع أفق فكره على نحو جعله يرفض أن يحصر نفسه فى نطاق الفكر الصوفى المحدود الذى لا يقبل البحث الواسع المفصّل الذى يبلغ حدّ الجدل والهجوم .

وليس عجيبا أن يتأثّر الخيّام بشتّى ألوان الفلسفة التى أعتنقها ومن جملتها فلسفة التصوّف ، وأن ينعكس ذلك فى شعره ، فقد عاش طويلا و لم يكفّ عن الكتابة وتسجيل أحاسيسه كشاعر ملهم ينفعل بأحداث عصره ، وإنسان تمرّ حياته بتطوّرات وتغيرّات . لقد لجأ إلى الرباعيّات يبثّها مشاعره وأحاسيسه ، فجاءت حافلة بتفضيل المتعة حينا والثورة على الأوضاع حينا آخر ، ومعاندة القدر تارة وتأكيد رحمة الله تعالى .. إلى غير ذلك .

ولاشك أن التصوّف قد استغرق فترة من فترات حياته فانعكس وقتها فى رباعيّاته . ولأن الرباعيّات لا ترتّب فى الدواوين بناء على المراحل الزمنيّة الفكريّة والنفسيّة التى يعيشها الشاعر .. فإننا لا نستطيع تحديد الفترة التى عاشها الخيّام متأثراً بالفلسفة الصوفيّة ، وكتب فيها الرباعيّات التى تدور فى فلك التصوّف .. غير أن لهجة بعض الرباعيّات توحى بأنّها كانت فى أواخر مراحل حياته ، وهذا أقرب إلى المنطق والطبيعة البشريّة . وقد ورد فى كتب التراجم ما يعزز ذلك الظنّ ، فقد كان يعيش فى مقتبل حياته عيشة كريمة رغدة يتوفّر له فى ظلها المال والجاه والشهرة بصورة لا تدع له فرصة التفكير فى التصوف بما يتطلّبه من عزلة وزهد وتقشّف وفقر .

ودليلنا على ما لقيه من تكريم وما أصابه من ثراء وجاه وشهرة فى عهدى ألب أرسلان وملكشاه وغيرهما .. ما ذكره صاحب (جهار مقاله) عن استضافة الأمراء له ؛ فقد رآه فى مدينة بلخ ينزل ضيفا على الأمير « أبى سعد » فى قصره عام ٥٠٦ هـ ، وكان نظامى يعمل وقتها فى خدمة الأمير . وما ذكره من أن السلطان كان يستشيره ويطلب منه تحديد أنسب الأيام للصيد ، وأنه كان يأخذ برأيه . وما ذكره عَرَضاً عن نزول الخيّام فى ضيافة « صدر الدين بن المظفر » فى مرو [١] .

ودليلنا على ذلك أيضا ما ذكره صاحب (نزهة الأرواح) ؛ فقد ذكر أن الخاقان شمس الملوك (خاقان بخارى) كان يعظّمه ويجلسه معه على سرير الملك . وذكر أيضا قصّة مفادها أن الخيّام دخل يوما على الوزير « عبد الرازق » وفى مجلسه إمام القرّاء « أبو الحسن الغزالى » وكانا يتكلّمان فى اختلاف القراء على آية ، فقال الوزير : « على الخبير سقطنا » . ثم سأل عمر فذكر له أقوال القرّاء ، وعلّل كلّ قول منها ، وذكر الشواذ وعلّلها وفضّل وجهاً واحدا ، فقال الغزالى : أكثر الله فى العلماء من أمثالك ، لم أكن أحسب أن أحدا يحفظ ذلك من القرّاء ، فكيف بأحد الحكماء [٢] ؟ .

ودليلنا على ذلك أيضا ما ورد فى العديد من الكتب (جامع التواريخ – تاريخ كَزيده – تذكرة الشعراء – روضة الصفا – حبيب السير) حول الخيّام وقربه من نفوس السلاطين واهتمامهم بتكريمه . وما ورد فيها حول صلته بزميلَى دراسته « نظام الملك الطوسى » و« الحسن الصباح » . ويُفهم مما ورد أن الثلاثة كانوا زملاء فى الدراسة على الإمام « الموفق النيسابورى » فتعاهدوا أن يرعى أفضلهم حظا زميليه . وأصبح نظام الملك وزيرا لألب أرسلان ، فتوجّه الخيّام

---

(١) تاريخ الأدب فى إيران – جـ ٢ ترجمة – ص ٣٠٤ – ٣٠٦ .

(٢) مقدمة رامى على كتاب (رباعيّات الخيّام) ، ص ٩ ، ١٠ .

وحسن الصباح إليه فى أصفهان ، فأكرم وفادتهما ومنح الصباح مكانا ساميا فى القصر ، فتحايل إلى أن صار حاجب الملك ، وأتّهم نظام الملك عند السلطان بتبديد أموال الدولة ، فلما ظهر كذبه وافتراؤه فرّ إلى آذربيجان فالشام فمصر ، ونال الحُظوة لدى « المستنصر بالله الفاطمى » . وكان الصباح شيعيا يكره السنّة ، فعاد إلى فارس ينادى بإمامه « نزار بن المستنصر » ويدعو له فى كرمان وطبرستان .

ولما تمكّن بالدسّ والخديعة من السيطرة على قلعة (المَوت : وكر العقاب) بقوهستان ، وطرد حاكمها « على بن المهدى » منها ... أخذ ينشر تعاليمه . ، ووطّد أركان طائفة الاسماعيلية وصار رئيسا لها ، وعمد إلى القتل والسلب ، وتمكنّ فى النهاية من اغتيال رفيق دراسته : « نظام الملك » .

أما الخيّام فقد طالب رفيق دراسته : « نظام الملك » بأن ييسر له سبيل الرزق فى نيسابور ليتفرّغ للعلم ، فخصّص له مئتى ألف مثقال من الذهب يتقاضاها من بيت مال نيسابور سنويا . وقد ظل يتقاضاها إلى أن اغتيل الوزير عام ٤٨٨ هـ [١] .

وسواء أصحّت القصّة أم ثبت تلفيقها .. فإن كتب التراجم تؤكّد أن صلة الخيّام بالوزير كانت صلة طيّبة ، وأنه كان موضع تكريمه وإجلاله . وأنه كان ينعم براتب سنوى ضخم يتقاضاه من بيت مال الدولة .

وإذا كان هذا ما لقيه فى عهد ألب أرسلان ، فإنه وجد فى عهد ملكشاه الكثير من التقدير أيضا ، فالوزير هو الوزير لم يتغير ، وملكشاه ينزله منزلة النديم ، ويشركه مع أعيان المنجّمين فى عمل الرصد له ، ويسلم إليه مالا كثيرا ليشترى به آلات الرصد .

---

(١) أنظر : جامع التواريخ ، الورقة ٢٩٢ ب ؛ تاريخ الأدب فى إيران (جـ ٢ - الترجمة العربية) ، ص ٢٣٦ - ٢٣٩ ، ٣١٤ ؛ النار تتكلم ، ص ١٩٤ - ١٩٧ ، الوصايا ، ص ٣٣ ، ٣٤ ؛ نظام الملك الطوسى للكنبورى ، ص ١٧٨ .

ولعلنا لاحظنا أن الخيّام كان فى كل ما ذكرناه يعمل بالتنجيم والفلك والحكمة ، ويتّصل بالعظماء ويرتبط بهم بصفته منجّما وفلكيّا وحكيما ، أو بصفته نديما .. وكلّ هذه الأمور تتعارض مع التصوّف .

وإن رجعنا إلى كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد) وجدنا « زكريا القزوينى » يحكى قصتين مرتبطتين بالخيّام ، إحداهما تبيّن اشتغاله بالحكمة ، ومفادها أن أحد الحكماء كان يقصد منزله كل يوم قبل طلوع الشمس ليقرأ عليه درساً فى الحكمة ، ثم ينصرف عنه فيذكره بالسوء عند الناس . فجمع الخيّام بعض الطبّالين ونافخى الأبواق وخبّأهم فى داره ، فلما جاء الفقيه على عادته نفخوا الأبواق وقرعوا الطبول ، وتجمّع أهل نيسابور ، وافتضح أمر العالم الذى يأخذ العلم ويذكر أستاذه بالسوء .

والقصّة الثانية مفادها أن الخيّام نزل ببعض الربط فاشتكى أهلها من كثرة الطير وما يصيبهم من إيذاء بسبب ذرقه ، فصنع لهم تمثالاً من الطين على هيئة الطير ، ووضعه فى مكان مكشوف فكفّ أذى الطير عنهم (١) .

وإذا كانت القصّة الأولى تدلّ على أنه كان مازال مشغولا عن التصوّف ، فإن الثانية تدلّ على اتّصاله بالصوفيّة وائتناسهم به وأنسهم إليه . ولعلّهُ كان فى هذه الفترة يعدّ نفسه للدخول فى زمرة الصوفيّة ، ويسمعهم أشعاره فينقلونها إلى طريقتهم ويتحاضرون بها فى مجالسهم . أما الفترة الأخيرة من حياته والتى عاصر فيها السلطان سنجر فإنها فترة تصوّفه الفعليّة . لقد بدأت كراهية سنجر للخيّام منذ كان (سنجر) صبيا ، فقد أصيب بمرض الجدرى ودخل الخيّام عليه (كما ورد فى نزهة الأرواح) وعرف ما به ، فلما خرج سأله الوزير : كيف رأيتَه وبأى شيء عالجته ؟ ، فقال الخيّام : الصبى مخوف . فرفع خادم حبشى ذلك إلى سنجر ، فأسرّها فى نفسه ، ولما برئ من دائه أضمر للخيّام بغضا كبيرا (٢) . وأصبح

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد « للقزوينى » ، ص ٣١٨ .

(٢) تتمّه صوان الحكمة للبيهقى ، ص ١١٤ ؛ وزارت در عهد سلاطين بزرك سلجوق ، ص ١٩٥ ، نقلا عن نزهة الأرواح وروضة الأفراح للشهرزورى .

فى عام ٥١١ هـ سلطانا على البلاد . وأفاق الخيّام فى عهد سنجر على الحقيقة المرّة .. لقد كبر وهرم ، وفقد صديقه القديم « نظام الملك » ومن كانوا يرعونه من الحكّام والأمراء ، وحُجِب عنه ما كان يصله سنوياً من مال الدولة ، ورأى المتقرّبين إلى السلطان ينعمون برضاه ويتقلّبون فى نعيمه وهم أقلّ منه عِلما وأضعف منه رأيا ، ورأى المتاجرين بالدين وأدعياء الزهد والصلاح ينالون الحظوة ويركبون الأعناق . ولمس زيف الحياة ، وأحس بابتعاده عن سنجر ، وضياع كل ما بناه من آمال وما حقّقه من شهرة ومجد .. فلجأ إلى العزلة أو مجالسة عدد قليل ممن يعانون ما يعانيه ويشعرون بما يقاسيه .. وسار فى طريق التصوّف .. فى طريق الله . لكنه لم يكفّ عن نظم رباعيّاته ، يبثّها همومه وأفكاره ، ولم ينس ملذّاته .. يستعين بها على النسيان ، وينشد السلوان ، وقد يجأر بالتذمّر والسخرية والشكوى ، وقد يسأل ربّه الرحمة والصفح والغفران .

وهذه بعض رباعيّات الخيّام ذات المسحة الصوفيّة ، وهى إلى جوار ما بها من عبارات العرفان تؤكّد أن الإنسان من روح الله وأن مردّه إلى أصله .. إلى خالقه .. حيث يفنى فيه ويتّحد به . أو تؤكّد أنّ حبّ الله أسمى ألوان الحب ، وأنّ ناره وجنّته لا يشغلان بال الصوفى صادق العشق . أو تحثّ على وجوب عدم إفشاء الأسرار والاغترار بزخارف الدنيا :

إن تفصل القطرة من بحرها   ففى مداه منتهى أمرها
تقاربت يارب ما بيننا   مسافة البعد على قدْرها[1]

—   دع كلّ قلب لم يمازجه الهوى
أحواه دير أم حواه مسجد
وبدفتر العشّاق من خطّ اسمه

(١) رباعيّات الخيّام لأحمد رامى .

لم يعنه خلد ونار توقد [١]

– كيف يحوم القلب يوما على
غيرك أو يبغي هوى مع هواك
إنّ دموعي لم تدع لحظة
عيني ترنو لحبيب سواك [٢]

– نهج التصوّف سربه – كي تبلغ الأربا
واذرف دم القلب المعنّى والها طربا
كن مثل من جابهوا كل الصعاب فإن
لم ترتضي ما ارتضوا لن تبلغ الأربا [٣]

– انا ما تركت كؤوسي خوف إملاق
ولا مخافة عار .... اتّقى الساق
شربتُ إذ كانت الأشواق تعصف لي
لما حللت بقلبي عفت أشواق [٤]

---

(١) هر دل كه در او مهر محبت نسرشت
خواه اهل سجاده باش خواه اهل كنشت
در دفتر عشق نام هر كس كه نوشت
آزاد ز دوزخست وفارغ ز بهشت

(٢) كَرد دكَرى جكَونه بـرواز كنم
باعشق توئى جكَونه آغاز كنم
يك لحظة سرشك ديده مى نكَذارد
تا جشم بروى دكَرى بازكنم

(٣) تاراه قلندرى نيواى نشود
رخساره بخون دل نشواى نشود
سوداجه يزى تاكه جو دلسوختكَان
ازاد بترك خود نكَو اى نشود

(٤) من مى نه از بهر تنكَدستى نخورم
يا از غم رسوائى ومستى نخورم

=

– عنوان ديوان المعاني عشقنا
والللبّ في بيت القصيد هو الهوى
إن كنت لا تدري عن العشق استمع
يا غافلا ، إن الحياة هي الهوى (١)

– زخارف الدنيا اساس الألم وطالب الدنيا نديم الندم (٢)
فكن خليّ البال من أمرها فكلّ ما فيها شقاء وهم
– من يحسب المال أحبّ المنى ويذرع الأرض يريد الغنى
يفارق الدنيا ولم يختبر في كدّه أحوال هذى الدنى

– يا عاقلاً لا تبد سراً إن ترم
وصلاً ، وغِب وتوارَ كالعنقاء
فالبحر في الصدفات يخفي سرّه
فيبدّلن درّاً بقطرة ماء (٣)

* * *

= من مى ز براى خوشدلى ميخورم
اكنون كه تو بر دلم نشستى نخورم
(١) سر دفتر عالم معانى عشق است
سر بيت قصيدهٔ جوانى عشق است
اى انكه خبر ندارى از عالم عشق
اين نكته بدان كه زندكانى عشق است
(٢) هذه الرباعيّة والتالية عليها من نظم أحمد رامى .
(٣) هر رازى كه در دل دانا باشد
بايد نهفته تر از عنقا باشد
كاندر صدف از نهفتكى كردد در
آن قطرهٔ كه راز دل دريا باشد

الخيام وفلسفات عصره ومذاهبه :

وهكذا تضع الرباعيات يدنا على معلومات تفيدنا فى معرفة حياة الخيام ومنحى تفكيره ، وتوضّح لنا علة اختياره لأمر دون آخر ، وتؤكد أنه ابن بيئته ، يواكب مجريات الأمور ، وتتغيّر تصرفاته ومفاهيمه بتغيرّ الأحداث حوله ، فتخرج أفكاره عاكسة ما يدور فى بيئته ، وتأتى رباعياته تسجيلا صادقا لما تقع عليه عيناه وتعيه أذناه .

وقد تتضارب بعض الأفكار فيها ، وهذا لسبب من اثنين ...

أولهما : بعض الرباعيات منحولة مدسوسة عليه .
ثانيهما : نظمت الرباعيات فى فترة زمنية طويلة .. كان الخيام فيها يتنقل بين المذاهب والآراء ، ويقرأ ويختلط ويسافر ، وينفعل بما يرى ويسمع ، ويسجل أحاسيسه وانطباعاته المتّسمة – فى الغالب – بعدم الاستقرار .

وربما عمد إلى التقيّة واتبع طريق الستر والتمويه ، أسوة بما كان يجرى فى عصره ، ورغبة فى السلامة ، غير أن هذا – بفرض حدوثه – كان فى أضيق نطاق .

ولعل أبرز ما كشفت عنه تلك المجموعة الكبيرة من الرباعيات التى تحدثنا حولها ... تأثر الخيام الكبير العميق بفلسفات عصره تأثرا نظريا ... دفعه إلى استعراضها ، وسلوك مسلك الفلاسفة اليونانيين فى الفلسفة الإلهية ، وإن لم يعده ذلك عن تسجيل توحيده وإيمانه بالله إيمانا قويا راسخا ، وإثبات اعتقاده بأن الله هو الخير المحض الذى لا يصدر عنه شر .

ولا يبدو عجيبا – فى ظل تأثره بفلسفات عصره – أن تَرِد فى بعض رباعياته أفكار تدفع القراء إلى تشبيهه بأبيقور ولوقره جيوس وغيرهما من الفلاسفة الماديين القائلين بأن غاية الحياة أن يسعى المرء إلى ما يولّد اللذة ، ويتجنّب ما يورث الألم ، ما دام الإحساس – فى رأيه – أساس حياته .

ولا يبدو عجيبا أيضا – فى ظل معرفتنا بظروف عصره – أن نرى له رباعيات عديدة يذم فيها الحياة ، ويفضل العدم ، أو يتمنى لو لم يخلقه الله أصلا .

ويؤكد « الصرّاف » صلة الخيام بفلسفات عصره ، وتأثيرها الشديد فى مزاجه وآرائه ، فيقول بعد حديثه عن « إخوان الصفا » [1] :

« أنا أجزم بأن الخيام قد أنعم النظر فى رسائلهم إنعاما دقيقا ، وهذا يبدو من لهجته فى رسالة كشف الحجاب عن ضرورة التضاد فى العالم ، وجوابه عما أورده أصحاب مذهب الجبر . ورأيه فى رسالته « الكون والتكليف » يكاد يكون لهجة أخوان الصفا نفسها فى رسائلهم . بل يكاد يصعب التفريق بينهما لتقارب الفكر واللهجة والتقرير وبسط الحجة » .

كما يؤكد الصرّاف تأثر الخيام بالعقائد الباطنية واعتناقه لها ومناصرتها وترويجها ، مستندا إلى ما جاء فى رباعياته متمشيا مع ما تضمنته رسالة الباطنى « عبيد الله بن الحسن القيروانى » . فقد أرسل عبيد الله رسالة إلى « سليمان ابن الحسن بن سعيد الجنابى » تضمّنت أشياء منها :

إباحة شرب الخمر وجميع الملذات . إنكار النبوات والمعجزات والوحى . القول بقدم العالم . إبطال القول فى المعاد والنشر من القبور . كون الجنة نعيم دائم . وصايا أخرى ترمى إلى هدم الشرائع وتثبيت دعائم الإلحاد .

ولما كانت هذه مبادىء الباطنية ، ولما كان المدقق فى رباعيات الخيام يجدها – ما عدا انكار النبوات والمعجزات والوحى .. التى ربما يكون الخيام قد تجنبها خوفا على حياته – فإن الصراف يقطع بأنه كان باطنيا . كما يرى أنه قال ببقية الآراء الباطنية دون خوف لأنها مما يُحتَمل تأويله على الطريقة الصوفية [2] .

كما افترض الصراف – دون دليل – أن الخيام قد اجتمع بالحسن الصباح

---

(١) عمر الخيام الحكيم الرياضى الفلكى النيسابورى : ط ٣ ، ص ١٠٧ ، ١٠٨

(٢) عمر الخيام الحكيم الرياضى ، ط ٣ ، ص ١٠٩ ، ١١٠

بعد عودته من مصر ، وانخراطه فى سلك المحفل السرى الباطنى . وافترض أنه تأثر بحديثه معه ، واعتنق مذهبه .. وهذا أمر ممكن الحدوث ، وإن أضعفه أن الخيام كان سنيا ، شهد له نظام الملك شهادة طيبة ، ولم ينسبه أحد معاصريه إلى هذه الفِرقة .

لكن الخطأ كل الخطأ هو أن يؤكد الصراف أن إبطال القول فى المعاد والنشر ، وإنكار الجنه والنار ... أمران يُقدم عليهما الصوفية استنادا إلى التأويل . وإذا كان شعراء الصوفية يدلون الناس على وجود التأويل ، ويصرحون بأن أشعارهم مؤولة محمولة على غير ظواهرها . فإن الخيام لم يدل ولم يصرح .. بل جاءت أكثر رباعياته سادّه باب التأويل فى وجوه المحاولين للتأويل (١) .

وقد قال الخيام فى رباعياته بقِدَم المادة وخلودها ، وبأنه لا بداية للدنيا ولا نهاية . والأجسام متألفة من مادة واحدة وأشكال وصور تختلف عليها . والقول بقِدَم المادة قول بقِدَم الزمان .

وقال بأن كل شىء مصيره الفناء ولا خلود لأحد . وهكذا جاء رأيه فى المادة والزمان مطابقا لرأى الفلاسفة الدهريين ؛ فبعض علمائنا المسلمين يكفّرون من يقول بقِدَم العالم ، ويصمونه بالعقيدة الدهرية . وهم يستدلون على واجب الوجود بكون العالم حادثا غير قديم . فالله أزلى ليس له ابتداء .. أوجد العالم من العدم ؛ فالعالم لذلك حادث . ويرى البعض أن القول بقدمه لا يناقض وجود الله لأنه واجب بذاته .

وكما يتضح من رباعيات الخيام .. فقد سلك طريق الفلاسفة اليونانيين فى الفلسفة الإلهية ، وأبدى اعتقاده فى إله واحد هو الخير المحض الذى لا يصدر منه الشر ، وأقرّ برحمته وغفرانه .

وينعكس فى رباعيات الخيام الشك والقلق ، وفرط التألم والاضطراب ، ويتهم فيها العقل بالعجز عن إدراك سر الحياة ... مما يؤكد تأثره بفلسفة اللاأدرية

---

(١) كشف اللثام ، ص ١٢٧ .

القائمة على الاعتراف بعجز العقل الإنسانى والعلم اللدنى عن إدراك المجردات وفهم جوهرها وخواصها .

وتطل من رباعياته روح التشاؤم ونظرات القنوط ، وكراهة الدنيا ، وتمنى العدم والفناء ، وحب الحياة والبقاء . وهنا يبدو التناقض الذى يفسره البعض بقولهم : ما تمنّى الخيام العدم والفناء إلا لأنه كان يخافهما .

والتشاؤم مذهب قديم عرفه البوذيون وابتلى به الكثير من الفلاسفة والمفكرين . ويعتقد من يعتنقه من المتشائمين أن كل شىء فى الدنيا - بمقياس العقل - سىء وردىء ، وأن حجم الشر يفوق حجم الخير .

ولم يكن الخيام متشائما بل كان معتقداً فى فلسفة التشاؤم بسبب لا أدريته وشكوكه وآلامه ، وبسبب ما كان يعيشه من تفكّرات عميقة وتأملات طويلة فى شئون غامضة وأمور مبهمة يعجز العقل البشرى عن الوصول إلى حل معضلاتها .

وقد رأينا كيف حكم أحدهم بأن الخيام - بناء على إحدى رباعياته - قد اعتنق ضمن ما اعتنق مذهبا قديما عرفه الهنود وعرب الجاهلية وهذا لا يتمشى مع إنكاره الحشر وقوله بالعدم .

ويثبت من رباعيات الخيام إنكاره للبعث وإيمانه بأن فكرة المعاد محض خيال . والمعروف أن أرباب المذهب المادى ينكرون البعث بتاتا ، وأن الفلسفة الأفلاطونية تنكر حشر الأجسام وبعث الأرواح ، وتؤمن بخلود الروح وانتقالها بعد الموت إلى عالم عقلى . وتظهر الرباعيات اعتقاده فى وجود الروح .. لكنها لا تؤكد اعتقاده فى خلودها . وتظهر تكريمه للجسد تأثرا منه بالفلسفة الانقلابية .

وتؤكد رباعيات الخيام أنه جبرى بحت [1] ... فهو ينفى عن العبد الفعل

---

(١) أثبت الخيام جبريته صراحة فى قوله :

ولعل الجبرى أقرب إلى الحق فى بادئ النظر وظاهر الحال من غير أن يتلجلج فى هذيانه ، ويتغلغل فى خرافاته .. فإنه حينئذ يبعد عن الحق .

عمر الخيام الحكيم الرياضى ، ط ٣ ، ص ١٢٠ .

والقدرة على الفعل ويثبت القدر . ويرى أن الله يخلق الفعل ويخلق فى الإنسان مقدرة متعلقة بذلك الفعل ، ولا تأثير لتلك المقدرة فى الفعل .. شأنه شأن الجبرية [١] .

كما تؤكد رباعياته أنه معتزلى يؤمن بعدم رؤية الله بالعين ، وهذا يتضح من معنى رباعيته التالية :

تخفى عن الناس سنا طلعتك
وكل ما فى الكون من صنعتك
فأنت مجلاه ، وأنت الذى ..
ترى بديع الصنع فى آيتك

* * *

(١) من بين الجبرية - وعلى رأسهم جهم بن صفوان - من يثبت للعبد قدرة ذات أثر فى الفعل ، ويقول إن الله مالك فى خلقه يفعل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل ... فلو أدخل الخلائق أجمعين الجنه أو النار فهو فى الحالين عادل .

مخطوطات الرباعيات وعددها :

ونظرا لأهمية الرباعيات الخيامية ، قام العديدون بالحديث عنها وعن صاحبها ، وكثرت ترجمتها إلى معظم لغات العالم . فعقد « مينورسكى » فصلا طويلا بالفرنسية أورد فيه سيرة الخيام ، وتحدث عنه عالما وشاعرا . وقال إن عماد الدين الأصفهانى قد سلكه - فى خريدة القصر - بين شعراء خراسان ، ونقل أربعة أبيات عربية من نظمه ، وأن نجم الدين الرازى قد نقل له رباعيتين فارسيتين ، بينما دوَّن الشهرزورى له ثلاث مقطوعات عربية ...

وحين تُرجم كتابه إلى الفارسية عام ١٠١١ هـ = ١٦٠٢ م استبدلت المقطوعات العربية برباعيتين فارسيتين . كما سجل له صاحب تاريخ كَزيده رباعية واحدة ، وأثبت له صاحب مؤنس الأحرار ١٣ رباعية .

ويتضمن المخطوط الذى نشره ف . روزن ٣٢٩ رباعية . ويتضمن المخطوط الموجود بالأستانة - والذى يرجع تاريخه إلى عام ٨٦١ هـ - ١٣١ رباعية . ويتضمن المخطوط الموجود بالأستانة أيضا - ويرجع تاريخه إلى عام ٨٦٥ هـ - ٣١٥ رباعية . أما المخطوط الموجود فى أكسفورد - والذى يرجع تاريخه إلى عام ٨٦٥ هـ أيضا - فإنه يتضمن ١٥٨ رباعية .

وإذا كنا قد لاحظنا فى المخطوطات المذكورة تذبذب العدد فإنا نجده (عدد الرباعيات) يأخذ فى الازدياد باضطراد فى المخطوطات التالية :

١) مخطوط فينا - بتاريخ ٩٥٧ هـ - يتضمن ٤٨٢ رباعية .

٢) مخطوط بانكبور - بتاريخ ٩٦١ هـ - يتضمن ٦٠٤ رباعية .

٣) المجموعة المطبوعة فى لكنو عام ١٨٩٤ .. تتضمن ٧٧٠ رباعية .

٤) عدد الرباعيات التى جمعتها « جيسى كاديل » من المصادر التى توفرت لها ١٢٠٠ رباعية .

وقد نشر ناثان هسكل دول عددا من رباعيات الخيام فى بوسطن ولندن سنة ١٨٩٨ م ، وذلك فى الملحق التاسع والأربعين .. ويشتمل هذا الملحق على

قائمة طويلة من الطبعات تتباين فيها الأعداد .

وحول اختلاف العدد يقول ادوارد هرن :

١) توجد فى مكتبة باريس نسخة خطية ترجع إلى عام ٩٣٧ هـ = ١٥٣٠ م ، بها ٧٦ رباعية .

٢) توجد فى مكتبة بانكيبور نسخة خطية ، بها ٦٠٦ رباعية .

٣) توجد نسخة مطبوعة على الحجر فى لكنو ، ترجع إلى عام ١٣١٢ هـ = ١٨٩٤ م . بها أكثر من ٧٠٠ رباعية .

٤) توجد فى ترجمة جون باين المنظومة ٨٤٠ رباعية .

٥) توجد فى النسخة التى جمعتها الآنسة جيسى كادل ١٢٠٠ رباعية .

ويخمن مجموع ما يعزى من الرباعيات للخيام فى مختلف النسخ الرائجة بنحو خمسة آلاف رباعية . وبعض الرباعيات يجول فى دواوين شعراء الفرس ، وربما تكون للخيام ، وبعض رباعياتهم فى ديوانه .. وتسمى (الرباعيات الجائلة) . وهناك من الرباعيات ما يطلق عليها (الرباعيات الموسومة) أى التى يرد فيها اسم الخيام . وقد جمع كريستنسن ١٢ رباعية من هذا اللون قد تكون غير دخيلة .. وقد نفى فردريك روزن ستا منها [١] .

وقد جمع فروغى فى كتابه [٢] ٧٤ رباعية نقلها عن ثمان روايات مختلفة قديمة العهد ، منها ما ذكره رواتها من باب الاستشهاد ، ومعظمها من باب الاختيار والاستحسان . وإذا استُبعِد منها ثمان رباعيات تكرر ذكرها فى بعض الروايات .. بقيت لنا ست وستون رواها قوم .. كلهم أقدم عهدا من أقدم نسخة بين أيدينا من مجموعات الرباعيات ؛ فهى لذلك أحق بالاطمئنان إلى صحتها .

---

(١) فردريك روزن : مقدمة رباعيات حكيم عمر خيام – مطبعة كاويانى ، برلين ١٣٠٤ ش = ١٩٢٥ م

(٢) محمد على فروغى : رباعيات حكيم خيام نيسابورى - المقدمة – طهران ١٣٢١ ش = ١٩٤٢ .

ويرى فروغى ومن يسايرونه أنها تصلح مثالا يقاس عليه سائر الرباعيات ... فما كان بهذه الرباعيات شبيها اعتُبِر للخيام .. ولذا أُطلِق عليها : (الرباعيات المعتمدة) . والرباعيات المذكورة بسيطة للغاية ، عارية من التزويق ، بريئة من التصنّع والتكلّف ، مجرّدة من الأخيلة الشعرية ، حتى يمكن القول بأنها ليس فيها من الشعر غير الوزن والقافية .. لكنها فصيحة بليغة صحيحة موجزة محكمة ، كل ألفاظها قالب للمعنى ، لانقص فيها ولا زيادة ولا عيب ولا شائبة ، منسقة الألفاظ ، لطيفة المعانى ، فيها دقة وإبداع يسمو على كل تخيل واصطناع ، فهى جد لا هزل فيه ، وكلامها ناعم لا وخزفيه .

ويرى غيرهم أن هذه الرباعيات لا تصلح مقياسا دقيقا لرباعيات الخيام ، لأنه كأى شاعر له نزوات وبدوات تجعله ينظم فيما يُظَن أنه بعيد عنه . ولا سند فى القياس للتمييز بين صحيح الرباعيات من فاسدها سوى الحدس والذوق . هذا ، وقد اكتفى فروغى بنشر ١٧٨ رباعية فقط بما فيها المعتمدة .. رغبة منه فى جعلها أقرب إلى الصحة .

ويرى الأديب التركى رضا توفق أن رباعيات الخيام الأصيلة لا تتجاوز المائة . ولذا لا يبدو غريبا أن يختلف عدد الرباعيات التى يترجمها كل من يتصدى لهذا العمل .... إيمانا منه بأن ما يترجمه هو فعلا للخيام ، أو عجزاً منه عن تمييز رباعياته عما عداها ، أو إقراراً منه بأنه لا ضرورة هناك لتنصيب نفسه حكما فى هذا الشأن (١) .

وكما اختلف عدد الرباعيات بتعدد المخطوطات ، تعددت النسخ المطبوعة ، واختلف عدد الرباعيات فى كل واحدة منها عن عددها فى الأخرى . ويبلغ عدد النسخ المطبوعة ست نسخ :

---

(١) عبد الحق فاضل : ثورة الخيام – القاهرة ١٩٥١ م (ص ٢٩ – ٤١) .

١) نسخة فى كلكتا بالهند .

٢) نسخة فى بمباى ، يرجع تاريخها إلى عام ١٢٩٧ هـ .

٣) نسخة حسين دانش .

٤) نسخة فروغى (ذكاء الملك) .

٥) نسخة د . فردريك روزن .

ويرى الصرّاف فى كتابه (ص ٣٢١) أن الثلاث نسخ الأخيرة هى أصح النسخ .

٦) نسخة رستم عليف ومحمد نورى عثمانوف . طبعت فى موسكو تحت إشراف يوكنى برتلس ، عام ١٩٥٩ م . وهى تحوى ٢٩٣ رباعية . وقد نشر أصل الرباعيات فيها أخذاً عن نسخة مخطوطة لم يذكر اسم كاتبها ، ولم يذكر تاريخها . ويلاحظ أن هناك عديدا من الأخطاء فى نص الرباعيات وقوافيها .

* * *

الفصل الثانى

الدارِسُون والمترجِمون

الترجمات والدراسات :

سبق الأوربيون الأسيويين فى معرفة قدر الخيام ، وقاموا بدراسات واسعة حوله وحول رباعياته . وأول من ذكر رباعيات الخيام فى كتاب أوروبى ، وأول من عرف الخيام من الفرنجة هو ثوماس – هايد . فقد قام فى عام ١٧٠٠ م بترجمة رباعية واحدة للخيام إلى اللاتينية ، وتحدث حول شعره فى مؤلفه الذى نشره فى العام المذكور .

ثم نشر دوبناى عدة رباعيات للخيام فى كتابه « قواعد اللغة الفارسية » الذى طبعه فى فينا عام ١٨٠٤ م .

وفى عام ١٨١٨ م ترجم فون هامر برغستيل النمساوى خمسا وعشرين رباعية ، نشرها فى كتابه « تاريخ الدولة العثمانية » .

وقبل عام ١٨٤٤ م ترجم « السيركَور اوزلى » رباعيتين ، بينما كان يعمل سفيرا فى طهران .

وفى عام ١٨٥٧ م ترجم المستشرق جرسن دوتاسى عشر رباعيات .

وفى عام ١٨٥٩ م – ظهرت فى لندن الطبعة الأولى من ترجمة فيتزجرالد المنظومة الشهيرة للرباعيات ، متضمنة أكثر من ٧٠ رباعية .

وفى عام ١٨٦٧ م ترجم نيقولا الفرنسى إلى لغته نثراً كل ما فى نسخة بمباى الحجرية ، وعدد رباعياتها ٤٦٤ رباعية ، وذكر رأيه فى الخيام .

وبظهور الطبعة الثانية من ترجمة فيتزجرالد عام ١٨٦٨ م فتن الأوربيون والأمريكان بشعر الخيام إلى حد كبير .

وقد كان نيقولا الفرنسى سببا فى ظهور هذه الطبعة الثانية . فقد

أخرج الترجمة النثرية للرباعيات عام ١٨٦٧ م ، وبها ٤٦٤ رباعية نقلها عن نسخة طهران الحجرية .. المطبوعة عام ١٨٦١ كما ذكرنا ، فتشجع فيتزجرالد وأصدر الطبعة الثانية عام ١٨٦٨ م وبها ١٠١ رباعية ، فظهرت قيمتها بصورة أكبر بكثير . وفى عام ١٨٨٣ م ترجم ونفليد إلى الإنجليزية ٥٠٨ رباعية .

وفى عام ١٨٩٨ م نشر إدوارد هيرون ألن الإنجليزى صورة شمسية لمخطوط بودليان ، وترجم ما فى المخطوط نثراً فى كتابٍ طبعه عام ١٨٩٨ م .

وفى عام ١٨٩٩ م نشر هيرون كتابا بعنوان : « المقابلة بين ترجمة فيتزجرالد لرباعيات الخيام مع أصولها الفارسية » .

ومما جاء فى الكتاب (ص ١١ ، ١٢) :

« نجد بين الرباعيات التى ترجمها جرالد تسعا وأربعين رباعية ترجمها بأمانة أو حاكاها بإخلاص . ويوجد الأصل الفارسى لكل رباعية من هذه الرباعيات فى مخطوطة اوسلى أو مخطوطة كلكتا أو فيهما معا . وفى هذه الترجمة توجد أربعة وأربعون رباعية أخرى ، يمكن إرجاع كل منها إلى أكثر من رباعية واحدة فارسية ، ويمكن أن نسميها بالرباعيات المركّبة .

وهناك رباعيتان أوحى بهما إلى فيتزجرالد بعض الرباعيات التى لا توجد إلا فى نسخة نيكولاس .

كما أنه قد صاغ رباعيتين جعلهما ترديدا للروح العامة التى توحى بها الرباعيات .. وفى الترجمة كذلك رباعيتان يمكن إرجاعهما إلى تأثير فريد الدين العطار وكتابه « منطق الطير » .

وهناك رباعيتان من إنشاء الخيام أصلا ، ولكنهما تأثر فى الترجمة بغزليات حافظ الشيرازى . وكانت هناك ثلاث رباعيات تضمنتها الطبعتان الأولى والثانية من الترجمة ، وقد حذفها فيتزجرالد بعد ذلك ، ولم أجد لها رغم البحث الدقيق أصلا باللغة الفارسية . ولاشك أنه تأثر فيها بشعراء آخرين ليس يعنينا فى هذه

المناسبة تحقيق هويتهم أو معرفة شخصيتهم » .

وقد ظهرت عدة ترجمات للرباعيات إلى الإنجليزية لكنها لا تضاهى ترجمة فيتزجرالد شهرة ومكانة ، منها : ترجمة ونفلد ، ترجمة هالن ، ترجمة هرسن ، ترجمة ريتشار لجلين .

كما ترجمت إلى الفرنسية على يد ت . هنرى .

أما المستشرق الإنجليزى إدوارد جرنفيل براون فقد كتب بحثا مفيدا فى سيرة الخيام وفلسفته ، نشره فى كتابه : « تاريخ الأدب فى إيران » ، الجزء الثانى . وكذلك فعل جاكسن الأميركى فى أحد مؤلفاته ، والمستشرق الإنجليزى برثلمى ديربلو فى كتابه « المكتبة الشرقية » .

وكما تُرجمت الرباعيات إلى الإنجليزى والفرنسية والألمانية والروسية ... تُرجمت إلى الهولندية .

وحتى عام ١٨٩٦ م كانت مصادر الأبحاث محدودة . وظل الأمر على هذا الحال إلى أن جاء عام ١٨٩٧ م ، فبدأت دراسة النصوص على ضوء النقد الحديث بمقالة دبجها جوكوفسكى الروسى حول الخيام ، وأورد فيها عددا من النصوص القديمة المجهولة التى تفيد فى ترجمة الشاعر . وبرهن على أن ٨٢ رباعية من بين الرباعيات المنسوبة للخيام ، والتى أوردها نيقولا فى طبعته .. قد تكررت فى دواوين شعراء آخرين ، بل إن منها ما تكرر فى أكثر من ديوان .

وفى عام ١٨٩٨ م ألف الأديب الإنجليزى نثان هسكل دول كتابا استعرض تراجم الغربيين للرباعيات إلى شتى اللغات ، وترجم حياة الخيام وذكر فلسفته . وقد طبع الكتاب فى لندن فى مجلدين .

وفى عام ١٩٠٤ م – وتحت عنوان « مباحث فى رباعيات عمر الخيام » – أوضح كريستنسن ما طرأ من زيادات على مخطوطات الرباعيات المنسوبة للخيام ، وسجل شكوكه حولها ، حتى لقد شملت هذه الشكوك الرباعيات

الواردة بأقدم مخطوط ينسب للخيام ، نظراً لأنه بعيد زمنيا عن عهد الشاعر ، كما استعرض الكاتب أبحاث المتأخرين وترجماتهم .

* * *

والقارىء للترجمات والدراسات السابق ذكرها يستنتج بسهولة أن المستشرق فون هامر النمساوى قد اهتم بإثبات أن عمر الخيام قد نظم رباعيات تخالف الدين الإسلامى وتعاليمه وتقاليده المذهبية . وأن نيقولاس الفرنسى – بناء على ترجمته لعدد من الرباعيات المشتملة على مبادىء التصوف – يرى أن الخيام صوفى يعشق عشقا إلهيا ، ويرى أنه لا يتحدث عن الخمر الحقيقة ولا يسكر بها ، وإنما هو يسكر بالخمرة المقدسة ، وأن هذه النقطة قد أثارت الكثير من الجدل عند من تصدوا لها . كما يستنتج بسهولة أن الكثير من الدارسين يشكّون فى نسبة الكثير من الرباعيات إلى الخيام ، وأنه لا يمكن لأحدهم أن يقطع بنسبة رباعية له دون غيره . وأن ترجمة الشاعر الإنجليزى فيتزجرالد (ولد فى عام ١٨٠٩ ، وتوفى عام ١٨٨٣ م) [١] هى أفضل الترجمات الأجنبية الغربية . وقد تسبب تصرّفه فى الترجمة فى مجيئها غير مطابقة للأصل فى الإفادة ، وغير محققة تماما لما هدف إليه الخيام .. بحيث يمكن أن يقال إنها – على جمالها – بعيده كل البعد عن الأصل الفارسى . أو يقال إنها ترجمة حرة تماما لا تتبع الخيام ، ولا يهمها حفظ أغراضه ومراميه .. على نحو يجعل معرفة المعنى الأصلى فى أغلب الرباعيات صعب للغاية .

ولعل فيتزجرالد قد توقّع ما سيوجّه إليه من نقد فى هذه النقطة ؛ إذ نراه يكتب لأستاذه كويل – أستاذ العبرية والسنسكريتية ، الذى يرجع إليه كل الفضل فى ظهور تلك الترجمة بالإنجليزية – قائلا : إن ترجمتى – رغم كونها

---

(١) دائرة معارف الأدب الإنجليزى ، طبع لندن ، ص ٨٩٧ .

لا تطابق ألفاظ الأصل كثيرا - سوف تحظى باهتمامكم - إلى حدٍ ما - من حيث الشكل والجزئيات . لقد غيّرتُ كثيرا فى هذه الرباعيات ، ومزجت بعضها بالبعض ، وأخشى أن يكون قسطا من بساطة المعنى وسهولة الألفاظ - مما يعدّ من أكبر مزايا عمر الخيام - قد ضاع .

ويرى القزوينى أن ترجمة فيتزجرالد تعادل تقريبا الأصل الفارسى .. بفصاحتها اللفظية وبلاغتها المعنوية . ويعترض طرازى على هذا الرأى ، ويراه مخالفا لما ذكره فيتزجرالد . ولما كان القزوينى يتحدث عن الفصاحة والبلاغة عند الشاعرين ، بينما يركز فيتزجرالد على المعنى واللفظ فإنى أرى أن القزوينى لم يجانبه الصواب .

وممن امتدح هذه الترجمة « شارلى فروللو » مترجم الرباعيات للفرنسية ، ومما قاله فى هذا الشأن : « مِن الجِذع البالى الذى ينام فى ظلال نيسابور انفصل فرع ونما فى الغرب فإذا هو بعث لزهور فارس وبعث لعطرها الجميل » ، فهو هنا يتحدث عن الخيام وفيتزجرالد ، ويرى الأخير خياميا فى كل شيء .. ولهذا يدين له الجميع باكتشاف الخيام .

ويجمع الكثيرون على أن ترجمة فيتزجرالد هى لشاعر له فلسفته ونظرته .. شاعر ساخر متبرم متهتك تحس قوته وحياته فى لفتاته وحركاته . ويرى البعض أن فيتزجرالد أعطى الخيام من روحه دون فلسفته ، أو أنه نفخ فى فلسفة الخيام فدبت فيها الحياة . فالخيام شاعر بروح فيتزجرالد ، وإليه يدين بما لَهُ من ذيوع

---

(١) انظر : مقدمة مجتبى مينوى على رسالة نوروز نامه للحكيم عمر الخيام النيسابورى .

هذا ، وأول من عثر على أقدم نسخة خطية للرباعيات هو الأستاذ كويل ، وذلك فى مكتبة بودليان باكسفورد ، فنشر شيئا عنها وعن الخيام فى مجلة كلكتا عام ١٨٥٨ م . وعرض النسخة على صديقه فيتزجرالد فدرسها ، وأخرج أول ترجمة عام ١٨٥٩ م ، وبها ٧٥ رباعية فقط ، لم تلق قبولا أوّل الأمر ، ثم نوّه بذكرها الشاعر روزتى فأقبل عليها رجال الأدب .

شهرة . وبناء عليه .. فإن سر خمود ذكر الخيام فى الشرق مدة ثمانية قرون هو الخيام نفسه ، وفضل ذيوع شهرته لفتزجرالد [(١)] .

وقد أدى نجاح الترجمة إلى طبعها ثلاث مرات ، وإشادة الكتّاب بها . والآن يوجد فى مكتبة المتحف البريطانى وحدها مائة وثلاثة وخمسون كتابا تَشْمَلُ طبعات مختلفة لترجمة فيتزجرالد . كما شجعت تلك الترجمة عددا كبيرا من الأدباء على ترجمة الرباعيات نثراً وشعراً ، وظهر العديد من الدراسات النثرية والشعرية حول هذه الترجمة الرائدة ، وكثرت الكتابات حول الخيام ورباعياته . ويلاحظ أن بعض المترجمين قد ترجموا عن ترجمة فيتزجرالد ، فبعدوا عن الأصل بدورهم والتزموا الحرية التامة .

ونتيجة لتأليف البعض على سبك الخيام وطريقته فى لغتهم هم – متأثرين بترجمة فيتزجرالد – نشأ لون من الأدب أطلق عليه فى الغرب « الأدبيات العُمَرِيّة » ، وهى أدبيات طريفة ذات شكل جديد .

ونتيجة للخلاف فى تصوّر معانى رباعيات الخيام ، ظهرت على يد الغربيين رسوم خيالية ملأت صفحات الترجمات . ويعتبر جلبرت جيمس أول واضعيها المجيدين ، كما يعتبر ادموند دولاك أبرع رساميها .

ويبدو الخيام – من خلال ما ترجم من رباعيات نسبت إليه – شاعراً عذب اللفظ خلاب العبارة جيد السبك بديع الأسلوب ، داعياً – فى نظر الغالبية – إلى الاستخفاف بتعاليم الإسلام وشعائره ومثله وقيمه ، ومحرضاً على الإلحاد والزندقة وشرب الخمر ، وسماع الموسيقى والغناء ، ومصاحبة الجميلات ، وحاثاً على الخمول والكسل والبطالة ، والدعة والسرور ، واغتنام الفرصة لبلوغهما لا سيما باحتساء الخمر . فهو فى النهاية ممن يدعون إلى تحطيم المثل العليا ، وإلى الانحطاط الخلقى .

---

(١) مجلة أبولو – أعلام الشعر – عمر الخيام – سبتمبر ١٩٣٤ م ، ص ٤٦ – ٥٢ .

والحق أن جرالد هو الرائد فى هذا المضمار ، فقد كوّن فكرة عن الخيام – صائبة أو خاطئة – تعتمد على حبه الخمر والنساء ، وعلى ميله للتشاؤم والمزاح والأنس والطرب ، وعلى إيمانه بقرب وقوع الموت ، وتفضيله العيش فى يومه على العيش فى ماضيه ومستقبله ، ثم نظم رباعياته على ضوء هذه الفكرة فجاءت على النحو الذى طالعه القراء فأعجبوا به ، ورآه المترجمون فقلّدوه .

وسواء أصحّت نظرة واضعى فلسفة الخيام وتطابقت مع أهداف الخيام أم لم تصح ، فإن فلسفة الخيام – كما بلوروها – قد كسبت قيمة عظيمة فى أوروبا ، وباتت شهرته ناجمة عن انتشار ترجمات رباعياته لا عن طريق مؤلفاته العلمية . وصار عشاق فلسفته يزينون مكاتبهم ومحافلهم وجيوبهم بنسخ من الرباعيات . وظهرت فى الأسواق أوراق (كارت بوستال) على كل ورقة رباعية يصاحبها رسم يناسب مفهومها ومغزاها . وأُسس ناد فى لندن عام ١٨٩٢ م ، يُطلق عليه : « عمر خيام كلوب » . وقد عُرف مؤسسوه من الأدباء والصحفيين الإنجليز – فيما بعد – بالخياميين . وفى العام التالى لتأسيسه (٧ أكتوبر عام ١٨٩٣ م) وفى حفل مهيب .. زُرعت شجرتا ورد على قبر فيتزجرالد أُخِذَتا من بذور اقتطفها ويليام سيميسن – مندوب جريدة ايلو سترِيند لندن نيوز – من شجرة الورد التى كانت على قبر الخيام بنيسابور ، وأرسلها من إيران – فى عهد القاجاريين – إلى أصدقائه الإنجليز بلندن ، ورجاهم أن يزرعوها فى إنجلترا على قبر فيتزجرالد لأنها مما كان يحب الخيام من ورود ، ويروقه منظرها وقت تفكيره وإنشاء شِعره . فقاموا بزرعها ، ونقشوا ذلك على لوح القبر ، ونظموا العديد من المنظومات ألقوها فى الحفل ، وأنشدوا العديد مما ترجمه فيتزجرالد للخيام .

وفى عام ١٨٩٥ م – تعظيماً للخيام – أقيم أكثر من احتفال ، كما أقيم احتفال كبير فى الخامس والعشرين من مارس عام ١٨٩٧ م لنفس الغرض .

ويمكن للقارئ أن يستنتج أن من أشهر دارسى الرباعيات – الذين عنوا

بردّها إلى أصولها – الروسى جوكوفسكى الذى قال إن ٨٢ رباعية مدسوسة ، ونسبها إلى ٣٩ شاعرا فارسيا .. من أشهرهم الأنصارى وأبى سعيد والأنورى والعسجدى والعطار والفردوسى وجلال الدين الرومى ونصير الدين الطوسى وحافظ الشيرازى ، وأنه بمقاله قد وضع حدا للمقالات الزائفة التى نشرت قبل تاريخ صدوره .

وقد حظى مقاله : (عمر الخيام والرباعيات الجائلة) باهتمام النقاد والباحثين ، فترجمه د . ا . دنيسون روس إلى الإنجليزية ، ولخص المقال تحت عنوان : (عمر الخيام وعصره) ، وجعله مقدمة لترجمة فيتزجرالد – طبعة مثوين . وأضاف إليها شرحا وافيا كتبته الباحثة باتسون سنة ١٩٠٠ .

وقد ألحق روس بترجمته لمقال جوكوفسكى جدولا قابَلَ فيه بين الرباعيات وفق ترتيبها فى نسخه هوينفلد ونسخة نيكولاس ونسخة المكتبة البودلية .

وخلاصة البحث أنه يمكن القطع بأن الخيام قد كتب الكثير من الرباعيات ، ولكنه من المتعذّر – إلا نادراً – أن يجزم بكتابته لرباعية بعينها من الرباعيات الكثيرة التى تنسب إليه .

ويمكنه أن يستنتج أن كريستنسن الدانيمركى قد قابل بين النسخ المخطوطة والمطبوعة ، وأنه أثبت فى كتابه ما ورد فى أكثر النسخ ؛ فتمكن من جمع مائة وعشرين رباعية قطع بصحة نسبتها للخيام . على أن كل الباحثين حاروا فى تحديد هذه الرباعيات ... فإن عددها يتراوح بين ٧٦ رباعية (فى نسخة خطية بباريس ، تاريخها ٩٢٧ هـ) ، وبين ٨٠٠ رباعية (فى مخطوط بجامعة كمبريدج) .

* * *

وقد تُرجمت رباعيّات الخيّام إلى العبريّة أيضا . وأول من تصدى لهذا الأمر « عزرا حداد » ، وتلاه « سليم إسحق » المحامى (ت ١٩٤٢ م) .

كما تمّت ترجمتها إلى الأردوية أكثر من مرّة ، اعتمادا على رباعيات فارسية

أو إنجليزية .

وكثر مترجموها من الأتراك ، وكان المعلم فيضى أول مترجم لها . وقد قام بترجمة مائة رباعية قبل عام ١٣٢٢ هـ . ثم تبعه مستجابى زاده عصمت ، ومن بعده الدكتور عبد الله جودت الذى اشتهرت ترجمته أكثر من سواها .

وترجَمَ حسين دانش الكثير من الرباعيات مستعينا بالعديد من الألفاظ الفارسية ، أما الشاعر رفعت أحمد فقد وُفِّق فى ترجمة ٤٠ رباعية .

ووُفِّق حسين رفعت فى ترجمة ١٥٨ رباعية ، وقد أجاد الترجمة وحافظ على روعة الأصل ... لكن النقاد أخذوا عليه استعانته بالكثير من الألفاظ الفارسية .

وقد اشترك رضا توفيق وحسين دانش (الأديب الإيرانى) فى وضع كتاب بالتركية فى رباعيات الخيام ، يعتبر من أنفس الكتب التركية فى هذا الغرض . وقد اعتمدا فيه صحة نسبة عدد من الرباعيات الخليعة إلى الخيام ، وعزواه بالصور الخيالية الخليعة .

كما نشر حافظ عبد القادر – الأديب التركى الأزميرى – رسالة صغيرة اشتملت على سيرة الخيام .

* * *

وكان للعرب أيضا دورهم فى ترجمة الرباعيات ، ووضع الدراسات حولها وإدراج سيرة صاحبها .

وأول من قام بتعريبها نظما الشاعر اللبنانى وديع البستانى ، وقد اعتمد على ترجمة فيتزجرالد الإنجليزية نتيجة جهله بالفارسية ، وتأثر بما قرأ حول الخيام وأفكاره فى مكتبة المتحف البريطانى .. فجاءت ترجمته بعيدة كثيرا عن الأصل ، لا تمثل من الرباعيات إلا قشورها البرّاقة وأصدافها اللامعة ، وإن كان يغلب عليها الرقة والحساسية والجمال ، ولما كان قد وضع فى صفحات كتابه بعض رسوم

جلبرت جيمس فإن عمله بات أقرب للغربيين . وقد أخرج البستانى الرباعيات الأربعين التى ترجمها فى قوالب شعرية من نتاج قريحته ، و لم يلتزم فيها بنظام الأربع شطرات ، ولا بالوزن الخاص بالرباعيات فى أصلها الفارسى . وقد طبع كتابه فى عام ١٩١٢ م ، فلفت أنظار العرب إلى رباعيات الخيام . وهذه نماذج من نظمه على نظام السباعيات .

رب رحماك إن أردتَ الحسابا إنما قلتُ ما حسبتُ صوابا
أفألقى على يديك العقابا ؟

بين من صدّروا الوجود سرابا أنا أجلوك فى الكؤوس حبابا
أنا شيخ التوحيد بين الندامى لا أثنّى إن عددوا الأربابا

* * *

بت فى حانتى سمير المدام وقبيل انهزام جند الظـلام
هتف الطيف بالندامى النيام

أيها الغافلون هبوا قيامـا وارشفوها وودعوا الأيامـا
قبل أن تجرعوا كؤوس المنايا وتعافوا والخمر عزّت شرابا

* * *

ومقامى غصن ظليل بقفر ورغيفان مع زجاجـة خمر
كل زادى والأهل ديوان شعرى

وحبيب يهواه قلبى المُعنّى بشجـى يذيـنـى يتغنّـى
هكذا أسكن القفار نعيمـا وأرى هذه القصور خرابـا

* * *

أمس أبصرت جارنا الخزّافا يجبل الطين كيف شاء اعتسافا
ويكيل المقدار منه جزافـا

وكأنى سمعت بين يديه　　صوت حى يبكى ويدعو عليه
وَيْك رفقاً فأنت طين وماء　　لتذوقنّه عذابى عذابا

ومن دراسة البستانى للرباعيات نجده يخلص إلى ما يلى :

(ا) من الرباعيات يستشف إيمان الخيام بالله والحساب والعقاب .

(ب) يرى الخيام أن الوجود فان ، ولا يستمر على حال .

(جـ) التعليل الوحيد لذكر الخمرة وحب الخيام لها أنه يريد أن يختطف لذته اختطافا من يد الفناء والموت .

(د) تظهر وحدانية الخيام من أشعاره ، فهو لا يؤمن إلا بإله واحد لا شريك له ، لكنه لا يفتأ يذكر الحانة والمدام والندامى والمنايا التى ستتخطّف كل هذا من يديه ، فليس له حيلة إلا أن يشرب ويشرب قبل فوات الأوان وقبل الموت ، وهناك يأمل فى عفو الله ورحمته الواسعة .

(هـ) شعر الخيام الثائر على التعاليم الدينية موجود فى كتابة سَلَفِه ابن سينا وخَلَفِه أفضل الدين الكاشى ، وغيرهما .

(و) الرباعيات – وهى شعر الخيام الفلسفى الجليل – تعتبر أثره الشعرى الخالد .

(ز) يحار الخيام فى الكون والخلق ، ويبدى إيمانا بالحساب والعذاب وطمعا فى صفح ربه ، ويجرى وراء المتعة والشراب الحقيقى معتمداً على غفرانه سبحانه .. وهذه قمة الحيرة وقمة الفلسفة الحقيقية والتصوف .. وإن اعتبر فى نظر الصوفية إلحادا وزندقة .

(ح) يرى أن الحياة سفر ومسير أوله المهد وآخره اللحد . وأن خير متاع للمسافر هو التقوى وحسن الأعمال والبعد عن ظلم العباد وغشهم .

(ط) هناك أغراض متقاربة بين رباعيات الخيام ولزوميات أبى العلاء المعرى .

(ى) الرباعيات مجموعة أفكار تناقلتها العصور ولعبت بها الأغراض والأهواء كل ملعب ، وقد اعتراها من الحذف والإبدال وشابها من المتشابه والمكرر والدخيل ما ترك أمرها مجالا للبحث والتنقيب ومضمارا يتبارى فيه أدباء الغرب أيّما مباراة .

(ك) الرباعيات الصحيحة والتى يمكن نسبتها للخيام هى الواردة فى آثار معاصريه وعددها إحدى عشرة .

(ل) كثرة الدخيل سببه كثرة الأتباع والخصوم ، فالأتباع يثبتون الحَسَن الذى لا غبار عليه ، والآخرون يلصقون به من عندهم ما يسىء إليه ، ويحوّرون ويزيدون حسب أغراضهم . والنسّاخ يكثرون العدد ليتقاضوا أجرا أكبر عن الكتابة والخط ، فقد كانوا – على ما يظهر – يتقاضون أجرة الخط عن كل رباعية على حدة .

* * *

وأعقب البستانىَ محمدٌ السباعى المصرى ، فترجم مائة رباعية نظما عن الإنجليزية كما فعل البستانى ، فابتعد بدوره عن الأصل الفارسى . وعزّز السباعى ترجمته بالصور الخيالية فكان أشبه ما يكون بالبستانى ، غير أن ترجمته أقل سبكا وسلاسة ، وأحفل بالألفاظ المهجورة والتعابير الثقيلة الممجوجة ، وهى لهذا كله أقل شهرة من سابقتها – وقد صدرها ببيتين عربيين لابن وكيع دون إشارة لاسمه ، بل أغار على قوله فسباه .

ومن دراسة السباعى للرباعيات يخلص إلى رأى غريب وهو أن الخيام كان يحسو الخمر لأنها أقرب وسيلة وأقصر سبيل يسهّل عليه استشفاف نور الحق من وراء حجب الكائنات ، واجتلاء سر الأبد من خلال ظلمة الغيب .

كما أنه لم يكن يحتسيها لأنه متهتّك ظامىء إلى اللذة ، بل لأنه حائر أمضّه الشك وأرهق طولُ التفكير عقلَه .. فاندفع إلى نوع من اللذة يدنيه من عالم أرحم وأقل قسوة من عالمه ، ويحسوها لينسى ، فالموت قد اقترب والمنون يدنو بخطى جبار :

سارع إلى اللذات قبل المنون   فالعمر يطويه مرور السنين
وأنت كالأشجار إن قُلِّمت   فروعُها عادت وطاب الغصون

* * *

وإنما نحن رخاخ القضاء ينقلنا فى اللوح أنّى يشاء
وكل من يفرغ من دوره يلقى به فى مستقر الفناء

* * *

وأول من تصدّى لترجمة الرباعيات من العراقيين الشاعر السيد محمد الهاشمى ، وقد ترجمها نظما عن الفارسية فجاءت مطابقة للأصل كثيرا ، وآية فى الرقة والسلاسة . وقد نشرها بعد فترة طويلة من الإحجام . وترجمة الهاشمى تمتاز بالجلال والجمال ، وتحظى بإعجاب الكثيرين ، حتى ليرى المهتمون أنه صاحب قريحة جيدة بين أدباء العرب . ويلاحظ أنه لم ينظمها فى أربع شطرات مجاراة للأصل ... فجاء بخماسيّات على هذا النحو :

– جيئتى فى الدنيا أذى واضطراب وبقائى تحيُّر وارتياب
وبقسرٍ يكون منى ذهاب أى قصد من جيئة وبقاء
وذهاب ؟ قد ضلّت الألباب

– بيدى مصحف وكأس بأخرى تارة بالحلال آتى وطورا
بحرام آتى فأُحمل وزرا لست تحت السماء بالكافر الملحـ
ـد ، ولا كنت كامل الإسلام

– يا إلهى أوعدتنى بعذاب أنا منه فى حيرة واضطراب
أين قل يارب مكان العذاب حيثما كنت لا عذاب فأنَّى
هو ؟ ، إذ أنتم بكل مكان

– يا إلهى إذا جنيت فإثمى يا إلهى على شبابى وجسمى
وعلى نفسى الحزينة جرمى أنا جان رجوت عفوا وصفحا
منك ، قد عزّه رضاك فجارا

– إن يقولوا فى الخلد حور وخمر ومصفّى من شهدة هو نهر
فصحيح إذاً وما هو وزر إن عبدنا خمراً هنا وحبيبا
فهما سوف يعبدان هناكا

- عادتى شرب الخمر تنفى شجونى ثم دينى فى ترك كفرى ودينى
قد سألت الدنيا العروس اخبرينى ما الصداق الذى تريدين منى ؟
فأجـابت فـؤادك الجذلان

- كوثر قيل ما هناك وخلد ورحيق صاف وشهد وقند
فاملأ الآن كاس خمر فنقد بيدى الآن عاجل هو خير
لى من ألف آجلٍ من ديونى

- فى فجاج همنا وفى فلوات ونهضنا نسيح كل الجهات
ما أتانا مـن المقابـر آتى مخبر عما فى المقابر يجرى
إنما كل راحـل لا يعـود

وفى رأى الهاشمى أن الخيام صوفى النزعة والصفة ، وأن تغزّله بالخمر تغزّل مجازى ، وأنه يقصد بالخمرة حين يذكرها خمرة الحب الإلهى . وأرى أن الرباعية الأخيرة – مما أثبتناه له – فيها اعتراف بعدم البعث .. كان يقتضى منه التريّث فى إطلاق حكم قاطع كهذا .

* * *

ويُعتبر « أحمد الصافى النجفى » صاحب أصح الترجمات المنظومة إلى العربية . ويبلغ إعجاب الصرّاف بترجمته حد قوله (ص ٣١٦ – ٣١٧) :

« ترجمته أصح الترجمات على الإطلاق . لقد أرانا المعجز فى ترجمته الجميلة الرائعة . ولو طُلِب من الخيام الفحل المتضلّع فى العربية أن ينقل رباعياته إلى العربية ما عرّبها كالصافى . ولولا قرابة قوية بينهما فى التفكير والصفات ما قدر الصافى أن يترجم الخيام . فالصافى خيام العرب ، ومن يطالع شعره يجد روحه أكثر شبها بروح الخيام .. فكأن أنفاس الخيام ترددت فى صدره ، وكأن عبقريته قد انتقلت إليه » .

ويؤكد الدكتور « عبد الوهاب عزّام » هذا الإعجاب حين يقول :

« هناك من ترجم الرباعيات عن الفارسية إلى العربية نظما ، وهناك من ترجمها نثرا ... وكان المجال أمام الذين ترجموها نثرا أوسع ليجعلوها أقرب إلى الأصل . ولكنى وجدت ترجمة الصافى نظما أقرب إلى الأصل حتى من ترجمة من ترجمها نثرا .

وحين يقول :

« يقول الشاعر التركى « محمد عاكف » : لا بأس أن يجتهد الفنان فى أثره الفنى ، ولكن يجب ألا تشمَّ من فنه رائحة العرق ، أى يجب أن لا يظهر عليه أثر الجهد والتعب . وإنَّ من يقرأ ترجمتك (يتحدث هنا إلى النجفى فى إحدى الجلسات) يراها من السهولة بحيث لا يحس فيها بأثر للجهد والتعب ، أى لا يشم منها رائحة العرق » .

وفى فورة الإعجاب يقول الشاعر الفارسى « محمد تقى بهار » (ملك الشعراء) :

إن بعض التعريب مع كونه مطابقا للأصل جدا فهو يفوقه من حيث البلاغة والأسلوب . ومضرب المثل الرباعية التى يقول فيها :

لم يخط بالدهر فى وَرْد الخدودفتى   إلاّ وكابد من أشواكه العطبا
أنظر إلى المشط لم تبلغ أنامله   أصداغ أغيد ما لم ينشعب شعبا

والرباعية التى يقول فيها :

أيا فلكا يربى كل نذل   وليس يدور حسب رضا الكريم
كفى بك شيمة أن رحت تهوى   بذى شرف وتسمو باللئيم

ولكى يعبّر العلّامة صدر الأفاضل الفارسى عن إعجابه يقول مساوياً بين النجفى والخيام :

نظم الخيام رباعياته بالفارسية والعربية معا ، وقد فُقِد العربى منها ، فعثر عليه النجفى وانتحله لنفسه .

ويفضّل « ميرزا خان القزوينى » الفارسى « النجفى » على « فيتزجرالد » حين يقول إنه قلّما رأى بين التراجم – التى لا تُعدّ ولا تحصى للخيام فى اللغات الأخرى – ترجمة صحيحة مطابقة للأصل كترجمة النجفى . ورغم أن ترجمة فيتزجرالد الشاعر الإنجليزى . من حيث الشاعرية – والفصحاحة والبلاغة لفظا ومعنى فى غاية الجودة .. فإن فيها من حيث المطابقة للأصل وبيان الغرض الأصلى للشاعر فراغ كثير .

ورغم هذا التقريظ فإن ميرزاخان ينبه إلى أن النجفى لم يحتفظ بالوزن الأصلى للرباعيات – أى بحر (الدو بيت) فى اصطلاح المتأخرين من شعراء العرب – ولم يقيّد نفسه بوزن خاص يطّرد فى جميع الرباعيات .

ورأى القزوينى فى هذه النقطة رأى له وجاهته ، فهو فارسى يتمتع بذوق فارسى وحس خاص تجاه الرباعيات ، ويهمّه أن يجدها بنفس الوزن الذى وضعت فيه فى الفارسية .. خاصة أن من ترجموها إلى الإنجليزية – على سبيل المثال – قد التزموا بخط الوزن الواحد رغم لجوئهم إلى الحرية فى الترجمة وعدم التقيّد بالخيّام فى كثير من الأحيان ، كقول أحدهم :

And if the wine you drink, the lip you press
End in the nothing all things end in - yes -
then fancy while you art , thou art but what
thou shalt be - nothing - thou shalt not be less
(Thou shalt = you shall) .

فهنا يبدو الالتزام بالوزن وجعل القافية فى ثلاث شطرات أسوة بالفارسية .. وهذا ما لم يفعله النجفى ، مستندا إلى لجوئه فى المقام الأول إلى الوزن الوافى بأداء المعنى ، ومتعللاً بأن الأذن تملّ سماع النغمة الواحدة المتكررة فى الوزن الواحد ، وتميل إلى التنوّع ، لكنه نسى أن الرباعية وحدة واحدة قائمة

بذاتها ، لا صلة لها بما قبلها وما بعدها من الرباعيات ، وأن الخيام والأنورى وغيرهما ممن كتبوا الرباعيات قد راعوا هذا الوزن وطريقة القافية ، وهم الذين لا يشك أحد فى ذوقهم الفنى ورهافة حسّهم الشعرى . ونسى أيضا أن الفرس يرون أن هذا الوزن وتلك الطريقة من لزوميّات الرباعيّة الفارسيّة الأصل .

والغريب أن النجفى نفسه يقول ما يؤكد معرفته القاطعة بهذا الأمر :

« من غريب ما رأيت من تصرف المعرِّبين هو تنظيم الرباعيات ، وتقسيمها إلى أناشيد ، حيث جعلوا كل رباعية مرتبطة بالأخرى ، مع أن كل رباعية فى الأصل مستقلة بمعناها لا علاقة لها بالأخرى أصلا ، وقد جمعت فى الفارسية غالبا مرتّبة على حروف الهجاء » .

ويقول أيضا :

« ومما يجدر التنبيه عليه أن اسم الرباعيّة كان يطلق قديما على الأربعة أشطر ، وأنها وردت فى بحر فارسى دخيل فى العربية يسمى بحر الدو بيت أى بحر البيتين ...... » .

ويرى « طرازى » أن ترجمة النجفى إلى العربيّة أصح الترجمات ، لكنه يضيف هذه العبارة : « وإن شابتها بعض الأخطاء » .

وللنجفى نفسه رأى فى ترجمته التى قضى فيها ثلاث سنوات ، فهو يراها أقرب الترجمات الشعرية فى جميع اللغات إلى الفارسية ، ويستشهد على ذلك بأقوال القزوينى وعزّام والصرّاف . ويرى أن دراسته الطويلة للأدب الفارسى ، وإقامته الكاملة بطهران لمدة ثمان سنوات ، واشتغاله بالترجمة والنشر فى الصُحُف الإيرانية .... قد مكّنه من ترجمة الرباعيات عن الفارسية ، وفك الطلاسم التى استعصى فهمها على المترجمين ؛ فاتحف قرّاء العربية ... لا بتلك الخيالات الشعرية المعروفة التى تدفع إلى التشاؤم وتدعو إلى اللذات فحسب ، بل بتلك اللآلىء المكنونة التى تمثل آراء الخيام الفلسفية ونكاته الأدبية البديعة .

ويرى أنه كان أمينا فى النقل محتفظا بالمعنى الأصلى ، وأنه أظهر أكثر

الرباعيات وكأنه قد ترجم كلمة بكلمة ، وأنه قد اقترب بتعريبه قدر الطاقة من الذوق العربى ، وأن هذا قد اقتضاه أحيانا تفريغ الرباعية الواحدة فى أكثر من عشرين سبكا قبل أن يختار من بينها ما يفى بأداء المعنى ومضامين الذوق العربى ، وأنه كان فى سبيل ذلك يضحّى بخياله الشعرى .

وأرى أن النجفى بالإضافة إلى التضحية بالخيال الشعرى - وهو ركيزة هامة فى مضمار الشعر - قد اضطر إلى استعمال كلمات ثقيلة على الأذن يمكن استبدالها بأفضل منها وأرق وأعذب .... ولعل هذا هو السبب فى أن واضعى الألحان لم يلتفتوا إلى هذه الترجمة لصعوبة بعض مفرداتها وتركيباتها ... رغم اقترابها كثيرا من المضمون الفارسى .

ولعل النجفى أحس بعمق تضحيته - ولا نقول بمجافاته للصواب - فأكد أنه قد آثر هذه الكلمات على غيرها مما هو أنسب للذوق على حد تعبيره ، لئلا يؤدى تبديلها إلى خلل فى المعنى الأصلى . وعاد فأكّد أنه كان يحيد عن ذلك ويأتى بشىء من التصرّف عندما يعجز عن بلوغ السبل والوسائل للاحتفاظ بالمعنى الأصلى . كما أكد أن خطته التى اتبعها - لإبراز المعانى الهامة كاملة فى الترجمة مع الموافقة للذوق العربى - جعلته يتنكّب ترجمة عدة رباعيّات جميلة . واعترف بعجزه وقصوره .

ومن دراسة النجفى للرباعيات يخلص إلى رأى مفاده أن من لا يدركون مغزى الكلام قد أساءوا للخيام الفيلسوف الرزين الذى اتخذ من الدعوة للراح وسيلة لعرض فلسفته ، وحلية لتجميل تشاؤمه ، ومجالا لصبّ نقمته ونقد مجتمعه .. ولهذا يجب أن لا يصوروه كخليع مدمن وعاشق فاسد .

ومن دراسته لترجمات الرباعيات يخلص إلى أن ترجمة فيتزجرالد - من حيث الشاعرية والبلاغة لفظا ومعنى - تمتاز بالجودة المفرطة . ومن حيث المطابقة للأصل وعكس الهدف الأصلى للشاعر وبيان مقصوده .. فيها فراغ كبير ، إذ هى ترجمة حرة تماما لا تتبع الخيام ، ولا يهمها حفظ أغراضه ومراميه ... مما

جعل معرفة المعنى الأصلى فى أغلب الرباعيات صعبة ، وحدس الأصل شبه محال .

ويخلص إلى أن من جاءوا بعد جيرالد ونظموا الشعر ترجمة لرباعيات الخيام قد اعتمدوا على ترجمة هذا الشاعر فى الغالب ، فبعدوا عن الأصل بدورهم ، والتزموا الحرية التامة .

* * *

وتصدى الشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى [١] لترجمة رباعيات الخيام ، فاختار مائة وثلاثين رباعية ، وترجمها عن الأصل الفارسى رباعية برباعية نثراً أول الأمر ، ثم نظمها شيئا فشيئا . ورغم أنه شاعر مُجيد ، قام بالترجمة عن الأصل الفارسى ، إلا أن ميله إلى التصرّف جعل بعض أشعاره غير مطابقة للأصل ، فيها إهمال للمعانى التى هدف إليها الخيام . ويتحقق هذا فى الترجمتين النثرية والشعرية . ولعل عجلته هى التى أوصلته إلى ذلك ، فهو يفخر بأنه ترجم هذا العدد الكبير من الرباعيات فى أربعة أيام فقط .

وفى رأى أحد النقاد أن ترجمة الزهاوى ناضبة من الحياة ، وإن كان يعلل ذلك بنضوب رباعيات الخيام الفارسية من الحياة . يقول الناقد :

« يتفق رامى والزهاوى فى نضوب ترجمتيهما من الحياة لنضوب رباعيات الخيام من الحياة وهى فى الفارسية . ومعنى ذلك أن فيتزجرالد أعطى الخيام من روحَهُ دون فلسفته ، أو لِنَقُل نفخ فى فلسفة الخيام فدبَّت فيها الحياة [٢] .

وقد فرغ الزهاوى من طبع الرباعيات المترجمة فى مطبعة الفرات ببغداد ، فى ٢٢ مارس عام ١٩٢٨ م ، وكان قد نشرها تباعا فى مجلة الحديث الحلبية ، ابتداء من العدد السابع للسنة الثانية ، عام ١٩٢٨ م .

---

(١) ولد فى ١٨ حزيران سنة ١٢٨٠ هـ = ١٨٦٢ م ، فى أسرة كردية عريقة .

(٢) عمر الخيام – أعلام الشعر – مجلة أبولو - سبتمبر ١٩٣٤ ، ص ٥١ ، ٥٢ .

وقد ساعد على هذا التدنّى النسبى لمستوى الترجمة الشعرية – إلى جانب تسرّع الشاعر – التزامه ببحر واحد هو البحر الخفيف .

وقد أحس النقاد بهذا التدنّى لأن أشعار الزهاوى – فى غير هذه الترجمة – على درجة كبيرة من الجودة .. على نحو دفع الزيّات إلى القول فى حقّه :

الزهاوى شاعر من شعراء الفكرة ، له البصيرة الناقدة والفطنة النافذة ، وليس له الأذن التى (تموسق) ولا القريحة التى تصنع ، فاللفظ لا يختار ، والوزن قد لا يتسق ، والأسلوب قد لا ينسجم ، ولكن الفكرة الحرة الجريئة تعج بين الأبيات المتخاذلة عجيج الأمواج المزبدة بين الشواطى المنهارة .

والزهاوى عقلية افاقة وحيوية دافقة وطبيعه سافرة .. الفكرة الفلسفية هى المادة الأصلية فى شعره ، وفكرة الفيلسوف واضحة وجمالها فى هذا الوضوح ، وفكرة الشاعر خفية وسحرها فى هذا الخفاء .

كما دفع العقاد إلى وصفه بقوله :

سديد النظر قريب المأخذ واضح التفكير جرىء على العقائد الموروثة .... صاحب ملكة علمية تطرق الفلسفة وتنظم الشعر بوسائل العلم ووسائل العلماء ..

وجعل عبد الرزاق الهلالى يقول فى حقه ، عند تقديمه لديوانه :

بالرغم من كونه شاعرا متمكنا إلا أنه لم يكن ينظم إلا إذا جاشت عاطفته ، وسنح لذهنه الخاطر البديع (١) .

ورغم حكم البعض بتدنّى المستوى ، فإن هناك من يمتدحها . فها هو الأديب المستشرق الألمانى ج . كامبغماير يقول :

---

(١) الزهاوى ، دراسات ونصوص ، جمع وإعداد عبد الحميد الرشودى ، ص ٢١١ ، ٢١٢ ، بيروت ١٩٦٦ م .

ديوان جميل صدق الزهاوى – المجلد الأول ، ص جـ ، بيروت ١٩٢٨ م .

أخذ الزهاوى على عهدته القيام بترجمة الرباعيات ، فأتقن العمل بأسلوب من شأنه أن يمهد لأبناء العربية التقرب من نفسية الشاعر الفارسى ودخائلها . والحق أنه قد أجاد كل الإجادة فى ذلك .

وقد أورد الزهاوى رباعيات الخيام – ليس كلها ، بل ١٣٠ رباعية ، انتقاها لجمالها ولأنها تنم عن فلسفته فى الحياة ومسلكه فى الاجتماع – بالأصل الفارسى أولاً ، ثم مترجمة إلى العربية نثرا ونظما بصورة صحيحة متقنة ، بعد فراغه من المقدمة التى تشيد بذكر الشاعر الفارسى ورباعياته .

فنحن نسدى إلى فيلسوف الشعراء التهنئة على فوزه الأدبى المبين ، هذا لأنه جاء بشىء جديد فى عالم الأدب الشرقى الذى لم يسبقه إليه أحد [١] .

أما المستشرق الروسى كراتشكوفسكى فإنه يكتفى بأن يؤكد أن الزهاوى قد ترجم رباعيات الخيام عن الأصل الفارسى ، ويقول فى ذلك الصدد دون تقديم للترجمة : والزهاوى مشهور أيضا بشعره الفارسى ، ذلك أن تضلعه فى هذه اللغة أتاح له أن يترجم مختارات من رباعيات عمر الخيام [٢] .

وقد أهدى الزهاوى ترجمة الرباعيات للملك فيصل ، فأطلق عايه « شاعر الملك » وخُصِص له راتب قدره ستمئة روبية يرتفع إلى ثمانمئة ، رفضه الزهاوى لأنه لا يريد أن يكون مجرد زينة فى البلاط ، وإنما يريد أن يكون له مقام اجتماعى ومركز رسمى يُشعِر بذاته وكيانه وقابليته .

وقد قسم الشاعر ترجمته هذه إلى ثمانية أقسام – مراعيا الأغراض التى تضمنتها الرباعيات – على الوجه الآتى :

القسم الأول : فى الخمرة ، وهو خمس وأربعون رباعية .
القسم الثانى : فى الكون وهو أربع رباعيات .

---

(١) مجلة العرب – السنة السابعة جـ ٦ ، تموز سنة ١٩٢٨ م .

(٢) الزهاوى ، دراسات ونصوص ، ص ٢٧٥ ، دائرة المعارف الإسلامية – المجلد العاشر ، ص ٤٤٦ – ٤٥٠ من الطبعة العربية .

القسم الثالث : فى التذمر ، وهو خمس وعشرون رباعية .
القسم الرابع : فى العظة والأخلاق ، وهو ثلاثة وعشرون رباعية .
القسم الخامس : فى الحيرة والشك ، وهو خمس عشرة رباعية .
القسم السادس : فى العشق ، وهو ثلاث رباعيات .
القسم السابع : فيما خاطب به الله ، وهو إحدى عشرة رباعية .
القسم الثامن : فى مطالب شتى ، وهو أربع رباعيات .

وهذا نموذج من ترجمته للرباعية الفارسية :

اين جرخ فلك بر هلال من و تو قصدى دارد بجان باك من و تو
بر سبزه نشين وباده خور ديرنماند تا سبزه برون دمد ز خاك من و تو

الترجمة الشعرية :

اغنم العشب فهو أخضر غض ، وترشّف كأس الحميا عليه
قبلما يبدو العشب أخضر غضبا من ترابٍ يوما تصير إليه

ومن دراسة الزهاوى للرباعيّات يخلُص إلى مايلى :

١ – شعر الخيام صورة نفسية من التشكك والحيرة والعويل ، وهذه صفات يرتاح إليها كل من تأثر قلبه بالشبهات ، وقصرت همته عن المجاهدة لحلها .

٢ – قضى الخيام شبابه مطمئنا إلى شكوكه ، ولم يكدّ نفسه للوصول إلى الحقيقة . فلما حلت به الشيخوخة لم يجد ما يلهيه عن شبهاته ، فخارت قواه ورثى نفسه وندبها ، ولم يبق له إلا خيال من تعزية ، فتنفس الصعداء معتقدا أن فى الكون شكوكا لم يخلق الله لها حلولا . ومن العجيب أن بعض الناس يتلقف مثل هذا الشعر فيجد فيه نظرات عميقة وتأملات دقيقة .

٣ – ليست عند الخيام صورة شعرية إلا فى القليل النادر .. حين يتحدث عن الخمر مثلا . لكنه لا يصف المجلس ولا حال الشاربين ، ولا ما يعتريهم من بهجة أو حزن ، أو ما يقولونه فى هذا المقام . ولعل طبيعة الرباعيات

هى التى فرضت عليه ذلك .

٤ – لم يكن الخيام كالشعراء الذين ينقلون الصور من صميم الحياة ، وتلمس فيها فيض حسهم أكثر من فيض فنهم .. وتراهم فيها مصورين وقصاصا فى آن واحد .

٥ – شعره مرآة واضحة لنزعات العصر ، فهو عدو المن والغرور والتكبر وادعاء التصوف والتدين .

٦ – الخيام يميل إلى حرية الفكر . وهو من حيث تفكيره .. مفكر بعيد الغور ينظر إلى مظاهر الأشياء والكائنات نظر المولع باستكناه حقائقها ، وأسرارها .

٧ – الخيام نموذج الشاعر الذى لم ينظم إلا بدافع من القوة الباطنة ، وإلا بوحى من قلب غنى شجى ، وإحساس فياض ، وذهن قادر ، وهو لم ينظم لينظم .. بل كمن يضع عن كاهله حملا ثقيلا .

٨ – ناحية التهكم من أبرز نواحى شخصيته ، وهى فى مجالسه الخاصة وأحاديثه العادية مثلها فى شعره وبعض رباعياته .. فهو مشهور بالسخرية ، وروح الدعابة ، وظرف المجلس وفن التحدث .

* * *

ويعتبر الشاعر الغنائى المصرى الرقيق أحمد رامى أبرز من نقل رباعيات الخيام عن الفارسية فى مصر . وقد بدأ الترجمة عام ١٩٢٣ م ، وقام بطبعها عام ١٩٢٤ م . وقد استفاد من الترجمات الإنجليزية ، فظهر تأثيرها عنده .. شأنه شأن من فعل ذلك من المعربين والمترجمين بصفة عامة . واعتمد على نسخة فارسية للرباعيات ، طبعها مسيو ح . ب . فى عهد نابليون الثالث ، نقلا عن نسخة طهران وغيرها من المخطوطات الموجودة بدار الكتب بباريس .

وهذا معناه أن ترجمته – إلى حد كبير – ترجمة للترجمة ، وليست ترجمة للأصل الفارسى بكل ما تحمله العبارة من معنى . ومعناه أيضا أنها ترجمة حرة بعيدة عن الأصل بعض الشىء .

وقد جاءت الرباعيات فى صورتها المترجمة حافلة بالرقة والجمال ، جيدة السبك ، رقيقة الألفاظ والتعبيرات . فحظيت بإعجاب الملحنين ، وإقبال السامعين ، وثناء القراء . وقد حافظ فيها على الشكل ، لكنه لم يحتفظ بالوزن الأصلى للرباعيات – أى بحر الـ دو بيت ، كما أنه لم يلتزم بخط الوزن الواحد . ولم يُثبت الرباعيات الفارسية التى قام بترجمتها .

ويقلل الصراف من شأن هذه الترجمة حين يقارن بينها وبين ترجمة الزهاوى فيقول (ص ٣١٨ من كتابه) إنه طالعها عام ١٩٣٠ م بإمعان ، ورآها دون ترجمة الزهاوى بكثير . وقد أبدى استعداده لإظهار عيوبها رباعية رباعية إذا وجد من ينكر أنها أقل من ترجمة الزهاوى شأنا .. وهى الترجمة التى سبق أن قال الصراف بشأنها مقللا من قيمتها (ص ٤١٧ من كتابه) :

ومن يطالع الترجمة النثرية ويطابقها مع الترجمة الشعرية يجد الزهاوى قد تصرف تصرفا شائنا فى النقل ، وأهمل المعنى الذى أراده الخيام . ولو أراد الإجادة لأجاد وأحسن .. إلا أنه ركب مطية العجلة ، وكان يفخر أنه ترجم الرباعيات فى أربعة أيام .

ومن النقاد من يقرر أن رامى والزهاوى يتفقان فى نضوب ترجمتيهما من الحياة . ويلتمسون لهما العذر ، فيقولون : وذلك لنضوب رباعيات الخيام من الحياة وهى فى الفارسية [1] . وهؤلاء النقاد وأمثالهم قد فتنوا بترجمة الشاعر فتزجرالد فرفعوا قدرها فوق سائر الترجمات فى كافة اللغات . وحكموا بأن جرالد قد أعطى الخيام من روحه دون فلسفته . أو أنه بعبارة أخرى قد نفخ فى فلسفة الخيام فدبت فيها الحياة ، .. فالخيام شاعر بروح فتزجرالد وإليه يدين بما له من ذيوع وشهرة [2] .

---

(١) مجلة أبولو – أعلام الشعر ، الخيام ، ص ٥١ ، سبتمبر ١٩٣٤ م .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٥٢ .

ومن ترجمات رامى التى تثير الإعجاب [١] :

– لبست ثوب العيش لم أستشر وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عنى ، ولم أدرك لماذا جئت ، أين المقر ؟
– يا عالم الأسرار علم اليقين يا كاشف الضر عن البائسين
يا قابل الأعذار ، فئنا إلى ظلك فاقبل توبة التائبين
– إن تفصل القطرة من بحرها ففى مداه منتهى أمرها
تقاربت يارب ما بيننا مسافة البعد على قدرها
– غد بظهر الغيب ، واليوم لى وكم يخيب الظن فى المقبل
ولست بالغافل حتى أرى جمال دنياى ولا أجتلى
– أفق خفيف الظل هذا السحر نادى دع النوم وناغى الوتر
فما أطال النوم عمرا ، ولا قصر فى الأعمار طول السهر

وفى المقدمة التى وضعها رامى لترجمته (ط ٦ ، ص ٢٤ ، ٢٥ وما بعدها) ، نجده يخلص إلى ما يلى :

١ – يبدو الخيام فى رباعياته أميل ما يكون إلى اليأس إلى حد السخرية من الحياة ، والسخرية من الحياة إلى حد الضحك من كل شىء فى الوجود .

٢ – الصورة حيّة فى شعره ، وهى من صنعه وإن تعددت ألوانها فى شعر غيره .

٣ – نفع الخيام فى نشر أفكاره قيام كل رباعية بمعنى واحد ، وقيام كل بيت بفكرة واحدة فى أكثر رباعياته .

٤ – آراء الخيام مزة قصيرة ، تجعل لأسلوبه روحا خاصة تختلف عن روح معاصريه من الشعراء .

---

(١) اعتمدتُ فى استشهاداتى على العديد من هذه الترجمات ، وأثبتُّ ذلك فى موضعه .

٥ – فى أغلب رباعيات الخيام نفس حائرة تبحث عن الهدوء والحقيقة فى كل مكان .

٦ – يرجع ميل الخيام إلى العب من متع الحياة ، ويرجع جمعه بين ألوان عديدة من العلم .. إلى عيشته فى نيسابور الغنية الخصبة ، أيام أن كانت عاصمة لخراسان .

٧ – يرجع اتساع خبرة الخيام إلى كثرة أسفاره .

٨ – يرجع تشاؤم الخيام إلى عيشته عيشة الشاعر الحكيم .. ينعى الحياة ويتعلق بها .

٩ – يواجه المترجمون صعوبة شديدة فى اختيار الصادق من الرباعيات .

١٠ – كان الخيام يشك فى أمر الحياة والموت . وهو مع ذلك موحد يؤمن بوجود إله خلق الكون وهيمن عليه ، متدين يؤدى فريضة الحج ويواظب على الصلاة .

١١ – اكتسب الخيام عداوة المتصوفة أكثر من غيرهم .. إما لاشتغاله بالفلسفة ، وإما بسبب طائفة من رباعياته التى تسربت إلى خلواتهم ومجالسهم .. ولم تُرق الكثير منهم .

١٢ – كان الخيام يحتسى الخمر الحقيقة ، يحب طعمها ولونها ويتعنى بكأسها ودنها ، لأنها تسمو بروحه حتى تصبح فى نجوة من الجسد .. فلا يحس همومه ، ولأنه يجد السعادة فى مجلسها مع الصاحب والنديم .

١٣ – كان الخيام يلجأ إلى الخمر نتيجة شكه الدائم فى أمر القضاء ، ويأسه من حل لغز الحياة ، وحين لا تجديه الحكمة ولا الاستهتار فتيلا فى فهم أسرار الوجود .

١٤ – كان الخيام بين ظلمة الشك ونور اليقين يعتقد بوحدة الروح ويؤمن بعدم فناء المادة .

١٥ – آثر الخيام أن يكون موهوبا فى عالم الروح حتى يتصل بالخالق الذى منه وإليه كل شىء .

١٦ - كان الخيام فى نظم رباعياته بين متفائل ومتشائم وقدرى ومتصوف وتقى ومستهتر .

١٧ - روح الشاعرية فى عمر الخيام لا يمكن فهمها إلا إذا وجدت رباعياته مرتبة حسب وضعها التاريخى .

* * *

وفى عام ١٩٣١ م طبع الدكتور « أحمد زكى أبو شادى » ترجمته لرباعيات عمر الخيام فى مطبعة المقتطف . وقد نظم المائة وثلاثين رباعية التى ترجمها الزهاوى قبله بأعوام قليله ، واستفاد من ترجمته النثرية لها .

وقد علق الصراف عليها فى كتابه (ط ٣ ص ٣١٨) قائلا :

ومن يطالعها يجد فيها شيئا من معانى الرباعيات .

وأكتفى بهذا القدر من الحديث حول هذه الترجمة لأنه لم تتح لى فرصة الاطلاع عليها .

وفى عام ١٩٤٧ م قام توفيق مفرج - خريج جامعة كولومبيا - بنشر ترجمته النثرية لرباعيات الخيام . وقد ترجمها عن الإنجليزية ترجمة مسجوعة مسبوكة جميلة ، وأدرج فيها رسوما خيالية ، فانطبق عليها ما ينطبق على الترجمات الغربية والترجمات الشرقية التى حذت حذوها .

هذا ، ولم تُتح لى الفرصة للاطلاع عليها .

* * *

وممن أجادوا فى تعريب رباعيات الخيام ووضع دراسة حولها وحول صاحبها « عبد الحق فاضل » .. وقد اعترف له بذلك الفضل الأديب أحمد حامد الصراف فى كتابه (ط ٣ ص ٣١٨) ، فى قوله :

(ترجم عبد الحق فاضل الرباعيات شعرا ، ونشرنا عام ١٩٥٤ م فى كتاب اسمه :

« ثورة الخيام » ..

فجاءت الترجمة تحمل الصحة والعافية ، وليس فيها ما يشينها .. فهى جميلة جمال أخلاق المترجم .

وعبد الحق ممن تفهموا الخيام ومغزى رباعياته ، يشاركه فى ذلك ثلاثه فى العالم العربى لا غير : الصافى ، الهاشمى ، ومصطفى جواد .

أما الآخرون فما تعرّفوا الخيام ولا رباعياته ، بل اعتدوا عليه سامحهم الله) .

كما أورد الدكتور أحمد أمين فى مقدمته على كتاب (ثورة الخيام) قولاً أورده سعيد نفيسى الأديب الفارسى ، نصه :

تلا علىّ عبد الحق فاضل – قنصل العراق فى طهران وبعدها فى القاهرة – بعض رباعيات الخيام التى ترجمها حديثا للعربية بمقدرة بالغة وحذق يبعث الدهشة .... وقرأت كتابه « ثورة الخيام » بإمعان .. ورأيى أنه لم يبلغ أحد حتى اليوم هذا المنحى وهذه الدرجة من الكمال فى تحليل نفس الخيام واكتنافها وتمحيص أفكاره) [1] .

وقد سطر فاضل خطته التى اتبعها فى ترجمة الرباعيات ، وبين أسباب تفضيله بعض الرباعيات على غيرها (الصفحات من ٤ – ٨) . فكان موجز ما قاله :

(ترجمت أكبر عدد من رباعيات الخيام ، وأعتمدت على ست نسخ فارسية فى كل منها من الرباعيات ما ليس فى الأخريات . واقتنصت تلك التى تمثل جوانب تفكيره أو فلسفته ، ووضعتها لك فى قفص من العروض ، فوقعت فى هذه المجموعة رباعيات لم يسبق ترجمتها إلى العربية .. هى من خير ما جادت به قريحة الحكيم الفارسى . ومنها ما لم يكن معروفا منذ بضع سنوات أنه للخيام ، مما كشف عنه الباحثون أخيرا .

---

(١) عبد الحق فاضل : ثورة الخيام ، مقدمة أحمد أمين ، ص ك ، القاهرة ١٩٥١ م .

وقد توخيت كل دقة ممكنة فى الترجمة فجاءت وكأنها ترجمة لفظية للأصل . وحرصت على أن يكون المبنى وعاء للمعنى وحسب ، فهو سهل واضح لم أجنح فيه إلى التعقيد ولا التنطع ، ولا تكلفتُ من البلاغة إلا اجتناب الركاكة ، ولا استسلمت إلى تلك الشوائب اللغوية التى يسمونها ضرورات الشعر ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

وحاولت أن أنقل مع المعنى روحه وملاحته . ونقلت لك الخيام بأسلوبه .. وحلاوته وتشابيهه واستعاراته .

لكل رباعيَّة صورة ذهنية لها ألوانها ، فلم أضعف هذه الألوان بل قويتها ووضحتها . ولم أقدم أو أؤخر أو أحور بما يفسد المعنى ويشوه الصورة ويغفل اللفتة الذهنية .

وقد ذكرت فى رباعياتى مفاتن أخرى غير ما ذكره الخيام .. مفاتن أخرى للنساء إلى جوار الخد والطرة – وفقا للتكرار وبغية التنويع .

ولما كان بعض الرباعيات قبيح المعنى فاحش القول ، وربما لا يكون للخيام فقد هذبت هذه الرباعيات لتكون أقرب إلى طراز تفكير الخيام .. غير أن أمثال هذا التحوير فى ترجمتى نادر .

ولما كانت آفة الرباعيات التكرار الملعون ، فقد لجأت إلى الحذف ، ومع ذلك ما يزال التكرار موجودا . ولو نبذت كل رباعية تكرر بعض معناها لما بقى إلا القليل . ولو حذفت من كل رباعية ما تكرر من معناها لما بقى من بعضها غير شطر واحد) .

وقد جمع الأديب الفارسى فروغى أربعا وسبعين رباعية للخيام نقلها عن ثمان روايات قديمة مختلفة . وقد تكرر ذكر ثمانية منها فى بعض هذه الرباعيات وبحذف هذه الثمانية تبقى ست وستون رباعية .. رواها قوم كلهم أقدم عهدا من أقدم نسخة بين أيدينا من مجموعات الرباعيات ، فهى فى نظر فروغى وسواه أحق بالركون إليها والاطمئنان إلى صحتها ، وأحق بأن يقاس عليها سائر

الرباعيات .. فما كان بها شبيها عدّوه للخيام ، وما غايرها عدّوه لسواه . ويطلق على هذه الرباعيات : الرباعيات الست والستون المعتمدة للخيام . ويراها المعتقدون فيها جد بسيطة ، عارية من التزويق ، بريئة من التصنع والتكلف ، مجردة حتى من الأخيلة الشعرية .. حتى ليمكن القول بأنها ليس فيها من الشعر غير الوزن والقافية ، لكنها على غاية من البلاغة والفصاحة صحيحة موجزة محكمة ، كل ألفاظها قالب للمعنى ، لا نقصان فيها ولا زيادة ولا عيب ولا شائبة .... وأما المعانى فمن اللطف والدقة والإبداع بحيث تسمو على كل تخيل واصطناع ، فهى جد لا هزل فيها ، وكلام ناعم لا وخز فيه . ومضامين الرباعيات كلها نتاج طبع حكيم متفكر مستطلع .

ويرى فاضل أن بين الرباعيات المعتمدة ما لا ينطبق عليه ذلك . ويرى أنه لا يصح اتخاذ هذه الرباعيات مقياسا دقيقا لرباعيات الخيام ، وأن الحدس والذوق هما كل السند فى القياس للتمييز بين صحيح الرباعيات وفاسدها [١] . ويقر بعجزه عن تمييز رباعيات الخيام مما عداها تمييزا تطمئن إليه نفسه ، ويقول معقبا على ذلك :

لذا جمعت ما استحسنته ، وكانت المجموعة فى رأيى جامعة أكثر منها مانعة ، ولابد أن فيها ما ليس للخيام ، لكنها تُمَثِّل أفكاره وطائفة من مثقفى عصره وما تلاه من عصور فى فارس [٢] .

وفيما يتعلق بترتيب الرباعيات التى ترجمها .. يقول فاضل :

وقد رتبت الرباعيات التى ترجمتها بحيث تكوِّن كتابا متسق التفكير له مقدمة وله نتيجة .. كتابا يتألف من فصول ، يتصل كله بما قبله ويؤدى إلى ما بعده . وبديهى أن الخيام لم يكتب رباعياته على هذا الترتيب الذى اصطنعته

---

(١) ثورة الخيام ، ص ٢٩ - ٣٤ .

(٢) ثورة الخيام ، ص ٤١ .

ولا على ترتيب سواه ، ولكنى وجدت تنسيقها على هذا النحو لا مناص منه لإبراز فلسفته [١] .

وقد لخص فاضل هذه الفلسفة مستنبطة من الرباعيات ، وأسمى عمله : « فهرس الثورة » ، وأوضح فيه الصلة بين أجزاء الكتاب وفصوله ، واستغرق الفهرس ٢٣ صفحة من كتاب ثورة الخيام . وسار على النحو التالى :

١ – ثورة على المجتمع .	٢ – ثورة على الدجالين (من رجال الدين) .
٣ – ثورة على الدين .	٤ – ثورة على السماء .
٥ – ثورة على الدهر والفلك .	٦ – هل من منازل (ألغاز الوجود) .
٧ – ثورة على العقل .	٨ – الموت فى الميدان (فناء البقاء) .
٩ – فشل الثورة (مآسى الحياة)	١٠ – فرار الثائر (عدم الوجود) .
١١ – فى المنفى	١٢ – ستار الخيام .

وهذه نماذج لترجمته التى قسّم بها فلسفة الخيام :

فى مجال الثورة على المتجمع :

صاح أقلل ما تمكنت عديد الأصدقاء   واصطحب إن شئت أهل الدهر لكن من بعيد
إن من تركن فى الدنيا إليه بالولاء   ليس فى باصرة العقل سوى خصم لدود

* * *

أنا بالنفس أفدى كل حر النفس أهل   إن أضع رأسى على رجليه لم أشعر بذل
أفتنفى أنت أن تعرف ما نار الجحيم ؟   هى فى الدنيا لعمرى صحبة القدم القديم

* * *

(١) ثورة الخيام ، ص ١٢٦ – ١٢٧ .

فى مجال الثورة على الدجالين من رجال الدين :

يظننى الشانىء الواهم أنى فيلسوف　　علم الله بأنى لا كما قال السخيف
غير أنى وأنا فى وكر أتراحٍ وبؤس　　لا أقل الآن أن أعرف فيه كنه نفسى

* * *

أنا أحسو الخمر لكن ما أدار الكأس رأسى
ويمينى لم أطلها صوب شىء غير كأسى
أفتدرى ويك ما سر افتتانى بالحُميّا
ذاك أنى لم أكن مثلك مفتونا بنفسى

فى مجال الثورة على الدين :

– أيها الناتج من أربعة فى ظل سبعه　　وهو فيها دائب الفكر أخو هم ولوعه
اشرب الخمر فقد قلنا ، وقلنا لك ألفا　　إن توليت تَولّيت فليست لك رجعه

فى مجال الثورة على السماء :

– قلت : إنى لَمُصْليك سعيرا يا لعين
خبر ما ازددت خوفا منه ، بين المذنبين
فلعمرى لا عذاب فى مكان أنت فيه
ومكان لست فيه ، أين يارب يكون ؟

فى مجال الثورة على الدهر والفلك :

– لست فى نهجك يا دهر براض أو سعيد　　فك عنى القيد ما مثلى خليق بالقيود
إن يكن ميلك يا دهر مع الدون البليد
فأنا لست بذاك الباذخ القدر الرشيد

– آه لو كنت على الأفلاك ربا فى سمائى　　لمحوت الآن هذا الفلك الضخم البناء
ولأنشأت بنفسى من جديد فلكا　　يدرك الأحرار فيه ما اشتهوا دون عناء

فى مجال ألغاز الوجود (هل من منازل) :

– ما أفاد الفلك الدوّار ربحا من حياتى　　لا ولا زاد جمالا أو جلالا بوفاتى

أنا لم اسمع مدى عمرى فى دار الشتات
ما هو المقصود فيها من حياتى ومماتى

– جاء بى فى البدء مضطرا إلى دنيا التراب
حائرا ما ازددت فيها غير جهل واضطراب
ثم وليت برغمى غير دار فى إيابى
لِمَ قد كان مجيئى ومقامى وذهابى

فى مجال الثورة على العقل :

– لم يتح قط لإنس حل أسرار الأزل أو خروج عن حدود الطبع شبرا أو أقل
انظر الناس من الأستاذ حتى المبتدى
لا تجد عند ابن أنثى غير عجز باليد

– اطلب الجهل ، أخا العقل ، وعش فى جذل
تشرب الخمرة من أيدى سكارى الأزل
أيها الجاهل ، ليس الجهل فنا لك ملقى
إن من لا يدرك الجهل هو الجاهل حقا

فى مجال فناء البقاء (الموت فى الميدان) :

– كان من قبلى وقبلك ليل ونهار
ونجوم زاهرات فى السماوات تدار
فاعتبر وامش على الأرض رويدا حين تمشى
إنما موطىء نعليك لعين أو عذار

– كان هذا الكوز مثلى عاشقا جد كئيب
سحرته طرة المحبوب بالحسن العجيب
وتأمل عروة فى جيده مونقة
فلقد كانت ذراعا طوقت جيد حبيب

فى مجال الثورة (مآسى الحياة) :

– غيرت دنيا شبابى وانطوت طى الكتاب
فتبدلت شتاء من ربيع مستطاب

ويح طير غرد كان يسمى بالشباب
لا ارى كيف اتى أو كيف ولى يا صحاب

– سالت البطة فوق النار يوما سمكه
أيعود الماء فى الوادى ويجرى مسلكه
فأجابت إننا متنا وأصبحنا كبابا
فلتكن من بعدنا الأرضون بحرا أو سرابا

فى مجال فرار الثائر (عدم الوجود) :

– أنت لا تهلك إلا مرة يا ابن الفناء
ويك فاهلك مرة وارتح فما هذا الشقاء
إنها حفنة أنجاس وجلد ودماء
فافترضها لم تكن قط ودع عنك البكاء

– افرض الدهر بما تأمر مرّا ثم ماذا ؟
وافترض أن قد قرأت الكون سفرا ثم ماذا؟
هبك قد عشت سعيد القلب عصرا ثم ماذا ؟
ثم بعد العصر عصراً أو فدهرا ثم ماذا ؟

وفى المنفى بعد الفشل والفرار ، وتحت عنوان « نخب الهموم » :

– لست أحسو الخمر من أجل نشاطٍ أو طرب
أو خروجٍ عن طريق الدين أو حَدِّ الأدب
غير أنى أشتهى الغفلة عن نفسى قليلا
إننى من أجل هذا أحتسى بنت العنب

– إن شربت الراح فاشربها مع الواعى الذكى
أو مع الدمية ذات الخد كالورد الجنى

ثم لا تكثر ولا تدمن ولا تشتف جهرا
بل أُصِب منها قليلا ثم غبا ثم سرا

وتحت عنوان « نخبة الموت » :

– بفم الكوزة ألصقت فمي أشفي الغليلا   أبتغي منها التي تنفحني العمر الطويلا
فحكت لى بلسان الحال هذا السر همسا
إننى عشتُ كما عشتَ .. فعاشرنى قليلا

– يا فؤادى إن هذا الدهر يوليك الشجن
وستقلو هذه الروح غدا هذا البدن
فاجلس اليوم على الخضرة وانعم بهواك
قبل أن تزدهر الخضرة يوما من ثراك

وتحت عنوان « شيوخ الحان » :

– أمس عرّجت على الحانوت ليلا فى طريقى
فإذا شيخ على منكبه دن الرحيق
قلت : ما تخجل يا شيخ من الله تعالى
قال : الله كريم ، فاخْسُ واسكت يا صديقى

– وبدا لى فى وصيد الحان شيخ يسمر
قلت : يا شيخ ، ألا حدثت عمن غبروا ؟
قال لى : خذها شمولاً ، فكثير مثلنا
غبروا لم يأت عنهم منذ ساروا خبر

وتحت عنوان « نخب الزاهد الدجال » :

– أيها الذاهب بالتدليس فينا كل مذهب
المعنّى بقصير العمر يحتاج وينضب
قلت لى : أين ذهوبى يا ترى بعد الردى ؟
أعطنى ويلك جام الخمر ، واذهب حيث تذهب

وتحت عنوان « نخب الدين » :

– قم بنا نعزف على القيثار ألحان الغرام
نحتسى الراح ولا نحفل صيتا فى الأنام
فلنبع سجادة التقوى بكاس من مدام
ولنحطم فى الثرى قارورة الزهد المقام

– إن قرآنا دَعَوْه فى الورى خير البيان
ليس يتلى دائما ، بل بين آن و أوان
وعلى الأقداح خطت آية بينة
أبدا تقرأ فى كل زمان ومكان

وتحت عنوان « الله كريم » :

– ربى افتح لى بابا يتأتى منه رزقى   وابعث القوت إلى حلقى بلا منّة خلق
رب واحفظنى صريعاً بالحميّا طول عمرى   فمن الغفلة ألا أعرف ما يقلق فكرى

وتحت عنوان « نخب .. العقل وألغاز الوجود » :

– نَفَس من منزل الكفر إلى منزل دين   نفس من عالم الشك إلى دنيا اليقين
فتعهد طيب هذا النَفَس الفذ الثمين   إنه محصولنا من هذه الدنيا الخؤون

وتحت عنوان « نخب اللحظة الحاضرة » :

– سوف أطوى من غد تالله رايات النفاق   وساقفو أثر الخمر بشيبى يا رفاق
أنا فى السبعين من عمرى شيخ أشمط   فإذا لم أنشط الآن فَأنّى أنشط ؟

وتحت عنوان « نخب الحبيب » :

– قم فأقبل يا حبيب الروح إكراما لقلبى
بسنا حسنك أدركنى وفرّج لى كربى ..

هات كوزا نشرب الراح به ، يا وثنى
قبل أن يصطنعوا من طيننا كوزا لشرّبِ

وتحت عنوان « نخب الأنخاب » :

– عندما أهوى برأسي تحت رجل الأجل يوم يستأصل عمرى من جذور الأمل
فاصنعوا بالله جاما من ترابى فعسانى
فيه أحيى كلما أترع من بنت الدنان
– هتكت أسرارنا بين الورى هذى الحميا
غير أنى لستُ بالهاجرها ما دمت حيا
عجبا للبائع الصهباء فى غفلته
أتراه يشترى أفضل مما باع شيا ؟
– كلما أشرق صبح واضح العزة أزرق
فضعن بين يديك الراح فى الجام المُرَوَّق
شاع بين الناس أن الحق فى الأفواه مر
فعلى هذا تكون الخمر يا قوم هى الحق

وتحت عنوان « ستار الخيام » :

– ان أكن سكران من خمر المجوس الكافرين
أو أكن صبا خليعا مارقا لا لى دين
فلأكن .. كل فريق لهم فِىَّ ظنون
بيد أنى ملك نفسى كيفما شئت أكون

ويلاحظ أن فاضل لم يثبت الأصل الفارسى للرباعيات التى صنفها وقام بتعريبها . كما يلاحظ أنه اقترب من المعانى التى أرادها الخيام بصورة أكبر من سواه ، بحيث يكاد يبلغ فى ذلك مبلغ النجفى . ويمكن إثبات ذلك بالرجوع إلى الرباعية التالية على سبيل المثال :

– من دامن زهد وتوبه طی خواهم کرد   باموی سفید قصد می خواهم کرد ..
پیمانه عمر من بهفتاد رسید   این دم نکنم نشاط کی خواهم کرد ؟

فترجمتها عند النجفى :

– غدا سأطوى ذيل زهدى وتوبتى   للخمر أمشى فى معية شيبى ..
بلغت سبعين عاما كلها أمل   متى سألقى الهنا إن لم يشب قلبى ؟

وترجمتها عند فاضل :

– سوف أطوى من غد تالله رايات النفاق
وساقفو أثر الخمر بشيبى يا رفاق
أنا فى السبعين من عمرى شيخ أشمط
فإذا لم أنشط الآن فأنى أنشط ؟

وبالرجوع أيضا إلى الرباعية التالية :

– أفسوس كه نامه جانى طى شد   وآن تازه بهار زندگانى دى شد
آن مرغ طرب كه نام أو بود شباب   فرياد ندانم كه كى آمد كى شد

فترجمتها عند النجفى :

– قد انطوى سفر الشباب واغتدى   ربيع أفراحى شتاء مجدبا
لهفى لطير كان يدعى بالصبا   متى أتى وأى وقت ذهبا

وترجمتها عند فاضل :

– غيرت دنيا شبابى وانطوت طى الكتاب
فتبدلت شتاء من ربيع مستطاب
ويح طير غرد كان يسمى بالشباب
لا أرى كيف أتى أو كيف ولى ياصحابى

وقد استعمل فاضل فى نظمه ألوانا متعددة من القوالب الشعرية : الرباعية والقطعة والمثنوى .

مثال للرباعية : رُبَّ سر لست اسطيع له فى الخلق فضحا
فاستمع موجز قولى لا تسلنى عنه شرحا
آه من حالى أرانى عاجزا عن وصفها
آه من سر طواه القلب لا يقبل بوحا

مثال للقطعة :

– صاح أقلل ما تمكنت عديد الأصدقاء
واصطحب إن شئت أهل الدهر لكن من بعيد
إن من تركن فى الدنيا إليه بالولاء
ليس فى باصرة العقل سوى خصم لدود

مثال للمثنوى :

– يا فؤادى أن هذا الدهر يوليك الشجن
وستقلو هذه الروح غدا هذا البدن
فاجلس اليوم على الخضرة وانعم بهواك
قبل أن تزدهر الخضرة يوما من ثراك
– أبدع الصانع تركيب طباع البشر
فلماذا شأنها بالنقص أو بالوضر
إن تكن جاءت ملاحا فلماذا خَرْبُها ؟
أن تكن جاءت قباحا فعلى من عيبها ؟

واستعمل فنا بلاغيا لم يستعمله الخيام فى رباعياته وهو ذو القافيتين ، فكان موفقا إلى حد بعيد ، وهو فن لا يستعمل عادة فى الرباعيات .. وإنما فى القصيدة أو القطعة :

افرض الدهر بما تأمر مرًّا ثم ماذا ؟
وافترض أن قد قرأت الكون سِفْرا ثم ماذا ؟

هبك قد عشت سعيد القلب عَصْرا ثُمَّ مـاذا ؟
ثم بعد العصر عصرا أو فَدَهْرا ثُمَّ مـاذا ؟

ونتيجة للتقسيمات التى قسم فاضل إليها الرباعيات الكثيرة التى ترجمها ، ونتيجة لغوصه وراء أفكار الخيام .. نجده يخلص إلى ما يلى :

١ – يتنصل الخيام من تهمة الفلسفة ، ويدّعى أنه أراد معرفة نفسه ليس إلا . وذلك دفاع فيه مكر كثير .. لأن معرفة النفس هى باب الفلسفة فى مذهب سقراط ومشايعيه . ولما كانت الفلسفة توأم الزندقة ومن تمنطق تزندق ، فإنه يخفى اشتغاله بالفلسفة عن المتدينين من رجال الدين حتى لا يفتوا بقتله (١) .

٢ – تعمدت طائفة من الصلحاء أن يعزو إلى الخيام من الرباعيات التى تحض على التوبة والتقوى ما لا علم له به ، وحوروا رباعيات له فرووها على غير وجهها تخفيفا لما فيها من تطاول على الشرع (٢) .

٣ – ليس بعيدا أن يكون للخيام رباعيات فى المجون أو الهجاء أو أى ضرب من ضروب القول تظنه بعيدا عن الخيام وأمثاله ، ولكل شاعر نزوات وبدوات (٣) .

٤ – حرّفت رباعيات الخيام وصحّفت ودخلتها الأخطاء على يد النساخين (٤) .

٥ – بين الرباعيات المعتمدة ما به سخف ، وما به كلام غث فيه وخز لا نعومة فيه ، ولا يصح اتخاذ الرباعيات الست والستين مقياسا دقيقا لرباعيات الخيام . والحدس والذوق وحدهما السند فى القياس للتمييز بين صحيح الرباعيات من فاسدها . ولا يمكن تمييز رباعيات الخيام مما عداها تمييزا تطمئن إليه النفس (٥) .

---

(١) ثورة الخيام ، ص ١١ ، ١٢ .
(٢) ثورة الخيام ، ص ١٧ .
(٣) ثورة الخيام ، ص ٣٥ .
(٤) ثورة الخيام ، ص ١٨ .
(٥) ثورة الخيام ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٤١ .

٦ – الفخر فى الرباعيات قليل . وترجع كثرته فى أشعار الخيام العربية إلى محاولته تقليد العرب إذ يَشيع الفخر فى شعرهم [١] .

٧ – ما نكاد نجد فى تاريخ الثقافة الإسلامية كله عقلا ممتازا كعقل الخيام .. أحاط بكل ما كان معروفا فى عصره من العلوم وألّف بين متناقضاتها .

والرباعيات من أنفس ما أنتجته الثقافة الإسلامية فى كل عصورها ، وأشهر كتاب شرقى على الإطلاق فى الشرق والغرب ، والغرب على الأخص . وما من لغة حية إلا وترجمت إليها الرباعيات أكثر من مرة . ولا ينازعها فى الذيوع سوى ألف ليلة وليلة [٢] .

٨ – كان الخيام يكتم إلحاده فى حياته خيفة على حياته . وما كان وحيدا فى إلحاده فى عصره ولا فيما سبقه أو تلاه من عصور . وكانت العقائد فى عصره تضطرب بسبب الفلسفة اليونانية ، وذيوع زندقة الباطنية ، وفساد سيرة الكثيرين من رجال الدين .. ففشى الإلحاد بين العامة كالخاصة والجهلة كالمثقفين [٣] .

٩ – صحيح أن بعض الرباعيات يدخل فى باب التساؤل وإظهار الحيرة فى شئون الدنيا لكن بعضها ولا شك من باب الجحود وإظهار النكران [٤] .

١٠ – بعض رباعيات الخيام يؤكد عدم تحرّيه حكمة الله .. وما يرد فيها يؤكد كفره [٥] .

١١ – ناقش الخيام فى رباعياته مسائل الدين مناقشة الجبر والهندسة ، فما انتهى إلى نتيجة لا تقبل الجدل . وانتهى به الأمر إلى الحيرة والإنكار [٦] .

ففي الرباعية التى يقول فيها :

---

(١) ثورة الخيام ، ص ٤٥ وما بعدها .

(٢) ثورة الخيام ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) ثورة الخيام ، ص ٥٧ .

(٤) ثورة الخيام ، ص ٥٨ .

(٥) ثورة الخيام ، ص ٥٩ – ٦١ .

(٦) ثورة الخيام ، ص ٦٢ .

قيل فى الجنة حورٌ قاصراتُ الطرف عِين
وخمور جاريـات فى نهور وعيـــون
أى ضير إن طلبنا الحور والخمر هنا ؟
إن هذا هو عقبى الأمر فيما يذكرون

نجد (الفرضية) أولا ثم البرهان الرياضى .

١٢ – شغلت الخيام فكرة قضية الثواب والعقاب ، وانتهى إلى الإنكار [١] .

١٣ – انتهى فى مسألة القضاء والجبر إلى أن الإنسان مسيّر لا خيرة له فى شىء ، فأنكر الثواب والعقاب وكفر بذات الله [٢] .

١٤ – عمد إلى علم الكلام فجعل يناقش صفات الله فى رباعيات عديدة على طريقته الجدلية الرياضيَّة [٣] .

١٥ – أنكر المعرّى الدينَ وكَفَر لكنه وقف عند حد ، أما الخيام فقد مضى فى كفره إلى النهاية . وقد ثار الخيام على الدين ورجاله – شأنه شأن المعرى – ثم قر عند هذه المرحلة وأقام [٤] .

١٦ – أنكر الخيام الحشر بجُمْلته ، فلم يذكر جسما ولا روحا . وليس فى رباعياته ما يجحد به الروح ، بل إن له ما يدل على إيمانه بوجوده مع الجسم ، فالمفهوم من نكرانه البعث إذاً أنه يعتقد بفنائه مع الجسم [٥] .

١٧ – آمن المعرى بالله بعد كفره بالدين وشكه فى المعاد ، أما الخيام فقد كفر بالله أيضا [٦] .

١٨ – توهم البعض أن الخيام كان يعتقد فى تناسخ الأرواح بناء على حكاية لغيره نسبت إليه لشهرته . وأن ما فى الحكاية من مزاح وسخرية ليوحى بأنه يكفر بتناسخ الأرواح ويهزأ بمن يعتقد به .

---

(١) ثورة الخيام ، ص ٦٣ .
(٢) ص ٦٤ .
(٣) ص ٦٥ .
(٤) ص ٦٦ .
(٥) ص ٦٩ ، ٧٠ .
(٦) ص ٧٠ .

والواقع أنه كان يؤمن بـ(تناسخ الأجساد) إن صح التعبير : تستحيل ترابا بعد موت أصحابها ، ثم تكون أجسادا لسواهم ، ثم تعود ترابا ، ثم تصير أجسادا [١] ...

١٩ - توجد بين رباعيات الخيام رباعيات دينية قالها تمويها وتقية ليبعد عن نفسه قالة السوء وتهمة الكفر ، ويتجنب القتل . ولقد أعد عددا من هذه الرباعيات جعلها فى جيب ذاكرته يخرجها عند اللزوم [٢] .

٢٠ - فى بيت الخيام العربى ، ونصه :

تدين لى الدينا بل السبعة العلا بل الأفق الأعلى إذا جاش خاطرى

كفر صريح . ولهذا يأتى بعده ببيت آخر تمويها وتضليلا يقول فيه :

أصوم عن الفحشاء جهرا وخفيه عفافا ، وتقديسى بتقديسِ فاطرى

ولما كان البيت مفتعلا على غير عقيدة الخيام .. فهو متكلف ضعيف المعنى مزوق الألفاظ . وبِحَذف هذا البيت يبدو الخيام إماما فى الإلحاد له أتباع مقلدون ، يقودهم إلى سواء السبيل فى وادى العمى ، الذى يقصد به (الإيمان) فيما يبدو . فالخيام يعتمد على التقية كأى ملحد يضطر لإظهار التقوى [٣] .

٢١ - يرى فردريك روزن أنه لا يمكن حمل تضاد أفكار الخيام - كالاعتقاد بالله ورحمته من جهة ، ووجود الخالق فى التقدير وغيره من جهة أخرى - إلا على سعة أفكاره وتنوُّع نظرياته . فالحكيم يضلل ويراوغ ويقول ما يعتقده أولاً ، ثم يعود فيموهه ويضيع أثره بنقيضه ليستر إلحاده [٤] .

٢٢ - ترددت كلمة الخمر على لسان الخيام أكثر من غيرها ، وواضح من تأمل رباعياته أنه لم يذق الخمر الإلهية قط ، فما كان متصوفا ، وليس له من التصوف نصيب إلا القناعة الأبيّة ، والعزوف عن زخارف الحياة ، واجتناب فتن السياسة إيثارا للعافية وتفرغا للعلم والتأمل . وكثيرا ما حمل

---

(١) ثورة الخيام ، ص ٧١ - ٧٣ .
(٢) ص ٧٤ .
(٣) ثورة الخيام ، ص ٧٥ ، ٧٦ .
(٤) ص ٧٩ .

على المتصوفة وسمّاهم الزاهدين المنافقين . فأى رباعية بها تشبيب بالخمر ووجد الحبيب .. تجدها فتقنع بأنها صوفية المغزى ، ليست للخيام . وهو يكنى بالخمرة عن عموم المعصية فى بعض الأحيان فيتخذها رمزا لما نهى عنه الدين من محرمات .

لقد تعلق الخيام بالشراب ، فقد كانت الخمر شائعة فى عصره ، وكان يجالس الملوك وينادم عِلْيَةَ القوم .. وكان لهم مجالس شرابهم ، فليس ببعيد على من ينادمهم أن يشاركهم .

وأنا لا أجزم بأن الخيام كان يشرب الخمرة ، ولكنى لا أتفق مع من يجزم بأنه لم يشربها [١] .

(هنا يتراجع فاضل عما ذهب إليه ولا يقطع برأى . ثم يحاول أن يُظهر أن كل ما يقال فى هذا الصدد مجرد تخمين) فيقول :

إنى لأتصوره أحيانا عائدا إلى بيته متأبطا كتبه وأوراقه .. كئيب النفس والصدر لما لاقى من عنت البيئة ومزعجات الزمان ، أو لما انتابه من فكر فى الموت أو تبرم بالحياة .. فيتناول كتابا ليقرأ فيركبه الغم ، ويستعصى عليه الفهم ، فيلجأ إلى إبريق الصهباء يشرب من دمه القانى حتى يثمل وينام :

اشرب الراح فإن العمر يتلوه الحمام   لخليق أن نقضّيه بسكر أو منام [٢]

٢٣ – دور المرأة فى حياة الخيام أخفى وأعقد من سواه ، وهو يذكرها كثيرا ولكن بنسبة أقل من الخمرة ، ويبدو أنه لم يوفق فى زواجه إن كان قد تزوج . ومن الصعب التأكد من سيره فى طريق العشق ، وإخاله قد أحب مرة أو مرات . وقد كانت ظروف البيئة وتقاليد المجتمع تحول بينه وبين المرأة عن غير طريق الزواج . وأما حب السوق فكان عسير المنال على كل من كان مثله مكانة ووجاهة .

---

(١) ثورة الخيام ، ص ٨٠ – ٨٦   (٢) ص ٨٦

ولم تكن للخيام جارية أو جوار لفقره وعجزه عن شراء الإماء وإعالتهن . ولم تكن حياته الجنسية طبيعية راوية ، وإنما كان يغلب عليها الحرمان .. مما أثر فى نفسه وأطواره على نحو ما ، فكان ضيق العطن سوداوى المزاج كما يروى الرواة . وتسبب فرط إحساسه وتأجج شاعريته وافتتانه بألوان الحسن ، بالإضافة إلى حرمانه ، فى أن يذهب بصوابه سحر الثغور وفتنة الجفون وتمايل القدود ، وأن ينظم رباعيات خالصة لوجه الجمال والغرام [١] .

٢٤ – حكاية السمرقندى التى رواها حول تنبؤ الخيام غير قابلة للتصديق . أما أن يتنبأ بصحو الجو .. فهذا قائم على أساس من العِلم لا تنجيم فيه ولا كهانة [٢] .

٢٥ – كان الخيام مقربا من الملوك والعظماء ، وكان قادرا على أن يتسنم ما شاء من المناصب ، ويحشد ما اشتهى من الأموال ، لكنه كان مؤثراً للعزلة والدرس ، زاهدا فى حطام الدنيا ، مترفعا عن خدمة الرؤساء والازدلاف إليهم [٣] .

٢٦ – رغم غزارة معرفته فى علوم عصره آثر التخصص فيما هو أبعد ما يكون عن منفعة مادية وأمل بالحظوة لدى عظماء الزمان ، فانصرف إلى خالص العلم من رياضة وفلك ، وما عرفنا أنه تكسب بشعره أو بعلمه .. وكان يسمى المتكسبين (المتشبهين بالعلماء) [٤] .

٢٧ – ضنة الخيام بالتأليف وبخله بنشر المعرفة يرجع إلى صروف الزمان ومحنه ، وإلى متاعبه الشخصية .. إلى جانب أن التأليف ليس من طبع كل عالم . والخيام لا يصنف إلا حين يظفر بمعلومات جديدة ، كما أنه لا يحب الهذر .

---

(١) ثورة الخيام ، ص ٨٦ ٨٩ .
(٢) ص ٨٩ ، ١٠٤
(٣) ثورة الخيام ، ص ١٠٧
(٤) ص ١٠٧ – ١٠٨ .

وربما تكون المتاعِبُ خَيْبَتَه فى إنشاء الرصد ووقف العمل فيه قبل إتمامه أو بعد ذلك (على خلاف فى الروايات) . وربما تكون انقراض أهل العلم إلا القليل وكثرة المشعبذين المتشبهين بالحكماء ممن يستخفون به وبأمثاله من طالبى الحق ومؤثرى الصدق ويؤذونهم ، وربما تكون اتهام القوم له بالكفر وخوفه على حياته وقلقه واضطرابه بسبب هذا . وربما تكون الحَجْر على تفكيره وعجزه عن إعلان رأيه واضطراره إلى تزييف شخصيته بالظهور بين الملأ على خلاف حقيقته [١] .

٢٨ – حدة مزاج الخيام وشدة تشاؤمه وعزوفه عن الشهرة وحبه للعزلة .. إما أن يرجع لفطرته وطبيعته أو لظروف بيئته [٢] .

٢٩ – إذا كان الخيام قد ذاق من الرفاهية شيئا فى بعض فترات من حياته فقد كان فقيرا قانعا فى الجملة . ولعل الفاقة ألحت عليه أحيانا فكان لأنَفَتِه يعانى طول العوز ويتحسر على المال ويثور على الدهر لإغداقه على الجهلة الأوغاد واضطهاده العلماء الأحرار [٣] .

٣٠ – كان الخيام ذواقة للجمال مغرما بالطبيعة من زهور وربيع وماء ... فهى تعوضه عما زهد فيه من متاع الدنيا .. حتى لقد تمنى – رغم انكاره الحشر وإيمانه بفناء الروح – أن يدفن فى مكان تنثر ريح الشمال فيه الزهر على ثراه ليستمتع به ولو من تحت التراب [٤] .

٣١ – كان الخيام يؤمن باللذة الإيجابية فى دعوته إلى الاستمتاع بمسرات الحياة ، وإن كان يفهم منه أحيانا أنه يعد اللذة متعة سلبية هى مجرد إسكات الألم [٥] .

٣٢ – جعله التشاؤم المفرط ساخرا كبيرا .. يستخرج الفكاهة المضحكة القاسية من آلام نفسه ويسخر [٦] .

---

(١) ثورة الخيام ، ص ١٠٨ – ١١٢ .

(٢) ثورة الخيام ، ص ١١٤ ، ١١٥

(٣) ثورة الخيام ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٤) ثورة الخيام ، ص ١١٩ .

(٥) ثورة الخيام ، ص ١١٩ .

(٦) ثورة الخيام ، ص ١١٩ .

٣٣ - فلسفة الخيام مزاج من اليونانية والعقائد الباطنية القائمة على الجدلية والإلحادية ، ومن نزعات القرن الخامس ومن شخصيته هو . وهو متأثر فى الكثير من أفكاره بأبى العلاء المعرى .. لكنه لم يسرق أفكاره و لم يقتبسها منه ، بل تأثر به كما يتأثر كل مفكر بمن يشاكله ممن سبقوه [١] .

٣٤ - الخيام أشعر من المعرى ، والمعرى أفكر من الخيام . فشعر المعرى منطق وتفكير يكاد يخلو من شعر وطلاوة ، ومنطق الخيام وتفكيره فى رباعياته يكاد يسيل طلاوة وشعرا بالقياس إلى صاحبه .

والمعرى أوسع آفاقا فى فلسفته ، أما نشاط عقل الخيام فكان موزعا لا يستطيع أن يحبسه على الفلسفة وحدها . ومع ذلك فهناك ما لم يفصح عنه فى رباعياته من مواضيع الفلسفة مما كان يذكره لتلاميذه .. فالرباعيات ليست سجلا لفلسفته ، وإنما هى خطرات عابرات قال فيها ما ضاقت به نفسه ، أما ما ترك ذكره منها فأكثر بلا مراء . وقد اعترف بأن خوفه نقمة الجهال كان سبب الكتمان :

جزع الدهر علينا مذ رحلنا وقنط   أن ثقبنا درّة من مائة فيه فقط
لهف نفسى كم ألوف من معان فى سفط   حال عن إعلانها بالناس جهل و شطط [٢]

٣٥ - لا يعوّل على النثر فى استنباط فلسفة الخيام لأنه كان يراوغ فيه ويموّه . أما الرباعيات فكان ينظمها لنفسه - كما افترضنا - ويقرؤها على من يطمئن إليه ، فهى لذلك تمثل فلسفته أصدق تمثيل . وإن كانت ناقصة [٣] .

* * *

---

(١) ثورة الخيام ، ص ١٢٠   ١٢٢
(٢) ثورة الخيام ، ص ١٢٢ - ١٢٤ .
(٣) ثورة الخيام ، ص ١٢٥

وفى عام ١٩٦٠ م قام محمد عبد الغفار الهاشمى الأفغانى – مدرس الفارسية بجامعة الأزهر آنذاك – بوضع كتاب حول الخيام ، أسماه (رباعيات الخيام الحقيقية) . وقد قام فيه – إلى جوار الدراسة – بترجمة مائة رباعية .. ترجمة نثرية . وذكر فى مقدمته أنه لا تجوز نسبتها لغير الخيام ، ولا تجوز نسبة غيرها إلى الخيام . وقد جاءت الترجمة جافة ، حافلة بالأخطاء ، ركيكة ، حرفية .. إذ كان الهاشمى يترجم الرباعية كلمة كلمة نتيجة لعدم تمكنه من أصول الكتابة وأدواتها فى العربية ، رغم إجادته التحدّث بها ، وقد أطلقتُ هذا الحكم بناء على عملى معه فى حقل تدريس الفارسية سنوات عديدة .

ومع صفحات الكتاب الأولى يحس القارئ أن الهاشمى قد جرد من نفسه مدافعا يزود عن حمى الخيام ، ومهاجما يهجو كل من عاب عليه مسلكاً ، ومادحا يشيد بكل من وقف إلى جانبه . ولهذا رأيناه يسجل إعجابه برأى نيكولا الفرنسى .. الذى شهد بأن الخيام شاعر صوفى شغل بالعشق الإلهى وسكر بخمرة الحب القدسى (حب الله) ، ويطريه لأنه شبّه الخيام بالشاعر الإيرانى الشهير حافظ الشيرازى . ويحكم عليه بأنه منصف ، عرف أوضاع علماء الدين الإيرانيين ، وكيف يتعدون عن سفاسف الحياة لهوا ولعبا ومجونا [١] .

ولكى يدافع عن حمى الخيام .. فسّر الهاشمى ما ورد فى بعض الرباعيات من كلمات وعبارات وأفكار تفسيرا صوفيا .. فجرعة الخمر هى نفس واحد فى حب الله ، والسكرة هى الإغراق فى حب الله ، والخمر هى حب الله ، والخضرة هى أرضية العبادة . والحب يكون لله وحده لا خوف ناره ولا ابتغاء جنّته .

ويواصل دفاعه فيسقط عن الخيام تهمة الفلسفة ويجعله عالما يبحث عن حقيقة نفسه [٢] ، ويضع تعليلات واهية ليبعده عن الجبرية ويجعله مخيرا .. رغم ما تؤكده الرباعيات التى يستشهد بها .

---

(١) رباعيات الخيام الحقيقية ، ص ١٥ .

(٢) رباعيات الخيام الحقيقية ، ص ٣٣ .

وإذا وجده يتمنى الموت وصفه بأنه حكيم صالح يضيق بشرّ الحياة . ويرى أن موقفه موقف الباحث وليس الشاك كما يقول من لا يفقه لغة الخيام . ويؤكد قناعته ، وبغضه للمنّة والغرور والبخل .

ومن العجيب أن يبرر نسيان الخيام خالقه بانشغاله بالتنجيم ، وأن يعترف الخيام بالسكر فلا يعترف هو بذلك (١) .

ويصرّح الهاشمى فى مقدمته (٢) أن كلام رامى وعباراته – حول حب الخيام للخمر ، وشربه لها لتسمو بروحه ، وحبه لطعمها المز ولونها وكأسها ودنّها ، وسعادته الغامرة فى مجلس الشراب مع الصاحب والنديم – من ترهات الخمّارين الذين يهزون سكرا وعربدة ويحسبون أنهم يحسنون صنعا .

ويؤكد – دون دليل – أن المسلم عمر الخيام لم يذق خَمْرَ السكر والعربدة فى حياته بشهادة معاصريه (٣) .

ويعيب على رامى ابتعاده عن ذوق الخيام وتركه العنان لخياله وآلامه ، وأحزانه وأوهامه لتبلغ به حد الهجوم على هذا الحكيم الفارسى الشرقى والعالم الدينى الجليل .

ويقول محتداً : إن رامى قد تحدّث عن نفسه بدلا من حديثه عن الخيام . لقد هام بحب الخمر والنساء ، ونظر فى مرآة الخيام إلى نفسه هو فخدعته نظرته ، ونسى الخيام وأجاد فى التعبير عما يختلج فى صدره هو (٤) .

ويختتم دفاعه بقوله : لقد خرجت من دراسة الخيام بأن كل رباعية تخالف الشريعة الإسلامية – سواء من الخيام أو غيره – هى من جميع وجوهها ليست من الخيام الحقيقى ولا من مسلم .. ولا سيما هذه النماذج :

---

(١) رباعيات الخيام الحقيقية ، ص ٤٧،٦٥ .
(٢) ص ٢٤
(٣) رباعيا الخيام الحقيقية ، ص ٢٥ .
(٤) ص ٢٣ .

الخمريات – التشاؤم – اليأس – التشكك – سلب الاختيار – إباحة النساء – إهانة أهل الدين – إهانة المسجد – إهانة عقيدة الخير – إهانة العلم – اهمال الحياة – إظهار عدم المبالاة [١] .

* * *

ممن اهتموا بالخيام ورباعياته أحمد حامد الصراف ، فقد وضع كتابا قيّما ، ضمّنه دراسة واسعة عن الخيام ، تناولت حياته وسيرته ، وعصره السياسى والعلمى ، وعلماء عصره وأدبه ، وفلسفته ومصادرها ، ونظراءه ورباعياته ورسائله .

وأسمى كتابه (عمر الخيام الحكيم الرياضى الفلكى النيسابورى) . وطُبع الكتاب أكثر من مرة مؤكّداً سعة اطلاع الصراف وسيطرته على الفارسية وقدرته على الاستنتاج .

وقد ضمن الدراسة عددا من رباعيات الخيام بعد تعريبها .. فكان يثبت الرباعية الفارسية ليستشهد بها – وفق سياق البحث – ثم يترجمها إلى العربية نثرا .

وفيما بين صفحتى ٢١٠ ، ٣٠٩ قام الصراف بترجمة ٢٠٠ رباعية نثرا ، مُثبِتا أصولها الفارسية . وتقترب الترجمة كثيراً من المعنى الذى تحمله المفردات ، وتكاد تكون حرفية . وهى تفتقر إلى روح الخيام وبلاغته وإيحاءاته . ولا شك أن المقارنة بينها وبين معظم الترجمات التى ذكرناها – من هذه الزاوية – ليست فى صالح الصراف .

ويذكر الصراف أن مربيته الإيرانية هى التى شوقته إلى الاطلاع على أدب الخيام وسيرته ، فعثر على نسخة من الرباعيات ، لكنها رفضت أن تدرّسها له ، لأن فى شعره مالا يتفق مع الشرع . وبعد إلحاح وافقت فأخذ فى دراسة مسيرة أدبه .

وقد ذكرت له هذه المربية أن الخيام كان مدمنا للخمر ، جريئا على ربه .

---

(١) رباعيات الخيام الحقيقة ، ص ٢٨

وحدثته عن تناسخ الأرواح ، وقالت إن الخيام برئ من تهمة التناسخ ، وقد وهبه الله الإيمان قبل وفاته بسبب رباعية قالها .

لقد تطاول على ربه فقال :

حطمت يا إلهى إبريق خمرى ، وأوصدت باب الأنس فى وجهى ..
سكبت على الأرض خمرتى الوردية ، التراب لفمى ، فهل أنت سكران يا ربى ؟ .

وقد اسودّ وجهه فترة بعد قولها ، ثم عاد سيرته الأولى بعد قوله :
يا إلهى إن قلبى قاصر عن معرفة أسبابك ، وما تفكيرى إلا مناجاة لك .
أنا لا أعرف ذاتك حق المعرفة ، ولا يعلم ذاتك غير ذاتك .

وهذه نماذج من ترجمته :

إن الدائرة التى فيها نجيء ونذهب ، ليست بذات بداية ونهاية .
لا أحد يستطيع أن يقول من أين هذا المجيء ، وإلى أين هذا الذهاب .

* * *

لمّا ركب الخالق الطبائع ، لماذا جعلها بين النقص والزيادة ؟
فإذا جاءت رديئة فالعيب عليه ، وإذا جاءت جيدة فلماذا يخربها ؟

* * *

إن كل ذرّة على وجه الأرض ، هي وجه زهراء الجبين .
يا هذا انفض التراب عن أدرانِك بأدب ، لأن ذلك أيضا وجه جميلة فاتنة .

* * *

لا أستطيع أن أبوح بسرى لكل طيب وخبيث .
أنا قاصر الكلام لا أستطيع أن اطيله ..
لى حال لا أستطيع أن أشرحها .
وسر لا أستطيع أن أقوله .

وهذه نماذج أخرى نقرنها بالنصوص الفارسية لبيان مدى اقترابه من المعانى الظاهرة فى الرباعيات الفارسية :

خيام تنت بخيمه مانـد راست جان سلطانيكه منزلش دار بقاست
فراش ازل زبهر ديكَر منـزل نه خيمه بيفكند جو سلطان بر خواست

يا خيام إن جسدك يمثل الخيمة حقا ، والروح التى منزلها دار البقاء .. تشبه السلطان . فإذا ارتحل السلطان أفلا تقوض الخيمة ؟

خيام كه خيمه هاى حكمت ميدوخت دركورهٔ غم فتاد وناكَاه بسوخت
مقراض اجل طناب عمرش ببريد دلال امل برايكَانش بفـروخت

وقع الخيام الذى كان يخيط خيم الحكمة ، فى كور الغم فجأة واحترق. وقد قرض مقراض الأجل طنب عمره ، وباعه دلال الأمل رخيصا .

مى خوردن من نه از براى طرب است
نى بهر فساد وترك دين وادب است
خواهم كه بيخودى بر آرم نفسى
مى خوردن ومست يود م زين سبب است

ليس شربى الخمر من أجل الطرب ، والفساد وترك الدين والأدب .
وإنما أريد أن أتنفس الصعداء وأنا ذاهل عن نفسى ..
فشربى الخمر وسكرى لهذا السبب .

ومن دراسة الخيام ورباعياته .. يخلص الصراف إلى ما يلى :

١ – من الافتئات على الخيام والافتراء عليه وصمه بسوء الخُلُق وضيق العطن . أما حدة الطبع وعصبية المزاج فهى صفات قد تلازم الحكماء والمفكرين أحيانا (١) .

---

(١) الصراف : عمر الخيام الحكيم ... ط ٣ ، بغداد ١٩٦٠ م ، ص ٨ .

٢ – تختلف أمزجة العلماء ، فمنهم من يُقبل على التأليف ومن يصدف عنه ، ولذا قلّ نتاجه وقيل إن له ضنّة بالتأليف .. وقد لا يدل الإكثار على فضل المؤلف [١] .

٣ – اتهم بالزندقة شأنه شأن الكثيرين قبله من ذوى الفضل والأفكار الحرة [٢] .

٤ – من يقرأ الرباعيات يوقن تماما أنه كان موحدا يؤمن بالله الواجب الوجود الأزلى السرمدى ، ولم يكن من الملاحدة التائهين فى بيداء الضلالة كما زعموا [٣] .

٥ – لم يكن من أصحاب المذاهب الخاصة بالفلسفة [٤] .

٦ – لم يبتدع فى الحكمة أسلوبا خاصا استقل به وحده ، ولم يأت بمقالة جديدة ، بل درس الفلسفة اليونانية [٥] .

٧ – كان يعتنق الجبر ويقول بقدم المادة والزمان . ورأيه فى واجب الوجود يختلف عن غيره ، فهو مؤمن بإله هو الخير المحض الذى لا يصدر منه الشر [٦] .

٨ – كان متمكنا من العربية والفارسية ، وكان شاعرا لا يتكسّب بشعره [٧] .

٩ – اختص بنظم الرباعى ، وعروضه (لا حول ولا قوة إلا بالله) . وهو فى اصطلاح الأدب الإيرانى (رباعى برداز) [٨] .

١٠ – لم يصل أى فارسى إلى منزلته فى نظم الرباعيات أو وَصَلَ إلى العمق الذى غاص فيه .. ولم يتمكن شاعر إيرانى من التعبير عن هواجس الناس كما فعل [٩] .

١١ – لم يكن يهمه نشر الفضيلة وحمل الناس على الخير والمعروف والطريق المستقيم [١٠] .

---

(١) الصراف : عمر الخيام الحكيم ... ط ٣ ، بغداد ١٩٦٠ م ، ص ٨ .
(٢) ص ٩ . (٣) ص ٩ . (٤) ص ٩ . (٥) ص ١٠
(٦) ص ١٠ . (٧) ص ١٠ . (٨) ص ١١ . (٩) ص ١١ .
(١٠) ص ١٢ .

١٢ – يعتبر شاعر الخاصة والأذكياء والمهمومين والحكماء [١]

١٣ – لهج بالخمرة لأنها الدواء الذى ينسيه آلام الانطفاء التام والعدم الأبدى [٢] .

١٤ – أقدم الوثائق التاريخية التى وردت بها أخبار الخيام كتاب : (الزاجر للصغار عن معارضة الكبار) – المؤلف سنة ٥١٦ هـ – للزمخشرى [٣] .

١٥ – كان الخيام يحترم العالِم الجليل وإن تفوّق عليه [٤] .

١٦ – سافر فى رحلتين .. الأولى إلى الرى وبلخ وبخارى . والثانية إلى بلاد العرب ، ذهب فيها إلى الحجاز وبغداد [٥] .

١٧ – كان الخيام يمثل آراء الباطنية فى عصره وكان له اتصال قوى بهم ، ونكاد نجزم بأنه كان داعية من دعاتهم [٦] .

١٨ – الخيام شاعر ليس كالشعراء .. نطق بالشعر تعبيرا عن آلامه وأحاسيسه ، وبإجبار من نفسه الثائرة . لم يصف إلّاما كانت تشعر به روحه ويضطرم به قلبه ، ولم يسخر إلا ممن كان يعارض عقيدته [٧] .

١٩ – يختلف غرضه عن أغراض الشعراء .. هدفهم شئون الحياة ، وهدفه علة الحياة . هم يتغزلون ويمدحون ويهجون ، وتلهيهم سفاسف الحياة ، أما هو فيتغزل بالطبيعة ويشكو الفلك ، ويصف آلام نفسه وأفراحها . لا يهدف لمال إنّما يعالج الحال ويبحث عن الحقيقة وأسباب الخليقة والفناء والزوال . الخمر تجلب لهم السرور ، وتدفع عنه الآلام . هم يهجون وهو يلوم .. يلوم الكوّاز لركله الطين بقسوة .. فهو أصدق الشعراء لهجة وأوفرهم صراحة وأكثرهم جرأة [٨] .

---

(١) الصراف : عمر الخيام الحكيم ... ط ٣ ، بغداد ١٩٦٠ م ، ١٢

(٢) ص ١٤ . (٣) ص ٢٨، ٢٩ . (٤) ص ٢٩ (٥) ص ٤٨، ٤٩

(٦) ص ٦٨ (٧) ص ٩٨ . (٨) ص ٩٩

٢٠ – الرباعيات مظان فلسفة الخيام ومستودع آرائه [١] .

٢١ – تزوّج الخيام وأنجب أولادا لم يذكر التاريخ منهم إلاّ بنتا تزوجها البغدادى الذى نوه به ظهير الدين البيهقى [٢] .

٢٢ – ظهور اسم موفق الدين فى حكاية الزملاء الثلاثة أوحى بأن رفيق الخيام والصباح هو نظام الملك . والظاهر أن هذه التلمذة كانت لعميد الملك الوزير الكندرى مع الباخرزى ، عَلَى الإمام موفق الدين النيسابورى ، فنسبت إلى النظام ونحلها [٣] .

٢٣ – إن المعانى الجليلة التى تضمنتها الرباعيات صادفت هوى فى القلوب على اختلاف المشارب ، ولاءمت الأذواق والطباع . فليس فى الرباعيات تلك المسحة الشعرية الآرية والخيال الواسع ، وإنما تجلى فيها الذوق الإنسانى العام . فكان الخيام كمن ترجم عن إحساس الناس وعبر عن شعورهم وشكوكهم وتخيلاتهم وآمالهم وآلامهم ، وباح بمكنوناتهم ودخائلهم .. وهذا هو السر الذى بعث الميل إليه فى نفوس الناس [٤] .

ممن امتدحهم الصراف من بين المعربين لرباعيات الخيام .. الدكتور مصطفى جواد حين قال : وعبد الحق فاضل ممن تفهموا الخيام ومغزى رباعياته ، يشاركه فى ذلك ثلاثة فى العالم العربى لا غير : الصافى والهاشمى ومصطفى جواد . أما الآخرون فما تعرّفوا الخيام ولا رباعياته ، بل اعتدوا عليه سامحهم الله [٥] .

وفى الطبعة الثالثة من كتاب الصرّاف [٦] . وتحت عنوان (نماذج من ترجمتين جديدتين لرباعيات الخيام) ١ – أهازيج الخيام ٢ – أخيلة الخيام .. يقول الصراف تحت العنوان الأول أنه سوف يعرض رباعيات قام بترجمتها شعراً

---

(١) الصراف : رباعيات الخيام ، ص ٩٩ .
(٢) ص ١٦٥ .
(٣) ص ١٨٠ .
(٤) ص ٣٠٩ .
(٥) ص ٣١٨ .
(٦) طبعة بغداد ، ط ٣ ص ٣٦٨ ، طبعة عام ١٩٦٠ م .

الدكتور مصطفى جواد .. كما فعل قبل ذلك مع الطبعة الثانية ، حين أخذ المعانى النثرية لبعض الرباعيات التى ترجمها الصراف واختارها له .. ونظمها على طريقة التسميط السباعي الأشطر لأنه عجز عن تضمين أربعة أشطر عربية معانى الرباعية الفارسية .

ثم يعرض ما نظمه جواد مما اختاره له من رباعياته النثرية ، وعددها ١٨ رباعية [١] .

وقد استطاع جواد بنظمه أن يسجل المعانى التى ذهب إليها الصراف فى رباعياته النثرية تسجيلا دقيقا .. فى كلمات رقيقة وعبارات موحية وسبك يشهد له بالتميز .. دون أن يلتزم بمبنى الرباعيات فى الفارسية .

ومن الرباعيات التى نظمها جواد :

عـادتى شرب الحُميـا سرورا واعتقادى هجرى الهدى والكفورا
أنا لا أجعل الخصام عبـورا زادنـا للبـحث والجدال شرورا
لعـروس الزمـان قـلت مشيرا أى مهر تبغين قالت : يسيرا

قلـبك المزدهـى ، فخـل الـنضارا

ان ذاك القصر الذى فى التسامى زاحمتـه الأفـلاك اىّ زحـام
وفريـق مـن الملـوك العظـام سجـدوا عنـد بابـه باحتـرام
مدحت فوقه الفواخت (كوكو) فسّرته الورى بأيـن الملـوك ؟

غـادروه وخلّفـوه اضطـرارا

مذ بدا فى السماء نجم وبدر ذا جمان وذاك فى الشكل در
لم يـر النـاس والمفاتـن كُثر فيه خيرا مما اسمه العذب خمر

(١) ط ٣ ، ص ٣٦٩ - ٣٧٧ .

عجبا للذين باعوا الراحا ما الذى يشترونه استرباحا

وهو خير منها وأسمى اعتبارا ؟

اغسلونى إذا رمانى القضاء بسلاف لنورها لألاء

وبخمر فى الجام أنى أشاء لقنونى فذاك حقا غناء

وبيوم النشور إن تطلبونى فى تراب بحانة تجدونى

فمَعادى فى صحبة الخمر سارا

إن أكن شاربا لخمر الدنان من مجوس عَنَتْ لرَب ثانى

أنا ذاكم حقيقتى فى عيانى كثرت قالة الزمان بشانى

أنا نفسى ملك لنفسى أكون مثلما أشتهى وتبقى الظنون

حائمات حولى تريد اختبارا

مفتى الناس خلّ عنك الدعاوى هل تظنن أننا نتساوى ؟

نحن أهدى وإن حذقت الفتاوى نحن أصحى ولو نكون نشاوى

قد شربنا دم العناقيد سكرا وشربت الدماء ظلما وجورا

أينا سفكه أشد دمارا ؟

أنت حتام فى المساجد تبقى تسرد الصوم والصلاة وتشقى

عش ثمولا ولو بشحذ فتلقى أيهذا الخيام للعيش ذوقا

قبلما يحملون ذى الأبدانا مرة أكؤسا ومراً دنانا

ومراراً جاما يفيض عُقارا

كان هذا الكوز الصموت مثالى

مغرما فى الغدو والآصال

مستهاما بفرع ذات جمال

يتمنى المنى بقرب الوصال

هذه العروة التى فى الجيد
بعد صَبٍ كانت على التأكيد
مدّها لاعتناق إحدى العذارى

– تعدل الكأس ألف قلب ودين وقليل منها عديل الصين
فهى المُرّة التى باتفاق فضلت ألف حلوة فى المذاق
ليس فى الأرض غيرها من ثمين
إن نظرنا بمستنير اليقين
فارتشفها لتدرك الأسرارا

– قال شيخ لمومس أنت سكرى
فى حضون الأخدان صبحا وظهرا
فأجابت إنى كما قلت بهرا
فحياتى استوت خفاء وجهرا
لم أحاول إخفاء حالى فقل لى
أنت فى السر مثلما فى التجلّى
أيها الشيخ كم تدلّى الستارا

* * *

وقد قام الأديب إبراهيم العريّض بنقل ١٤٧ رباعية للخيام إلى العربية نظماً ، ونشرها فى كتاب دون أن يذكر تاريخ الطبع ، واكتفى بأن ذكر لنا – فى المقدمة – تاريخ النظم .. وهو الثالث من شعبان عام ١٣٥٤ هـ .

وقد قلد العريض الرباعية الفارسية فى الشكل والقافية ، لكنه – بدءاً من الرباعية رقم ١١٩ – أورد تسع رباعيات تكوّن مع بعضها صورة مترابطة ، وتؤدى حوارا متصلا بين مجموعة من الجِرار فى مصنع خزّاف .

وهكذا خرج عما هو معهود بالنسبة للرباعيات .. وهو أنه لا صلة بين رباعية والسابقة عليها أو التابعة لها .

وفعل نفس الشيء حين وصل فى المعنى بين الرباعيات ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، بحيث تكوّن ثلاثتها نبوءة الخيام المتعلقة بدفنه فى موضع تسقط عليه الزهور فتغطّيه .

وقد اقترب الشاعر فى ترجمته من المعنى الذى يقصده الخيام فى أحوال كثيرة ، غير أنه لم يثبت الأصل .. مما يقتضى الباحث جهدا لعقد المقارنة ..

ويُحمَد للشاعر حسن اختياره للمفردات ، وميله إلى السهولة والوضوح .

ويلاحظ أنه قد أُثبت عقب بعض رباعيّاته تعليقات موجزة لا تخلو من فائدة .

وهذه نماذج من ترجمته :

الرباعية ١٠
هنالك فى ظل غصن مديد
بقرص رغيف وكأس وعود
وصوتك حلو على عزفه
نعيش كلانا حياة الخلود

الرباعية ٢٠
وهذا النبات الذى باخضرار
أطلّ على النهر والنهر جار
تسنّد عليه برفق ، أخى
فقد قام من ثغرٍ عذب الموار .

الرباعية ٢٦
فجدد مع الكاس عهد غرامك
وحَلِّ مرارتها بابتسامك
وعجل فجوقة هذى الطيو
رقد لا تطيل الطواف بجامك .

الرباعية ٤٢ فـإنى سمعت بـأذنى كـوزا
يقول : أهنت بلطمى عزيـزا
ألست كمثلى – خزّافُ – طينا ؟
فتلك إذاً قسمة لى ضيزى .

الرباعية ٤٥ أخزاف إن تشك جور الحيـاة
فـإنى رأيـتك دون انتبـاه
تخبط فى الطين تصنع كـوزا
برجل فقير ، وقُلّـة شاه .

الرباعية ٧٠ رجاء النعيم ، وخوف السعير ..
سأحيا بوهمهما فى غـرور
فجُـلّ يقينـى بـأنى سأفنـى
وهل قط نوّر ذاوى الزهور ؟

الرباعية ٧١ لشكرك أمس على ما منـنت
رفعت لك الكاس حتى ظننت ...
وتـكسر إبريقهـا اليـوم ربى
(تراب بفـى) أسكـران أنت (١) ؟

الرباعية ٧٤ ولا خلق إلا وقـد زل قـبلى
ومن لم يسىء منهم كيف أبلى ؟

---

(١) يعلق العريض فيقول : المعنى فى آخر الشطر مضمر ، ولعل تمامه : حتى ظننتُ أنا أنك منادمى . أو حتى ظننتَ أنت بى الظنون . وهو فى الحالين تطاول من الخيام على ذى العزة جاوز حده فى الشطر الأخير ، قد لا تجد له نظيرا فى الشعر الإسلامى كله . ومما تنوقل كالأسطورة أن الخيام لمّا أنشد هذه الرباعية غام على وجهه السواد ، فلم يزل كالحا حتى أنشد الرباعية التالية لها (الرباعية رقم ٧٢) فعاد إلى وجهه الإشراق ، والله أعلم .

اتنـــددنى رب صاعـــا بصاع
فما الفرق بينى وبينك ؟ قلْ لى

الرباعية ٧٥
وفى الخمر سر حيـاتى البديـع
فمـا لشتـائى سواهـا ربيـع
أخمّارهـا مـا الـذى تشتريـه
بمالك أحسن مما تبيـــع ؟

الرباعية ٧٢
أخـالك تـرثى لحالى أخـالك
وبينـى وبين الضيـاع نـوالك
ايسودّ من قالة السوء وجهـى
فأين سماحك .. أين احتمالُك ؟

الرباعية ٨٣
رعيتَ العباد وهم لا يـروْنَك
فصار الجناة ضحاياك .. أينك ؟
إذا أنت كافأت ذنبى عقابا ..
فما الفرق يارب بينى وبينك ؟

الرباعية ٩٥
وقـال لمومسة .. ذو غضون
بعينك وعـد ألا تستـحين ؟
أجابت : صدقت كذلك نحن
فهل أنتمو مثل ما تظهرون ؟

الرباعية ١٠٠
أمـا بينكـم مؤمـن بجديـده ؟
أمـا بينكـم كافـر بحدوده ؟
أمـا بينكـم طامـع مستقـل ..
فيقتحم الكون خلف حـدوده [1] ؟

(١) لم أجد أصلا لهذا الرباعى الذى يكشف اللثام عن سبب قول الخيام لما كان يقوله .. مما يؤخذ عليه ويلام بسببه .

الرباعية ١٠٣ ولا عشتُ إلا بزهو شبابى
وللناى يطربنى والرباب
فلو صنعوا ناطلا من ترابى
فلا زال مختمرا بالشراب

الرباعية ١٠٤ لئن قمت فى البعث صفر اليدين
وعُطِّل سِفرى من كل زين
فيشفع لى أننى لم أكن ..
لأشرك بالله طرفة عين

الرباعية ١١٠ فأين عدالة ربى أين ؟
إذا اضطرنى أن أؤدى دينا
جرى عقده لى بدون رضاى
وقايضنى بنضارى لُجَيْنا ؟

الرباعية ١١٣ فيامن نصبت بدربى الشباك
فلا أستطيع عليها حراك [1]
أتنذرنى بعد ذلك ؟ ثم
تقول : هوى بك فيها هواك

الرباعية ١١٦ إذا محض كونى هنا باضطرار
وحتى اختصاصى بأهل ودار
وجنس وقلب يؤول إليك
إذاً كيف أُصْلَى عليها بنار

الرباعية ١١٧ أتيتُ وما باختيارى أتيتُ
ولما وهى خيطها بى هويت

---

(١) حراك ، صحتها نحويا : حراكا .

وتلقـــى على كاهلى ضعفهـــا
ولا .. ذا جنيت ، فماذا جنيت ؟

من الرباعيات الثلاثة التالية (١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١) تتكون نبوءة الخيام التى أشرنا إليها :

إذا أذنت بانخمـــاد حيـــاتى
فشيّـع بمشبوبـة الــراح ذاتى
وتحت ظلال الكـروم لــقبرى
بأوراقهـا هـى كفـن رفــاقى

بشرقيّها حيث تلقـى جـدارا
تميـل عليها الـغصون ازدهــارا
فما جاذبت ذيلهـا الـريح إلا
وينـتثر الزهـر فـوق انـتشارا

ليعبـق لحدى بأزكـى عـبير
ويغمـر أرجـاء تـلك القبـور
فلـو مـر مـن كـثب زاهــد
لرنّحـه السكـر حتـى يخور

الرباعية ١٣٥ وكوزى أما كان مثلى يوما يكبله فرع هيفاء دوما ؟
فما تلك عروته ، إنما يد طوقت جيد مغناج نوما

الرباعية ١٣٧ سأشربها إذ هى الحاصل فما الحق حاشاك ما الباطل
ساعصيك بالضد حتى أرى أذنبىَ أم عفوك الشامل

الرباعية تـولت ليـالى الربيـع الـقصار
وأسدل دون الشبــاب الستــار
وعهـدى بـطير الصبـا شاديـا
لىَ الله أنَا أتى ، أين طار ؟

الرباعية ١٤٢

فلو أن لى قدرة كالإله
أما كنت آتى على ما بناه
وأبنى على أسِّهِ من جديد
نظاما يُسَر له من رآه

* * *

وممن عرّبوا رباعيات الخيام ، وقاموا بكتابة دراسة وافية حولها وحول الشاعرِ الفارسى ، الأديبُ أبو نصر مبشّر الطرازى الحسينى . وقد نشر المؤلف كتابه فى القاهرة (دون ذكر تاريخ الطبع) ، وأسماه « كشف اللثام عن رباعيات الخيام » .

ومن الصفحات الأولى للكتاب يتأكد للقارئ أن الطرازى قد تبنّى فكرة أن الخيام قد شوّهت صورته ، ونُسبت إليه فلسفة ليست له .. لإيقاع الشرقيين والمسلمين فى الخطأ . كما تبنّى فكرة أن المغرضين قد انتصروا وحققوا أهدافهم .

وقد ذكر صراحة أن الغرض من تأليف الكتاب إنما هو بيان طائفة من الباحثين والكتّاب والمترجمين . وتبيين انخداع الشرقيين – ولا سيما الخياميين المتطرفين – رجاء تخليصهم مما أسموه « فلسفة الخيام » التى دفعت بهم إلى حضيض الأهواء والأوهام ، وساقتهم نحو الفساد والانحلال ، ورمت بهم فى مهالك الجهل والضلال .. مع التنبيه على ما لِعبَهُ أعداء الإسلام ورجال الاستعمار من دور خفى دقيق فى هذا المضمار [١] .

ولم يكتف بمهاجمة العديد من المترجمين والباحثين ، وإنما اتخذ من آرائهم المجومية تكأة لامتداح الخيام .

فحين يقول الأديب التركى شمس الدين السامى : « ومع أن عمر الخيام كان غير مجتنب كثيرا من النواهى .. فإن بعض الخوارق للعادة منقولة عنه » .

---

(١) كشف اللثام عن رباعيات الخيام ، ص ٨ .

يعلق الطرازى قائلا : هذا كلام متضاد ، فصاحب الخوارق لا يكون إلا صالحا . ولا تظهر كرامات الخيام إلاّ فى تنبؤه بموضع قبره ، وهذه – إن صحت – تدل على صلاحه .

وحين تنسب إلى الخيام رباعيات خمرية .. ينبرى طرازى إلى الحكم بأنها مختلقة ، ويستند إلى أن كل القدامى لم يشيروا إلى فسقه وشربه ومجونه . ومجالسته للنساء والغلمان .

ويعارض التتوى ، فيقول إن قوله باعتناق الخيام لمذهب تناسخ الأرواح قول مرفوض ، واعتناقه للمذهب لا أساس له . وأن القصة المروية فى هذا الصدد لا تعدو إن تكون خبرا فيه مطايبة وهزل ، ولا يكفى دليلا .

ويرى أن الرباعية التى يشير فيها الرازى إلى دهريّة الخيام لا تكفى لإثبات هذا الزعم ، ولا تتفق مع ما رُوى عنه عن اعتقاده الإسلامى .. مما جاء فى الروايات الموثوق بها . وأنها وأمثالها مدسوسة من حاقدين على مقام الخيام ومكانته كأى عظيم [1] .

وحين يؤكد الصراف أن الخيام متأثر بالعقائد الباطنية ، معتنق مناصر قوى لها ، بل ربما يكون من دعاتها .. ثم يأتى بست رباعيات لإثبات ما ذهب إليه .. يبادر الطرازى إلى الطعن فى تلك الرباعيات ، ويصرح بأنها مضطربة بعيدة عن أصول الاستدلال والمنطق ، وفيها غلو ومبالغات لا محل لها .

كما ينكر ادعاء الصراف بأن الخيام قد اجتمع بالصباح ، ولا يتصور أن يُبطِل الخيامُ المسلمُ المعادَ والنشرَ ويُنكر الجنةَ والنارَ فى بيئة إسلامية متمسكة بدينها . ويتساءل : ألا يعرّضه هذا للخطر ؟ ، هل الصوفية يؤولون إبطال القول فى المعاد والنشر ؟ . وهل ينكرون الجنة والنار استنادا لأى تأويل ؟ [2] .

---

(١) كشف اللثام ، ص ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

(٢) كشف اللثام ، ص ٦

وحين يتهم الصراف الخيام باعتناقه الفلسفات : اللاأدرية والتشاؤم والجبرية ، يطعن الطرازى بأن اتهامه بدون دليل . ويرى أن امتداح الصراف للخيام بالعقل ، والحكمة ، وعدم اضطراب المزاج ، وبالمكانة العلمية والرزانة .. فيه تجميع لصفات تتنافى مع الاتهامات السابقة . ويتساءل : كيف يقول الصراف : (إن الخيام ليس خليعا سافلا وإلا ما جالس العظماء) .. بينما هو يتهمه بإيراد رباعية يفضل فيها الخمر على الدين ، ويجعلها كل شى فى الحياة ؟ . إن الصراف يعتمد على الرباعيات وهو يعرف أنها قد تكون مدسوسة أو من غير الخيام .. فكيف يطلق أحكاما قاطعة ؟

وحين يقول فاضل فى كتابه (ثورة الخيام) أنه يؤمن إيمانا يقينيا بأن الرباعيات التى يوردها .. صادرة عن الخيام . وينسب للخيام – عن طريق هذه الرباعيات – أنه ثائر على كل شيء . ويعتمد عليها تمام الاعتماد ..

ثم يقول فى موضع آخر إنه ليس على يقين بأن الرباعيات التى تقرأ هى رباعيات الخيام حقا ...

يقول الطرازى إن هذا الاعتراف يبطل زعمه ، إذ لا يمكنه إثبات أن الرباعيات للخيام .

كما يقول : « فاضل » حسن الشعر جيد القريحة ذكى عالم ، ولذا ينبغى عليه أن يبتعد عن الغرب والغربيين [١] .

ويحط الطرازى من قيمة ما قاله القفطى فى حق الخيام : (أشعاره بواطنها حيات للشريعة لواسع ، ومجامع للأغلال جوامع ..) ، إذ يبعد عهد القفطى عن عهد الخيام بأكثر من مائة سنة . ويرى أنه لو كان الخيام مُعْوَجَّ السلوك

(١) كشف اللثام ، ص ٦٤ .

ما سكت الغزالى وسواه عن مهاجمته وإظهار الحق ضده (١) .

ويعلق على انتشار التراجم الغربية لرباعيات الخيام ، ويبين كيف أعجب بها الشبان المثقفون .. خاصة بتلك التى تساير هواهم ونزعاتهم الشهوانية ، فقرأوها وتحاضروا بها فى حفلاتهم وندواتهم ، وأطلقوا عليها (فلسفة الخيام) ، وركزوا على ما يدعو منها للشراب ومجالسة الحسان ، وقضاء العمر فى اللذات ، والركون إلى الخمود ، والاستهزاء بتعاليم الدين والمُثُل والأخلاق الفاضلة .

وفى (ص ١١٨) يركز الطرازى هجومه ودفاعه المستميت ، ويقول إن الرباعيات التى شهرّوا بها الحكيم فى الغرب والشرق .. كلها مستنكرة خليعة ، نسبوها للخيام دون حياء واتقاء ، وبدون تبين وحذر ، اشباعا لأغراضهم واتباعا لأهوائهم .

ويؤكد أنه أتى منها بأمثلة معدودة رواها بنصها رغم اشمئزاز القلب . وترجمها بمعانيها ورموزها ، وطبَّقَها على ما أثبته الرواة الثقاة للخيام فى الكتب الموثوقة بها ، والتى تدل على شخصيته العظيمة ، ومكانته الرفيعة ، ومنزلته فى بيئته وعصره . كما طبقها على ما اعترف به قدامى المؤرخين وكبار معاصرى الخيام من ألقاب وأوصاف لها مغزاها فى تعيين شخصية الحكيم ، وميزاته الأخلاقية ، ومقاماته العلمية ، وزعامته الروحية .

واتضح من ذلك أن تلك الرباعيات الخلابة لفظا وعبارة وسبكا وأسلوبا ترمى إلى الإلحاد والزندقة والاستهزاء بتعاليم الإسلام وشعائره الظاهرة وتقاليده المقدسة . وتُحَرِّض الناس على الشراب ، ومصاحبة الحسناوات ، واستعمال آلات الطرب والغناء . وتحثهم على الخمود والجمود والكسل والبطالة . وتجر القراء من المثل العليا إلى مهاوى الحياة . وتقودهم إلى الانحطاط الخلقى والأهواء الفاسدة

---

(١) ص ٨٩ . والحق أن طرازى يخفى دائما ما يشين الخيام ؛ فهو نفسه فى كتابه (ص ٢٤) قد ذكر أن الخيام ناقش الغزالى ، وأذن للظهر ، فقام الغزالى وهو يقول : جاء الحق وزهق الباطل .. مما يدل على عدم ارتياحه إلى ما يقول الخيام .

والشهوات الحيوانية .. الأمر الذى لا ينطبق على ما ثبت للحكيم النيسابورى من تلك الآثار والمقولات من منظوم ومنثور ، تلك التى رويناها بنصوصها على ما رواه التاريخ الصحيح . والأمر الذى لا ينطبق أيضا على ألقابه وأوصافه .. مما يؤكد اختلاق تلك الرباعيات المزعومة الموضوعة . ومن المعلوم أن وضع هذه الرباعيات أهون للواضعين المغرضين من وضع الأحاديث الموضوعة الكاذبة باسم رسول الإسلام .

وهناك من التصريحات فى رسالة (الكون والتكليف) ما يدل على عقيدة الخيام بالله ورسوله ، وتمسكه بتعاليم القرآن المجيد ، وامتثاله بالشريعة المحمدية . وهى تصريحات تعكس فكرته السديدة الحكيمة فى سبيل تنفيذ الأوامر السماوية العادلة بين أفراد النوع الإنسانى ، ودعوتهم جميعا إلى عبادة الله عز وجل والخضوع لأمره ونهيه ، وذلك ليعيشوا فى الدنيا سعداء ، ويحشروا يوم القيامة سعداء ، وينالوا أجرهم كاملا غير منقوص .. الأمر الذى يبرّئ الحكيم مما نسب إليه من تلك الرباعيات المستنكرة الخليعة تبرئة لا يبقى بعدها مجال للبحث المنصف .

ورغم انكار الطرازى للتأويل .. نجده يلجأ إليه حين يجد أن ذلك يفيده فى الدفاع عن الخيام .

فهو فى كتابه (ص ١٢٨) يجعل الخيام ميالاً إلى التصوف إن لم يكن من الطائفة الصوفية . ويجعل الخمرة التى يدعو إليها خمرة حقيقية (حب الله والإنابة والتوبة إليه) . ويجعل من دعوة الناس إلى اغتنام الفرصة تنبيها لهم إلى ضرورة اغتنام الفرصة – قبل أن تنشب المنية أظفارها – للتوبة والإنابة ، وليعلموا أنه إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

ويرى أن المغرضين يفسّرون الجملة (شاد بزى) = عِش سعيدا ، والجملة (آزادبزى) = عش حرا – على سبيل المثال – بالسرور المطلق (الإباحة) والحرية المطلقة التى لا قيود فيها ، مع أن المعنى المقصود غير ذلك

ويرجع الطرازى (ص ١٣٢) منشأ وضع الرباعيات المستنكرة إلى الفاسدين أهل الأهواء ، وفيهم أعداء الإسلام من أتباع حسن الصباح وأذناب الاستعمار ، الذين يعملون فى سبيل مهمتهم تحت ستار الأدب أيضا .

لقد كان مذهب الباطنية سائدا فى عهد الخيام ، وقد لجأ دعاة المذهب إلى إنشاد الرباعيات المتضمنة لمبادئهم باسم الخيام بعد وفاته ، وانشدوها فى محافل العامة ومجالس الناس . فهم لم يلجأوا للخطابة أو قوافى الأشعار وأوزانها لنشر مبادئهم نظرا للبيئة الإسلامية وخوفا من الحاكم ، فاستغلوا شخصية ذلك الحكيم العظيم ونشروا مبادئهم باسمه ضمن رباعيات شبيهة لما نسب إليه من الرباعيات .

وصارت الرباعيات بعد الخيام تزداد عددا بعد أن عرفت طريقها إلى الندوات ، وباتت تُكتب فى وريقات بخطوط جميلة جذابة ، وتُنشر بين العامة .

ويرى الطرازى أن ما رُوِىَ عن معاصر الخيام وتلميذه « نظامى العروضى السمرقندى » وعن معاصريه : حجة الإسلام الإمام « الغزالى » ، وإمام القراء « أبى الحسن الغزال » ، « وظهير الدين البيهقى » ، والقاضى « أبى النصر النسوى » ، والعلامة « الزمخشرى » .. – وكلهم عظماء وحكماء وعلماء .. اجتمعوا بالخيام واستفادوا من علمه وصحبته ، أو تباحثوا وتناقشوا معه فى مسائل الدين أو الحكمة أو الأخلاق – ما رُوِى ينفى ما نُسِب إليه من رباعيات مستنكرة خليعة [١] .

ويذكر الطرازى عددا من الأدباء المعاصرين ممن يبرّئون الخيام . فيذكر « رضا صديقى نخجوانى » الذى يرفع مقام الخيام فوق الرباعيات المستنكرة ، ويرى وجوب تطهير ذيله من لوث هذه المقولات القذرة التى يطلقها مجانين متسوّلون يسيرون فى طرق غير مشروعة ، وينشئون الرباعيات وهم سكارى ، فيتلقفها أناس على مَرِّ العصور وينسبونها للخيام .

---

(١) كشف اللثام ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

ويذكر « رضا زاده شفق » الذى يقول إن الخيام كان يأتى فى رباعياته بأفكار عظيمة ترد فى ثنايا ألفاظها الساذجة العذبة . ويذكر « خلخالى » و« مرتضى جهار دهى » وغيرهم [١] .

ويرجع الطرازى السر فى رواج فلسفة الخيام فى أوروبا إلى اتفاقها مع أهواء الأوروبيين . ويرى أن ترويج فلسفته – فى الشرق عامة وإيران خاصة – يساير مصلحة السياسيين المغرضين الأوروبيين ويضر الإسلام وإيران . ويتساءل : لو لم يكن الأمر كذلك ، فلماذا إذاً لا يروجون فكر ابيقور اليونانى وهو أقرب إليهم من الخيام ... وهو أول معلم للاستمتاع والشرب فى الدنيا ؟

ويرجع الطرازى سبب ترويج البعض للرباعيات الخيامية إلى عامل الضغط حيال معضلات الحياة ، ورغبتهم فى اتخاذها وسيلة للاحتيال لما يسلكونه من مسلك شاذ . ويتمنى لو أنهم تبعوا فضائله وعلومه [٢] .

ويورد الطرازى ٤٠ رباعية تحت عنوان « رباعيات » – يترجمها نثرا ، ويراها متفقة مع مبدأ الخيام الحقيقى ومكانته العلمية وعقيدته الإسلامية . وقد قسمها إلى عناوين مختلفة حسب ما فيها من المعانى والأهداف :

الاعتراف بالعجز ، التسليم لحكم الله ، أسعيد أم شقى ؟ ، فى تنبيه الغافلين ، النظر فى خلق الله ، أغتنام العمر ، نحو الأخلاق الفاضلة ، لا تتبع الهوى ، فى التأسف ، كل من عليها فإن ، فى الأجل ، مت شريفا ، المناجاة .

ومن ترجماته نثبت النماذج التالية :

- إنى وإن كنتُ صاحب لون حسن ، وريح طيبة ،
  ووجه كالشقيق ، وقامة كالسروة ..
  لم يعلم لأى شيء زينني النقاش الأزلى

---

(١) كشف اللثام ، ص ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦١ وغيرها .

(٢) كشف اللثام ، ص ١٥٦

فى هذه الأرض التى تشبه بيت الطرب ؟ (١)

- قال الورد لا وجه أحسن من محياى
فلماذا الجور المعقود الذى ألاقيه من عاصر الورد (العطار) الظالم ؟
فكان البلبل يجيبه بلسان الحال قائلا :
من الذى ضحك يوما ، ولم يبك عاما ؟ (٢)

- لا تعزون الخير والشر اللذين هما من طبيعة البشر ،
ولا الفرح والغم اللذين هما من شئون القضاء والقدر .. إلى الفلك
لأن الفلك فى سبيل العقل (بمقتضاه) أعجز منك ألف مرة ..
لأنه مخلوق وفوقه الخالق عز وجل يديره كيف يشاء (٣) .

- إذا كان رغيف فى يومين حاصل أحد ،
وجرعة ماء بارد من كوز مكسور ساعة .
فلماذا يكون مأمور شخص آخر ،
أو خادم أحد مثله ؟ (٤)

---

(١) هر جند كه رنك وبوى زيباست مرا جون لاله رخ وجو سرو بالاست مرا
معلوم نشد كه در طربخانه خاك نقـاش ازل ، بهرجـه آراست مـــرا

(٢) كل كَفت به از لقاى من روبى نيست
جندين ستم كَلابكَر ظالم جيست ؟
بلبل بزبان حال با او ميكَفت :
يكروز خنديد كه سالى نكَريست ؟

(٣) نيكى وبدى كه در نهاد بشرست شادى وغمى كه در قضا وقـدرست
با جرخ مكن حواله ، كان در ره عقل
جرخ از تو هزار بار بيجاره تر ست
يلاحظ أن المترجم قد أضاف العبارة (لأنه مخلوق وفوقه الخالق ...) دون أن يكون لها أصل فى النص .

(٤) يك نان بدو روز كَر شود حاصل مرد وز كوزه شكسته ، دمـى آبى سرد
مامور كس دكَر جرا بايد بود ؟ يا خدمت جون خودى جرا بايدكرد ؟

- رأيت أمس كوّازا (خزّافا) فى السوق
بركل ركلا كثيرا على قطعة من الطين .
فكان الطين يقول بلسان الحال :
لقد كنتُ مثلك (إنسانا) ، فارفق بى ، وعاملنى بالحسنى [١] .

- مررت بمصنع كوّاز (خزاف) .
فرأيته قائما على العجلة ،
يصنع للدنّ والكوز عروة ورأسا ،
من رأس الملك ويد الفقير [٢] .

- يارب : إنى وإن أذنبت ملء الأرض
فإن رجائى أن يأخذ عفوك بيدى ..
قلت إنى آخذ بيدك يوم العجز
فلا تردنى اعجز من حالى التى أنا عليها الآن [٣] .

ويلاحظ أن العناوين التى ذكرها والمسميات التى أورد تحتها الرباعيات المترجمة .. كان يهدف من ورائها إلى إبعاد الشبهة عن الخيام . فالرباعية التى أوردها تحت عنوان (أسعيد أم شقى ؟) يمكن أن تدرج تحت عنوان (لا أدرى) فتكون دالة على فلسفة اعتنقها الخيام . والرباعية الثانية التى أوردها تحت عنوان (النظر فى خلق الله) يمكن إدراجها تحت عنوان (إبراز التشاؤم) فتكون معبرة عن فلسفة أخرى . والرباعية الثالثة التى أوردها تحت عنوان (نحو الأخلاق

---

(١) دى كوزه كَرى بديدم اند بازار   بر باره كَل لكَد همى زد بسيار
وآن كَل بزبان حال با وى ميكَفت   من همجو تو بوده ام مرا نيكودار

(٢) در كاركَه كوزه كَرى كردم راى   در بايهٔ جرخ ديدم استاده بياى
ميكرد سبو وكوزه را دسته وسر
از كلهٔ بادشاه واز دست كَداى

(٣) كَر من كَنه روى زمين كردستم   عفو تو اميدست كه كَيرد دستم
كَفتى كه بروزِ عجز دستت كَيرم   عاجزتر ازين مخواه كه اكنون هستم

الفاضلة) يمكن أن تدرج تحت عنوان (الإقرار بالعجز) . والرباعية التى أوردها تحت عنوان (الدنيا هموم) يمكن أن تدرج تحت عنوان (فى التشاؤم) . والرباعيتان الثانية والثالثة اللتان أوردهما تحت عنوان (فى الاعتبار) يمكن إدراجهما تحت عنوان (فلسفة الانقلابية) ، وكذلك الحال بالنسبة للرباعية الأولى التى وردت تحت عنوان (كل من عليها فان) .

والملاحظ بوجه عام أن ترجمة الطرازى ضعيفة التراكيب ، تخلو من الجاذبية ، ركيكة لا تثير حسا ولا شعورا . كما أنه يصعب فهمها فى بعض الأحوال ، أو تكاد تكون بلا معنى .. كتلك التى يقول فيها :

إنى أباهى بالحانات لأن أهلها أهل ،
وإذا نظرت نظرا حسنا فسيؤها سهل أيضا .
لم يطلع من المدرسة أهل القلب ولو واحدا
فلتخرب هذه الخرابة فإنها دار الجهل (١)

والواقع أنها أقرب إلى الترجمة الحرفية ، ولا يمكن للسامع أو القارئ أن يحس بأى متعة حين سماعه لها أو قراءته إياها . كما لا يمكن لأى منهما أن يتعاطف مع صاحب الرباعية فى الفارسية .

لقد تمسك المترجم بترجمة كل كلمة ، فتسبب فى عدم استساغتنا لناتج عمله ، رغم أنه لم يبعد عن معانى المفردات التى سطرها الخيام أو سواه .

فها هو يقول : إنى وإن أذنبت ملء الأرض
فإن رجائى أن يأخذ عفوك بيدى
قلت إنى آخذ بيدك يوم العجز
فلا تردنى أعجز من حالى التى أنا عليها الآن

---

(١) نازم بخرابات كه اهلش اهل ست   گر نيك نظر كنى بدش هم سهل ست
از مدرسه بر نخواست يك اهل دلى   ويران شود اين خرابه دار الجهل ست

بينما كان يمكنه مثلا أن يقول .. مع إضافات بسيطة :

لو ارتكبت ذنوب الأرض ، خذ بيدى
فالعفـو مـا أرجـوه يـا ربـاه
وعدتنـى حـينما أحتـاج تـنصرنى
لا فرد أعجز منى الآن ، واغوثاه

وها هى إحدى الترجمات المنظومة – لغيرى من المترجمين – تشهد بالفرق الكبير بين الحرفية وبين التصرف فى أضيق نطاق ، وتبين أى الترجمتين أقرب لنفسية المتلقى :

لـو ارتكبت خطايا النـاس كلهـم
لكـنت أرجـو لذنبـى مـنك غفرانـا
قد قلت إنك يوم العجـز تـنصرنى
لا عجز أعظم لى من عجزى الآنا

ومما كتبه الطرازى حول الخيام ، ونتيجةً لتقسيمه الرباعيات وتعليقه عليها ، خلص إلى النتائج التالية :

(١) أبدى الخيام ذكاء وفطنة ، وتفوقا فى التعليم ، وبراعة فى كل العلوم التى درسها .. لا سيما الفلك .

(٢) لا توجد إشارات ولا تصريحات تثبت أن الخيام كان شاعرا أو كانت له تلك الرباعيات التى تنسب إليه .. باستثناء الرباعية التى وردت فى كتاب حمد الله مستوفى القزوينى (ت ٧٣٠) ، وتلك التى وردت فى كتاب الأبرقوهى (ت ٨٠٨) ، وتلك التى وردت فى كتاب الشهرزوى .

(٣) الخيام صوفى أو يميل للتصوف ، فهو يرجح فى كتابه (كليّات الوجود) مذهب الصوفية على سائر المذاهب .

(٤) كان الخيام عالما بالفقه لذا كان يجتمع مع معاصره حجة الإسلام الإمام محمد الغزالى . وكان مقرئا بارعا للقرآن لذا كان يجتمع مع معاصره الإمام

أبي الحسن الغزال .. إمام القراء فى عصره ، وقد نال ثناءه عليه ورضاه .

(٥) الرباعيات لا يمكن أن تؤول من الظاهر إلى معان صحيحة فى الباطن كأشعار الصوفية ، فالرباعيات التى تنسب إلى الخيام بخيرها أو شرها واضحة وصريحة ، وأكثريتها تسد باب التأويل فى وجوه طارقيه .

(٦) مَثَل الخيام وما نسب إليه كمثل جحا (ملا نصر الدين أفندى) وما نسب إليه من حكايات مضحكة تشبه حكاياته .

(٧) شهرة الخيام فى أوروبا ناشئة عن انتشار ترجمة رباعياته لا غير ، فهو لم ينلها بسبب تفوقه فى المجال العلمى . ووجود ناد باسمه فى لندن راجع إلى اكتساب فلسفته قيمة عظيمة فى بلاد أوروبا .

(٨) كلما زاد انتشار الرباعيات ظهر عدد أكبر من الفضلاء يجهرون باستنكارهم الأفكار الجنونية التى تشتمل عليها .

(٩) الأثر السيء للرباعيات المستنكرة فى إيران وغيرها هو :

- التحريض على الشراب والإدمان ، والخمول والكسل ، والكسالة والبطالة .
- إنكار السعى والعمل .
- الانحلال الخلقى .
- الاستهزاء بالدين العظيم ، والاستخفاف بتعاليمه وبأهل العلم واليقين .

(١٠) بدت آثار الرباعيات المستنكرة فى الإعلام ، فيما يلى :

ا - ظهور كتب ومقالات استنكار .

ب - اهتمام الصحف التركية بنشر تحذيرات للشباب وأبناء الجيل التركى للامتناع عن مطالعة الرباعيات واتّباع أهوائها .

جـ - كثر بين الإيرانيين من يقومون بدعوة الناس إلى البعد عن الخيام الموهوم ورباعياته [١] .

---

(١) على رأس المقالات التركية ... مقالة كتبها د . راسم آداماسال فى جريدة « جمهوريت » بعنوان : « ينبغى أن نغذى أفكار الشبان بفلسفة الخيام ، فى عدد ١٣ أغسطس من عام ١٩٣٨ م . =

(١١) يرى البعض أن الاعتراض على الخيام أمر سهل ، لكن الاعتراض على بلاغته أمر صعب . ويرى البعض أن الاعتراض فى هذه الحالة (أى على المستنكَر الخليع من الرباعيات) ليس تعصبّا ، فالاعتراض موجّه إلى الخيام الموهوم [١] ، قائل تلك الهذيانات ، وليس موجها إلى الحكيم عمر الخيام . والبلاغة لا قيمة لها إذا هى استعملت فى سبيل الغى والفساد وتضليل طائفة من العباد ، والتحريض على احتساء الصهباء ، ومجالسة الحسناء ، وامرار الحياة بالحرية المطلقة التى لا قيود لها .

(١٢) يرى البعض أنه لولا الأفذاذ من المستشرقين لظل الخيام خامل الذكر مجهولا من الناس . وقد فات من يقول ذلك أنه لو بقى الخيام خامل الذكر مجهولا لدى الناس لأمِنَ الشرق من فتنة رباعياته ، واستراح الشرقيون من ويلات هذيانه .

(١٣) لعب الاستعمار ولعبت السياسة دورهما بدقة وحذر . فقدّم جرالد للمستعمر المحتلّ خدمة تحت ستار خدمة الأدب العربى عن طريق ترجمته . وقد هدم هو - ومن حذا حذوه - صورة الخيام .. أى صورة المسلم ومكانته الرفيعة فى نفوس الشرقيين ، ونشر السموم فى الشرق والهند وإيران خاصة . وساهم فى دفع الشرق إلى التأخر ، وتهيئته لقبول تدخل المستعمر فى شئونه ، وإبعاده عن كسب العلوم والفنون والصناعات ، وعن السعى للإنتاج .

= وفى مجال الإعلام الإيرانى ذكر الداعية رضا صديقى نخجوانى أن ٩٠٪ من شباب إيران قد وقعوا تحت تأثير الرباعيات المباشرة أو غير المباشرة ففقدوا صوابهم واندفعوا للحانات ، وانخرطوا فى صفوف اللاهين المنحلين .. نتيجة مطالعاتهم وانخداعهم بمعانيها الخلابة المفسدة ،

أنظر : كشف اللثام ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ للاطلاع على الرباعيات المتبادلة بين الداعية ومن أفادوا من وعظه فى هذا السبيل .

(١) يردُّ النخجوانى على ثمانية وأربعين رباعيّة للخيّام الموهوم بثمانية وأربعين من تأليفه (النماذج ص ١٨٦ ، ١٨٧ من كشف اللثام ، نقلا عن كتاب « خيام بندارى ») .

(١٤) سارع العرب والعجم بترجمة الهذيانات الإنجليزية إلى الأردوية والعربية والتركية . ونشروها فى قطع صغيرة وكبيرة ، مع صُوَرٍ مختلفة كثيرة ، أو رسوم خليعة مثيرة ، ونتيجة لهذا وذاك تم الأمر لأعداء الإسلام ومصلحة المستعمرين .. فأضروا بالشرق وأبنائه المساكين [١] .

(١٥) كثرة ما كتب حول ترجمة جرالد وحول رباعيات الخيام من كتب محفوظة بمكتبة المتحف البريطانى .. يدل على اهتمام بريطانيا (حاضنة التبشير) بالأغراض الاستعمارية والتبشيرية

(١٦) كتب اللورد جرزن – السياسى المعادى للإسلام – بحثا عن الخيام فى كتابه (آسيا الوسطى) ، فجعل القارئ يعتقد أنه عمر الخيام الحكيم النيسابورى المعروف بحكمته ومكانته . وبذلك هيأ جو الشرق لمخالفة الدين ومطاوعة المستعمرين

(١٧) أشاد الغربيون – من خطباء وكتاب وشعراء ومترجمين – بالخيام ، وشبهوه بأبيقور اليونانى وأبى العلاء المعرى .. ترويجا لسوق الرباعيات من جهة ، وتضليلا للشرقيين والجيل الناشئ خاصة من جهة أخرى . وهكذا نشروا الرباعيات ودرّسوها وترجموها لأهداف سياسية وأغراض مذهبية ، ونشروها فى قطعات « كارت بوستال » ، فى طرف منها رباعية جرالد الإنجليزية وفى الآخر رسم خليع يتناسب مع مفهوم الرباعية ومغزاها ليروج توزيعها . وأفلحوا فى أن تدرس ترجمة جيرالد فى المدارس الثانوية فى بومباى ككتاب أدب انجليزى . وأفلحوا فى تدريسها فى جامعة عليكره بالهند .. وهى جامعة عريقة [٢] .

---

(١) كشف اللثام ، ص ٢٢٠

(٢) كشف اللثام ، ص ٢٢٢

(١٨) أسس الأدباء والصحفيون الانجليز نادى عمر الخيام عام ١٨٩٢ م وهم أنفسهم الذين عُرِفوا فيما بعد بالخياميين . وفى حفل مهيب – أقيم عام ١٨٩٣ م – زرعوا شجرتى ورد على قبر جرالد مأخوذتين من فوق قبر الخيام بنيسابور . وألقيت فى الحفل رباعيات خمرية إلحادية تدعو للفسق ، وتحمل على تعاليم الإسلام المقدسة .

وفى عامى ١٨٩٥ م و ١٨٩٧ م أقيم حفلان بهدف تعظيم الخيام والدعاية لمصلحة الاستعمار والتبشير النصرانى .

وهكذا ، لم يكن تعظيمهم له ناجما عن مكانته الرفيعة كعالم .. فلو كان ذلك هدفهم لعظّموا ابن سينا والفردوسى ونظام الملك والغزالى وابن الغزال والبيهقى والزمخشرى ونظامى الكَنجوى وجلال الدين الرومى وسعدى وحافظ [1] .

(١٩) تنقسم معانى الرباعيات المستهجنة إلى أربعة معان :

١ – مدح ما يتصل بالخمر (الكوز – الكأس – الدنّ – الحانة ...) .

٢ – السخرية من تعاليم الإسلام ، وإساءة الأدب مع الله ورسوله .

٣ – دفع الشباب للتحلّل الخلقى والحرية المطلقة .

٤ – التحريض على المتعة والسرور والكسل .

* * *

(١) انظر : كشف اللثام ، ص ٢٢٣ وما بعدها ، لمعرفة ما كتبه الطرازى نقلا عن حواشى (چهار مقاله) ، لمعرفة منزلة هؤلاء العظماء أدبيا وعلميا وسياسيا ، وتواريخ وفاتهم ، ومؤلفاتهم وآثارهم

فى الصفحات التالية نتحدث حول ترجمة فريدة من نوعها لرباعيات الخيام ، قام بها الأديب حسين مظلوم رياض ، ونشرتها له لجنة النشر للجامعيين ، وطبعتها فى مكتبة مصر ومطبعتها بالقاهرة (دون ذكر لتاريخ الطبع) .. تحت عنوان (رباعيات الخيام) .

ويأتى التفرد من كونها نظمت بالعامية المصرية ، بطريق الزجل ، فنقلت على يد ناظمها المبدع إلى لغة الأدب القومى ولسان الشعب العربى الدارج . وعدت عملا جديدا على أبناء العربية يثير الدهشة والإعجاب ، ويستحق أن تعقد المقارنات بينه وبين الترجمات الشعرية التى وضعها شعراء عرب يشهد لهم بالجودة والمقدرة .

وتعتبر اللغة التى استخدمها مظلوم لغة وَسطاً بين الفصحى والعامية والشعبية الدارجة . وقد توخى فيها السهولة والقوة والبساطة ، وكان حريصا على إبراز نزعة الخيام الصوفية .

وقد أُعجب بالترجمة عدد كبير من الأدباء ، فقال « كامل الكيلانى » – نقيب الأدباء – فى تصدير الكتاب ما موجزه [1] :

هل كان يدور بخلدك أن تنقل رباعيات الخيام إلى لغة الخواص المتداولة فى عبارة تسمو فى لغتها العامية حتى تدنو من أسلوب الفصحى ، وتعلو بأناقتها وتجويدها حتى تذكرنا بالفنون الرائعة التى أبدعها أفذاذ الزجالين من شعراء الأندلس فى موشحاتهم ومقطوعاتهم ومواويلهم الساحرة .

إن كل زجال يُعنى بِرَفْع فنه وينجح فى تثقيف أمته لهو جدير منا ، لا أقول بالتقدير . بل أقول بالإعجاب والإكبار . وقد أبدع شاعر الشعب « مظلوم » الذى نظم من سنى الأزهار والرياحين طاقة رائعة لعشاق الجمال .

---

(١) رباعيات الخيام ، بلغة الأدب الشعبى ، القاهرة (بدون تاريخ) ، ص ٦ – ٨ .

وتحت عنوان (الفن الخالد) يوالى الأديب « محمود رمزى نظيم » توجيه المديح لمظلوم والإشادة بترجمته ، فيقول :

ولرباعيات الخيام تراجم شعرية كثيرة للأساتذة : وديع البستانى وأحمد رامى ومحمد السباعى .. وكلها رائعة ، ولكن الروعة كل الروعة فى ترجمة مظلوم ، فقد كان حريصا على النزعة الصوفية لعمر الخيام ، فوفى معانيها حقها وأشبعها من روحانيتها ، وسكب فيها من سحر المعانى المعجز المعجب . وأشهد الله أنى ما عرفت بين الزاجلين أقوى من مظلوم فى لفظه وأعمق منه فى معانيه ، فهو فن حى ، وهو روح الفن وجثمانه ، بل هو روحه وريحانه ودنانه وسمّاره وندماؤه .

وما تجلى مظلوم فى الفن كما تجلى فى رباعيات الخيام ، فقد سما بها إلى أعلى سماوات الفن وحلّق بها فى أرفع مكان . لقد استعصى نقلها على شعراء العرب والشرق ، فلها مئات التراجم عن الفارسية .. ونقْلُها إلى الزجل أشد وأقسى ، ولكن لغَيْرِ الزاجلين الموهوبين [1] .

وفى الكتاب نفسه يقول الأديب « مصطفى الصباحى » مشيدا بمظلوم وترجمته [2] : الخيام – وهو رجل فيلسوف متزن أو متصوف أو كائنا ما كان شأنه – إنما هو شخص عالى الفكر ، بعيد الآفاق ، غير محدود المكانة فى علم الفلسفة والبحث . فإذا نُقِلت رباعياته إلى لغة ما فإنما باعتبارها طرازا أعلى لسمو الروح ودقة الحسن ، ونسيجا رفيعا من ذوب الفكر الخالص الحر الذى لا يُحَد ، ولا ينقص من مقدرته قيد من العرف أو العقيدة . الفكر الذى يسمو ويسمو حتى يبلغ جو اللامادة ويخرج من نطاق المحسوسات والمرئيات .. فينطلق إلى الغاية منسرحا من الحوائل والموانع . لذا يجدر بالأدباء وضع رباعياته – حين ينقلونها إلى لغاتهم – فى الأسلوب المتخيّر الرفيع الذى تبتهج به خواطر خاصة الخاصة ، وتجد فيه مراحا لأفكارها وغذاء لعقولها وموضعا لتقديرها .

---

(١) مظلوم : رباعيات الخيام ، ص ١٠ .   (٢) ص ١١ - ١٧

وقد نُقِلت الرباعيات إلى العربية أربع مرات ، بلغت الترجمة فى بعضها نهاية الجودة فى البلاغة وحسن الأداء . أما أيها أوفى بالمعنى وأدق فى نقل آراء الخيام فهذا موضع خلاف . لقد تجاوز بعضهم عن آراء الخيام ، وحور البعض فيها زيادة أو نقصا على نحو حجب عنا صفة الخيام الحقة ومذاهبه الصحيحة واتجاهاته الصريحة .

وتتفاوت الترجمات فى درجة البلاغة وسلامة التعبير والعبارة والمعنى . ولكى يصل المترجم إلى الكمال تعوزه ثلاثة أشياء :

١ – النقل عن أصل صحيح خال من الدس .
٢ – السيطرة على ناصية اللغتين : التى ينقل إليها والتى ينقل عنها .
٣ – تشابه الناقل والمنقول عنه فى شأن من الشئون ، أو مشاركة فى حظ من الحظوظ ، أو مناسبة فيما يتصل بأمرهما من ظروف ... ليكون مثله فى أداء العبارة وتصوير المعنى بصدق وإحساس وتذوق ، لا عن تخيل أو حكاية مروية .

ولعدم توافر الشروط الثلاثة كلها فى الناقل العربى جاءت الترجمات متناقضة ، وكأنها صورة ناقصة تناولها أكثر من رسام .. ولكل رسام مذهبه وظروفه .

إن لغة الرباعيات فى أصلها الفارسى قد بلغت – بشهادة أدباء الفرس أنفسهم وشهادة المترجمين لها – أرق ما تصل إليه مقدرة الشاعر الفارسى . وقد أحسن بعض المعربين الصياغة وأجادوا السياق ، لكنهم لم يصلوا إلى مرتبة التصوير الصادق لإحساسات ذلك الفيلسوف الرفيع المذاهب ، ولم يبلغوا الأفق الذى تسامت إليه عبقريته الفذة وذهنه المرتب الدقيق ، أما مظلوم فقد قدر على فهم الخيام نتيجة لتحقق الشروط الثلاثة فيه . لقد عرف مظلوم – على نقيض الشعراء – أن الخيام لم يكن مضطرب العقل يورد القضايا ثم يدعها مرسلة بلا نتيجة ، ولذا اقتحم المعانى التى أحجم الشعراء عن إيرادها مخافة الانزلاق ، وكأنه عاش زمان الخيام وعاشره ولا مس ظروفه .. فكان بذلك حقيقا بالتقدير والإعجاب ، جديدرا بالتنويه والإكبار .

وكان لمظلوم نفسه حديث حول زجله المتعلق بالرباعيات [١] .. ذلك الزجل الذى ألفته الخاصة وأعجبت به العامة . وقد بدأ كلامه بامتداح فن الزجل ، وسباب من يهبطون بالأغنية عن طريق هذا الفن ، أو يكتبون كلاما لا يمت للزجل أو الشعر بسبب . وفى حديثه عن الرباعيات التى ترجمها ومصادرها ، وعن مراجعه ومنهجه يقول [٢] :

أخذت فى دراسة رباعيات الخيام فى نسخ شتى وطبعات متعددة ، عدا نسخة عن الإنجليزية ، وراجعت تراجم الصراف والبستانى والسباعى ورامى .. وكلها تنمّ عن جلال الحسن وقوة الروعة والإبداع . على أنى آثرت ترجمتَىْ السباعى والبستانى ، فقد رأيت من الفوارق والتباين الشاسع بين التراجم الحديثة ما أذهلنى وترجمة البستانى قريبة من ترجمة السباعى . ولولا اختلاف فى الكلام جعل أول الأولى فى وسط الثانية أو آخرها لتطابقتا . وهذا فحسب فارق فى الاختيار بين الترجمة والتبويب .

ولقد أردت إخراج الرباعية فى ثوب أخضر جديد ، ولغة سهلة لم انحدر بها إلى لغة العامة .. بل جعلتها وسطاً بين الفصحى والعامية والشعبية الدارجة . واقتفيت أثر السباعى وسايرته فى أغلب ترجمته إثر الرجوع للبستانى .. عدا القليل منها ، وحرصت على النقل والمقابلة بقدر ما وسع الجهد لأداء الأمانة .

وقد قسم مظلوم رباعياته الزجلية إلى أناشيد ثلاثة :

النشيد الأول : مكون من ٤٤ منظومة تسير على نظام الخماسيات .

النشيد الثانى : مكون من ٥٠ منظومة تسير على نظام الخماسيات ، غير أن البيت الرابع من كل منظومة مشطّر .

النشيد الثالث : مكون من ٢١ منظومة تسير على طريقة التركيب بند ؛ فالبيت الأخير فى كل منظومة على نفس الوزن والقافية .

---

(١) مظلوم : رباعيات الخيام ، ص ٢٣

(٢) مظلوم : رباعيات الخيام ، ص ٣٢ .

وهذه نماذج مختارة من الأناشيد :

نماذج للنشيد الأول :

- دنيا فانيه اسمها دار الرحيـل للضيوف اللى احنا منهم والنزيل
بعد ما غابوا الملوك عاوز دليل ؟ والأسد فى حكمها زى الغزال
فى انتظار الداعى إن مولاه أمر
- الكريم الشهم فى الناس والبخيل ده وده تحت التراب ميّت نزيل
الحقير فى الموت هناك زى الجليل لا اعتزاز بالجاه ولا ممتاز بحال
من ربيعه تكون قبيلته أو مضر
- خلى أهل العلم فى الدين والجوار فى جدالهم يقطعوا الليل والنهار
والنتيجه نخوض بحار من غير قرار بعدها الموت راح يجى يهدم آمال
فيه نهوض من بعد ما يُطوى الأثر ؟
- كاس قديم العهد عاش منذ الأزل أصله من طينة جميل يهوى الغزل
لما اقبّـل شفّته يـرد القبـل اشتكى له يشتكى بافصح مقال
كان حبيب عاشق وله قلب انفطر
- رحت مره مصنع الفخّار زياره شفت عامل يصنع ابريق ، له مهاره
انكسر منه سمعته يقول : خساره والتقيت الطينه تستعطف خلال
صدمته ، وتقول له : ارحم من صبر

نماذج للنشيد الثانى :

هو كل العمر أعوام مع شهـور
نقطعه فى بحث ما بعد الـنشور
واكتشاف السر فى جوف البحور
مين يشوف خلف الستار والروايـــه فصول كتـــار
واحنـا فى المسرح جميعنـا ممثـلين

القلوب دايماً تشوف ما فى القلوب
فى العيون مفتاح دليل كشف الغيوب
نيّتك مطيّتك وقت الخطـوب
اركب النيّـــه وحـــاذر سخـــط علّام السرايـــر
والتوكّـــل فيـــه نجاح المخلصين

والمقـدّر أصله فى اللوح بالقلـم
نافـــذ الأحكـــام على كل الأمم
لو بحار الدنيا تصبح لك خـدم
مش ح تمحى حرف واحد أو تغيّـــر رقـــم وارد
بالطبـيب والمال وبالنـــوح والأنين

كلنا أشباح خيـال تحت الستايـر
جوا حفلة رقص فيها اللعب داير
والمصابيـــح ازدهت فيها المناظـــر
تـــنتهى الحفلـــه تعـــود ليل حسب طقس الوجود
والخيـــالات تختفـــى للناشريـــن

نماذج للنشيد الثالث :

مش عجيبه الصانع الماهر صنعنى
من تـراب فى دى المثـال
بعدها صوّرنى فى قالب جعلنى
تحفـــه فى غايـــة الجَمـــال
بعد تكوينى وإبداعى عدمنى
كان نصيبيـــى للـــزوال

ليه بنانى يا ترى وبعدين هدمنى ؟
عفوك اللهم فى صنعك عجايب ..

روّى نـفسى فى حيـاتى
وانعش المهجه بكاس تطفى شجونى
حتـى فى ساعـة مماتى
من دنان بنت العناقيد غسّلونى
تحت أشجارهـا رفـاتى
ادفنوها ، ومن ورقها كفّنونى

سجّلوهـا وعهدهـا فى ذكريـاتى
واشربوا فى محبتى كاس الحبـايب

يا كريم بابك قصدناه بالخضوع
جـود بعطفك يا سميـع
كم تساوى عين بخيله بالدموع
والبكـا أكبر شفيـع

والندم فيه اعتراف لك بالرجـوع
للصواب ، والعفو غاية كل تايب

ومن ترجمة مظلوم للرباعيات وتعليقه عليها ، والمعلومات التى جمعها حولها وحول الخيام .. يَخلُص إلى ما يلى :

١ – الدنيا فى نظر الخيام ليست دار إقامة ، والناس ليسوا فيها إلا ضيوفا إلى حين ، والكل خاضعون للقضاء دون امتياز .

٢ – الخيام لا يشك فى البعث والنشور بل يعجب من النهضة بعد انطواء الأثر الظاهر .

٣ – يعتقد الخيام أن الجسوم غلاف ظاهرى لا يعوّل على صورته ، ولكنه لا ينكر البعث إطلاقا . وليس هناك إنكار صريح فى رباعياته للبعث .

٤ – كان الخيام يطرح عن نفسه أثقال البحث فى شئ عرف غايته .. فهو مؤمن وكفى ، ولا محل بعد ذلك لاشغال ببحث .

٥ - ليس للمرء - فى رأى الخيام - أن يشغل نفسه عما يُسِّر له بتقصى أشياء ومسائل لن يصل إلى غايتها . إنما يحسن بالمرء أن يركن إلى القدر مشتغلا بنفسه عما سوف يأتى به الغيب (١) .

٦ - أتخيّل الخيام روحا بلا جسم تتصل بالأرواح وتتغلغل فى القلوب حيوية شعور وقوّة وجدان . وما أثاره من قضايا ومسائل يصرف القارى عن كل ما عداه . وكل قضية تشغله بما فيها ، كأنه يسائل نفسه بها ويطالبها بالإجابة عليها (٢) .

٧ - ربما كان عدد الرباعيات قبل أن يلحقها التلف يتجاوز المئتين . ومع كثرتها أو قلتها لدى المترجمين ومع ما ابتكروه من تصرّفات .. نرى روح الخيام مهيمنة على الجميع بجلالِها وبَعيدِ أثرها فى النفوس (٣) .

٨ - أجلّ من نقل الرباعيات للأوروبية فيتزجرالد فى نحو خمسمائة بيت .. يبدو فيها الخيام عطوفا على الفقراء ، شفيقا بالبائسين ، تواقا للجمال . وفى تقدير الجمال أجلّ عبادة للخالق المبدع . فمن يتصوّر الإبداع ويهيم به إنما هو صادق الإيمان قوى العقيدة . وينتقل من وصف الجمال فنراه يتكلم فى البقاء وما يعقبه من فناء وصيرورة الأجسام إلى عظام متحللة ، إلى تراب يملأ الغبراء . فكأنا لا نسير إلا على أديم العباد مما يحفز النفوس لعرفان بارئها ، والإحسان إلى عارفيها ، والوفاء بالعهد وللذكريات التى تعدّ أخلد الآجال وأحسن ما يذكر ويدّخر (٤) .

٩ - ولد الخيام بنيسابور عام ٤٣٣ هـ = ١٠٤٠ م .

١٠ - طغرك بك التترى والد ألب ارسلان هو الذى انتزع مُلك فارس من

---

(١) مظلوم : رباعيات الخيام ، ص ١٩ .

(٢) مظلوم : رباعيات الخيام ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) مظلوم : رباعيات الخيام ، ص ٣٤ .

(٤) مظلوم : رباعيات الخيام ، ص ٣٤ .

خليفة السلطان محمود الأكبر مؤسس الدولة السلجوقية [١] .

١١ - زعم فريق أن عمر الخيام لم يقصد بالخمر (والساقى والكأس) - مما جاء فى رباعياته - الخمر المعصورة المعروفة ، وإنما كان يرمز للذات الإلهية بألفاظ الخمر .. كعمر بن الفارض وحافظ الشيرازى وأهل الصوفية . لكن المدوّن المثبوت فى سيرة الخيام ينفى هذا الرأى .

يقول ابن الفارض :

يقولون لى صفها فأنت بوصفها خبير ، أجل عندى بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى ونور ولا نار وروح ولا جسم

ويقول الخيام :

ابقى من فضلك تقول لى نهاك :
والنبى تبخل بنصحك وبهواك
الكَرَم فى الكَرْم والمولى عماك
عـن مواردهـا الحكيمـه صنعـة القـدره العظيمـه
والعفاف والزهد حيلة العاجزين

ويقول ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكَرْم

ويقول الخيام (متعجلاً الفرصة قبل فواتها) :

املا من بنت العناقيد العنب واجعل الكاسات لأفراحك سبب

---

(١) مظلوم : رباعيات الخيام ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

من الخطأ نسبته للتتار ، واعتباره والداً لألب أرسلان ، والمعروف أن السلطان محمود سلطان غزنوى . ورغم أنه ليس أول حكام الدولة الغزنوية .. إلا أنه يعتبر مؤسسها .. وليس مؤسس الدولة السلجوقية .

راجع كتابنا : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، وانظر ما كتبناه فى كتابنا الذى بين يديك خاصا بعصر الخيام ... لتعرف مدى الخطأ الذى وقع فيه مظلوم .

واغسل الأحزان بها وعيش فى طرب   لو تقول بكره يكون بكره العزال
تعمل ايه لو أمر مولانا صدر ؟

واضح إذاً أن خمرة الخيام لم تكن إلا عصير العنب المتهدّل من كرومه يعصره سائلا محسوسا مرشوفا من أقداح البلّور وقوارير الفضة ، يحسوها مع الندمان فى مجالس الشراب وفى خلوته ، يدلك على ذلك كلامه فى وضوح وجلاء [١] .

* * *

(١) مظلوم : رباعيات الخيام ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

كلمة أخيرة

مما أثبتناه يتّضح لنا أن الخيام عاش عصرا مضطربا ، تكثر فيه الفتن والأطماع . ويشتد فيه – على العرش وكرسى الوزارة – الصراع . عاش بين قوم .. يخضعون لخليفة ضعيف يمنحهم الشرعية ، ويعتمدون على الفرس المحتلين فى الوزارة والإدارة ، مع توخّى حسن الاختيار ووضع الكفاءة فى الاعتبار . قوم يشجعون النابهين على التأليف فى مجالَى الإدارة والسياسة ، ويمنحون خواصّهم الإقطاعيات والأتابكيات ، ويجعلون لهم فى البلاطات الرياسة .

عاش عصرا تكثر فيه المظالم ، ويسيطر اليأس والتشاؤم . عصرا يُفَضَّل فيه الاعتكاف والتصوف ، ويتفشى المجون والاستهتار وعشق الغلمان ، وتقريب ابنة الدنان ، وإذلال العلماء وعلو شأن العبيد والسفهاء . عصرا عُرف فيه الترف والسرف ، ونظام الطبقات وتَمازُج الأسرات ، والهجرات والرحلات .

عاش عصر العصبية العنصرية ، والخلافات الدينية والعقَدية ، وتدخّل العلماء والفقهاء فى شئون السياسة ، وتحريمهم الفلسفة والعلوم العقلية .

عاش عصرا راجت فيه سوق الاتهامات ، واعتبر فيه الفلاسفة ضمن الملحدين والزنادقة . وعومل فيه بعض الصوفية بقسوة .. نتيجة خروجهم على المألوف أو بسبب الافتراءات .

عاش عصرا كانت فيه المذاهب ذات تأثير لا سابقة له ، عصرا كثرت فيه الفرق وتعددت الأئمة والدعاة ، وزاد حجم الحماس والتطرف .

عاش عصراً راجت فيه الفارسية ، وكثر الشعراء والكتاب ، وانتشرت المكتبات والمراكز الأدبية ، وحدثت نهضة فى تأليف الكتب العلمية ، ودعوة للغوص فى بحار العربية . عصراً تغلغلت فيه عناصر الفكر البيزنطى فى الحضارة ،

وراج التأليف بالعربية والفارسية . وظهر فيه روّاد الأشعار الصوفية والمؤلفات العرفانية ، وراجت فيه سوق المناقشات المذهبية والكتب الدينية .

عاش فى عصرٍ اهتم فيه الشعراء بلغة التخاطب والحوار ، وتعمدوا البساطة وإيراد المعانى والمضامين الدقيقة ، والاستفادة من الاصطلاحات العلمية والاستدلال العقلى والأفكار الجديدة . عصرٍ رق فيه الغزل ، ونالت فيه المنظومات الفلسفية معارضة فريق وتأييد فريق .

عاش فى عصر نعم فيه بعض الشعراء باهتمام العظماء ، وهجَرَهم البعض خوف الإيذاء . عصر توقفت فيه شهرة الشاعر على درايته بأكثر من فرع من فروع العلم ، وقدرته على الارتجال والإتيان بحروف الروى الصعب ، وطَرْقِه بابَ أكثر من موضوع شعرى .. وكان لدى بعضهم قدرة على تأليفَ الكتب والرسائل .

عاش عصرا كثرت فيه المدارس والمساجد وحوانيت الوراقين ، وكتبت فيه الغلبة للعلوم الدينية والمذهبية والأدبية على العلوم العقلية ، وصارت سبيل الرفاهية والوظيفة والراتب .

عاش عصرا كثرت فيه الخانقاهات والربط ، حيث يتعلم الصوفية ويساهمون فى تطوير الحركة الثقافية . وأُلّف فيه العديد من الكتب فى مجالات العلوم الشرعية والعقلية والأدبية واللغوية والبلاغية .

* * *

ولد الخيام فى نيسابور بين عامى ٤٤٩ ، ٤٥٥ هـ . وبها نشأ وفى ترابها دفن ، ولم يكن يغادرها إلا لأسفاره وسياحاته . ولا يمكن تحديد طبقة عائلته الاجتماعية بصفة قاطعة .. أما هو فكان رفيع المكانة قريبا من معظم السلاطين والعظماء والعلماء .

وتجمع حياته بين المتناقضات ، فمن حب للسفر والاختلاط إلى ميل للبقاء

والعزلة وقد اجتمع بالعديد من الحكماء والفقهاء والمفكرين والمفسرين والمتكلمين والرواة والشعراء والنحويين والفلكيين فاستفاد وأفاد . وقد أفادته كثرة المدارس وخزائن الكتب ومجالس المناظرة والجدل .

وكما وُجِد من يمتدحه بالذكاء والتفوق العلمى والنبوغ وقوة الذاكرة ، وُجِد من يتهمه بالزندقة وسوء الخلق والدهرية والاعتراض على أحكام خالقه والإيمان بتناسخ الأرواح .

وقد شغف الخيام بالفلسفة فقام بنشرها مستفيدا من الكتب اليونانية المترجمة ، ومن الكتابات فى علم الكلام ومن رسائل إخوان الصفا . وكان يسوءه أن يُنعت بالفلسفى .. لا بالفيلسوف كما يظن البعض نتيجة خطئهم فى الترجمة .

هذا ، ومعظم رسائل الخيام علمية أو فلسفية ، والقليل منها فى الأدب والاجتماع .

* * *

لا نعرف إلا القليل عن والد الخيام ، وزوجته ، وحفيده ، وزوج ابنته ، ومعشوقته . كما أن لدينا أخبارا متواضعة عن أساتذته وزملائه وتلامذته ومريديه . وقد أثّروا فى حياته .. إلى جانب مخالطيه من حكام وعظماء وعُلماء وأدباء .

اقترب الخيام من الحاكم العربى والسلطان التركى والوزير الفارسى ، وكسب – فى الغالب – ودّ الجميع . وكان حذرا فى اقترابه من الفِرَق وحديثه حول المذاهب .. فلم يستطع أحد أن ينسبه صراحة إلى فرقة أو مذهب ، إلا نادرا . وما زال الدارسون مختلفين حول مدلولات رباعياته .. نتاج فكره المتميز .

عاصر العديد من العلماء والمفكرين والأدباء ، وقرأ لمعاصريه وسابقيه من فرس وعرب ، ووعى وحفظ ونثر ونظم . وشُغِل بعلمه ، واكتفى براتبه السنوى فلم يتكسّب بشعره . ولم يكن فى حاجة بالتالى إلى أن يمتَدح أو يهجو . ولم ترد الحِكَم فى شعره بغية الوعظ وإنما لتسجيل رأيه حول أمور حياتية أو غيبية .

ولم يطرق بشعره باب الصراعات المذهبية ، ولم يشبب ولم يكن فاحش القول . ولم يؤثر عنه أنه تغزّل ماديا بالجوارى والغلمان كمعاصريه . ولكنه أكثر من النظم حول الخمر والحسناوات .

ولإجادته العربية والفارسية .. ترجم الخيام العديد من االمقالات والموضوعات والمنظومات ، وجاء فى بعض رباعياته بشطرات تكاد تكون ترجمة لأبيات عربية .

وقد ابتعد كثيرا عن الصناعات فى شعره ، ولم يلجأ إلى الزحافات أو الضرورات . ولم يطرق سوى ضربين من الشعر هما : الرباعى والقطعة .

ورغم أنه لا يمكن نسبة الخيام إلى شعراء العرفان إلا أن فى بعض رباعيات لمحات صوفية . كما أن له كتابات نثرية حول التصوف . أما الفلسفة والحكمة فإنهما تغمران منظوماته .

والذى لاشك فيه هو أن الخيام قد أحسن استغلال علمه فيما كتبه بعامة .

عاش الخيام فى نيسابور الراقية فى دعة .. متفرغا للعلم والبحث ، بعد أن درس على يد شيوخها .. الذين لم يذكر لنا اسم أحد منهم . وتتلمذ على نوابغ عصره من فلاسفة وعلماء وأطباء ومهندسين ورياضيين وفلكيين ، ونبغ فيما درس فصار أستاذا لعددٍ من المعاصرين ، وشارك فى العديد من المحاورات ، وساهم فى أعمال علمية مشتركة ، واستحق أن يطلق عليه :

الدستور ، الإمام ، الحكيم ، الفيلسوف ، حجة الحق .

وقد تسببت قلة مؤلفاته فى التقليل من إبداء رأيه فما درسه وعايشه ، لكن رباعياته تشى بتأثره بأكثر من فلسفة .

وعلى أى حال فإن ما كتبه بالعربية والفارسية - على قلّته - قد ترك صداه بين العلماء والأدباء ، إذ العبرة بالإجادة لا بالكثرة . ولقد تسببت الجودة فى

كثرة الكتابة حول الخيام فى جميع اللغات .. حتى ليقال إن ما كُتب يكفى لإنشاء مكتبة عامرة .

* * *

اختار الخيام الرباعية قالبا لاحتواء آرائه الفلسفية ، وعكس مشاعره وتسجيل أحاسيسه ، فتسببت فى شهرته خارج وطنه .. إذ أنه لم يشتهر فى حياته بوصفه شاعراً بل باعتباره عالماً رياضيا فلكيا . وقلّ من أبناء عصر الخيام من اطّلع على رباعياته ، كما أن أحدا منهم لم يعن بتدوينها . ومع بداية القرن السابع وُجِد القليل منها متناثرا فى كتب التراجم .

والرباعية فن فارس خالص ، له مقوماته الخاصة . والمقارنة بينها وبين غيرها تأتى فى صالح الخيام ، وتؤكد أستاذيته فى الاتجاه والأسلوب والبيان ، وإن كان البعض قد تناول فى رباعياته موضوعات لم يتناولها الخيام .

وتعد الترجمة الإنجليزية الجيدة الرائدة التى وضعها فيتزجرالد أفضل أسباب شهرة رباعيات الخيام ، باعتباره قد استثمر النص فى خضم الحركة الرومانسية فى الآداب الأوروبية .

ومن أسباب شهرتها أيضا إيمان الغربيين بحكمة صاحبها وبُعد نظره وفهمه الكامل لمعنى الحياة وفق عقيدة المدنية الحاضرة وذوقها رغم عدم رؤيته لها . لقد سطردساتير هذه الحياة بأسلوب رفيع يستحق التقدير .

أما الشرقيون فقد لفتت نظرهم جرأة الخيام وقدرته على إثارة القضايا والرغبات الحبيسة فى صدورهم .

ولأسباب عدة ، نسبت للخيام رباعيات من وضع غيره . وبسبب اضطراب العدد باتت الرباعيات مفتقرة إلى التماسك .. فالفكرة تتكرر فى أكثر من موضع ، ربما بسبب كتابة الخيام لها فى فترات متقطعة وفى أكثر من طور من أطوار حياته .. وفق وحى خاطره ووجدانه .

وهى تدور حول موضوعات متعارضه أحيانا .. تبعا لنفسية الخيام ، لكنه يعمد فى كل الأحوال إلى الرقة أو الاستدلال والمنطق ، والصراحة أو التلميح ، ويبتعد عن التكلف ، ويلجأ إلى الصورة المعبرة والتشبيهات والاستعارات دون افتعال ، ويدير ألفاظها الرشيقة فى فلك الخمر والساقى والندامى والعود والجميلات . ويلجأ إلى التركيز فيبعدها عن الخلل ، ويصل بالمعانى إلى الكمال ويؤكد عبقريته وتميّزه .

ونتيجة للأفكار الواردة فى رباعياته الخيام وأشعاره العربية .. حكم البعض بأنه تلميذ المعرى فى أفكاره وخليفته فى مبادئه وآرائه . والحق أن التشابه والاختلاف أيضا بينهما .. ماثلان موجودان . لكن الذى لاشك فيه هو أن أفكاره امتداد لأفكار الحكيم الفيلسوف اليونانى أبيكورس ، والشاعر الرومانى لوكريسيوس .

وامتد تقدير الغربيين والشرقيين للرباعيات وناظمها إلى تعدد المترجمين والدارسين من الجانبين .

ونتج عن الدراسة إجماعهم فى الغرب - تقريبا - على أنه كان يدعو إلى الراح ، واغتنام الفرصة ، ويروّج لتشاؤمه ، ويصب نقمته على مجتمعه ، ويعيش عيشة الخليع المدمن المفتون بالنساء ، ويبعد عن حظيرة الدين ، ويهاجم القدر والفلك ، ويتجرأ على ربه .

ووَجِد فى الشرق من يردد ذلك ، ومن ينكره وينسب الخيام للتصوف ، أو يؤكد شدة تمسكه بالدين ، وإيمانه بالبعث والخلود والثواب والعقاب .

ووجد منهم من يقسّم حياته إلى مراحل .. أولاها مرحلة الاشتغال بالعلم والفلسفة ، والأخيرة منها مرحلة البعد عن تدريس ما قد يضار بسببه ، والانغماس فى العبادة .. وربما التصوف . وهو فى المرحلتين وما بينهما يؤدى شعائر الله متاقاة لا تقية .

وما زال الدارسون بين متعاطف ومتحامل ومتخبط فى أحكامه .. يبنى كل منهم رأيه على ترجمته أو مطالعته لرباعيات آمن بصحة نسبتها إلى الخيام . وما زالوا يبررون مسلكه .. المتناقض أحيانا .

ووقع البعض فى الخطأ لاعتمادهم على رباعيات تختلف بعض مفرداتها فى إحدى النسخ عنها فى نسخة أخرى ، فجعلوه – على سبيل المثال – يشهد على نفسه بأنه كافر مجوسى وثنى . مما يؤكد أن أحكام الدارسين قد تخطىء إذا لم يقع الدارس على النص الصحيح .

وتشهد الرباعيات أن الخيام كان يعتنق فلسفة اللاأدرية ، وفلسفة الأبيقورية ، وفلسفة اللاإرادية ، والفلسفة الانقلابية . وربما كان يجمع بينها فى آن معا ، أو يطبق الواحدة منها بعد الأخرى وفقاً لمراحل حياته .

وبناء على تلك الفلسفات يمكن تفسير الكثير من تصرفاته الحياتية ، وخلجاته النفسية ، ومعرفة سر تشاومه ويأسه ، وسبب إنكاره البعث والآخرة ، وإيمانه بقصر العمر وقرب الفناء .

ونتيجة لقلق الخيام وشقائه النابعين من تزلزل إيمانه بتأثير المذاهب الفلسفية .. يبدو التمزق النفسى واضحا لديه ، وتظهر حيرته بين الخير والشر ، وكأنهما تساويا فى نظره ، ولم يعد قادرا على التمييز بينهما .

وحين يبنى الخيام رأيه ومنهجه على عقائده الفلسفية وخبراته وتجاربه الخاصة .. يتفق مع الناس حول أمور الحياة أو يختلف ، دون أن يجرد من نفسه مصلحا اجتماعيا .

وقد يجهر الخيام بالمعاصى لينفث غيظه المكبوت لا ليظهر مجونه وخلاعته . ويلجأ إلى السخرية واللامبالاة فيكون آنذاك معتنقا لفلسفة اللاأبالية .

وقد يحدّث خالقه بما يحيره فيبدو كافرا ملحدا ، أو يُظَن به الخبل .. بيد أنه آنذاك لا يعدو أن يكون مفكرا واعيا واسع الاطلاع ، حار بين القضايا الفكرية

وحاول إيجاد تفاسير لها ، أو متديّناً متصوّفاً فيلسوفاً متدبّراً يفكر بصوت مسموع ، بعد أن استعصى عليه حل ألغاز الكون والحياة ، ويتجه إلى ربه بعد يئس ممن عداه .. وكله إيمان مطلق بعدله وكرمه ، ورغبة فى أن يريح نفسه بإجابات فيها الحل والإنصاف للإنسان المكره المسيّر المستحق للعفو والصفح والغفران .

وتثبت رباعيات الخيام أنه كان جبريا .. ولهذا تعكس اهتمامه بوجوب العفو عن المخطئين .

وكان الخيام يدرك خطورة الأفكار التى تحويها رباعياته ، لهذا لم ينشرها فى حياته ، ولم يطلع عليها سوى صفوة مريديه . ومع ذلك كان ما أطلعهم عليه - على قلّته - سببا فى اتهامه بالكفر والإلحاد وتعريض حياته للخطر .

ومن المنطلق نفسه ، نظم الخيام عددا من الرباعيات على لسان الحيوان .. قالها سترا وتمويها ، وإن كانت جد قليلة .

ومن الرباعيات ما يشى باعتناقه الفلسفة الأبيقورية - كما ذكرنا - لملاءمتها لظروف العصر ، باعتبارها تقوم على المتعة واغتنام الفرص ، والدعوة إلى الراح والطرب ومجالسة الجميلات وعدم التقيد بالزواج .

ورغم أن المصادر القديمة لم تذكر أن الخيام يشرب الخمر ، ورغم أن هناك من يؤول ألفاظه المتعلقة بالشراب ، إلا أن الكم الذى نظمه حولها ، ودفاعه الغريب عنها . وإدراجها ضمن وصاياه .. لا يؤكد إلا أنه كان يعشق الخمر الدنيوية . فلم يكن الخيام ممن يعنيهم الانخراط فى سلك رجال الدين ، أو ممن يخافون الجهر بشرب الخمر . فقد كان شربها والحديث حولها أمران مألوفان فى عهده .

وتختلف الآراء حول تصوف الخيام ، وتميل الغالبية إلى عدم نسبته إلى هذه الطائفة .. لجرأته على الخالق واعتراضه على مشيئته ، وميله للمتعة ، وتعلقه بالأمور

الدنيوية . ولكنا نرى أنه كان ينتمى إلى هذه الفرقة فى فترة من فترات حياته . غير أنه كان يفضل إخفاء تصوفه .. خاصة أنه يمكن تصنيفه ضمن الصوفية الخارجين عن جادّة التصوُّف .. إذ المعروف أن مثل هؤلاء كانوا يتعرّضون – فى عهده – للإيذاء الذى يبلغ حد القتل . وربما عَمَد إلى الجهر بمعاصيه فى فترات غير فترة تصوفه . ومما يعزّز إقرارنا بتصوّفه أنه لا يوجد نص صريح لعارف صوفى يؤكد عدم انخراطه فى سلك الصوفية . لقد كان هجومهم عليه مركزا على تأثير رباعياته الضار فى عقول الصوفية المخلصين .. بعد تسربها إلى مجالسهم وأقوالهم وخلواتهم ومحاضراتهم . فهو إذاً صوفى يفتقر إلى الإخلاص نتيجة تأثره بالعديد من الفلسفات ، ورفضه – لاتساع أفق فكره – أن يحصر نفسه فى نطاق الفكر الصوفى المحدود الذى لا يقبل البحث الواسع المفصل الذى يبلغ حد الجدل والهجوم .

وهناك ما يرجّح أن يكون تصوفه فى آخر مراحل حياته .

ويرد التضارب فى الرباعيات نتيجة أمرين :

١ – الانتحال والدس .
٢ – النظم فى فترة زمنية طويلة تقلّب فيها الخيام بين العديد من الفلسفات .

ويرى البعض أن الخيام قد قلد اليونانيين فى الفلسفة الإلهية ، لكنه لم يبعد عن تسجيل توحيده وإيمانه بالله وبأنه الخير المحض الذى لا يصدر عنه شر .

وينسب البعضُ الخيامَ إلى الباطنية ويعتمدون فى إثباتهم ذلك الأمر على التأويل . وهذا خطأ لأنه قد سد باب التأويل فى وجوه محاوليه . ولو أنه كان باطنيا لأثبتت كتب التراجم أنه تعرض لهجوم معاصريه واتهاماتهم ، ولَفَقَد مؤازرة نظام الملك السنى المتعصب وغيره من رجالات عصره .

و لم يكن الخيام متشائما بل كان معتقدا لفلسفة التشاؤم . وكان فى إنكاره البعث وإيمانه بأن فكرة المعاد محض خيال يجارى أصحاب المذهب المادى وأصحاب الفلسفة الأفلاطونية . وكان فى عدم إيمانه بإمكانية رؤية الله بالعين

يؤكد انتماءه لمذهب المعتزلة .

هذا ، ويطلق على رباعيات الخيام التى لها نظير فى دواوين شعراء الفرس : (الرباعيات الجائلة) . كما يطلق على الرباعيات الست والستين التى يرجح نسبتها للخيام : (الرباعيات المعتمدة) . والحق أن إمكانية إسنادها للخيام والقياس عليها أمر غير دقيق ، ولا حكم فى ذلك الصدد لغير الحدس والذوق .

* * *

كثرت الدراسات حول الخيام ، وترجمت رباعياته إلى معظم اللغات . وقد عرف الناس الرباعيات عام ١٨٥٩ م إثر ترجمتها ترجمة حرة جيدة على يد فيتزجرالد . وبظهور الطبعة الثانية عام ١٨٦٨ م فتن الأوروبيون بها إلى حد كبير . وأشاد بها النقاد ، رغم بعدها عن الأصل الفارسى . وانبرى الكثيرون لترجمة رباعيات الخيام نثرا وشعرا ، وكتابة الدراسات حولها وحول الخيام . وتأثر معظمهم بجرالد فبعدوا عن الأصل .

وعلى يد جرالد ومن حاكوه من المترجمين بدا الخيام شاعرا عذب اللفظ خلاب العبارة جيد السبك بديع الأسلوب ، يستخف بتعاليم الإسلام وشعائره ومُثُله وقيمه ، وَيُحضُّ على الإلحاد والزندقة والفسق والفجور والكسل والخمول واغتنام الفرصة ، ويهدف إلى تحطيم المثل العليا .

ويرى البعض أن تقديمها للقراء على هذا النحو يشكل خطرا ؛ فقد يترتب على الاقتناع بما جاء بها أن تشيع الفاحشة بين الشباب خاصة . ويرون أن المبشرين قد لجأوا إليها للطعن فى الدين الإسلامى باعتبارها صادرة عن عالِم مسلم ، نشأ نشأة إسلامية ، وتربى على تعاليم الرسول الكريم .

ويسهل تبرئة الخيام من نظم الرباعيات التى تُدخِله فى دائرة الاتهام إذا جمعنا أقوال القدامى – أمثال العروضى والزمخشرى والبيهقى – فى حقّه ، فقد اعترفوا به عظيما ووليا ومرشدا . ولقّبوه بحجة الحق والحكيم والفيلسوف والدستور

والشيخ والإمام .

ويسهل تبرئته إذا قلنا إننا لم نقرأ لأحد معاصريه أو قدامى المؤرخين قولاً يذكر فيه أنه كان شارب خمر أو فاسقا أو فاجرا .

ويسهل تبرئته إذا قلنا إنه لا يمكن التأكد من نسبة رباعية بعينها إلى الخيام .. اعتمادا على عدم وجود نسخة مدوّنة لرباعياته ، إلا ما دُوّن بعد مرور ثلاثة قرون ونصف قرن على وفاته ، ونحن لا نعرف المصدر الذى أخذ منه صاحب هذه النسخة ، ولذا يمكن القول بأنها موضوعة .

ويسهل تبرئته إذا رجعنا إلى كتاباته وما يفيض به بعضها من تمجيد لخالقه ؛ فهو ينهى رسالة « الكون والتكليف » بقوله :

فقد بان أن جميع الذوات والماهيات إنما تفيض من ذات المبدأ الأول – الحق جل جلاله – على ترتيب وفى سلسلة نظام . وهى كلها خيرات لا شر فيها بوجه من الوجوه ... ... تعالى الله عما يقوله الظالمون الملحدون علوا كبيرا ، ولا حول ولا قوة إلا به ، وهو حسبى ، ونعم المعين . والحمد لله الذى هو المبدأ الأول . وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين – تمّت بعون الله وتوفيقه .

ومع ذلك فأنا أميل إلى نسبة هذا اللون من الرباعيات للخيام .. باعتباره إنسانا عاش عمرا طويلا تأثر فيه بما حوله ، وتنقل بين العديد من الفلسفات ، وسجل ما أحس به وعايشه ، وباعتباره ابن عصره وبيئته الحافلة بالمتناقضات .

وكما ترجمت رباعيات الخيام إلى الأوروبية ترجمت أيضا إلى العبرية والتركية والأردوية والعربية . وكثرت الدراسات حولها وحول صاحبها .. وبسببها – لابسبب مؤلفاته العلمية – تحققت شهرة الخيام .

وأول من ترجمها إلى العربية ولفت إليها الأنظار الشاعر وديع البستانى فكان له فضل الريادة .

ثم توالت الترجمات ، فترجمها السباعى عن الانجليزية ترجمة منظومة فجّة .

وترجمها الهاشمى العراق عن الفارسية ترجمة منظومة بليغة دقيقة .
وترجمها النجفى عن الفارسية ترجمة منظومة صحيحة قريبة من أفكار الخيام .
وترجمها الزهاوى عن الفارسية نثرا ثم شعراً ، فأهمل معانى الخيام فى المرتين .
وترجمها أحمد رامى عن الفارسية والإنجليزية ترجمة منظومة حرة شاعرية رقيقة .
وترجمها أبو شادى نظما مستعينا بترجمة الزهاوى النثرية .. فخالفه .. واستحضر فيها شيئا من معانى رباعيات الخيام .
وترجمها توفيق مفرج عن الإنجليزية فى نثر مسجوع ، فأجاد سبكها وعرضها .
وترجمها فاضل نظما عن الفارسية ، وجعلها حافلة بالدقة والجمال والرقة .
وترجمها الهاشمى الأفغانى نثرا .. فجاءت جافة سطحية ركيكة حرفية .
وترجمها الصراف نثرا عن الفارسية ، فاقترب من المعنى دون الخيال ومارس الحرفيَّة .
وترجمها جوادنظما طبقا لمعانى الصراف ، فزخرت بالقوة والدقة والجودة والرقة .
وترجمها العريض نظما ، فالتزم بالشكل والقافية ، ووصل المعنى بين عدة رباعيات .
وترجمها الطرازى نظما عن الفارسية فزاد فى المعنى وأخفى ، وأهمل الجمال والخيال .
وترجمها مظلوم إلى العامية المصرية بطريق الزجل فاتسمت بالطراقة والعذوبة .

* * *

وعلى أى حال فان رباعيات الخيام – بكل ما فيها من آراء متعارضة مع مفاهيمنا أو متفقة ، وبكل ما تحمله من أفكار تحظى بذمّنا أو مدحنا – قد قطعت شوطا بعيدا فى طريق الشهرة ، وتخطت سياج الأدب العالمى ، وكتبت الخلود للخيام بين المبدعين .

* * *

المراجع والمصادر

ثَبت بالمراجع

الشرقية

هذا الثبت مرتّب أبجديا باعتبار الكلمات مجرّدة من أداة التعريف (ال) ومن كلمة « ابن » وكلمة « أبو » .

١ – إبراهيم عبد القادر المازنى : حصاد الهشيم ، ط ٦ ، القاهرة ١٩٥٨ م .
٢ – ابن الأثير : الكامل ، طبع مطبعة ذات التحرير ، ١٣٠٣ هـ ، تاريخ ابن الأثير ، بولاق ١٢٨٩ هـ .
٣ – أحمد حامد الصرّاف : عمر الخيّام الحكيم الرياضى الفلكى النيشابورى ، بغداد ١٩٦٠ م .
٤ – د . أحمد الخولى : فرخى يزدى ، ماجستير مقدمة لآداب عين شمس ، ١٩٦٨ م .
٥ – د . أحمد الخولى وآخرين : دراسات ومختارات فارسية ، دار الرائد العربى ، القاهرة ١٩٧٣ م .
٦ – أحمد الصافى النجفى : رباعيّات عمر الخيّام ، المكتبة العصرية ، بيروت .
٧ – د . أحمد كمال الدين حلمى : الأنورى ، عصره وبيئته وشعره ، رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة عين شمس ، ١٩٧١ .
٨ – د . أحمد كمال الدين حلمى : الأنورى شاعر السلاجقة ، عالم الفكر ، ع ٢ ، م ٧ ، يناير ١٩٧٦ .
٩ – د . أحمد كمال الدين حلمى ، بين المعرّى والخيام ، مجلة الشعر ، ع ١٧ ، يناير ١٩٨٠ .
١٠ – د . أحمد كمال الدين حلمى : السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، ط ٢ ذات السلاسل ، ١٩٨٦ .

١١ – د . أحمد كمال الدين حلمى : النار تتكلم ، مؤسسة الصباح ١٩٧٩ م .
١٢ – أحمد لواساتى : مدخل إلى اللغة الفارسية ، بيروت ١٩٧٢ .
١٣ – أديب تقى : مقدمته على تعريب النجفى لرباعيات الخيام . تحت عنوان : نظرة مستعجلة فى عصر الخيام وفلسفته .
١٤ – ادى شير : الألفاظ الفارسية المعرّبة ، بيروت ١٩٠٨ م .
١٥ – اربرى (ومجموعة من المستشرقين) : تراث فارس (معرّب) ، القاهرة ١٩٥٩ .
١٦ – ارمينوس فامبرى : تاريخ بخارى ، تعريب د . الساداتى ، القاهرة ١٩٦٥ م .
١٧ – ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان ، تحقيق عباس إقبال ، تهران ١٣٢٠ هـ .
١٨ – الألوسى : بلوغ الأرب فى أحوال العرب ، ط ١ . بغداد ١٣١٤ هـ .
١٩ – أمين أحمد الرازى : تذكرة هفت إقليم – جلد أول – كلكتا ١٣٥٨ = ١٩٣٩ .
٢٠ – انورى : ديوان انورى ، طهران ١٣٣٧ هـ .
٢١ – الباخرزى (على) : دمية القصر وعصرة أهل العصر – دمشق ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م .
٢٢ – الباخرزى (على) : ديوان الباخرزى – تحقيق د . التونجى – بيروت ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م .
٢٣ – براون (ادوارد جرنفيل) : تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى . تعريب د . الشواربى . مصر ١٩٦٤ م .
٢٤ – ابن بطوطة : تحفة النظار ، طبع مصر ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦ م .
٢٥ – ابن البلخى : فارسنامه ، لندن ١٩٢١ م .
٢٦ – البندارى : مختصر تاريخ دولة آل سلجوق نشر هوتسما ، ليدن ١٨٨٩ = مصر ١٩٠٠ .

٢٧ - بهار (محمد تقى ملك الشعر) : سبك شناسى (تاريخ تطور نثر فارسى) . جـ ٢ ، طهران ١٣٢١ هـ . ش .

٢٨ - البيرونى (أبو ريحان محمد بن أحمد) : الآثار الباقية عن القرون الخالية : ليبزج ١٨٧٩ م ، تحقيق ساخاو - ليبزج ١٩٢٨ م .

٢٩ - بيهقى : تاريخ بيهقى (تاريخ مسعودى) ، جـ ٢ ، طهران ١٣١٦ هـ .

٣٠ - تاريخ سيستان : مجهول المؤلف ، نشر بهار ، طهران ١٣١٧ هـ .

٣١ - تبريزى (محمد حسين بن خلف المتخلص ببرهان) : برهان قاطع ، باهتمام محمد معين ، تهران ١٣٣٠ - ١٣٣٥ هـ . ش .

٣٢ - ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، مصر ١٣٧٥ هـ = ١٩٥٥ م .

٣٣ - الثعالبى (أبو منصور عبد الملك) : غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم . تحقيق زوتنبرج ، تهران ١٩٦٣ م .

٣٤ - الجاحظ : التاج فى أخلاق الملوك ، تحقيق أحمد زكى ، القاهرة ١٣٢٢ هـ = ١٩١٤ م .

٣٥ - الجاحظ : المحاسن والأضداد ، القاهرة ١٣٥٠ هـ = ١٩٣٢ م .

٣٦ - جامى (عبد الرحمن) : نفحات الأنس من حضرات القدس ، لكهنو ١٣٣٣ هـ = ١٩١٥ .

٣٧ - ابن جبير : الرحلة ، بغداد ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ م .

٣٨ - جرير : ديوان جرير ، طبعة الصاوى ، القاهرة ١٣٥٤ هـ .

٣٩ - أبو جعفر الخوارزمى : صورة الأرض ، فينا ١٣٤٥ هـ = ١٩٢٦ م .

٤٠ - جلال الدين دواقى : أخلاق جلالى ، لكهنو ، ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦ م .

٤١ - الجهشيارى : (أبو عبد الله محمد بن عبدوس) : الوزراء والكتاب ، تحقيق وفهارس السقا والأبيارى وشلبى ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م .

٤٢ - الجوزجانى (منهاج السراج) : طبقات ناصرى ، ط ٢ ، كابل ١٣٤٢ هـ . ش .

٤٣ – ابن الجوزى : تلبيس إبليس ، مصر ١٩٢٨ م .

٤٤ – جوينى (عطا ملك) ، جهانكَشا : ليدن ١٩١١ م ، جـ ٣ ليدن ١٩٣٧ م .

٤٥ – حاجى خليفه : كشف الظنون ، ج ٢ ، ١٨٣٥ م .

٤٦ – حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، القاهرة ١٩٥٥ م .

٤٧ – حسين فرهانى : شرح مشكلات ديوان أنورى ، تهران ١٣٤٠ هـ .

٤٨ – حسين مجيب المصرى : صلات بين العرب والفرس والترك ، الأنجلو ، القاهرة ١٣٩٠ هـ ١ = ١٩٧١ م .

٤٩ – حمد الله مستوفى قزوينى : تاريخ كَزيده ، تهران ١٣٣٩ هـ ، ليدن ١٩١٠ م .

٥٠ – حميد نمر نورى : مقاله نوروز ، نشريهٔ وزارت أمور خارجه ، شمارة ينجح – دورهٔ دوم – تهران ١٣٣٦ هـ .

٥١ – ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون . بيروت ١٨٨٦ م ، القاهرة ١٩٥٨ = ١٩٦٥ م .

٥٢ – ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، جـ ٥ ، بولاق ١٢٨٣ هـ ، القاهرة ١٢٧٥ هـ ، مصر ١٣١٠ هـ .

٥٣ – خواندمير : حبيب السير فى أخبار أفراد البشر . بمباى ١٢٧٣ هـ = ١٨٥٨ م ، طهران ١٣٣٣ هـ .

٥٤ – ابن الخياط : ديوان ابن الخياط – تحقيق خليل مردم ، دمشق ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٨ م .

٥٥ – خيام (عمر) : نوروز نامه (منسوب بخيام) ، نشر مجتبى ، طهران ١٣١٢ هـ . ش .

٥٦ – دائرة معارف الأدب الإنجليزى ، طبع لندن .

٥٧ – ابن الدبيثى : المختصر المحتاج إليه ، بغداد ١٣٧١ هـ = ١٩٥١ م .

٥٨ – دولتشاه : تذكرة الشعراء ، ليدن ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م .
٥٩ – ديوان استاد أبو الفرج رونى ، ضميمهٔ سال ششم مجلة ارمغان ، تهران ١٣٠٤ هـ . ش .
٦٠ – ديوان البحترى . تحقيق وشرح وتعليق حسن كامل الصرفى ، القاهرة ١٩٦٤ م .
٦١ – ديوان ابن الرومى : تصنيف كامل كيلانى ، القاهرة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ م .
٦٢ – ذبيح الله صفا : تاريخ ادبيات در ايران . ط ٢ ، طهران ١٣٣٩ هـ . ش.
٦٣ – رامى (أحمد) : رباعيات الخيام ، طبع القاهرة .
٦٤ – راوندى (نجم الدين أبو بكر محمد بن على بن سليمان) : راحة الصدور وآية السرور ، ليدن ١٩٢١ م .
٦٥ – الراوندى : المصدر نفسه ، تعريب الدكاترة : الشواربى وحسنين والصياد ، القاهرة ١٩٦٠ م .
٦٦ – رباعيات حكيم عمر الخيام نيشابورى . مؤسسة مطبوعات علمى ، تهران ١٣٤٢ هـ .
٦٧ – رشيد الدين فضل الله : جامع التواريخ ....
٦٨ – زكريا القزوينى : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، نشر القاهرة .
٦٩ – الزمخشرى (أبو القاسم محمود بن عمر) : أساس البلاغة ، جـ ٢ ، القاهرة ، ١٣٢٧ هـ .
٧٠ – الزهاوى (جميل صدقى) : دراسات ونصوص ، جمع وإعداد عبدالحميد الرشودى ، بيروت ١٩٦٦ م .
٧١ – الزهاوى : ديوان جميل صدقى الزهاوى ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٢ م .

٧٢ – ابن السباعى : الجامع المختصر ، تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ١٩٣٤ م

٧٣ – ابن السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، القاهرة ١١٢٩ هـ .

٧٤ – ابن اسفنديار (تاريخ طبرستان) ، تحقيق عباس اقبال ، تهران ١٣٢٠ هـ . ش .

٧٥ – سعيد نفيسى : مقدمة ديوان انورى ، تهران ١٣٣٧ هـ .

٧٦ – سندباد نامه ، باهتمام السيد أحمد آتش ، استانبول ١٩٤٨ م .

٧٧ – سيد محمد باقر سبزوارى : خيام ، مجلة (روزنامهٔ استان قدس) . شمارهٔ دوره نهم ، ٣٦ مسلسل ، خرداد ١٣٥٢ هـ .

٧٨ – الشابستى : الديارات ، نشر كوركويس عواد ، بغداد ١٩٥١ م .

٧٩ – أبو شامه : الروضتين ، مصر ١٢٨٧ هـ .

٨٠ – شبلى نعمانى : تاريخ شعراء وادبيات ايران ، ترجمة فخر داعى كَيلانى ، تهران ١٣١٦ هـ .

٨١ – شيرين بيانى : كليات تاريخ ايران ، تهران ١٣٤٤ هـ . ش .

٨٢ – صحيفة البلد العراقية ، العدد ٢٦٠ ، ٢١ آذار ١٩٦٥ م .

٨٣ – الاصطخرى (أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسى) : المسالك والممالك ، القاهرة ١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م .

٨٤ – ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٣٨ م

٨٥ – الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٠ – ١٩٦٩ م .

٨٦ – الطرطوشى (أبو بكر) : سراج الملوك ، المطبعة الخيرية ١٣٠٦ هـ .

٨٧ – الطغرائى : ديوان الطغرائى ، القسطنطينية ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٢ م .

٨٨ – عباس اقبال : وزارت در عهد سلاطين بزرك سلجوق ، تهران ١٣٣٨ هـ . ش .

٨٩ – إقبال : الوزارة فى عهد السلاجقة ، تعريب أحمد كمال ، جامعة الكويت ١٩٨٤ .

٩٠ – عبد الحق فاضل : ثورة الخيام ، القاهرة ١٩٥١ م .

٩١ – عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق ، جـ ٥ ، مصر ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م .

٩٢ – د . عبد النعيم حسنين : سلاجقة إيران والعراق ، مصر ١٩٥٩ م .

٩٣ – ابن العربى : مختصر تاريخ الدول ، بيروت ١٨٩٠ م .

٩٤ – العريض (إبراهيم) : رباعيات الخيام ، شعبان ١٣٥٤ هـ .

٩٥ – ابن عساكر : تاريخ ابن عساكر ، دمشق ١٣٢٩ هـ = ١٩٠٨ م .

٩٦ – على بن أحمد الكاتب (منتجب الدين بديع أتابك البويهى) : عتبة الكتبة ، نسخة خطية ، دار الكتب المصرية برقم ٦٢٩٢ .

٩٧ – عتبة الكتبة ، نشر عباس إقبال ، إيران ١٣٢٩ هـ . ش .

٩٨ – على الباخرزى : دمية القصر وعصرة أهل العصر ، جـ ١ ، دمشق ١٣٩١ هـ = ١٩٧١ م .

٩٩ – عماد الدين إسماعيل : تقويم البلدان ، طبع بغداد .

١٠٠ – عماد الدين الأصطخرى : تاريخ الدولة السلجوقية ، مصر ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م .

١٠١ – عوفى (محمد) : لباب الألباب ، بكوشنش سعيد نفيسى ، تهران ١٣٣٥ هـ . ش ، ليدن ١٩٠٣ م .

١٠٢ – الغزالى (أبو حامد محمد الطوسى) : إحياء علوم الدين ، القاهرة ١٣٢٦ هـ .

١٠٣ – الغزالى : تهافت الفلاسفة ، بمباى ١٣٠٤ هـ .

١٠٤ – فردريك روزن : مقدمة رباعيات حكيم عمر خيام ، مطبعة كاويانى ، برلين ١٣٠٤ هـ . ش = ١٩٢٥ م .

١٠٥ – فروزانفر : قديمترين اطلاع از زندكَى خيام ، مجلة دانشكدة ادبيات ، دانشكَاه فردوسى ، شمارة ٨ – ٩ .

١٠٦ – ابن فندق (أبو الحسن على بن زيد البيهقى) : تاريخ بيهقى ، نشر بهمنيار ، طهران ، ١٣١٧ هـ . ش

١٠٧ – د . فؤاد عبد المعطى الصياد : النوروز وأثره فى الأدب العربى ، نشر جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٢ م .

١٠٨ – ابن الفوطى (عبد الرازق بن أحمد الصابونى) : الحوادث الجامعة .

١٠٩ – الفيروز ابادى : القاموس المحيط جـ ٤ ط ١ ، القاهرة ١٣٣٠ هـ .

١١٠ – فيلب حتى : تاريخ سورية ، جـ ٢ ، بيروت ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٨ م .

١١١ – القزوينى (زكريا بن محمد) : آثار البلاد وأخبار العباد ، طبع جوتنجن ١٩٤٨ م .

١١٢ – القفطى : تاريخ الحكماء ، ليبزج ١٩٥٣ م .

١١٣ – القلقشندى (أبو العباس حمد) : صبح الأعشى ، ط ٢ ، القاهرة ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٨ م .

١١٤ – ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٨ م .

١١٥ – ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١ ، القاهرة ١٣٥١ هـ .

١١٦ – كريستنسن : إيران فى عهد الساسانيين ، تعريب د . الخشاب ، القاهرة ١٩٥٠ م .

١١٧ – متز (آدم) : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جـ ٢ ط ٣ ، ترجمة د . محمد عبد الهادى أبو ريده ، القاهرة ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٧ م .

١١٨ – مجتبى مينوى : مقدمة رسالة نوروز نامه للحكيم عمر الخيام النيسابورى ، تهران ١٣١٢ هـ . ش .

١١٩ – مجلة أبولو ، باب أعلام الشعر : خلاصة رأى المازنى فى عمر الخيام ، والرباعيات والرد عليها ، مصر ، ١٩٢٤ م ؛ عمر الخيام ، سبتمبر ١٩٣٤ م .

١٢٠ – مجلة الدراسات الأدبية فى الثقافتين العربية والفارسية وتفاعلهما ، السنة الثانية ، العدد الأول ، طبع بيروت ١٩٦٠ م .

١٢١ – مجلة آموزش وبرورش ، سال سى ويكم ، شمارهاى ينجم وششم وهفتم ، بهمن ماه – اسفند ماه – فروردين ماه ، تهران ١٣٣٨ هـ . ش = ١٣٣٩ هـ . ش .

١٢٢ – مجلة هنر ومردم ، دورة جديده شمارة نودم ، فروردين ماه . ١٣٤٩ هـ . ش = ١٩٧٠ م .

١٢٣ – مجمل التواريخ والقصص (مجهول المؤلف) : نشر تقى بهار ، تهران ١٣١٨ هـ . ش .

١٢٤ – محمد بن إبراهيم : تاريخ سلجوقيان كرمان ، ليدن ١٨٨٦ م .

١٢٥ – محمد يادشاه (متخلص به شاد) : فرهنكَ آنندراج ـــ زيرِ نظرِ سياق ، تهران .

١٢٦ – د . محمد التونجى : حول الأدب فى العصر السلجوقى ، ط ١ ، بنغازى ١٩٧٤ م .

١٢٧ – د . محمد التونجى : المجموعة الفارسية ، ط ٣ ، دمشق ١٣٨٩ هـ = ١٩٦٩ م .

١٢٨ – محمد عبد الغفار الهاشمى الأفغانى : رباعيات الخيام الحقيقية ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

١٢٩ – محمد على فروغى : مقدمة رباعيات حكيم خيام ، تهران ١٣٢١ هـ . ش = ١٩٤٢ م .

١٣٠ – محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الغزنويين ، مصر ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٧ م .

١٣١ – محمد محمدى : فرهنكَ ايران وتأثير آن در تمدن إسلام وعرب ، تهران ١٣٢٣ هـ .ش .

١٣٢ - محمد بن المنور : أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد ، تهران ١٣٢٢ هـ . ش .
١٣٣ - المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٥٨ م ، باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧ م .
١٣٤ - مظلوم (حسين مظلوم رياض) : لجنة النشر للجامعيين ، مكتبة مصر ، القاهرة .
١٣٥ - المعرى (أبو العلاء) : لزوم مالا يلزم ، جـ ١ ، جـ ٢ : سقط الزند .
١٣٦ - المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) : الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت ١٩٥٩ م .
١٣٧ - مهدى بياتى : نمونه اى سخن فارسى ، تهران ١٣١٧ هـ . ش .
١٣٨ - الموسوعة الإسلامية الفرنسية .
١٣٩ - أبو النصر مبشر الطرازى الحسينى : كشف اللثام عن رباعيات الخيام ، القاهرة .
١٤٠ - أبو نصر القباوى : تاريخ بخارى ، تلخيص محمد بن زفر ، طبع مدرس رضوى .
١٤١ - نصير الدين أبو الرشيد عبد الجليل : بعض مثالب النواصب فى نقض بعض فضائح الروافض (كتاب النقض) . طهران ١٣٣١ هـ .
١٤٢ - نظام الملك : سياستنامه ، تهران ١٣٢٠ هـ .
١٤٣ - نظام الملك : مجمع الوصايا ، بمباى ١٣٠٥ هـ . ش .
١٤٤ - نظامى عروضى سمرقندى : جهار مقاله ، بمباى ١٣٢١ هـ = ١٩٠٣ م ، ليدن ١٣٢٧ هـ = ١٩٠٩ م ، تهران ١٣١١ هـ .
١٤٥ - نوادر المخطوطات - المجموعة الخامسة ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٤ م .

١٤٦ – النوبختى : فرق الشيعة ، النجف ١٩٣٦ م .

١٤٧ – النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب ، القاهرة ١٩٢٣ – ١٩٥٥ م .

١٤٨ – ابن هشام : سيرة ابن هشام ، طبع وستنفلد .

١٤٩ – هندوشاه بن سنجر : تجارب السلف ، تهران ١٣٤٤ هـ . ش .

١٥٠ – وديع البستانى البيروتى : رباعيات الخيام ، طبع بيروت .

١٥١ – ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ، طبع مصر .

١٥٢ – ولبر (دونالد ولبر) : إيران ماضيها وحاضرها ، تعريب د . عبد النعيم حسنين ، مصر ١٩٥٨ م .

١٥٣ – اليافعى : مرآة الجنان ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٣٧ هـ .

١٥٤ – ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ ١٨ ، طبع بيروت .

١٥٥ – ياقوت بن عبد الله الرومى : تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ، بغداد ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م .

١٥٦ – يحيى القزوينى : لب التواريخ ، نشر سيد جلال طهرانى ، مؤسسة خاور ، ١٣١٤ هـ .

١٥٧ – اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) : تاريخ اليعقوبى ، النجف ١٣٥٨ هـ .

* * *

الغربية

C.F. Bos Wort :

The Gaznavids, London, 1963 .

Browne : Edward :

A Literary History of Persia, Cambridge, 1956 .

Carl Brockelman :

History of Islamic Peoples, London, 1956 .

Claude Cahen :

Pre-Ottonan Turkey, London, 1955 .

Dozy : R .

Supplément aux Dictionnaires Arabes, Beyrouth, 1968 .

LEVy : Reuben :

The Social Structure of Islam, Cambridge, 1957 .

Malcolm : Sir John :

History of Persia, London, 1829 .

Massé Henri :

Croyances et Coutumes Persanes, Suivies de Contes et Chansons, Tome 1 , Paris, 1938 .

Tamara Talbet Rice : The Seljuks, London, 1961 .

★ ★ ★

فهرست الموضوعات

الباب الأول

عصر الخيام ٩-٦٩
الفصل الأول : الناحية السياسية ١١
الفصل الثانى : الناحية الإدارية ٢٣
الفصل الثالث : الناحية الاجتماعية ٣٠
الفصل الرابع : الناحية الدينية والمذهبية ٤١
الفصل الخامس : الناحية الفنية ٥٤
الفصل السادس : الناحية العلمية ٦١

الباب الثانى

بيئة الخيام وحياته ٦٩-٨٤

الباب الثالث

نتاج الخيام ٨٥-١٣٦

الباب الرابع

الفصل الأول : رباعيات الخيام ١٣٧-٢٦٠
الفصل الثانى : الدارسون والمترجمون ٢٦١

كلمة أخيرة ٣٤٩-٣٦٠
المراجع والمصادر ٣٦١-٣٧٤